مصر والنوبة في عصر الولاة

دراسة في التاريخ الاجتماعي
في ضوء أوراق البردي العربية

دكتور كرم الصاوي باز



مكتبة الأنجلو المصرية



مصر والنوبة فى عصر الولاة

هذا الكتاب

يطرق مجالاً حيويًا فى التاريخ الاجتماعى من منظور وثائق البرديات العربية ؛ فهى مادة فياضة وثرية لتشريح ورصد حركة المجتمع فى مصر والنوبة فى زمن عصر الولاة (٢١ - ٢٥٤ هـ/ ٦٤٢ - ٨٦٨م) ،إذ عالجت هذه الدراسة الوثائقية التطور الاجتماعى فى مصر والنوبة ؛ من حيث الحياة الاجتماعية الخاصة والعامة ، برزت من خلالها عادات وتقاليد سارت نحو التعريب ؛ كالزواج فى ضوء أوراق البردى العربية ، والمسميات والبيع والشراء بين المسلمين وأهل الذمة ؛ برديات رصدت طبيعة العلاقة بين مصر والنوبة خلال عصر الولاة .

هكذا يأتى هذا العمل العلمى فى الدراس... المصرية النوبية ليمثل إضافة هامة لمكتبتنا الع... اعتمادًا على الوثائق البردية وأوراق الجنيزة ، وأ... الأنساب السودانية ، والدراسات الأركيولوجية خ... القرون الثلاثة الأولى للهجرة .


مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP
The World of Words & Thoughts

مصر والنوبة
فى عصر الولاة
دراسة فى التاريخ الاجتماعى
فى ضوء أوراق البردى العربية

مصر والنوبة
في عصر الولاة
دراسة في التاريخ الاجتماعي
في ضوء أوراق البردي العربية

دكتور
كرم الصاوي باز
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة



مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد - القاهرة

أســم الكتاب : مصر و النوبة فى عصر الولاة
أسم المؤلف : د. كرم الصاوى باز
أســم الناشـر: مكتبة الأنجلو المصرية
أســم الطابـع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقـم الإيداع : ٣٦٦٣٦
سنــة الطبع : ٢٠٠٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977 - 05 - 2218 - 7

بسم الله الرحمن الرحيم

" قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَـــاتِي لِلَّـــهِ رَبِّ العَالَمِينَ "

صدق الله العظيم

(سورة الأنعام)

إهـــداء

إلى روح أستاذى العالم الجليل الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود، تغمده الله برحمته وأدخله فسيح جناته، وجعله مع النبييـن والصديقيـن والشهداء. ونسأل الله أن يجعله من أهل الخير الذين ذكرهـم الرسـول "صلى الله عليه وسلم" لقد صادق فيه قول الرسـول "صلـى الله عليـه وسلم": "إذا مات أبن آدم أنقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولدُ صالح يدعو له".

شكر وتقدير

لا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أشكر الله عز وجل فى السراء والضراء أولا، ثم أسجل شكرى وعرفانى وامتنانى لأستاذى الجليلين، الأستاذ الدكتور/ حسن أحمد محمود رحمة الله عليه أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة، والأستاذ الدكتور/ محمد عبد العال أحمد رحمة الله عليه أستاذ التاريخ الإسلامى بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، لتفضلهما بالإشراف على هذه الرسالة، إذ كان لتوجيهاتهما ورعايتهما المستمرة لى الفضل الأكبر فى إكمال هذا البحث على هذا النحو، فلهما منى أجزل الشكر مع عرفانى بالجميل.

كما أذكر بالفضل والإعزاز المرحوم أستاذى الدكتور/ عبد المنعم ماجد الخبير الوطنى بمركز الدراسات البردية جامعة عين شمس، وأستاذى الفاضل المرحوم/ عبد الرحمن عبد التواب مستشار الآثار الإسلامية، فقد استفدت من خبرتهما بعلم البردى العربى وكثير من التسهيلات للإطلاع على أوراق البردى العربية فى مصر والخارج.

كما أختص بالشكر والتقدير الأستاذ الدكتور/ حمدى السكوت، والدكتورة/ اليزابث سارتين بالجامعة الأمريكية بالقاهرة لمساعدتهما فى إعطائى المزيد من المعلومات عن وثائق النوبة.

وأتقدم بالشكر والتقدير إلى الدكتور/ خورى Khoury المسئول عن قسم البرديات العربية بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية لإعطائى معلومات قيمة عن الحياة الثقافية فى مصر.

كما أشكر الدكتور/ عبد الرؤوف على يوسف رحمة الله عليه القائم بأعمال رئيس هيئة الآثار سابقًا لمنحى الكثير من التسهيلات للإطلاع على برديات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

كما أشكر أستاذى الدكتور/ السيد على أحمد فليفل عميد معهد البحوث والدراسات الأفريقية، وأستاذى الدكتور عبد الله عبد الرازق أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد، والدكتور محمد مؤنس عوض أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة عين شمس، لمساعدتهم لى خلال إعداد هذه الدراسة.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أذكر بكل العرفان والفضل والدى وزوجتى، فقد تحملوا معى الكثير طوال فترة إعداد هذه الدراسة.

وأخيرا أتوجه بالشكر إلى جميع أساتذتى وزملائى بالمعهد، وإلى كل من مد لى يد العون والمساعدة.

جزى الله الجميع عنى خير الجزاء.

المقدمة

لا يزال المشتغلون بدراسة التاريخ الإسلامى فى مصر فى عصر الولاه، يشعرون بأنهم يحتاجون إلى مضاعفة العناية بدراسة المجتمع، لأن معظم الجهود التى بذلت فى الدراسات التاريخية الإسلامية لمصر، كانت تتجه إلى عصر قريب - إلى التاريخ السياسى ونظم الحكم، والمعروف أن الاكتفاء بدراسة الأحداث أو التاريخ السياسى أيسر من التعمق فى الدراسات الاجتماعية والثقافية، ولعل ذلك يرجع إلى أن الأحداث السياسية فى العصر الإسلامى كانت تحتل الصدارة فى كتب الحوليات والتاريخ، ولم يسلط جمهرة المؤرخين، فى تلك العصور الضوء فى أبحاثهم وكتاباتهم إلى المجتمعات والفنون وغير ذلك من الجوانب الحضارية.

ويجب أن نذكر دائما أن حالات الشعوب ونظمها الاجتماعية تتطور تطورا بطئيا ومنتظما يستغرق أزمنة طويلة، وأنها تؤثر فى وقوع الأحداث السياسية أكثر مما تتأثر بها.

كما أن أى تطور فى بلد ذى تراث حضارى مثل مصر لابد وأن يكون له صداه فيما يجاوره، ونقصد هنا سودان وادى النيل، ذلك أن مصر بحكم عراقتها التاريخية كانت دائما مركزا للإشعاع والعطاء الحضارى، هيأت لهذا العطاء مقومات كثيرة، كان أبرزها: العامل الجغرافى، حيث يمتد نهر النيل كعامل وصل لانتقال هذه المؤثرات.

من هذا المنطلق كان اختيار موضوع الكتاب عن: " مصر والنوبة فى عصر الولاة " أى فى الفترة من (٢١هـ-٢٥٤هـ/ ٦٤٢م-٨٦٨م). فهى بداية فترة إسلامية متميزة فى تاريخ مصر الإسلامية، ألا وهى فترة عصر الولاة، وللتحولات الكثيرة التى حدثت فى كلا البلدين، فهى تعتبر فترة التكوين لمجتمع إسلامى ذى نتاج حضارى جديد.

ولعل اختيار مصطلح سودان وادى النيل لم يكن معروفا طوال فترة العصور الوسطى، فالنوبة وقتذاك - حسبما ورد فى النصوص والوثائق المعاصرة - كانت أكبر مساحة مما هى الآن، إذ اشتملت وقتذاك على أجزاء وادى النيل الممتدة من أسوان إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق، وذلك بالإضافة إلى مناطق من

حوض النيل الأزرق والعطبرا حتى أطراف الجبشة شرقا، وأقاليم كردفـــان ودارفــور غربا.

أما لفظ "السودان" كما ورد عند المؤرخين المسلمين، والرحالــة يطلــق علـــى الإقليم الممتد من البحر الأحمر شرقا وحتى المحيط الاطلنطى غربا، ومعنـــى هــذا أن النوبة وبلاد البجة فى العصور الوسطى هى سودان وادى النيل.

والحقيقة أن التطور الاجتماعي فى مصر قد شهد تحـــولا كبـــيرا علـــى أثـــر هجرات القبائل العربية، ومن ثم نزولهم بالريف والقـــرى المصريـــة فقـــد حـــدث الاختلاط بالمصريين وصاهروهم وشاركوهم أعمالهم، ومنذ ذلك الوقـــت اختلطـــت الدماء العربية بالدماء المصرية، وأصبح الإسلام دين أكثرية السكان واللغة العربيـــة لغة الثقافية والعبادة للأقباط أنفسهم، وأن استغرق انتشارها فترة أطول حتـــى بعـــد عصر الولاة.

وتطلبت دراسة القبائل دراسة الأنساب، وفى فترة كانت القبائل العربية تندمـــج فيها مع الشعب المصرى وتترك أنسابها العربية وتنتسب إلى مدن مصر وقراهـــا، فكان من الصعب على الباحث تتبع أنساب القبائل، بل أن المقريزى الذى كتب عـــن قبائل العرب فى القرن التاسع الهجرى أشار إلى مثل هذه الصعوبة.

هذا وإذا كان التعريب فى مصر قد أخذ خطى سريعة من التطور، فإن ســـودان وادى النيل استغرق وقتا طويلا لتشرب الثقافة العربية المنطلقة من مصـــر، وذلـــك بحكم رصيدها الحضارى.

والتعرض لهذه الفترة الزمنية من تاريخ مصر الإسلامية، وسودان وادى النيل، وهى فترة مبكرة الا أنها كانت بداية عهد جديد، ترك بصماته الواضحة على هـــذه الفترة المحدودة. ولكن هذه المرحلة التاريخية كان من الصعب الإلمام بكل ما حـــدث فيها من تطورات اجتماعية، والسبب فى ذلك قلة المصادر المعاصرة لهذه الفترة وقد حاول الباحث أن يطرق مجالا جديدا فى الدراسات التاريخية اعتمادا علـــى أوثـــق المصادر وهى البرديات العربية التى تتضمن مادة فياضة لدراسة المجتمع الإسلامى فى مصر وسودان وادى النيل، لأن من بينها وثائق تتعلق بالجزية والخراج وإســـناد المناصب وأنظمة الإدارة، وطرق التجارة، وأثمان البضائع، والمواد الغذائية والبيوت والأرض، وعقود الزواج والطلاق، فضلا عن المكاتبات الخاصة التى تكشف عـــن بعض العادات والعلاقات الاجتماعية فى مصر الإسلامية.

بل أن هناك وثائق بردية على غاية من الأهمية توضح مدى طبيعة العلاقـــات بين مصر وسودان وادى النيل، مثل معاهدة البقط التى حددت، ولمدى طويل، شـكل العلاقة بين مصر وسودان وادى النيل، وقام الباحث بدراسة إحدى هذه الوثائق الهامة وهى خطاب مرسل من وإلى مصر موسى بن كعب إلى حاكم مقرة ونوبـــة عـــام ١٤١هـ تتضمن تأكيدا لمعاهدة البقط فى فترة أخرى من العصر العباسى الأول.

وقد كان التعامل مع هذه المصادر البردية مضنيا لعدة أسباب، ومن ذلــك مــا شابها من كثرة أخطاء الناسخين، وما أصاب بعضها من نقص، أو بتر، وما كـانت عليه حروف الكتابة العربية آنذاك من غموض، إضافة إلى أن كثـيرا مـن هـذه الأوراق تنقصها النقط والحروف، وكثيرا منها غير مؤرخ على أن أهميتها البالغـة فى دراسة المجتمع المصرى، وصلاته بسودان وادى النيل جعلـت البـاحث يقبـل عليها متحمسا لمادتها العلمية الفياضة.

وتتضح جدة هذه الدراسة الاجتماعية فى اعتمادها على المصادر البردية إلـى جانب المصادر المطبوعة والمخطوطة، وقد نشر الباحث عددا من وثائق الـبردى غير المنشورة التى كشفت النقاب عن كثير من التطورات الاجتماعية التى لـم يتـم تناولها من قبل هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى اعتمد الباحث علـى عـدد مـن البرديات الخاصة بالحياة الثقافية التى قام بنشرها دكتور/ خورى Khoury المسئول عن قسم البرديات العربية بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية، وأهمها برديـة "الليـث بن سعد" أول فقيه مصرى فى الإسلام.

وإذا كان هناك فضل للمستشرقين فى دراسة الحضارة العربية الإسلامية فـى مصر، فإن آدولف جروهمان يأتى على رأسهم، فقد وضع أصول عشرة مجلـدات بردية عربية، نشر منها ستة أجزاء، وهناك أربعة أجزاء أخرى لم تنشر بعـد فـى المكتبة الأهلية بفينا (البرتينا Albertina).

هذا وقد قام الباحث بمراسلة المكتبة الأهلية بفينا التـى يوجـد فيـها أكـثر مـن (١٥,٩٣٤) بردية عربية مرقمة، قابلة للنشر والتحقيق، غير ما نشر أو حقق بالفعل.

هذا إلى جانب الأوستراكا العربية، فلم يتسـن للبـاحث إلا الحصـول علـى فهرست الموضوعات وهى بالغة الأهمية حيث تتناول السجلات والمكوس والأجـور والمبادلات والعقارات والمتأخرات والمصادرات والإعفاءات، وعمليـات الحـرث والحصاد وأنواع المحاصيل مثل الزيت والكروم، والحنطة، والحبوبات، والتوابـل،

والفول، والمعاصر والمعادن والكحل، والأدوية، والأموال، والعملة، والصيرفة، وبيت المال، والجزية والخراج، وأنواع المأكولات، والتسعير، وأصحاب الحرف، والمماليك، واليتامى، والبقر، والبناء والزخرفة، والخطط، والتجليد، وأيضا القرآن الكريم، والحديث النبوى، والشعر، والقصائد والطب، والكيمياء، والفلسفة الخ.

وسوف يؤدى الإطلاع على هذه البرديات العربية بعد تنسيق بروتوكول التعاون العلمى بين باحثينا فى مصر، والمكتبة الأهلية بفينا، إلى إثراء حقل الدراسات والبحوث الاجتماعية فى تاريخ مصر والنوبة، وقد علم الباحث من مسئولى مكتبة البرتينا بفينا باستحالة توفير هذه المادة الا لمؤسسة علمية تعقد معهم مثل هذا البروتوكول، وهو ما لم يتم حتى الآن.

وقد اعتمد الباحث فى هذا الكتاب على عدد من المصادر أهمها:

الوثائق : وتأتى فى المقام الأول بين مصادر التاريخ الإسلامى، وهى برديات عربية لم تنشر بعد تعتبر إضافة جديدة فى معالجة تاريخ مصر الاجتماعى، فمن هذه النماذج البردية عقود خاصة ببيع وشراء عقارات بين مسلمين وأهل ذمة، توضح مدى العلاقة التى ربطت بينهما فى داخل المجتمع المصرى، وتشير إلى تمتع أهل الذمة بكثير من الحقوق، فلم يكن هناك تمييز فى مساكنهم.

وإذا كان من الثابت حتى وقت قريب أن توثيق عقود الزواج فى مصر قد بدأ مع نهاية القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى، فقد نشر عقد زواج إسلامى مؤرخ من سنة ٩١هـ. أى منذ القرن الأول الهجرى، وهذه إضافة جديدة فيما يتعلق ببداية تعريب المجتمع المصرى.

هذا بالإضافة إلى نشر عقد زواج يهودى، وهو الوحيد فى مصر باللغة العبرية وتوجد هذه الوثائق بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

أما عن الوثائق البردية المنشورة، فأهمها وثيقة الليث بن سعد قام بنشرها الدكتور خورى بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية.

أما عن النوبة فقد أشرنا إلى البردية المرسلة من وإلى مصر إلى حاكم مقرة ونوبة عام ١٤١هـ، وان أعاد الباحث تحقيق ما ورد فيها من نص الرسالة.

هذا بالإضافة إلى ما نشره جروهمان من أوراق البردى العربية، فقد نشر أكبر مجموعة من النصوص البردية العربية حتى الآن فى العالم، فضلا عن مؤلفاته المتعددة عن البردى.

وإذا كانت أوراق البردى العربية تضيف رصيدا للتراث العربى الإسلامى فـإن أوراق الجنيزة من الوثائق الهامة لدراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقـافى لمصر فى العصور الوسطى، وهى تتعلق بأهل الذمة فى مصر، إذ نقلت معظمهـا بفضل سولو من شختر Soloman Schechter إلى جامعة كمبردج بإنجلترا حيـث احتفظت المكتبة بهذه المجموعة تحت اسـم مجموعـة تيلـور شـختر Taylor-Schechter وقد قدرهاجوايتاين Goitein بحوالى عشرة آلاف وثيقـة، واشـتملت وثائق الجنيزة على وثائق متنوعة أسرية وغير أسرية، إذ احتوت علـى خطابـات وقوائم حسابات، وموارد مالية، وإيجارات دور وحوانيت وأثمان سـلع، ومتـاجر مختلفة، وسجلات قضائية، وإيصالات وعقود إيجارات، وزواج وطلاق، ورغـم أن هذه المجموعة الوثائقية اكتشفت فى مدينة الفسطاط وما حولها بمصر إلا أنها تلقـى الكثير من الضوء على الأحوال الاجتماعية، فقد استفدت منها فـى بيـان أحـوال اليهود فى المجتمع المصرى، هل عاشوا منغلقين على أنفسهم أم اختلطوا السـكان؟ واعتمدت فى هذا على ما نشره س.د. جواتياين، وان أخذت على كتاباتـه محاولـة النيل من الإسلام وذلك بإرجاع التصوف إلى اليهود ولذلك يؤخذ علـى مـا كتبـه سيطرة العاطفة اليهودية عليه وميله لإبراز كل شئ كانعكاس للثقافة اليهودية.

أما وثائق دير سانت كاترين: فهى تلك المجموعة من الوثائق التى حفظها لنـا الدير الذى تنسب إليه فى شبه جزيرة سيناء، ويرجع تاريخ الاهتمام العلمـى بـهذه الوثائق وتسجيلها إلى القرن التاسع عشر الميلادى حيث قامت عدة بعثـات أجنبيـة بتصوير بعض وثائق الدير ومخطوطاته بمعاونة دار الكتـب المصريـة، ويرجـع الفضل الأكبر فى عملية تصوير وتسجيل الجزء الأكبر من هذه الوثائق إلى أعمـال البعثة المشتركة بين العلماء الأمريكيين من مكتبة الكونجرس الأمريكـى، وبعـض المعاهد والكليات الأمريكية المهتمة بالدراسات الشرقية، وبطريركية سانت كـاترين فى القاهرة والقدس، وجامعة الإسكندرية ووزارة التربية والتعليم فى مصر.

ويهمنا من مخطوطات دير سانت كاترين ووثائقه مجموعة الوثـائق العربيـة وعددها ١٠٧٢ وثيقة، منها ٢٩ وثيقة مكتوبة علـى ورق منتظـم، ١٠٤٣ وثيقـة مكتوبة على ورق مختلف الأنواع. وقد أفادت هذه الوثائق فى بيان من اسـلم مـن أهل الذمة ومدى علاقاتهما بالمسلمين.

أما عن المصادر المخطوطة والمطبوعة، فبالنسبة للنوع الأول من هذه الكتب فإن لدينا منها كتاب "شروط النصارى" "لابن زين القاضى" (وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٥٢- تاريخ)، ويهتم هذا الكتاب - كما يبدو من عنوانه- بوضع الشروط الواجب فرضها على النصارى لعقد الذمة معهم، ويزخر رغم صغر حجمه بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحض على ذلك، فضلا عن "نص الشروط العمرية" أو "العهد العمرى" المنسوب إلى الخليفة "عمر بن الخطاب" ويندرج تحت هذا النوع أيضا رسالة "المذمة فى استعمال أهل الذمة" لابن النقاش (وهو ما زال مخطوطا بدار الكتب تحت رقم ٣٩٥٢ تاريخ) وواضح أن هذه الرسالة تعارض استخدام الموظفين من غير المسلمين فى وظائف الدولة ويسوق المؤلف كثيرا من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية وما أثر عن السلف فى منع استخدام اليهود والنصارى، فضلا عن المبررات الأخرى التى يسوقها المؤلف تدليلا على خيانة بعضهم وعدم أمانتهم. ويأتى هذا دليلا على انتشار استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة.

وتحتل شواهد القبور مكانة هامة فى تلك المصادر لما تمتاز به من دقة وصدق، وقد أفادت فى توضيح تحرك القبائل وانتسابها إلى أقاليم مصر، وكذلك انتقال المسميات العربية إلى النوبة.

كذلك أمكن الاستفادة من قطع النسيج الموجودة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، بالإضافة إلى القطع الأثرية من الأطباق التى تدل على تطور الفن الإسلامى وارتقائه فى مصر عصر الولاة.

وإضافة إلى المصادر السابقة، اعتمد الباحث على المصادر التقليدية فى التاريخ الإسلامى ومن أبرز المؤرخين المعاصرين لفترة نهاية عصر الولاة ابن عبد الحكم - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع المالكى القرشى المصرى - المتوفى سنة ٢٥٧هـ، فقد أفادنا كتابه "فتوح مصر وأخبارها" فى بيان موقف أهل الذمة من الفاتحين العرب، وإن لم يوضح أعداد اليهود الذين خرجوا من الإسكندرية وقت الفتح، وإلى أية جهة قصدوا، ولكنه أمدنا بدراسة مستفيضة عن حركة انتشار القبائل العربية فى ريف مصر من خلال ما كتبه عن خطط القبائل فى الفسطاط ثم ما كتبه عن اختلاط العرب بالمصريين وانصهارهم فى داخل المجتمع المصرى، وأيضا تحدث عن فتح بلاد النوبة،

والحملات التى أرسلت إليها، واهتمام الولاة بجنوب مصر، ومن ثم إبرام معاهدة البقط التى أشار إليها. هذا ويعتبر ابن عبد الحكم واضع أساس دراسة تطور المجتمع العربى فى مصر بصفة خاصة فى فترة عصر الولاة.

كذلك من المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها الباحث "كتاب الولاة والقضاة" الذى كتبه أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف بن معاوية بن كنده المصرى المولد "٢٨٣-٣٥٠هـ" المتوفى بالفسطاط. وقد تحدث الكندى فى كتابه عن الولاة والقضاة الذين تعاقبوا على مصر مرتبا إياهم ترتيبا زمنيا مع ذكر أهم أعمال هؤلاء الولاة وابرز الحوادث التى وقعت فى عهد كل منهم وذلك منذ الفتح العربى إلى نهاية عصر الولاة، ولذلك يعد مصدرا غنيا بالدراسات الأدبية، وجوانب الحياة الاجتماعية فى مصر، وبخاصة فيما يتعلق بإيضاح موقف بعض ولاة المسلمين من احتفالات أهل الذمة بأعيادهم.

هذا بالإضافة إلى بيان انتشار القبائل العربية فى الصعيد الأسفل والأوسط والأعلى، ومن ثم اهتمام ولاة مصر بجنوبها. والكندى إلى جانب أنه أحد أبناء القبائل العربية فى مصر فأنه يمثل مرحلة متطورة فى كتابة التاريخ ظهرت واضحة بعد عصر الولاة.

أما كتابة "يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر"، لابى منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى (٣٥٠-٤٢٩هـ) فقد جاء متمما لمجهود الكندى فيما يتعلق بالجانب الاجتماعى من مجالس الشعراء، وقد استفدت منه فى الحياة الاجتماعية الخاصة والعامة فى المجتمع المصرى.

أما البلاذرى - أحمد بن يحى المعروف بالبلاذرى - صاحب كتاب "انساب العرب، والكتاب يختلف عن كتب التاريخ فهو لا يسوق الحوادث على تسلسل الأعوام ولا تتبع تسلسل الحكام، ويختلف عن كتب الأنساب فلا يسرد النسب موجزا، فهو صاحب طريقة وأسلوب مميز، جمع بين التاريخ والتراجم والأدب وتشابك الأنساب.

وللبلاذرى مؤلف آخر هو "فتوح البلدان" أضاف الكثير من المعلومات عن فتح مصر، والحملات التى أرسلت إلى بلاد النوبة، وأرض البجة، وهو يحتوى على كثير من التفصيلات وخاصة عن النوبة فهو مكمل لكتاب "فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم.

وأعطتنا كتب الجغرافيين والرحالة صورة صادقة أيضا عن البلاد والمدن التى شاهدوها، وحياة الناس فيها وإفادتنا فى معرفة أماكن تمركز القبائل، ومن أهم تلك الكتب "كتاب البلدان" لليعقوبى المتوفى سنة ٢٩٢هـ/٨٧٤م، وقد ذكر فى هذا الكتاب أسماء البلاد المصرية، وقد أشار اليعقوبى إلى القبائل التى نزلت منطقة المعادن فى أقصى جنوب مصر، وكذلك القبائل التى نزلت فى المنطقة الواقعة بين الإسكندرية وبرقة، ولليعقوبى كتاب آخر هو "تاريخ اليعقوبى" يعتبر من المصادر الهامة لفترة العصر العباسى.

أما الكتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" تأليف "أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى" المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٦م، ورغم أن هذا الكتاب لم يكن خاص بمصر وحدها، إلا أنه قد أعطى تصويرا صادقا عن أحوال المصريين من حيث العادات والتقاليد طوال فترة عصر الولاة، وقد اعتمد عليه الباحث فى دراسة التأثيرات المصرية فى النوبة، وأرض البجة، وبيان عاداتهم وتقاليدهم.

وللمسعودى كتاب آخر "التنبيه والإشراف" يعتبر ذا أهمية فى مجال أسماء الأماكن والبقاع وهو يشير إلى بعض العادات والتقاليد لدى مصر والنوبة.

كذلك استفدت كثيرا من كتاب "المسالك والممالك" وكتاب "صورة الأرض" لابن حوقل، فهو يعطينا صورة صادقة عن مشاهداته وقد أفادنا فى معرفة انتشار العرب فى كل من مصر والنوبة وكذا علاقاتهم بالنوبة، وأرض البجة.

ومن أهم المصادر الكنسية، والتى لها قيمة كبيرة فى هذه الرسالة كتاب "سير البيعة المقدسة" أو "سير الأباء البطاركة" أو "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية" ومؤلفه "ساويرس بن المقفع" وهو أحد علماء الكنيسة المصرية فى القرن العاشر الميلادى – ولد حوالى سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م، – وصنف كتابه المذكور باللغة العربية، واعتمد فى تصنيفه على السير والتراجم الموجودة بالأديرة المختلفة، وهو شاهد على مدى انتشار اللغة العربية، وأوضح أن اللغة العربية على عهده كانت لغة عامة بين أهل مصر.

وقد أورد لنا معلومات مستفيضة عن علاقة ولاة مصر بالكنيستين المصرية والنوبية، وبملوك النوبة، وأيضا عن علاقة هؤلاء بالكنسية الحبشية، ويبدو أنه أول من أطلق على البطريرك القبطى اسم بطريرك الإسكندرية والنوبة والحبشة والخمس مدن الغربية "برقة وتونس وطرابلس الغرب، وأفريقية، والقيروان".

ومن المصادر الكنسية أيضا كتاب "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديـق" لسعيد بن بطريق، المتوفى سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م، وقد اعتمد الباحث عليه في بيـان موقف أهل الذمة من الفتح، ودورهم في النواحي الاجتماعية، وفي علاقة الكنيسـة القبطية بغيرها من الكنائس منذ الفتح العربي.

كذلك استفاد الباحث من كتاب "أحكام أهل الذمة" لابن قيـم الجوزيـة ويعـالج الكتاب موقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة سواء من ناحيـة عقـد الذمـة أو الجزية أو وضعهم في المجتمع، وغير ذلك من الأمور، ويعرض فـي ذلـك كلـه لوجهات نظر فقهاء المذاهب الأربعة.

أما كتاب "كنائس وأديرة مصر" وهو المعروف باسم "تاريخ الشيخ أبي صـالح الارمني" وهذا المصدر مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية كمـا أن هناك نسخة مطبوعة منه بعنوان "تاريخ الشيخ أبي صالح "تذكر أخبار من نواحـي مصر واقطاعها، وقام بنشره. مع ترجمة إنجليزية بعنوان: "كنائس وأديـرة مصـر والبلاد المجـاورة لـها": The churches and Monastries of Egypt and Neighbouring country. وأبو صالح الأرمني هذا من علمـاء القـرن السـادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وهو أرمني الجنسية، كتب عن علاقة كنيسة النوبـة بالكنيسة القبطية في مصر، وأعطانا معلومات وفيرة عن مملكتي النوبة المسـيحيتين "مقرة وعلوه" ولم يشر أبو صالح من قريب أو من بعيد إلى المصدر الذي اسـتقى منه مادته العلمية عن بلاد النوبة، فمن المعروف أنه لم يقم بزيارتها كمـن سـبقوه من الرحالة، ويبدو أنه استمد هذه المعلومات مما كتبه ساويرس بن المقفع، وعـلاوة على ذلك يبدو أنه قام بجمع معلومات وافية عن بلاد النوبـة بالاتصـال بـالنوبيين الذين كانوا يفدون إلى مصر بكثرة في ذلك العصر، وأيضـا مـن رجـال الديـن المسيحيين من رهبان وقساوسة الذين كانت تبعثهم الكنيسة القبطية إلى تلـك البـلاد بحكم تبعيتها الروحية لها، فضلا عن وفود رجال الدين النوبيين المسـيحيين الذيـن كانوا على صلة دائمة بالكنيسة الأم في مصر.

وتعد مقدمة العلامة عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م) من أبرز المصادر التي استقينا منها كثيرا من المعلومات الأدبية والاجتماعية، فـهو أول من بحث من علماء المسلمين في أحوال المهن والصنـائع والعلـوم والفنـون المختلفة، كما نقد هذه العلوم نقدا موضوعيا، وقد انتهج في مؤلفـه منـهجا فلسـفيا

عميقا، وقد احتوت المقدمة على بعض أخبار الحياة الثقافية فى مصر، وتعرض إلى الكلام عن النوبة وأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم.

ومن المصادر الأخرى التى اعتمدنا عليها فى دراسة معالم مدينة الفسطاط كتاب "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" ومؤلفه "صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى القاهرى الحنفى" الشهير ابن دقماق (٧٥٠-٨٠١هـ/١٣٤٩-١٤٠٦م).

والكتاب دراسة قيمة عن خطط الفسطاط منذ إنشائها، ويتضمن بعض المعلومات عن أحيائها وأسواقها ورحابها ومساجدها، كما يتضمن الكتاب بعض المعلومات عن القبائل ودورها فى مصر وبخاصة فى عصر الولاة.

ومن أبرز المؤرخين الذين اعتمدنا عليهم، وأعظمهم شأنا (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى (٧٦٦هـ-٨٤٥هـ/١٣٦٤-١٤٤١م) وتعد موسوعته التاريخية العظيمة المسماة (بكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) أحد المصادر الرئيسية الهامة التى اعتمدنا عليها فى كل جزء من أجزاء الدراسة فى مصر أو النوبة، فقد تعرض للتطور الاجتماعى فى مصر على أثر نزول القبائل العربية، ومدى اختلاطها بالسكان الأصليين، ثم بيان التطور العمرانى فى عواصم مصر الإسلامية طوال الولاة، وترجع أهمية هذا المصدر فيما تضمنه من شذرات أو مقتطفات من كتاب مفقود يعد من أعظم ما كتب عن بلاد النوبة وعلاقاتها بمصر سواء فى عصر الولاة وبعده، على يد شاهد عيان، هو مؤرخ النوبة المعروف أحمد بن سليم الأسوانى الذى قام بدراسات واسعة وشاملة فى كل أرجاء تلك البلاد، وكتب عن كل ما شاهده بعينيه أو سمع بأذنيه، كما قام بدراسة مستفيضة على نهر النيل، ثم صنف مرجعا عظيما اسماه بـ "كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل" وهذه الشذرات أو المقتطفات نقلها لنا المقريزى، نقلا حرفيا حينا وملخصا حينا آخر، وأودعه فى الجزء الأول من مؤلفه المذكور.

كما نقل عنه أيضا ابن عبد السلام مقتطفات من الجزء الخاص بأخبار النيل وضمنها فى كتابه "الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد".

وكذلك وضع المقريزى كتابا بالغ الأهمية وهو "البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب"، فقد حققه الدكتور عبد المجيد عابدين، وأضاف إليه فصولا هامة عن القبائل فى مصر، وأشار إلى أثر قبائل مصر فى التكوين القبلى فى السودان.

وللمقريزى مؤلف آخر "الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملـوك" أشار إلى معلومات قيمة عن كسوة الكعبة، ونوع الأقمشة التى كانت ترسلها مصـــر "القباطى".

وقد اعتمدنا على مصادر عامة مثل ما كتبه القلقشـــندى فـى كتابـه "صبـح الأعشى فى صناعة الإنشا"، وابن تغرى بردى فى كتابه "النجوم الزاهرة فى أخبـار مصر والقاهرة" فقد استفاد الباحث فى دراسة المجتمـــع المصـــرى مـــن العـادات والتقاليد التى كان يأتى ذكرها أحيانا أثناء الحديث عن النواحى السياسية.

وهناك مصادر أخرى أعانت على سد كثير من الثغرات فى موضوع البحـــث وأهمها كتب الطبقات، ومن أهمها "وفيات الأعيان وأنباء أبنـــاء الزمـــان - لابـــى العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن خلكان المتوفى ســـنة ٦٨١هـــ، وكتاب "بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه" للسيوطى، وكذلك أمدنـــا الادفـوى فى "الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد" بكثير من المعلومات عن القبـــائل العربية ودورهم فى مصر والنوبة.

ومن المراجع الإفرنجية التى اعتمدنا عليها أيضا كتاب: "تاريخ العـــرب فـــى السودان" A History of the Arabs in the Sudan-By MacMichael. تـــأليف المستشرق ماك مايكل.

وأهمية هذا الكتاب، مستمدة من أن مؤلفه استقى معلوماته من مصادر هامـــة لا توجد إلا فى بلاد النوبة والسودان نفسها، ومما ساعده على ذلك، إقامته هناك فـــترة زمنية طويلة بحكم وظيفته فى حكومة السودان مما ساعده على الاتصـــال بالقبـــائل السودانية ، فإن معظمهم يحتفظ بكتب الأنساب، ورغم أن هذا المؤلف يتناول القبائل فى السودان إلا أنه يتناول قبائل مصر أيضا، وناقش فيه عملية الاختـــلاط وتـــأثير القبائل فى كل من المجتمع المصرى والنوبى.

كذلك من المراجع العربية الحديثة التى أعانت الباحث على إنجاز بحثه كتـــاب "المكتبة السودانية العربية" وهذا الكتاب يتضمن مجموعة نصوص ووثائق عربيـــة خاصة بتاريخ بلاد النوبة والبجة "سودان وادى النيل" ويرجع الفضل فى تجميع هـذه النصوص إلى الدكتور مصطفى مسعد الذى وضع مؤلفا بالغ الأهمية وهو الإســـلام والنوبة، فهو من الدراسات العربية التى عالجت تاريخ هذه المنطقة اعتمـــادا علـــى أوثق المصادر والمخطوطات.

كذلك من المراجع العربية التى استفاد منها الباحث كتاب "التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية" للدكتور إبراهيم أحمد العدوى، وخاصة أنه قد أمدنا بدراسة مستفيضة عن نشر الإسلام، وتعريب المجتمع الإسلامى طوال فترة دراستنا "عصر الولاة".

كذلك من المراجع العربية التى أنارت لى الطريق كتاب انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا "للدكتور حسن أحمد محمود فقد تعمق فى هذه المنطقة بدراسة مستفيضة وبتحليلات فلسفية صائبة عن فترة عصر الولاة.

ومن الأبحاث الجديدة فى معالجة العلاقة بين مصر والنوبة من الناحية السياسية والعسكرية، بحث "النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها" للدكتور محمد عبد العال أحمد، فقد استفدت من آرائه الجديدة حول تصحيح بعض المفاهيم التى وردت عند بعض المؤرخين الحديثيين من الخلط بين الحملات العسكرية الأولى، وشخصية قائدها، ثم بيان العلاقة التى ارتبطت بها النوبة مع مصر على أثر معاهدة البقط.

وقد اتبع الباحث منهجا موضوعيا يعتمد على متابعة التطور الاجتماعى فى مصر خلال الفترة موضوع البحث، وعنى الباحث بتفصيل التطور فى شتى مناحى الحياة من ناحية عناصر وفئات السكان، وأوضاعهم وعاداتهم الاجتماعية فيما يتعلق بالمسكن والمأكل والمشرب، والملبس، والزواج والطلاق، والمآتم والأحزان والأعياد الدينية والاحتفالات العامة، وغير ذلك من تفصيلات؛ كما عنى الباحث أيضا بدراسة الأوضاع الثقافية ومدى انعكاسها على سودان وادى النيل.

وتضمن موضوع البحث بابين رئيسيين :

خصص الباب الأول عن "التطور الاجتماعى فى مصر الإسلامية فى عصر الولاة" وقد قسمته إلى سبعة فصول:

الفصل الأول: تحدثنا فيه عن السياسة الإسلامية فى مصر، بداية من سياسة عمرو بن العاص إزاء أهل الذمة، ثم السياسة الإسلامية عموما طوال فترة عصر الولاة، ومدى تمتعهم بحرية العقيدة وتوليهم وظائف الدولة، ومعرفة قضاياهم، ثم أخيرا العلاقة بين مصر والدولة الإسلامية من الناحية المالية.

أما الفصل الثانى فتحدثنا فيه عن هجرات القبائل العربية إلى مصر موضحين خطط القبائل الأولى بالفسطاط، ثم مدى انتشار هذه القبائل فى مصر السفلى

والعليا، وتتبعنا الأقليات الأخرى والموالى بحكم إقامتهم أحيانا بين خطـــط القبـــائل، وعرضنا أخيرا لدراسة بعض الظواهر الاجتماعية للعرب المسلمين فى مصر مـــن ناحية العصبية القبلية، وأخذهم العطاء، وفكرة الإرتباع، وإثباتهم فى الديـــوان، ثـــم الاختلاط.

أما الفصل الثالث، فقد عالجنا فيه انتشار الإسلام والثقافة العربية فـــى مصـــر بداية من الدعوة إلى الإسلام، ثم انتشار اللغة العربية والثقافية العربية، وقـــد بينـــا النشاط الثقافى لمدرسة الفسطاط، العلوم الدينية، ثم تأثر مدرسة الفسطاط بـــالمذاهب الإسلامية، ثم نشأة علم الصوفية فى مصر على يد ذى النون المصـــرى، وأخـــيرا العلوم العربية الأخرى (التاريخ – الشعر – النحو).

أما الفصل الرابع، فقد عالج الباحث فيه تخطيط المدن الإســـلامية (الفســـطاط العسكر – القطائع)، ثم دراسة خطط المدينة الإسلامية من حيث الـــدروب والأزقـــة وأبواب الدروب والسقائف والرحاب والأزقة وإنارة الدروب والأزقة، ثـــم تطـــور المسكن الإسلامى والعمارة الدينية الإسلامية من المساجد، والمرافق العامـــة مثـــل الأسواق، والحمامات ووسائل المواصلات.

أما الفصل الخامس فدرس الباحث فيه العادات الاجتماعية الخاصة عند العـــرب مثل الزواج على ضوء أوراق البردى العربية، ثم الـــولادة والتســـمية، والختـــان، والملابس وتطورها فى مصر، والطعام والشراب، ثم المآتم والأحزان.

أما الفصل السادس فتناولنا فيه العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمـــة: مـــن المصريين المسيحيين ومن اليهود ناقشنا فيـــه الـــزواج والطـــلاق، والختـــان، ثـــم الملابس، والطعام والشراب، والمسكن ثم المآتم والأحزان.

أما الفصل السابع فقد تناول الباحث الحياة الاجتماعية العامة من ناحية الأعيـــاد والمواسم والاحتفالات عند المسلمين، ثم الأعياد والمواسم عنـــد أهـــل الذمـــة، ثـــم المواكب العامة والاحتفالات وأخيرا وسائل التسلية.

أما الباب الثانى، أثر التطور الاجتماعى فى مصر فى عصـــر الـــولاة علـــى سودان وادى النيل، وقد قسم إلى فصدلين رئيسيين:

الفصل الأول التأثير المصرى فى سودان وادى النيل فى النواحـــى السياســـية والعسكرية، ناقشت فيه الصلات السياسية والعسكرية ببلاد النوبـــة، ثـــم الرســـائل

المتبادلة بين ولاة مصر وحكام النوبة، وأيضا الصلات السياسية والعسكرية ببلاد البجة، ثم موقف ولاة مصر من الكنيستين القبطية والنوبية.

والفصل الثاني: التأثير الثقافى والاجتماعى المصرى فى سودان وادى النيل. ناقشنا فيه هجرات القبائل العربية وأثرها فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى سودان وادى النيل، ثم تتبعنا الهجرات العربية وأثرها على العادات والتقاليد بسودان وادى النيل فى الزواج والختان – المسميات – المأكل والمشرب – الملبس – المسكن.

وقد ختم الباحث دراسته بخاتمة تضمنت ابرز ما توصل إليه من نتائج، وخلاصة للدراسة على ضوء المصادر الجديدة فى هذا البحث.

أما الملاحق فقد نشر فيها الباحث بعض البرديات غير المنشورة والخاصة بمصر، إضافة إلى وثيقة واحدة منشورة خاصة بالنوبة ورأى الباحث تعميم الفائدة منها وإضافة بعض الآراء والتحليلات بشأنها، كذلك تضمنت الملاحق بعض الخرائط التوضيحية.

ونأمل أن يتمخض هذا البحث عن إظهار عملية تطور المجتمع فى مصر الإسلامية وانعكاسه على سودان وادى النيل اعتماداً على أوثق المصادر وخاصة الوثائق البردية، وأوراق الجنيزة.

وبعد – فلعلى أكون قد وفقت فى تقديم دراسة متكاملة عن مجتمعى وادى النيل منذ الفتح العربى إلى بداية عهد أحمد بن طولون أى نهاية عصر الولاة، فإن يكن التوفيق حليفى فهذا من فضل الله، وان أصبت فلى أجران وأن أخطأت فلى أجر.

والله لى التوفيق.

كرم كمال الدين الصاوى باز

القاهرة ١ يناير ٢٠٠٦م

الباب الأول
التطور الاجتماعى فى مصر الإسلامية
فى عصر الولاة

الفصل الأول
السياسة الإسلامية فى مصر

- سياسة عمرو إزاء أهل الذمة.
- السياسة الإسلامية إزاء أهل الذمة.
- حرية العقيدة.
- وظائف الدولة.
- قضايا أهل الذمة.
- العلاقة بين مصر والدولة الإسلامية من الناحية المالية.

الفصل الأول

السياسة الإسلامية فى مصر

سياسة عمرو إزاء أهل الذمة :

جاء الفتح الإسلامى لمصر سنة ١٨هـ/٦٣٩م، فى وقت كان المصريون قد بلغ شعورهم بالكراهية والعداوة مداه للبيزنطيين، نظرًا لتسلطهم الدينى[١] والسياسى والاقتصادى[٢]؛ وكان عمرو بن العاص من العرب ذوى الخبرة بأهل مصر من قبل الإسلام[٣]، ونجح فى تحييد الجزء الأكبر منهم فى الصراع المرتقب بينه وبين البيزنطيين[٤]

لهذا كان ترحيبهم بالعرب ضمانا للخلاص من الاضطهادات البيزنطية وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، وحرية ممارسة شعائرهم الدينية[٥].

١- انظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط بيروت، جـ٢، ص٤٨٨؛ وكذلك
Stephenson. C. Medieval history Europe from the second to the sixteenth Century, New York, 1962, P. 43;
Jackson. F.: The history of the Christian church from the earliest times to the death of st Leo the great A.D. 461, London 1909, PP. 269-270;
Creed. J. M.: Egypt and the Christian Church, Oxford, 1947, P. 300;

2- Bell. H.I.: The Byzantine servile state in Egypt. Journal of Egyptian Archaeology, 1917. 4, PP. 94-106; Book. A.E.R. Byzantine Imperialism in Egypt. "The American historical review, 34, 1928, PP. 1-8; Thompson. J. Johnson E.. An introduction to Medieval Europe 300-1500, New York, 1965, P. 39.
Vasiliev. A.A.: history of the Byzantine Empire 324-1453. Modison and Milwaukee 1964, P. 54.

٣- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ط ليدن ١٩٢٠م، ص٥٥؛ الواقدى: فتوح الشام، المطبعة العثمانية ١٣١٥هـ، جـ١، ص٣٢.

٤- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٥٨، ٥٩؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ط بيروت ١٩٧٨، جـ١، ص٢١٤؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ط ليدن، ١٩٦٧، ص٨٢؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩، ٢٥؛ الكندى: الولاة والقضاة، ط بيروت، ١٩٠٨، ص٨؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٨٩.

5 - Father C. Anawati: Factors and Effect of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria, Wiesbaden, 1975, PP. 25-27.

وقد أرسل عمرو أمانا إلى بنيامين بطرك النصارى الذى كان هاربًا من البيزنطيين فضمن تأييد جانب كبيرًا من المصريين لجيشه[١].

وعاون القبط العرب وساعدوهم فى إقامة جسر ضخم عند بابليون، لمنع سفن البيزنطيين من الذهاب إلى نقيوس[٢] والإسكندرية، ومصر العليا من جهة، ولتيسير عبور الفرسان العرب النيل من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية من جهة أخرى، وأصبح القبط أعوانا للمسلمين يقدمون لهم المساعدة[٣]، انتقاما من البيزنطيين وليضمنوا معاملة المسلمين لهم بالحسنى.

وقد حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون[٤]، وحظى بمساعدة القبط فى ذلك، إلا أن مجموعة أخرى من القبط استمرت فى الولاء للبيزنطيين، واشتركت معهم فى الدفاع عنه[٥]، وكان أغلب هؤلاء من الداخلين فى دائرة المصالح البيزنطية، إذ سبق للدولة البيزنطية تجنيد القبط سواء عن طريق التجنيد أو التطوع[٦].

وقد توصل عمرو إلى الصلح مع المقوقس، بعد ما أشار عليه القبط الموالين له عدم قدرة قواته على الصمود أمام المسلمين[٧]، ويوضح هذا أن كفة الأقباط

---

١ - ذكر ساويرس بن المقفع أن عمرا أرسل إلى بنيامين بطرك النصارى: "العهد والأمان والسلامة من الله... وقد حضر بنيامين بناء على أمان عمرو بن العاص" ساويرس: سير الآباء البطاركة، ط المعهد القبطى، جـ١، ص١٠٧.

٢ - نقيوس: كانت أهم الحصون فى الطريق إلى الإسكندرية، أنظر:
Chronique de Jean, évéque de Nikiou, Paris 1889, P. 448.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ٧٣؛
C.F: Chronique de Jeamm PP. 439-440.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٤؛ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢١٥؛ ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، القاهرة، ١٣٤٩هـ جـ٢، ص٣٩٥؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٨٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور ط القاهرة، ١٩٨٢م، جـ١، ق١، ص ص٩٥، ٩٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٤؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٢٢؛
Buttler: The Arab Conquest of Egypt, London, 1902, PP. 311-326.

٦ - سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٤٧م، ص١٠؛
J. Maspero: Organisation militaire de L' Egypt Byz antine, Paris, 1912, PP. 114-118; Bell: Op. Cit., P. 106.

٧ - الواقدى: فتوح الشام، جـ٢، ص ص٨٣، ٨٤ الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٣٩، جـ٣، ص ص١٩٧، ١٩٩؛ ابن الأثير: الكامل جـ٢، ص٣٩٥.

الذين ساعدوا العرب كانت أكبر من كفة الموالين للبيزنطيين والذين هدد المقوقس بهم عمرو[١].

وقد تضمنت شروط صلح بابليون:

- تأمين أهل مصر على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شئ من ذلك أو ينتقص، ولا تساكنهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية[٢].
- يفرض على جميع من بمصر، أعلاها وأسفلها من القبط (ديناران) يتساوى فى ذلك شريفهم ووضيعهم، ومن بلغ الحلم منهم، دون النساء والأطفال والشيوخ[٣].
- ضيافة القبط للمسلمين النازلين عليهم ثلاثة أيام.
- للقبط أرضهم وأموالهم، لا يتعرض لهم فى شئ منها.

واشترط المقوقس على عمرو أن يترك للبيزنطيين حرية الموافقة على هذه الشروط، ومن رفضها منهم، فله الحرية فى الخروج من مصر إلى الدولة البيزنطية[٤].

وأرسل المقوس شروط هذا الصلح إلى الإمبراطور هرقل[٥].

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٥؛ الواقدى: فتوح الشام، جـ١، ص ص٢٨، ٢٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ط القاهرة ١٩٢٩، جـ١، ص ص١٠، ١١.

٢ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ص١٩٩، ٢٠٠؛ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة ١٩٦٣، جـ٣، ص٣٢٤؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط بيروت ١٩٦٦م، ق٥، م٢، ص٩٧١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ص٢٤، ٢٥.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٠؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ط بيروت، بدون، جـ٤، ص٢٦٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، دار الكتب ١٩٦٩، ص٩٧؛ راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية، القاهرة ١٩٤٨، ١٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٧٠، ٧١؛ بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٤٦، ص١٩٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٧١، ٧٢؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢١٧؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٢٢٤؛ ابن خلدون: العبر، ق١، م٢، ص ص١٤٧، ١٤٨؛
C. F.: Buttler: Op. Cit., PP. 311-326.

ومن الملاحظ أن هذا الصلح شمل أهالى مصر جميعا فى الوجهين القبلى والبحرى، ومنح الأقباط حرية العقيدة، وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وكنائسهم وفرض عليهم الجزية، أما الخراج ففرض على جميع من بمصر مسلمين وغير مسلمين، وكان يزداد أو ينتقص تبعا لأحوال الفيضان، كما كان يدفع على ثلاثة أقساط فى السنة[١].

وقد طبق الصلح على البيزنطيين والنوبيين إن وافقوا على شروطه، أما إذا رفضوا فلهم حرية مغادرة البلاد إلى حيث يريدون، وكانت تلك أول إشارة إلى النوبة مما يدل على اهتمام المسلمين بأمرها، ونص الصلح على ألا يساكن النوبة المصريين "وأن من يدخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى منهم، واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم ثلاث (فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم) على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعملوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا، على ألا يغزوا أو يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة[٢]".

ولما اتجه عمرو بجيشه بعد فتح بابليون إلى الإسكندرية قدم كثير من القبط المساعدة له لفتحها[٣]، فأصلحوا الطرق وأقاموا الجسور والأسواق، ولم يلق عمرو أية مقاومة على طول الطريق بين بابليون والإسكندرية[٤].

وقد تغيرت أحوال الدولة البيزنطية بعد موت هرقل، إذ آلت مقاليد الحكم لابنيه قسطنطين وهرقلوناس تحت وصاية الامبراطورة مارتينة Martina، فبدأت

---

١ - انظر: ص ص٤٣، ٤٤، من الفصل الأول.

٢ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ص١٩٩، ٢٠٠؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص٣٢٤؛ ابن خلدون: العبر، ق٥، م٢، ص٩٧١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ص٢٤، ٢٥؛ محمد عبد العال أحمد: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد ٣٢، ١٩٨٤، ١٩٨٥م، ص٢٧٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٣؛ وانظر أهمية الإسكندرية: محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩، ص٤٨؛ سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية، دار الكاتب العربى ١٩٦٧، ص٦٦؛ جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن، بيروت ١٩٦٨، ص١٥؛ ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، نقله للعربية أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠، ص٦٥.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٣.

الأمور تتبدل لصالح العرب، فقررت الإمبراطورة إنهاء حالة الحرب معهم لانشغالها بالمشاكل الداخلية للدولة، فأرسلت المقوقس إلى مصر. وكان قد غادرها من قبل - لإنجاز هذه المهمة[١]، بعد ما ساد الانهيار بين قوات البيزنطيين بالإسكندرية[٢]، وعم الخلاف بين قادتهم[٣].

وعقد صلح الإسكندرية فى ٢٠هـ/٦٤١م، وتضمن الشروط الآتية:

- يدفع الجزية كل من دخل فى العقد[٤].
- يبقى المسلمون فى أماكنهم، دون تدخل فى أى عمل أو تعديل أى وضع حتى يجلوا الجند البيزنطيون.
- يجلوا الجند البيزنطيون عن الإسكندرية، خلال أحد عشر شهرا، ويحملون معهم ممتلكاتهم ومتاعهم، ومن أراد منهم الرحيل عن طريق البر يدفع جزية شهرية حتى يتم رحيله من أرض مصر[٥].
- لا تعود القوات البيزنطية ثانية إلى الإسكندرية[٦].
- يسود السلام، ويوقف القتال بين المسلمين والبيزنطيين.
- يتعهد المسلمون بحماية كنائس المسيحيين، ويمنحهم الحرية الدينية.
- يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية[٧].

وبفتح العرب دمياط وتنيس تمت لهم السيطرة على كل بلاد مصر السفلى بما فيها الموانى الشمالية[٨]، وكان عمرو بن العاص قد سيطر على بلدان

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٦، سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص١٣.

٢ - سعد زغلول: تاريخ الإسكندرية من الفتح الإسلامى إلى بداية العصر الفاطمى، من كتاب تاريخ الإسكندرية وحضارتها منذ أقدم العصور ١٩٦٣ ص٢٢٧.

3 - Book, A. E. R.: Op. Cit., PP. 7-8; Bell, H. I.: Op. Cit. P. 106.

4 - Chronique de Jean, P. 453.

5 - Ibid, P. 455;

البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٢٢؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، العراق ١٩٨١، ص ص٢٤٠-٣٤١؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص١٦٦-١٦٧.

6 - C. F.: Buttler: Op. Cit., P. 320.

7 - Chronique de Jean, P. 455.

ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، دار المعارف ١٩٦٧، ص٩٩، صفاء حافظ عبد الفتاح: الموانى والثغور المصرية، دار الفكر العربى، الكويت، ١٩٨٦م، ص ص٤٩-٥٠.

٨ - ابن اسحق: فتوح مصر وأعمالها، ط القاهرة، ١٢٧٥هـ ص٧٩.

الصعيد[١].

ومما هو جدير بالذكر أنه "كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة، وبعضها عنوة، فجعلها عمر بن الخطاب ذمة، وحملهم على ذلك[٢]".

وبسيطرة العرب على الصعيد الأعلى والأسفل، دخلت مصر عهدا جديدا، فأصبحت إحدى الولايات التابعة للخلافة الإسلامية، وأسند الخليفة عمر بن الخطاب ولايتها لعمرو بن العاص[٣].

السياسة الإسلامية إزاء أهل الذمة :

أهل الذمة اصطلاح إسلامى يطلق على معتنقى أحد الأديان السماوية السابقة على الإسلام، وهم من أهل الكتاب كاليهود والنصارى، كما أعتبر المجوس أهل ذمة، وأخذت منهم الجزية[٤].

وأعتبر السامرة والصائبة أهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى فى أصل عقيدتهم – ومعنى "الذمة" التزام تقرير "توطين" أهل الكتاب فى ديار الإسلام، وحمايتهم مقابل "الجزية"[٥] قال الله سبحانه وتعالى: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ[٦]".

وقد حدد الإسلام موقفه بشكل واضح من أهل الذمة أو (أهل الكتاب) فقد قال تعالى: "وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا"[٧]، وقال سبحانه وتعالى:

---

١ – الواقدى: فتوح الشام، جـ١، ص٤٦–٥٢؛ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص ص٢٣٨، ٢٣٩، انظر: ملحق الرسالة، خريطة شكل (١).

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٠؛ ترتون: مرجع سابق، ص٢٤٧.

٣ – الكندى: الولاة، ص١١.

٤ – كان عمر بن الخطاب قد توقف عن أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد (عبد الرحمن بن عوف) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخذها من مجوس هجر فأخذها منهم. انظر: ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، دمشق ١٩٦١م، جـ١، ص١–١٠.

٥ – الماوردى: الأحكام السلطانية، ط الثالثة، القاهرة ١٩٧٣، ص١٤٣؛ ابن طلحة: العقد الفريد للملك السعيد، القاهرة ١٣٠٦هـ، ص ص١٥٩، ١٦٠؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٨، ص ص٢٣٤، ٢٣٥؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص ص٣٦٢، ٣٦٣؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دراسة وثائقية) دار المعارف ١٩٧٩، ص٨٥.

٦ – سورة التوبة/ آية ٢٩.

٧ – سورة البقرة/ آية ١٩٠.

"قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ"[١]، وفى القرآن الكريم أيضا: "لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ"[٢]. فالآية الأولى تأمر بالقتال وعدم اللجوء إلى الاعتداء، والثانية قتال الذين ليسوا على دين سماوى وفرض الجزية، والثالثة البربمن لم يعتدى على المسلمين.

يتضح من نصوص الآيات القرآنية الكريمة أن الإسلام، لا إكراه لأحد على اعتناقه، " لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ [٣] "، وأن من ظل متمسكا بدينه فلا إكراه له على تركه، ولهذا كان لزاما تحديد وضعه فى المجتمع الجديد، وقد أطلق على هؤلاء أهل الذمة لأنهم قد صاروا فى ذمة المسلمين من حيث تأمينهم على أرواحهم وأموالهم وأهليهم، وإطلاق حرية ممارسة شعائرهم الدينية.

ويرى بعض المفسرين أن الأمر بقتالهم ناتج عن أنهم، وإن آمنوا بوحدانية الله، فقد كفروا بما جاء به النبى محمد (عليه الصلاة السلام)، ومن ثم لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل. لأن الإيمان بالرسل إيمان بالمُرسَل. وهم بذلك يتبعون أهواءهم، ولذلك يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية[٤].

وهكذا كانت الجزية هى الشرط الأساسى لبقاء أهل الذمة فى ديار الإسلام تحت حماية المسلمين، لأن الله أمر بقتالهم "وحتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

وقد فسرت هذه الآية عدة تفسيرات يهمنا منها قوله تعالى: "حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ" التى فسرت تفسيرين أحدهما: "حتى يدفعوها فعلا" وثانيهما: "حتى يضمنوها" فإذا ضمنوها يجب الكف عنهم[٥]، أما الاشتقاق اللغوى لكلمة "الجزية"

---

١ - سورة التوبة/ آية ٢٩.

٢ - سورة الممتحنة/ آية ٨.

٣ - سورة البقرة/ آية ٢٥٦؛ انظر: سياسة الرسول فى الدعوة إلى الإسلام، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٤٥-٥٣؛ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، القاهرة ١٩٦٧م، ص١٩٣، ٢٠٢.

٤ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ص١٤٢، ١٤٣؛ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص٨٥.

٥ - الماوردى: المصدر السابق، ص١٤٣؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ١، ص ص٢٢، ٢٣؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٨، ص٢٣٤، ٢٣٦؛ الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله): المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الانشا، مخطط مصور، جامعة القاهرة، رقم ٤٢٠٤٥ ورقة ٣١٧-٣١٨.

فهو من الجزاء: بمعنى أنهم يدفعون الجزية، إما جزاء على كفرهم وإما جزاء تأمينهم فى ديار الإسلام والدفاع عنهم وحمايتهم، وهو الأرجح[١].

وقد جعل الفقهاء عقد الذمة من حق الإمام، وجعلوه قسمين مستحق ومستحب[٢]، ويتضح من دراسة "عقد الذمة" أن الشروط الستة الأولى، التى اتفق على تسميتها "المستحق" استهدفت فى أساسها حماية الإسلام والجماعة الإسلامية، كما أنها تتفق فى مجموعها مع روح الشريعة الإسلامية، أما الشروط الستة الأخرى التى عرفت باسم "المستحب" فواضح أنها من وضع الفقهاء فى مرحلة متأخرة[٣]، وتؤلف هذه الشروط بقسميها صورة "العهد العمرى[٤]" أو "الشروط العمرية" المنسوبة إلى الخليفة "عمر بن الخطاب" وجدير بالذكر أن "عهد عمر[٥]" لم يدون فى حينه إلا مع مرحلة التدوين.

واختلف الفقهاء حول مقدار الجزية، ولكنهم اتفقوا جميعا على أن قيمتها بالنسبة للفرد الغنى يجب أن تكون أعلى من قيمتها بالنسبة للفقير[٦]، ولا تجب الجزية على صبى أو امرأة أو مجنون أو خنثى مشكل (فإن زال إشكاله وبان رجلا

---

١ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٤٣٤، ٤٣٥؛ الماوردى: الأحكام السلطانية، ص١٤٢، ١٤٣؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص ص٣٦٢، ٣٦٣؛ المرتضى: البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، مكتبة الخانجى مصر ١٣٦٧هـ، جـ٢، ص٢٢١، ٢٢٢؛ ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية، ط الثانية، الأنجلو ١٩٦١، ص١٢٥.

٢ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ص١٤٥، ١٤٦؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٨، ص ص٢٣٨، ٢٣٩.

٣ - قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ص٨٥، ٨٦.

٤ - القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٣، ص ص٣٧٨، ٣٧٩.

٥ - أنظر نص العهد فى: الأحكاد السلطانية للماوردى، ص ص١٤٥، ١٤٦؛ ابن الأخوة: معالم القربة فى احكاد الحسبة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٦ ص ص٩٤، ٩٥؛ ابن زين القاضى : شروط النصارى، مخطط بدار الكتب ٢٩٥٢ تاريخ، ورقة ٣-٥؛ المقدسى الحنبلى: الآداب الشرعية والمنح المرعية، مصر ١٣٤٨هـ، جـ٢، ص٤٦٥، مع ملاحظة أنه وجدت بعض التغييرات الطفيفة بين مختلف النصوص التى أوردتها هذه المصادر وغيرها.

٦ - انظر : الإمام مالك: الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار أحياء الكتب العربية، ١٣٧٠هـ، ص٤٧٠؛ الماوردى: الأحكام، ص ص١٤٤، ١٤٥؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٨، ص ص٢٣٦، ٢٣٧؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص ص٣٦٢، ٣٦٣، المرتضى: البحر الزخار، جـ٢، ص ص٢٢١، ٢٢٢؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ١، ص٢٦؛ أدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ط القاهرة، ١٩٤٧، جـ١، ص٦٠.

أخذت منه). ولا تؤخذ من غير القادرين على القتال، ويجوز تأجيل تحصيل الجزية من الفقير المعسر حتى يصبح قادرا على أدائها[١].

ونخلص من هذا كله إلى أن الجزية ليست في واقع الأمر سوى ضريبة دفاع على حد تعبيرنا المعاصر، فهى مقابل مادى لما يتمتع به أهل الذمة من حماية في ديار الإسلام، وما كفلته حرية كسب العيش، وتنظيم جماعتهم داخليا بجانب حرية العقيدة، والدفاع عنهم طالما بقوا داخل المجتمع الإسلامى[٢]، ولكن شروط فرض الجزية ومقاديرها المختلفة تميزت بطابع إنسانى إذ راعت إعفاء النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والمعسرين والرهبان بشرط انقطاعهم عن أديرتهم[٣]، وقد نهى الإسلام عن تكليف أهل الذمة بما لا قدرة لهم عليه أو ضربهم أو تعذيبهم إذا ما عجزوا عن أداء الجزية[٤].

وتنظيما لحصر من فرضت عليهم الجزية، خصص لكل مجموعة من أهل الذمة عريف يتولى حصر من أسلم منهم أو مات[٥]، ومن بلغ من صبيانهم الحلم ومن قدم عليهم أو سافر منهم، وإحضارهم لأداء الجزية[٦].

وقد تركت الشئون الداخلية لطوائف أهل الذمة لهم لينظموها بالكيفية التى تلائمهم بما لا يخالف أحكام الإسلام، تنفيذا لما جاء فى ذلك فى قوله تعالى:

---

١ - الامام مالك: الموطأ، ص٢٧٠؛ الماوردى: الأحكام، ص ص١٤٤، ١٤٥؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ١، ص٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى جـ١٣، ص ص٣٦٠، ٣٦١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٨، ص٢٣٦، ٢٤٠؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ص١٥٩.

٢ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص٣٢٢.

٣ - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص ص٤٩، ٥٠؛ ويذكر ابن عبد الحكم: "أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب في رهبان يترهبون بمصر فيموت أحدهم، وليس له وارث، فكتب إليه عمر أن من كان منهم له عقب، فادفع ميراثه الى عقبه، ومن لم يكن له عقب فاجعل ماله فى بيت مال المسلمين فإن ولاؤه للمسلمين" انظر: فتوح مصر وأخبارها، ص٩٠، وهى تدخل ضمن المزايا التى تمتع بها أهل الذمة.

٤ - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ١، ص٩٩.

٥ - اذا مات أحد من أهل الذمة لا تسقط عنه الجزية المستحقة قبل وفاته، ففى خلافة عبد الملك، وولاية ابنه عبد الله على مصر "أمر عبد الله ان لا يدفن ميت حتى يقوموا عنه بالجزية". انظر: ابن المقفع: سير الأباء البطاركة، جـ١، ص١٤٢.

٦ - أصبح فى دولة الإسلام وظيفة المحتسب، حيث النظر فى أهل الذمة وأن يلزمهم بما هو مشروط عليهم، انظر: ابن الاخوة: معالم القربة، ص٤٤؛ ابن خلدون: العبر، ط بيروت، ١٩٦٧، جـ١، ص٣٩٨.

"ولْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ومَن لَّمْ يَحكُم بِمَا أَنــزَلَ اللَّــهُ فَــأُولَئِكَ هُــمُ الفَاسِقُون[١]" كما ذكر مثل ذلك شأن اليهود فى الآية الكريمة: "إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيــهَا هُدًى ونُورٌ يَحكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا والرَّبَّــانِيُّونَ والأَحْبَــارُ بِمَــا اسْتُحفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ ولا تَشْــتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ومَن لَّمْ يَحكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُون[٢]"، وكان من حقـهم أن يلجأوا فى خصوماتهم إلى الحاكم المسلم، وعندئذ يتعين عليهم القبول بحكمه وفقا للشريعة الإسلامية[٣].

ولم تشأ الشريعة لأهل الذمة أن يكونـــوا جماعــة منبــوذة داخــل المجتمــع الإسلامى، فقد أحل القرآن الكريم تبادل الطعام بين المسلمين وأهل الذمـــة، وهــى أكبر علامات العلاقات الودية الاجتماعية "وطعام الذين أوتوا الكتــاب حــل لكــم، وطعامكم حل لهم[٤]"، وقد اختلفت الروايات بشأن إقامة العلاقات الودية مــع أهــل الذمة، وإن كان الراجح جواز عيادتهم أثناء المرض وشهود جنائزهم وتعزيتهم فــى مصائبهم، وتهنئتهم فى أفراحهم[٥]، وثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام جــواز معاملتهم فى البيع والشراء ومشاركتهم فى التجارة[٦].

وأيا ما كان الأمر فقد التزم المسلمون بتطبيق تلك القواعد، ولهذا عــاش أهــل الذمة فى أمان طالما التزموا بدورهم بالعمل طبقا لتلك الشروط، واحســوا بــالفرق بين ما كانوا يرزحون تحته من نير البيزنطيين وظلمهم، فتمتعوا بالعدالة[٧]، وكفلــت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، يتضح هذا عداة الفتح، من عودة الأب بنيــامين إلى الإسكندرية، بناء على أمان عمرو بن العاص، فقد غاب عن بيعته ثلاث عشــرة سنة قضى منها عشر سنوات خلال حكم الإمبراطور هرقل ونائبه المقوقس، وثــلاث

---

١ - سورة المائدة/ آية (٤٧).

٢ - سورة المائدة/ آية (٤٤).

٣ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ص١٤٥، ١٤٦.

٤ - سورة المائدة/ آية (٥)

٥ - ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جــ١، ص٢٠٠، ٢٠٦.

٦ - المصدر نفسه، جــ١، ص٢٤٤، ٢٤٥.

٧ - يتضح هذا من خطبة عمرو بن العاص غداة الفتح مخاطبا جنوده "....... واستوصوا بمن جــاورتموه من القبط خيرا" ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٠؛ ابن ظهيرة: الفضــائل البــاهرة، دار الكتــب ١٩٦٩. ص ص١١٨، ١١٩.

سنوات منذ بدء الفتح العربى لمصر(١)، وقد عاد كثير من مسيحى مصر إلى أراضيهم، وذلك بعد عودة بطركهم الأب بنيامين(٢). كما لم يتعرض الفاتحون لأملاك الكنيسة المصرية، بل أعلن عمرو بن العاص حمايته ورعايته لها، واحتفظت الكنيسة بأموالها وأملاكها، وتمتع مسيحيو مصر فى ظل الإسلام بحرياتهم ومن بينها الحرية الدينية(٣).

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مصر، قال: أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم منهم صهرا وذمة"(٤).

كانت سياسة عمرو بن العاص عقب الفتح تتسم برعاية أهل الذمة، وتفقد أحوالهم، فقد كان يخرج متخفيا بين الناس، ليقف على أحوال المصريين والتأكد من أنهم يعاملون معاملة حسنة، ويتبين مشاعر الأهالى تجاه المسلمين وحكمهم(٥). كما كان الخليفة عمر بن الخطاب يرسل بأوامره مؤكدا على ضرورة حسن معاملة أهل الذمة، وعدم الإساءة إليهم، حتى ولو اقتضى الأمر الاقتصاص لهم من عماله ومن أولادهم – كما حدث عندما اقتص لأحد أقباط مصر من عبد الله ابن واليها على مرأى من الناس(٦).

والحقيقة أن السياسة الإسلامية السمحة أحلت الهدوء والسكينة طوال عصر الخلفاء الراشدين الذين كانوا يوصون دائما ولاتهم بأهل الذمة خيرًا، والدليل على ذلك الخليفة عمر عند وفاته قال: "أوصى الخليفة بعدى بذمة رسول الله صلى الله

١ – ابن المقفع: سير الآباء، م١، جـ١، ص١٠٨، ١٠٩؛ وذكر أبو صالح الأرمنى: أن نص الأمان: "فليظهر الشيخ البطريرك مطمئنا على نفسه وعلى طائفته القبط جميعهم التى بالديار المصرية، وغيرها آمنين على نفوسهم من كل مكروه" انظر: تاريخ كنائس وأديرة مصر، اكسفورد ١٨٩٥، م٢، ص١٠٢.

٢ – ساويرس: سير الآباء البطاركة، م١، حـ١، ص١٠٩.

3- Chronique de Jean, P. 464.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٢، ٣؛ ابن الفقية: مختصر كتاب البلدان ط ليدن ١٩٦٧، ص٥٨؛ ابن زولاق: فضائل مصر، نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٣٥٩١ تاريخ، منقولة عن نسخة خطية بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٦٩٩٣ تاريخ؛ ابن ظهيرة: محاسن مصر، ص٧١-٧٨.

٥ – ابن الداية: المكافأة، القاهرة ١٩١٤، ص ص٨٧، ٨٨.

٦ – انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٦٧، ١٦٨؛ جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٤، القاهرة ١٩٠٨، ص ص٢٠٨، ٢٠٩؛ الشماس منسى القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٢٤، ص٢٠٦.

عليه وسلم، خيرًا أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه[١]".

وثمة رواية تجدر الإشارة إليها هنا تقول أن الخليفة عمر ابن الخطاب أمر عمرًا بن العاص أن يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص[٢]، وفرض عليهم بعض القيود فى الملبس والمظهر بقصد تمييزهم عن المسلمين.

ويذكر أبو يوسف أن ختم الرقاب، كان وقت جباية الجزية فحسب، فيقول: "ينبغى أن تختم رقابهم، فى وقت جباية جزية رؤوسهم، حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتم[٣]".

فلما كان عهد عثمان بن عفان، لم يطرأ تغيير على تلك المعاملة السمحة إزاء أهل الذمة، وتوالت كتبه إلى عماله يوصيهم برعاية أهل الذمة، وعدم الإجحاف بهم فى جزية أو خراج، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا وراعيا لقومه، ولم يكن جابيا[٤].

كذلك أحسن على بن أبى طالب، معاملة الذميين فأوصى عماله فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية بهم خيرًا، وأمر بمراعاة عهودهم والدفاع عنهم، وعدم الإجحاف بهم[٥]، وقد أوصى عامله محمد بن أبى بكر بأهل الذمة حين قدم مصر واليا عليها من قبله فى سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، وجاء فى عهد ولايته: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد عبد الله على أمير المؤمنين إلى محمد بن أبى بكر، حين ولاه

---

١ -أبو يوسف: الخراج، القاهرة ١٣٠٢هـ، ص١٢٥، ضياء الدين الريس: الخراج، ص١٧٢.

٢ -يقول ابن عبد الحكم: "كتب عمر بن الخطاب أن يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص.. ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم". انظر فتوح مصر، ص١٥١؛ ويذكر المقريزى: "أنه فى ولاية اسامة بن زيد التنوخى لخراج مصر وسم ايدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه، وجعل على كل نصرانى وسْد، وصورة أسد على أيديهم" انظر: الخطط، جـ١، ص٧٦؛ وأيضا: جـ٢، ص ص٤٩٢، ٤٩٣؛ ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص١٣٨؛ على حسنى الخربوطلى: الإسلام واهل الذمة، ١٩٦٩، ص ص٧١، ٧٢.

٣ -انظر: أبو يوسف: الخراج، ص ص١٢٧، ١٢٨؛ ترتون: مرجع سابق، ص١٣٨.

٤ -الطبرى: تاريخ الامم والملوك، جـ٣، ص ص٣٠٦، ٣٠٧.

٥ -ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص١٠٩؛ على حسنى الخربوطلى: الحضارة العربية الإسلامية، ١٩٦٢، ص١٤٨.

مصر، وأمره بتقوى الله فى السر والعلانية، وبالعدل مع أهل الذمة، وبإنصاف المظلوم وبالشدة على الظالم، وأمره أن يجنى خراج الأرض على ما كانت عليه من قبل لا ينتقص منه ولا يبتدع فيه[١]".

واستخدم أهل الذمة الجهاز الإدارى الذى أبقاه عمرو بن العاص على حاله[٢]، وهو نفس النظام الذى وضعه الإمبراطور جستنيان والذى بقى موجودا حتى الفتح الإسلامى، كما أبقى بعض الموظفين البيزنطيين وأحل الأقباط محل البعض الآخر[٣].

وفى العصر الأموى عهد الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/ ٦٨٢-٦٨٤م)، بولاية إقليم الإسكندرية والبحيرة ومريوط، وما يليها لأحد المسيحيين الملكانيين، ويسمى تيودوسيوس[٤]، الذى كان على خلاف مع مسيحى مصر من الأرثوذكس[٥]، ويبدو أن هذا القول فيه شيئا من المبالغة، "بيد أنه ليس ثمة ما يدعو للشك فى أنه كان فى قدرة الرجل المسيحى أن يتمتع بالسلطان العظيم[٦]".

ويتضح دور المصريين المسيحيين فى الإدارة والحكومة فى ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٥هـ/٦٨٥م) الذى اتخذ له كاتبين من اليعاقبة هما أثناسيوس[٧]

---

١ - الطبرى: تاريخ الامم والملوك، جـ٣، ص٥٥٦.

٢ - يقول ابن عبد الحكم: "وكان عمرو بن العاص لما استوسق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم" فتوح مصر، ص١٥٢.

وانظر: سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٠-٣٦.

٣ - دانيل دينيت: الجزية والإسلام، ترجمة فوزى فهيم، بيروت ١٩٦٠، ص١١٢؛ نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة ١٩٥٠، ص٣٥٩؛ محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، ١٩٧٩ ص١٠٠؛ ابراهيم العدوى: التاريخ الاسلامى، الأنجلو ١٩٧٦، ص١٣٧؛ مصطفى طه: مصر الإسلامية، ط الثانية. النهضة المصرية ١٩٥٩، جـ١، ص٤١-٤٣؛ هـ. موس: ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق، ط القاهرة ١٩٦٧م، ص٢٦٥.

٤ - ابن المقفع: سير الأباء البطاركة، م١، جـ١، ص١٢٢، ويسميه تاوضوسيوس، وفى موضع اخر تادرس، ص١٢٤؛ وانظر ايضا: بطرس الجميل: السنكسار الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسيين، القاهرة ١٩٦٨، جـ١، ص١٢٧؛ ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص١٦، ١٧.

٥ - ابن المقفع: سير الأباء م١، جـ١، ص١٢٢؛ السنكسار، جـ١، ص١٢٧.

٦ - ترتون: نفس المرجع، ص١٧.

٧ - ويسميه أحد المؤرخين السريان اثناسيوس بن غوماية Athnasius Ben Gaumaye، ويقول أنه كان يشتهر بالنبل والذكاء وكان متبحرا فى العلوم الكنسية والدنيوية، وذاعت شهرته حتى بلغت أخباره الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى عهد إليه بتعليم أخيه عبد العزيز بن مروان الذى ولى أمرة مصر. انظر المقريزى: الخطط، جـ١، ص٩٨؛

Chronique de Michel Le Syrien. T. 2. Fasc. 3. Paris 1904. P. 475.

واصله من مدينة الرها، والأخر اسمه اسحق من أهل شبرا، وقد عملا على خدمة مصالح الكنيسة المصرية، وإقصاء تيود وسيوس الملكانى من منصبه، وإرجاع أملاك، وأموال الكنائس القبطية على المذهب اليعقوبى(١).

ويبدو أن أثناسيوس تولى ديوان الخراج(٢) فى عهد الوالى عبد العزيز بن مروان، واستمر فى اهتمامه بالكنيسة المصرية ذات المذهب اليعقوبى وأحوال مسيحى مصر، فلما توفى البطرك سيمون فى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م وأصبحت الكنيسة بدون راع لها(٣)، طلب أثناسيوس ومن معه من الكتاب القبط من الوالى عبد العزيز بن مروان، أن يرسل الأسقف اغريغوريس إلى الإسكندرية للتحفظ على أموال الكنائس ورعاية شئونها، وأجاب عبد العزيز بن مروان الكتاب القبط إلى طلبهم، وأنفذ اغريغوريس إلى الإسكندرية، وكتب له سجلا يفوضه التصرف فى أموال الكنائس، وعهد إليه بتدبير شئونها، وقد ظل فى منصبه ثلاث سنوات(٤).

وكان أثناسيوس ينعت فى المكاتبات الرسمية "بالكاتب الأفخم" ويضم ديوانه عشرون كاتبا، ثم زاد عددهم حتى بلغ أربعة وأربعين كاتبا(٥)، وتمتع اثناسيوس فى ظل ولاية عبد العزيز بن مروان بشأن عظيم حتى أنه قد شيد فى عهده بعض كنائس بمدينة الفسطاط منها كنيسة مارى جرجس وكنيسة أبى قير(٦).

ولم يكن أثناسيوس واسحق هما الموظفان الوحيدان من أهل الذمة فى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان، إذ كان هناك كثير من الكتاب المسيحيين خاصة، إلى

١- ترتون: أهل الذمة، ص١٥.

٢- أن الحرية والخراج حقان فرضا على المشركين (أهل الذمة) فالجزية منصوص على قدرها، وتؤخذ مع بقاء الكفر، أما الخراج فيؤخذ مع الكفر والإسلام، وهذا يجعلنا للقول فيمن يتولى الخراج من الذميين، من أنه يكون عمله قاصرا على الخراج الذى يؤديه الذميون، وعلى ذلك يكون عمله تحت إشراف والى الخراج الذى يجمع بين الخراج بنوعيه من الذمى والمسلم.
الماوردى: الأحكام السلطانية، ص١٤٢.

٣- هو رهاروى أى من أهل مدينة الرها، رحل إلى الإسكندرية، ودخل السلك الدينى، وبعد وفاة البطرك اسحق، وقع لختيار القبط عليه ليكون بطركا، وحارب فى سبيل مذهبه اليعقوبى. ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ٢، ص١٣٢-١٤٢.

٤- المصدر نفسه، والصفحات.

5- Chronique de Michel, T 2, Fase 3, P. 475.,

ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص١٥

٦- ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٤١.

جانب بعض حكام الأقاليم(١)، نذكر منهم بطرس حاكم الصعيد، الذى أسلم فى نهاية حكم عبد العزيز بن مروان، وأيضا كان حاكم مريوط مسيحيا إلا أنه كان من اتباع المذهب الملكانى، وهكذا فقد أبقى المسلمون على الموظفين من مسيحى مصر فى وظائفهم المختلفة(٢).

ولا شك أن ذلك كفيل بأن ينفى ما ذهب إليه بعض المحدثين من وصفهم سياسة عبد العزيز بن مروان نحو أهل الذمة بالظلم والجور(٣)، فى الوقت الذى استعان فيه بالقبط فى إدارة البلاد، واستجاب لمطالبهم والسماح لهم ببناء الكنائس فى مدينة حلوان(٤).

ومما يذكر أنه فى خلافة عبد الملك بن مروان تولى عبد الله بن عبد الملك على مصر ٨٦هـ/٧٠٥م فكان أول من نقل الدواوين إلى العربية، وقد أدى هذا إلى زيادة أعداد العرب فى الدواوين مع الإبقاء على من يعرف العربية من غير المسلمين والاستغناء عمن عداهم(٥).

ومن صور التسامح الإسلامى، وتغلغل الذميين فى شئون الإدارة والحكم ما نلمسه فى عهد قرة بن شريك (٩٠-٩٦هـ/ ٧٠٩-٧١٥م) فقد عهد لاحد القبط ويدعى يونس بجباية الخراج من الرهبان والأساقفة، وكان يونس يتمتع بمكانة عظيمة لدى الوالى وكبار أعوانه(٦).

وتؤكد الوثائق البردية مدى احتفاظ الذميين بكثير من الوظائف منذ البداية فهناك بردية مؤرخة سنة ٩٠/٩١هـ، يطالب فيها قرة بن شريك "باسيل" بما تبقى

---

١ – ابن المقفع: سير الأباء البطاركة، م١، جـ٢، ص١٣١.

٢ – المصدر نفسه: صفحات ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٤٣.

٣ – بتشر: تاريخ الأمة القبطية: ترجمة اسكندر تادرس، القاهرة ١٩٥٠، جـ٢، ص١٦٣؛ الراهب البراموسى، حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك، القاهرة، بدون، جـ١، ص٤٣١.

٤ – ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٤١؛ أبو صالح الأرمنى: تاريخه، ص٦٧.

٥ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٢، ٢٣٧؛ الكندى: الولاة ص ص٥٨، ٥٩؛ ابن ايـاس: بدائع الزهور، جـ١، ص١٢٥.

٦ – ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ٢، ص١٤٨؛
Lammens. M. H.: Un Gouverneur Omaiyade d' Egypte; "Qorra Ibn Sarik d' après les Papyrus Azabes", Bulletin de J. institut Egyptien, Le Caire, 1908, P. 115.

من الجزية[١]، كما أورد جروهمان خطابا خاصا بضريبة الطعام من قرة إلى عاملين هما بقطر بن تيودسيوس، وأبا قيرس بن أندرياس[٢].

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م)، فقد كره أن تكون يد الذمى هى العليا فتكون له السلطة على المسلمين، لذلك عزل جماعة من القبط واستبدلهم بآخرين مسلمين[٣]، فأرسل أوامره إلى الولاة، ومما جاء فى رسالته "فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة فتبسط أيديهم والسنتهم....[٤]".

كذلك عهد الخليفة العباسى المأمون (١٩٧-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م) - عند زيارته إلى مصر سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م - لأحد الأقباط ويدعى بكام[٥] عهد إليه بكورة بورة[٦] وما حولها.

واستمرت سياسة ولاة مصر فى العصر العباسى من استخدام أهل الذمة والاعتماد عليهم فى إدارة البلاد، فقد قام كل من مقارة بن يوسف. وكان يتولى شئون بيت المال واستخراج الأموال - إبراهيم بن ساويرس، بدور كبير فى سياسة البلاد، وذلك أثناء ولاية عبد الواحد بن يحى الوزير (٢٣٦-٢٣٨هـ/ ٨٥١-٨٥٢م)، وكان هذان الموظفان من مسيحى مصر يعملان لصالح كنيستهم وإخوانهم المسيحيين[٧].

---

١ - جروهمان: أوراق البردى العربية، ط دار الكتب المصرية ١٩٣٨، جـ٣، ص١٥.

٢ - المرجع نفسه، والجزء، ص٦٠.

٣ - عبد الله بن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة ١٩٥٤م، ص ص١٣٥، ١٣٦؛ الكندى: الولاة ص٦٩؛ ابن المقفع: سير الآباء البطاركة، م١، جـ٢، ص ص١٥٢، ١٥٣؛ ابن النقاش: الذمة فى استعمال أهل الذمة، ورقة ٨٣، مخطوط بدار الكتب، رقم ٣٩٥٢ تاريخ؛ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ق١، ص ص٢١٢-٢١٣؛ ابن كثير: سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة، بدون، ص٩١؛ سيدة كاشف: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، مجلة كلية الآداب، المجلدان ٩، ١٠، ١٩٦٠، ١٩٦٢، ص ص١٢، ١٣؛ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص٨٨؛

Father. C. Anawati: Op. Cit., P. 28

٤ - الكندى: الولاة، ص٦٩، ابن الأخوة: معالم القربة فى احكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان واخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص ص٩٣، ٩٤.

٥ - عرض عليه المأمون اعتناق الإسلام، ولكن بكام كان متمسكا بدينه، قال للخليفة "لأمير المؤمنين عشرة الاف مولى مسلم، فلا يكون له مولى واحد نصرانى" انظر: ابن بطريق: التاريخ الجموع، ص٥٨؛ ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ٢، ص٢٧١، ٢٧٢.

٦ - بورة: مدينة على ساحل النيل، بالقرب من دمياط، وتنسب إليها العمائم البورية والسمك البورى. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٥٠٦.

٧ - ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ١، ص٢، ٣.

فلما كانت خلافة المتوكل (٢٢٣-٢٤٧هـ/ ٨٤٨-٨٦١م) أمر بعدم الاستعانة بالذميين فى الدواوين[١].

وهناك كتاب للمتوكل يوصى فيه عماله فى مختلف الأقاليم الإسلامية، بأن يكون موظفيهم من أهل الأمانة والنصح، وهو يرى أن هذه الخصائص لا تتوفر عند أهل الذمة، يقول فى هذا: "فإما الأمانة فليس أحد منهم مأمون على أموال الفئ، وأمور المسلمين، لأنهم عداه الدين ونعاته، وأما النصيحة فغير موجودة عند من كان مقامة بين ظهرانى المسلمين على قهر وذله وصغار[٢].

ونهى المتوكل فى كتابه هذا عن استخدام الذميين فى شئ من أمور المسلمين وأموالهم، وتدبير خراجهم، فلا يكون منهم فى الدواوين الخاصة والعامة فى العاصمة والنواحى، وأعمال الجهبذة، والمعادن، والبريد وسائر الأعمال[٣]، وفى هذا دليل على انتشار الإسلام، وكثرة المسلمين الذين هم أحق بهذه الوظائف لقد صار أهل الذمة قلة فى البلاد، ويتضح هذا عندما أصدر المتوكل أوامره بإنشاء المقياس الهاشمى[٤] على ألا يتولى أحد من النصارى أمره[٥]، أى أنه لم يكن هناك من كان يتولى أمره منهم[٦].

وتشير أوراق البردى إلى استخدام النصارى بصفة خاصة فى تحصيل الجزية والخراج من الذميين سواء تم ذلك قبل خلافة المتوكل أو بعده، فهناك بردية يرجع

---

١ - المصدر نفسه، والمجلد، والجزء، ص٤٤؛ الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص٣٥٥ ؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٥، ص٢٨٥.

٢ - ابن زين القاضى: شروط النصارى، ورقة ١٦.

٣ - المصدر نفسه، ورقة ١٧، ١٨.

٤ - المنوفى: الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، مخطوط بدار الكتب ٦٦ جغرافيا، ص٤٠؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٥٧.

٥ - يذكر الكندى: "وفى ولاية يزيد بن عبد الله من قبل المنتصر ورد كتاب المتوكل باتبناء المقياس الهاشمى للنيل، ويعزل النصارى عن قياسه، فجعل يزيد عليها أبا الرداد المعلم، وأجرى عليه سليمان ابن وهب صاحب الخراج سبعة دنانير فى سنة سبع وأربعين ومائتين" المقصود بالعزل هنا عدم الاستخدام، انظر: الكندى: الولاة والقضاة، ص٢٠٣.

٦ - انظر: المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص ص٣٨٠، ٣٨١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ط بيروت ١٩٧٠، جـ٣، ص١١٢-١١٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٢٩٤ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٥٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ص١٥٦.

تاريخها إلى ١٠ سبتمبر ٨٤٧م، جاء فيها أن القسطال[١] لكورتى الأشمونيين وأسفل انصنا وقوص، وكان قبطيا ويسمى مينا بن إبراهيم[٢].

وفى بردية أخرى مؤرخة فى سنة ٢٤٩هـ (٨٦٣/٨٦٤م) وفيها أن القسطال كان قبطيا ويسمى ابن ابهيوه[٣]، كما تشير بعض أوراق البردى إلى أن رؤساء القرى فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، كانوا من النصارى المصريين[٤].

هكذا حظى أهل الذمة بضمان حرية العقيدة بجانب حرية كسب العيش، وتأمين الأرواح والأعراض، ومن ثم كانت لهم علاقات ودية وصلات طيبة بالمسلمين.

أما عن السياسة الإسلامية تجاه أهل الذمة من اليهود، فأنه مما لا شك فيه أنهم عوملوا بنفس الشروط التى عومل بها النصارى باعتبار اليهود من أهل الذمة.

وسوف نحاول من خلال أوراق الجنيزة أن نوضحها ذلك أن وظائفهم فى المجتمع المصرى كانت متنوعة، إذ كانوا يعملون فى ثلاثمائة وستون حرفة مختلفة، وقد وجد منها مائتين وأربعين حرفة يدوية مشاركة مع الأهالى من مختلف الديانات، ووصل هذا التعاون إلى درجة المشاركة فى الأعمال والمصانع[٥]، وهذا يدل على أنصهارهم ضمن طوائف الحرفيين فى المجتمع المصرى.

وقد شارك الأقباط واليهود فى أعمال الصرافة، بل كان أغلب الصرافين فى مصر الإسلامية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى من أهل الذمة[٦].

---

١ – القسطال: لقب يطلق على الموظف المشرف على مالية الكورة، وبمعنى آخر مندوب ديوان الخراج والأموال، وكلمة جسطال تقابل الكلمة البيزنطية أو جستاليوس سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٩.

٢ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٣، ص١٣٤، ١٤٠.

٣ – المرجع نفسه، والجزء، ص١٤٥.

٤ – المرجع السابق، ص٧٠.

٥ – س. د. جوايتاين: دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوصى، الكويت، ١٩٨٠، ص ص١٥١، ١٥٢؛ قاسم عبده قاسم: مرجع سابق، ص ص٥٩، ٦٠.

٦ – أبو الحسن على بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مدريد ١٩٦٠م، ص١١٧؛ عبد العزيز الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى، بغداد ١٩٤٨، ص١٧٣.

ويبدو أن سماح عمرو بن العاص لليهود بالإقامة فى الإسكندرية أهـم مراكـز نشاطهم، كان مكافأة لهم، لعدم تدخلهم فى قتال المسلمين، والتزامهم الحيـاد طـوال أحداث الفتح.

وقد ذكرت المصادر العربية أن عدد يهود الإسكندرية كان حوالى أربعين ألفـا عندما فتحها عمرو بن العاص، وقد فرضت عليهم الجزية[١]، ويرى بعض البـاحثين أنه ربما كانت أعداد اليهود فى الإسكندرية قبل الفتح الإسلامى تزيد على السـبعين ألفا[٢].

وقد رأى بعض الباحثين أن عدد اليهود بالنسبة إلى عدد المسلمين فى مصـر، فيما بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر الميلاديين، لم يكن يتجاوز نسـبة واحـد إلى مائة، مستندا على أوراق الجنيزة[٣].

وتوضح سجلات وثائق الجنيزة تمتع أهل الذمة بتولى هذه المناصب الرفيعـة المتحكمة فى رأس المال، ففى وثيقة ترجع إلى نهاية عصر الولاة، عـن صـيرفى بالفسطاط يدعى إبراهيم كان يعمل قاضيا لبنى ملته، فقد تـرك لأهـل الذمـة إدارة شئونهم، وأن من حقهم أن يرفعوا الأمر للمسلمين، هذا إلى جانب عمله بالصيرفـه وكانت له ثروة طائلة[٤].

---

١ - جاء فى المصادر التاريخية العربية، أنه لما فتح "عمرو بن العاص" الإسكندرية كتب للخليفة "عمر بن الخطاب" يقول: "أما بعد ، فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منيـة، بأربعة الاف حمام، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية". انظر: ابن عبدالحكم: فتوح مصـر، ص٨٢؛ ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٢٦؛ ابن العميد: تاريخ المسلمين، ليدن ١٩٢٥، ص٣٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٩٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ص١٠٨.

2- Mann. J.: The Jews in Egypt and Palestine Under the Fatimid Caliphs (Oxford, 1920), I, P 13.

3- C. F.: Goitein: "Jewish Society and institution under Islam" In: Jewish society through the Ages, ed. H.H. Ben Sasson and S. Ettinger (New York, 1973) P. 173;

قاسم عبده قاسم: اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٧م، ص١٢.

4- C. F.: Goitein: A Mediterranean society of the high Middle Ages, New York, 1967, P. 238.

وكذلك تمتع المجتمع المصرى منذ الفتح الإسلامى، بالحرية الفكرية والثقافيــة، فكثيرا ما نقرأ بين أوراق البردى عن استخدام النصارى فى أعمال الجهبذة[١]. ومن ثم تمتع معهم مجتمع اليهود فى مصر بالجهبذة[٢].

وقد كان اليهود يتوارثون صنعتهم، بدليل أنه فيما يختص بالتدريب على الحــرف، ودخول أفراد جدد فيها، تكشف وثائق الجنيزة أن الأباء كانوا حريصين علـــى إعطــاء أبنائهم أسرار صنعتهم ليتوارثوها، ففى قسيمة طلاق حررت فى مدينـــة علــى النيــل بالدلتا سنة ٥٠٤هــ/١١١٠م يتعهد الزوج بإطعام وكساء ابنه وبتعليمــه صنعــه، وفــى تسوية بين زوج وزوجته تمت فى الفسطاط فى ٦٤٢هــ/١٢٤٤م، تعد فيــها الأم بدفــع تكاليف طعام ابنها الأكبر، وجزيته لمدة عامين، كذلك تكلفة تعليمه صنعة الصياغة لــذا كان الابن يتبع مهنة أبيه أو أعمامه وأخواله[٣].

وفيما يتعلق بالقضايا بين المسلمين: "فالمسلمون عدول بعضهم على بعــض الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أونسب[٤] "ولــم يكــن يسمح لأهل الذمة بالتقدم للشهادة أمام القضاء[٥]، فلابد فى الشهادة عند المســلمين أن يكون الشاهد عدلا... أما فى قضايا أهل الذمة فإذا نظرت أمام القــاضى، فيؤخــذ بالشهادة طالما لم يكن هناك طرف مسلم فى القضية[٦].

وفى سنة ١٢٠هــ/٧٣٨م ولى قضاء مصر خير بن نعيم، فكان يقضـــى فــى المسجد بين المسلمين، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصــــر علـــى المعــارج، فيقضى بين النصارى ، ثم خصص القضاة للنصارى يومًا يحضرون فيه إلى منازل

---

١ – الجهبذ بالفارسية هو الناقد الكبير، والكلمة فى الأصل "كهبذ"، ولقد عرف أبو سعيد السيرافى، العــالم النحوى المعروف (ت٣٦٨هــ) الجهبذ بأنه الناقد العارف يجيد المال ورديئه، انظر: البستانى: محيــط المحيط بيروت ١٨٦٩، ص٣٠٥؛ وذكر القلقشندى: بأن الجهبذ هو الصيرفى، انظر القلقشندى: صبــح الاعشى، جــ٥، ص٤٦٦؛ وعرف اليهود هذا المنصب واطلقوا على صاحبه بالعبرية اســم "جيزبــار Gizbar أى الأمين وهى تقابل جهبذ بالفارسية، انظر:

Fischel, W.: Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam. London 1937. P. 26; Goitein: Studies in Islamic history and institution. Leyden 1968. P. 249.

٢ – أدم متز: الحضارة الإسلامية، جــ١، ص ص٨٨، ٨٩.

3- The Geniza sources in S. D. Goitem. Jewish Education in MuslimCauntpies. Terysalem 1962. PP. 2, 3

٤ – الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ص٧١، ٧٢.

٥ – الكندى: الولاة، ص٣٥١؛ أدم متز: مرجع سابق، جــ١، ص ص٥٩، ٦٠.

٦ – الماوردى: الأحكام، ص٧١، ٧٢.

القضاة فيحكموا بينهم(١)، حتى جاء القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاة مصر عام ١٧٧هـ/٧٩٣م، فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم(٢).

وعلى أية حال فإن بعض الفقهاء أجازوا تقليد الذمى القضاء بين أهل دينه، وهذا وأن كان العرف جاريا بتقليدهم الرياسة بين أهل ملتهم، "وليس بتقليد حكم وقضاء، وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له، وإذا امتنعوا من التحاكم إليه لم يجبروا على ذلك، فإذا رجعوا إلى قاضى الإسلام فإنه يقضى بينهم بحكم الإسلام، لأنه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم(٣)".

وفى إطار الحرص على عدم التهاون فى المواد المالية المشروعة، كان اهتمام الخلفاء بموارد بيت المال، وفيما يتعلق بمصر فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب عدة رسائل إلى عمرو بن العاص منها ما يتعلق باستعجال وصول أموال الجزية، ومنها السؤال عن أسباب قلتها عن المتحصل على أيام البيزنطيين(٤).

وفى خلافة عثمان بن عفان وجه اللوم إلى عمرو بن العاص، لأن خراج مصر زاد فى عهد ولاية عبد الله بن أبى السرح، وقال له: "لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو فأجابه هذا بقوله:نعم ولكن أجاعت أبناءها(٥)" مجسما بذلك حقيقة ما حدث نتيجة زيادة الخراج التى أثلجت صدر الخليفة.

وازداد هذا الاتجاه وضوحا فى عصر الدولة الأموية ثم العباسية، فالمعروف أن المصريين عوملوا على أساس أن بلادهم فتحت صلحا، وكانت أهم شروط

١- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٤٠؛ آدم متز: مرجع سابق، جـ١، ص٥٩، ٦٠.

٢- الكندى: الولاة، ص٣٥١، ٣٩٠.

٣- الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ص٦٥، ٦٦؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ٢، ص ص٥٨، ٥٩.

٤- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٥١، ١٥٢.

٥- البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٢٢، ٢٢٣؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٣٩؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٧٩، ٩٨.

الصلح فرض الجزية بواقع دينارين عن كل رجل، وأعفى منها الشيوخ والأطفال والنساء مقابل تأمين المصريين على حياتهم وأموالهم وأعراضهم[١].

كما فرضت الجزية على اليهود المقيمين فى الإسكندرية آنذاك، وقدر عددهم بأربعين ألف يهودى[٢].

وقد راعى المسلمون أحوال القرى، من حيث زيادة العمران، وكثرة السكان أو حدوث الكوارث أو قلة عدد السكان، فإن عمرت القرية، وكثر أهلها استلزم الأمر زيادة ما عليهم بهذا القدر، وأن قل أهلها وخربت، انقصوا بذلك القدر أيضا وهو نظام كان معمولا به على أيام البيزنطيين، فأقرهم المسلمون على ذلك، ولهذا كانت جبايتهم بالتعديل على النحو السابق إيضاحه[٣].

وكان رؤساء القرى يجتمعون لبحث حالة القرى ويقررون لكل قرية الضريبة التى تناسبها من حيث احتمال القرية وسعة مزارعها، ويخرجون من ذلك حساب أوقافهم، ومصاريف حماماتهم ومعدياتهم وأعباء الضيافة للمسلمين[٤].

وكانت الضرائب تجبى من القرية باعتبارها وحدة متكاملة، وتعتبر الأرض فى هذه الحالة "أرض عهد" من وجهة نظر المشرع الإسلامى بحيث أن الفرد لو مات دون ولد أو ورثه عادت أرضه إلى القرية، وهكذا فقد كانت تلك المبالغ تؤدى عن هذه القرى بشكل التزام جماعى من الجالية الذمية الموجودة بها، أما فى حالة الجزية على الرؤوس (الأفراد) فإن الأرض تعتبر أرض خراج، بمعنى أن صاحبها يؤدى عنها خراجا بجانب الجزية الشخصية فإن مات صاحب الأرض تؤول ملكيتها إلى الدولة[٥].

---

١ – انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٠، ٧١، ٨٢، ٨٥، ١٥٢؛ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص ص٢١٤، ٢١٥؛ تاريخ ابن البطريق، ص٢٢، ٢٤؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٣٨؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٧٧.

٢ – ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص٨٢؛ تاريخ ابن البطريق، ص٢٦.

٣ – ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ص١٥٢، ١٥٣؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢١٤، ٢١٥؛ تاريخ ابن البطريق، ٢٢–٣٢، المقريزى: الخطط جـ١، ص٧٧ وما بعدها.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥٢؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٧٧.

٥ – يقول ابن عبد الحكم: "الجزية جزيتان، فجزية على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية" (أى الخراج وهو جزية الأراضى، انظر: فتوح مصر، ص١٥٤؛ دانييل دينيت: الجزية والإسلام، ص ص١٤٢، ١٤٣.

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن أهل القرية كانوا يتضامنون لمساندة من يعجز عن زراعة أرضه منهم[١].

وهكذا فإن المسلمين أقاموا تنظيما للإدارة المالية منذ بداية الفتح، فقد قال عمر بن الخطاب: "قد فرضت لكم الفرائض، وسنت لكم السنن، وتركتم على الواضحة"[٢]، وبتنظيم منسق أيضا على عهد عبد الله بن سعد (٢٥-٣٥هـ/ ٦٤٥-٦٥٥م) إذ تلت ذلك إجراءات تنظيمية أخرى وتعديلات شملت فى كثير من الحالات إحصاءات مستقلة للأراضى والسكان[٣]، مع التخفيف عن غير القادرين على أداء الجزية[٤]، ومن ثم راعى التنظيم الضرائبى إعادة إحصاء الذميين ومدى القدرة لكل فرد، وكل قطعة أرض[٥]، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الحكم، قال: لما ولى ابن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها، وينظر فى تعديل الخراج عليهم....."[٦].

وهكذا أقام الفاتحون نظاما فيما يتعلق بالمستحق لبيت مال المسلمين على درجة عالية من الإتقان والتخصص، روعى فيه ألا يكون مرهقا للخاضعين له[٧] ويؤكد هذه الحقيقة الكشوف التي حفظتها لنا بعض أوراق البردى التى ترجع للقرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، إذ دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين تختلف مقادير الجزية التى يدفعونها[٨].

ومن المؤكد أن نسبة من هذه الأموال كانت تنفق محليا على المشروعات العامة، إذ كان النظام يقضى أن يخرجوا من المستحق على القرى، فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض، ثم يخرج منها عددا لضيافة المسلمين ونزول السلطان[٩] فإذا ما تم وصول الأموال إلى بيت المال كان والى مصر يبعث

---

١ - ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص١٥٢، ١٥٣.

٢ - المصدر نفسه، ص١٥٥.

٣ - ادم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٨٤.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥٣.

٥ - آدم متز: مرجع سابق، جـ١، ص٨٤.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥٦.

٧ - دينيت: الجزية والإسلام، ص١٤٨-١٥٢.

٨ - سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، القاهرة، سلسلة الألف كتاب، ص٣٣.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥٣.

بها إلى دار الخلافة بعد أن يحجز ما يحتاج إليه "لحفر الخلجان، وإقامة الجسور وبناء القناطر، وقد بلغ هذا القدر على عهد ولاية عمرو بن العاص مائة ألف وعشرين ألفا[١]" وهذا ما يؤكد حرص المسلمين على الإصلاح والتعمير.

كما يتضح من أوراق البردى أيضا أن الجزية دفعها بعض القسس بينما أعفى منها آخرون، ولا توجد آية دلائل على أن الرهبان دفعوها فى القرنين الأول والثانى للهجرة فى رأى ترتون[٢]، ولكن هذا الرأى يخالف الحقيقة التى أشار إليها بعض المؤرخين المسلمين والمسيحيين على السواء[٣]، وهى أن عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٧٠٥م) أحصى الرهبان، وأخذ عن كل منهم دينارا، فكانت أول جزية من الرهبان، وربما كان الدافع إلى ذلك هو كثرة من يلجأون إلى الأديرة هربا من الجزية[٤].

وإذا كانت بعض تلك القواعد قد خولفت من قبل الجباة، فقد أدى ذلك إلى حدوث مقاومة سلبية واسعة النطاق تمثلت فى فرار أعداد كبيرة من أهل بعض القرى مما دفع "قرة بن شريك" (٩٠-٩٦هـ/ ٧٠٨-٧١٤م) للعمل من أجل إعادة هؤلاء إلى قراهم[٥]، كما أصدر أوامره بضرورة مراعاة العدالة فى جباية الضرائب، وقد حفظت لنا أوراق البردى بعض هذه المراسيم[٦].

ورغم ذلك فإنه يبدو من خلال مصادر تلك الفترة أن الأعباء المالية تزايدت بشكل أخرج المصريين (مسلمين وذميين، عن طور المقاومة السلبية إلى مرحلة من المقاومة المسلحة، فتكررت ثورات القبط خلال سنوات ١٠٧هـ/٧٢٥م[٧]، ١٢١هـ/٧٣٨م، ١٣٢هـ/٧٤٩م، ثم فى عامى ١٥٠هـ/٧٦٧م، ١٥٦هـ/٧٧٣م، واستطاع الولاة إخماد تلك الحركات، إلا أن أخطرها جميعا كان سنة

١ - المصدر نفسه، ص١٥١.

٢ - ترتون: أهل الذمة، ص٢٣٠.

٣ - ابن الراهب (أبو شاكر بطرس بن أبى الكرم المهذب): تاريخ ابن الراهب، نشرة لويس شيخو، بيروت ١٩٠٣، ص ص١٢٣، ١٢٤؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٩٢.

٤ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٤٩٢.

٥ - سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، ص١٢٧.

٦ - انظر نص أحد المراسيم، كما جاء على بردية محفوظة بالمتحف البريطانى فى كتاب ترتون: أهل الذمة، ص ص١٥٤، ١٥٥.

٧ - الكندى: الولاة، صفحات ٧٣، ٧٤، ٨١، ٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١١٦، ١١٧.

٢١٦/٨٣١م[١] فى عهد المأمون العباسى، بسبب سوء سيرة العمال[٢] فقد شملت كل أنحاء مصر، وشارك فيها المسلمون والأقباط، وأمتنعوا عن أداء الضرائب وطردوا عمال الدولة، ولم تستطع القوات الحكومية إخماد الثورة إلا بعد قدوم الخليفة المأمون بنفسه إلى مصر سنة ٢١٧هـ/٨٢٣م، حيث استطاع قائده الأفشين هزيمة القبط، وقتل رجالهم وسبى نساءهم وباع أطفالهم، ويروى المقريزى أن ثبات القبط وقتذاك: "دالة منهم بما هم عليه من القوة والكثرة...[٣]" ولكن الهزيمة هذه المرة كانت ساحقة بحيث كانت نقطة تحول حاسمة فى تاريخ المجتمع المصرى، إذ تحول كثيرون إلى الإسلام "وغلب المسلمون على أماكنهم من القرى....[٤]".

وهكذا أصبح المسلمون أغلبية فى مصر، وبدأت منذ ذلك الوقت تتحدد سمات الشعب المصرى بالمفهوم المعاصر.

ونخلص من هذا كله بنتيجة هامة هى أن أهل الذمة قد أفادوا من مفهوم الدولة الإسلامية تجاه حرية العقيدة، وضمان الحريات الاجتماعية بشكل عام، كما أنهم شاركوا فى كافة مجالات النشاط فى الدولة، ووصل بعضهم إلى أرفع المناصب لسماحة الإسلام فى مصر.

---

١ – تاريخ ابن البطريق: ص٥٧؛ تاريخ ابن الراهب: ص ص١٢٩، ١٣٠؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤.

٢ – تاريخ ابن البطريق: ص٥٧؛ تاريخ ابن الراهب: ص ص١٢٩، ١٣٠؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤؛ عبد المنعم ماجد: العصر العباسى الأول (التاريخ السياسى)، ط مكتبة الأنجلو ١٩٧٣م، جـ١، ص٢٣٩، ٢٤٠.

٣ – المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٤، وما بعدها.

٤ – المصدر نفسه، والجزء، والصفحة

الفصل الثانى
هجرات القبائل العربية إلى مصر

- خطط القبائل بالفسطاط.
- القبائل العربية فى مصر السفلى.
- القبائل العربية فى مصر العليا.
- الموالى والاقليات الأخرى.
- دراسة بعض الظواهر الاجتماعية للعرب المسلمين فى مصر.
  - العصبية القبلية فى مصر.
  - العطاء.
  - إثباتهم فى الديوان.
  - الاختلاط.

الفصل الثانى

هجرات القبائل العربية إلى مصر

خطط القبائل بالفسطاط :

كان معظم القبائل التى اشتركت فى الفتح من القبائل القحطانية من حيث الكـــم نواة ذلك المجتمع المصرى الجديد[١]، علاوة على القبائل العدنانية[٢]، وقد اتخذت كل قبيلة عربية خطة لنفسها[٣]؛ ومن ثم عرفت كل خطة باسم القبيلة التى نزلت بها[٤].

واختطت حول مسجد عمرو بالفسطاط مجموعة من القبـــائل العربيـــة التـــى اشتركت فى الفتح[٥]. مما كانت سببًا فى ظهور تجمعات عربية ذات طابع قبلى[٦].

فقد قدمت قبائل من مصر فى جيش عمـــرو، وهـــى إحـــدى فـــروع القبـــائل العدنانية[٧]، واختطت بالفسطاط، عند أسفل التل المطل على بركة الحبـــش، وهـــو التل الذى أقامت على سفحه قبائل حمير والمعافر القحطانية[٨].

ويبدو أن قبائل مضر بعامة فقدت جانبا من قوتها مع الزمن، أو أنها كانت بإقامتـــها فى مصر أسرع من غيرها إلى التخلص من البداوة والأخذ بأســـباب النظـــام[٩]. كمـــا

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٨-١٢٧: الكندى: الولاة، ص٨؛ ابن خلدون: العبر، م٢، صفحـــات ٨٤، ٨٥، ٥٠٧؛ المقريزى: الخطط جـــ١، ص٢٨٠؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر، دار الكاتب العربى ١٩٦٧، ص٥٩.

٢ - المقريزى: البيان والأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين؛ عالم الكتب ١٩٦١، ص٩٩؛ وأيضا: الخطط جـــ١ ص٢٨٠.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٨.

٤ - المصدر نفسه، ص١٢٦؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـــ٣، ص٢٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيـــان، جـــ٣، ص ص١٢٩، ١٣٠.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٨.

٦ - المقريزى: الخطط، جـــ١، ص٢٨٦.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٢٦، ١٢٧؛ ابن خلدون: العبر، ق٣، م٢، ص٦٣٠، ٦٤٩.

٨ - ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص١٢٦، ١٢٧؛ عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص٦٣.

٩ - حينما رفضت قبيلة المعافر استعمال المدى الذى أراد الخليفة هشام أن يوجد به المكيال فى خلافته سنة ١١٧/٧٣٥م وكسرته. انظر: الكندى: الولاة، ص٧٩.

اختطت إحدى بطون مضر وهى "هذيل[١]" إذ كان لها خطة بالفسطاط بجوار خطة الحمراوات الثلاثة[٢] وهى خطط القبائل غير العربية.

واختطت قبيلة غنزة، وهى من قبائل ربيعة، يذكر ابن عبد الحكم أن لها بمصر "دوراً مجتمعة نحوًا من عشر ومسجدا فى أصل العقبة التى عند دار ابن صامت[٣]".

ومن خطط القبائل الخاصة المميزة "خطة أهل الراية[٤]" وهم جماعة من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة، وينسبون لراية عمرو بن العاص، ويبدو أنهم سموا بذلك لأن قوما من إفناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا الفتح مع عمرو بن العاص، ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم، وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم فقال لهم عمرو: أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية تقفون تحتها فرضوا بذلك[٥].

كما اختطت قبيلة "سبأ" وهم من القبائل القحطانية شرقي جِنب مما يلى مراد، وقد مضوا بخطتهم بين المعافر وحضرموت حتى أصحروا، كما كان لهم مسجد فى الفسطاط عرف باسمهم[٦].

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٧؛ ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، جـ٤، ص٥.
انظر: ملحق الكتاب خريطة شكل (٣)

٢ – ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١٢٩.

٣ – انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١١٦؛ الكندى: الولاة، ص٩٠، ١٧٤، ١٧٦.

٤ – يذكر ياقوت الحموى الراية: "وهى محلة عظيمة بفسطاط مصر، وهى المحلة التى فى وسطها جامع عمرو بن العاص إنما سميت الراية، لأن عمرو بن العاص، لما نزل محاصرا للحصن فى الفسطاط، وكان فى صحبته قبائل كثيرة من العرب، واختطت كل قبيلة خُطة بأرض مصر هى معروفة بهم إلى الآن، وكان فى صحبته قوم من قريش والأنصار وخزاعة وغفار واسلم ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس وجرش والليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة والعتقاء، فلم يكن لكل بطن من هؤلاء من العدد ما ينفرد بدعوة فى الديوان، وكره كل بطن أن يدعى باسم قبيلة غيره وتشاحنوا فى ذلك، فقال عمرو بن العاص: فأنا أجعل راية ولا أنسبها إلى واحد معكم، ويكون موقفكم تحتها وتسمون منزلكم بها، فأجابوه إلى ذلك "انظر: ياقوت الحموى: معجم البدان جـ٣، ص٢٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص ص١٢٩، ١٣٠؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣ ص٣٢٧؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٧.

٥ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١١٦، ١١٧.

٦ – المصدر نفسه، ص ص١٢٦، ١٢٧؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٨.

واختلطت "الأزد" فى الفسطاط، وهى من مجموعة كهلان القحطانية، كانوا - جزءًا من جيش عمرو بن العاص[١]، وقد تمتعوا بسمعة طيبة جعلت معاوية بن أبى سفيان يكتب إلى مسلمة بن مخلد الانصارى وإلى مصر (٤٧-٦٢هـ/ ٦٦٧-٦٨١م) بأن: "لا تولى عملك إلا أزدى أو حضرمى، فأنهم أهل الأمانة[٢]".

كما اختلطت قبيلة "الحجر[٣]" خطة كبيرة بالفسطاط[٤]، إذ كانوا من القبائل التى جعلها عمرو بن العاص تعسكر فى الجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية[٥]. والواقع أن بطنا منهم فقط وهم "بنو كعب بن مالك بن الحجر" الذين أقاموا بالجيزة، واختلط بها فيما بين بكيل ويافع من همدان[٦]، هذا بخلاف خطتهم بالفسطاط أسفل من عقبة تنوخ[٧].

وكذلك اشتركت قبيلة عك فى أحداث الفتح العربى بأعداد كبيرة فابن عبد الحكم يذكر أن جيش عمرو "كله من عك[٨]" ولذلك احتفظوا بمكانة عالية من الناحية الاجتماعية فى مصر إبان عصر الولاة[٩].

وكانت غافق أحد بطون عك، فهم منسوبون إلى غافق بن الحارث بن عك[١٠] وقد ذكرنا فى الفتح العربى لمصر برواية ابن عبد الحكم أن غافق كانت ثلث الناس[١١]، ولذا اتسعت مساحة خطتها التى كانت تقع بين خطتى مهرة ولخم[١٢].

---

١ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١٢١.

٢ - المصدر نفسه، ص١٢٥.

٣ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣.

٤ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١١٧.

٥ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص١٢٦؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٠٦.

٦ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٦.

٧ - ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١٢٩.

٨ - المصدر السابق، ص٥٦.

٩ - المصدر نفسه، ص١٤٤.

١٠- المصدر نفسه، ص٥٦؛ الكندى: الولاة، ص٨، ابن دقماق: الأنتصار، جـ٤، ص٤٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٨.

١١- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢١.

١٢- المصدر نفسه، ص ص١٢١، ١٢٢؛ المقريزى: الخطط جـ١،ص٢٩٨.

كما اختطت بالفسطاط قبائل سلامان، وهم بطن من الازد[١]، اتخذوا خطتهم فى الحمروات الثلاث، ثم شرعت طائفة منهم إلى البحر[٢].

ومن الأزد أيضا شبابة، إلا أن موضع خطتهم بالفسطاط لم يحدده ابن عبد الحكم، على الرغم من وجود مسجد لهم عرف بالمسجد ذى المنارة[٣].

وقبيلة همدان إحدى قبائل كهلان لعبت فى الفتح دورا بارزا[٤]، فعند عودتها من فتح الإسكندرية أمرها عمرو أن تعسكر فى الجيزة مع قبائل أخرى من الأزد، وحمير والحبشة لتحمى جيش المسلمين من ناحية الغرب ورفضت هذه القبائل العودة إلى الفسطاط، وأقامت بصفة دائمة بالجيزة واختطت بها[٥].

كما اختطت قبيلة "كنده" التى شهدت الفتح بأعداد كبيرة، ولم يحدد ابن عبد الحكم موضع خطتها[٦]، لكنه يقول "وكنده بطون فى مصر منها السكاسك[٧] الذين شهدوا فتح مصر، واختطوا فى المعافر.

واختطت قبيلة "تجيب[٨]" وعرف أحد الطرقات باسمهم وبنوسوم كانت لها خطة بجوار حصن بابليون، ومن أشهر شخصياتها قيسبة بن كلثوم ، وقد تنازل عن خطتهم لتكون موضع المسجد الجامع[٩]، كما اختطت قبيلة بنى عامر أحد بطون تجيب شرقى حسن بابليون[١٠].

---

١ – السمعانى: كتاب الأنساب، ط ليد ن ١٩١٢، ص٣٢٠.

٢ – ويذكر ابن عبد الحكم: "ثم اختطت بنوبحر مما يلى، وهم قوم من الازد فى لخم ثم شرعوا إلى البحر". انظر: فتوح مصر، ص١١٦؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٥.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٠.

٤ – المصدر نفسه، ص٦٢؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٣٢٠.

٥ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٢٨، ١٢٩؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص١٢٦؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٦.

٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٦، ١٢٨؛ ابن خلدون: العبر، م٢، ص٥٦٩-٥٧٧.

٧ – المصدر نفسه، ص١٢٧.

٨ – الكندى :الولاة، ص٤٤؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٧؛ رضا كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق ١٩٤٩، جـ١، ص١١٦.

٩ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٢؛ الكندى :الولاة، ص١٦.

١٠– السمعانى: الأنساب، ص٥٤؛ انظر: الخريطة، ملحق الكتاب شكل (٣).

كما شهدت قبيلة "جزام[١]" الفتح، واستقر بعضهم فى الفسطاط فى خطة لخم، وكان نفر منهم فى اللفيف مثلها[٢].

كما شهدت "المعافر[٣]" الفتح، وكانت خطتهم فى بادئ الأمر حول جامع عمرو ثم نقلوا إلى الجبل المشرف على البركة التى عرفت باسمهم بعد أن ضاقوا بالبعوض فى خطتهم الأولى وبخاصة وقت الفيضان، وقد شاركتهم حمير خطتهم الجديدة ذات الموقع الممتاز حيث كانت تشرف منه على القبائل جميعا[٤].

ومن بطونها التى اختطت فى الفسطاط قبيلة "القرافة" حيث كانت خطتهم فى الموضع الذى عرف باسمهم فيما بعد، واتخذ موضعا لمقابر المسلمين[٥]، كما شهدت خولان الفتح، واختطت بالفسطاط وكان لهم بها مصلى عرف باسمهم[٦]، وكان عمرو بن قحزم أشهر أفراد هذه القبيلة إذ كان أحد الأربعة الذين اسند إليهم عمرو مهمة توزيع الخطط بين القبائل[٧].

كما اختطت قبيلة "مذحج" بعد أن شاركت فى الفتح بين خطتى خولان وتجيب[٨]، ومن أشهر بطونها قبيلة مراد التى اشتركت فى الفتح واختطت فى الفسطاط، ومن بطون مراد اختطت قبيلتى زوف وعبس، وكان لهم زقاق باسمهم فى الفسطاط[٩].

كما اختطت "وعلان" وهى إحدى بطونها أيضا وراء حصن بابليون واتسعت خطتها حتى جاورت خطة خولان وتجيب[١٠].

---

١ - المقريزى: البيان والأعراب، ص٢٣، ٢٧؛ وانظر أيضا، رضا كحالة: معجم قبائل العرب، جـ١، ص١٧٤.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٧؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٧.

٥ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٨.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٥، ١٤٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨؛ انظر: الخريطة ملحق البحث، شكل رقم (٣).

٧ - الكندى :الولاة، صفحات ٦٠، ٦٣، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٤٩.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٦؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٦، ١٤٢.

١٠- المصدر نفسه، ص١٢٦.

كما اختط "الاشعريون" الذين شهدوا الفتح فى الفسطاط، وكان خطتهم جزءاً من خطة المعافر لقلة عددهم، وأضيفوا إلى المعافر فى الديوان[١].

كما اختطت قبيلة "حمير" وهى من القبائل القحطانية أيضا إلى الجنوب من خطة خولان، وفى شرقيها عند سفح الجبل الذى اختطت عليه المعافر[٢].

واختطت قبيلة "لخم"[٣] وهى إحدى قبائل كهلان فى الفسطاط خطة كبيرة وقد انضم إلى خطتهم فى بادئ الأمر بعض من اللفيف[٤].

كما شهدت قبيلة "قضاعة" الفتح، واختطت فى الفسطاط، ولقلة عددها فى بادئ الأمر لم يفرد لها سجل خاص فى الديوان، إنما وزعت فى القبائل الأخرى، ويذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب حول قبيلة "بلى" التى كانت تمثل ثلث قضاعة بالشام إلى مصر[٥].

كذلك اختطت "مهرة" على سفح جبل يشكر فى بادئ الأمر، ثم نقلهم عمرو فاختطوا بجوار المسجد الجامع[٦]، وكان لهم بالفسطاط مسجدا ذو قبة سوداء[٧].

واختطت "بلى" وهى أحد بطون قضاعة فى الفسطاط منذ الفتح، الذى لعبت فيه دوراً كبيراً، حيث تولت ضرب حصن بابليون بالمنجنيق[٨]، إذ كانوا ميمنة جيش عمرو، واختطوا فى الحمروات الثلاث[٩].

---

١ – المصدر نفسه، ص١٢٦؛ الكندى :الولاة، ص٤٤؛ السمعانى: الأنساب، ص٣٣٥.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٦، ١٤٢.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٩؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣، القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٧.

٤ – الكندى :الولاة، ص٧١؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص ص٣٢٧، ٣٢٨.

٥ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٦؛ ابن خلدون: العبر، م٢، ص٥١٥-٥٢٢؛ المقريزى: البيان والأعراب، ص٣٠.

٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١١٨، ١١٩؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣؛ انظر: ملحق البحث، خريطة (شكل ٣، ٤).

٧ – ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص١١٨.

٨ – المصدر نفسه، ص٦٢.

٩ – المصدر نفسه، ص١٦٦؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٥.

واختطت قبائل حضرموت مع خطة تجيب[١] منذ بداية الفتح، لقلة عددهم في بادئ الأمر إلا أنه فى عهد عثمان بن عفان قدم إلى الفسطاط من الحضارمة ما يقرب من مائة نفس، فاتخذوا لأنفسهم خطة مستقلة بالفسطاط شرقى خطة "سهلهم" "والصدف[٢]"، وكانت الصدف أيضا قد شهدت الفتح، وسجل لها عمرو دورها فيه بقوله "يوم لهمدان ويوم للصدف[٣]"، واختطت جنوب خطة مهرة، وكما كانوا في موطنهم الأصلى فى حضرموت مختلطين مع قبيلة كنده فقد احتفظوا بعلاقتهم تلك فى الفسطاط، فلم ينفردوا بسجل خاص فى الديوان رغم كثرة عددهم، فانضموا مع كنده فى الديوان[٤].

كما اختطت "رعين" منذ الفتح شرقى خطة خولان، إلى الجنوب من خطة "مذحج[٥]"، وكذلك اتصلت خطة قبيلة "الكلاع" بخطة رعين[٦]".

كما اختطت قبيلة يحصب جنوب خطة المعافر[٧] وهى جميعا بطون من قبائل حمير القحطانية التى اختطت فى الفسطاط منذ الفتح.

وفى العصر الأموى شهدت الفسطاط قدوم كثير من بنى أمية، ولم تبدأ إقامتهم الفعلية فى الفسطاط إلا فى النصف الثانى من القرن الأول حتى أن عبد العزيز بن مروان شعر بأنه إزاء بلد "ليس به أحد من بنى أبيه[٨]"، هذا وكانت الفسطاط قد شهدت منذ الفتح استقرار عدد من القبائل القيسية متمثلة فى قبائل أشجع، وعبس وثقيف وفهم وعدوان[٩]، وازداد عدد عبس بعد تولية قرة بن

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٢، ١٢٣.

٢ - المصدر نفسه، ص١٢٣؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٢؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٧.

٤ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٥٥٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٢٥، ١٢٦؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٦؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٦؛ الكندى: الولاة، صفحات ٧٧، ٧٨، ٤٠٢، ٤٠٣؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤.

٨ - الكندى :الولاة، ص٤٧.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، صفحات ١٠٨، ١١١، ١١٧، ١٢٦.

شريك (٩٠-٩٦هـ/ ٧٠٨-٧١٤م[١]).

وفى عهد بشر بن صفوان الكلبى (١٠١هـ/٧١٩م)، والى مصر زاد عدد أفراد "قضاعة" لأنه كان أحد أبنائها، وقد أعاد تنظيم الديوان، فاستخرج بطون قضاعة من القبائل الملحقة بها، وجعل لها سجلا خاصا، وذلك فى التدوين الرابع للديوان سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م[٢].

وفى العصر العباسى اختط فى الفسطاط بنو طابخة، وهى إحدى القبائل المضرية متمثلة فى قبيلتى تميم ومزينة التى شهدت الفتح وأدمجت فى خطة أهل الراية لقلة عددها[٣].

وفى سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م اختط فى الفسطاط بنوشيبان، وهم أحد قبائل ربيعة فى بداية القرن الثالث الهجرى، حين تولى إمرة مصر أحد أمراء بنى شيبان، وهو خالد بن يزيد الشيبانى، فقدم مع جيش من ربيعة وشيبان بخاصة، فاختطوا فى الفسطاط منذ ذلك الوقت[٤].

كما اختط فى الفسطاط فى أواسط القرن الثانى كثيرون من الأنصار وخزاعة التى كانت قد اشتركت فى الفتح، وكان لهم داران، ولكن نظرا لقلة عددهم كانوا من أهل الراية[٥]. وحين ولى مصر محمد بن الاشعث (١٤١-١٤٣هـ/ ٧٥٨-٧٦٠م) جاء أعداد كثيرة منهم واختطوا بالفسطاط، كما قدم آخرون مع قدوم المطلب الذى ولى مصر سنة ١٩٩هـ/٨١٤م، واستقروا بالفسطاط، وعرف أحد أزقة الفسطاط باسم زقاق المطلبية[٦].

كما ازداد عدد أفراد قبيلة "خشين" إحدى قبائل قضاعة حين استقدم العباسيون عددا كبيرا منهم من فلسطين فى أواخر القرن الثانى، وكانوا من قبل لقلة عددهم يتبعون قبائل لخم فى الديوان[٧].

---

١ - الكندى :الولاة، ص ٧٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ص٩٧، ٩٨.

٣ - الكندى: الولاة، ص١٠٦، ١٠٨، ١٢٣؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤.

٤ - الكندى: الولاة، ص١٧٤، ١٧٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٨، ١١٦، ١١٧؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣.

٦ - الكندى: الولاة، ص١٠٨، ١٠٩؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٢٣.

٧ - الكندى: الولاة، ص٧١؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤.

ومع تجدد العناصر غير العربية التى دخلت الفسطاط، لم تعد خططا قاصرة على أبناء القبائل منذ بداية القرن الثالث الهجرى، فيقال أن السرى بن الحكم بنى له دارا بالحمراء[١]، كما أنشأ الماذرائيون البساتين، وحفروا الآبار فى خطة بنى وائل[٢].

تلك هى خطط القبائل الأولى بالفسطاط، وما طرأ عليها من تغيرات طوال فترة عصر الولاة، وسوف نتتبع هجرات القبائل العربية القحطانية والعدنانية، وانتشارها فى مصر السفلى، ومصر العليا، هذا بخلاف العناصر غير العربية، وأماكن استقرارها.

القبائل العربية فى مصر السفلى :

طرأ على المجتمع المصرى عقب الفتح الإسلامى عنصر عربى وافد بمؤثرات حضارية جديدة، جاء على شكل مجموعات متصلة الحلقات لتمتزج مع العناصر الأصلية من أهل البلاد، ويمثل جيش عمرو بن العاص طليعة الهجرات العربية[٣] إذ كان يضم قبائل قحطانية[٤]، وأخرى عدنانية، إلا أن القبائل القحطانية كانت ثلاثة أضعاف القبائل العدنانية[٥].

ذكر ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب عقد لعمرو بن العاص على أربعة آلاف رجل كلهم من عك، ويقال ثلاثة آلاف وخمسمائة[٦]، وفى رواية أخرى قال ثلثهم غافق[٧]، فلما أبطأ الفتح أرسل مددا أربعة آلاف على كل ألف رجل مقام الاف[٨]، وقول عمر بن الخطاب: ان معك أثنى عشر ألفا قصد به أن معه فى

١ – الكندى: الولاة، ص ١٥٩.
٢ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص١٥٢.
٣ – انظر الصلات الممتدة بين الجزيرة العربية ومصر قبل وبعد الإسلام، محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى، معهد الدراسات العربية، ١٩٧٧، ص ص٥٣، ٥٤؛ محمد عزة دروزه: عروبة مصر، بيروت ١٩٦٣، ص٨٨.
٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٨–١٢٧؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٠.
٥ – الكندى: الولاة، ص٨، عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص٥٩.
٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٥٦، البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢١٣، ٢١٦، الكندى: الولاة، ص٨.
٧ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٥٦.
٨ – المصدر السابق، ص٦١، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ص٣٣٦، ٣٣٧.

البداية أربعة وجاءه مدد أربعة، وكل قائد من الأربعة قادة المدد بألف أى أنهم بأربعة آلاف وذلك تكون القوة مقدرة مجازا باثنى عشر ألفا.

ولم يعتمد التكوين القبلى على تنظيم الجيش فحسب، وإنما روعى فى تخطيط المدن التى شيدها العرب، فإن القبيلة هى أساس المجتمع العربى، وأن ذلك من شأنه تجنب حدوث التنافس بين القبائل أو تصادمها، فبعد أن تم للعرب فتح الإسكندرية عهد عمرو إلى أربعة من كبار الصحابة اختارهم من قبائل مختلفة بالإشراف على عملية تخطيط المدينة الجديدة، وتوزيع الخطط على القبائل[١].

واتبع المبدأ نفسه فى تخطيط مدينة الجيزة[٢]، بل أنه اتبع فى توزيع دور الإسكندرية، يقول ابن عبد الحكم: "من ركز رمحه فى دار فهى له ولبنى أبيه، فكان الرجل يدخل الدار، فيركز رمحه فى منزل منها، ثم يأتى آخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار، فتكون الدار لقبيلتين ولثلاث قبائل[٣]". ولكن يرى الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن تركيز الرمح فى الدور لم يكن عشوائيا، ولأن الاخائذ كانت للدور التى كان يقطنها الروم وتركوها عند الفتح أو بعد خروج الروم من الإسكندرية بعد الصلح[٤].

١ – يذكر المقريزى بشأن خطط الفسطاط: قال القضاعى: ولما رجع عمرو من الإسكندرية، ونزل موضع فسطاطة انضمت القبائل بعضها إلى بعض، وتنافسوا فى المواضع، فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج التجيبى وشريك بن سمى الغطيفى، وعمرو بن قحزم الخولانى، وحيويل بن ناشرة المغافرى وكانوا هم الذين انزلوا الناس، أو فصلوا بين القبائل، وذلك فى سنة إحدى وعشرين. انظر الخطط، جـ١، ص٢٩٧؛ جاستون فييث: القاهرة مدينة الفن والتجارة، بيروت ١٩٦٨، ص ص١٥، ١٦.

٢ – الجيزة: على الشاطئ الغربى للنيل أنشأها العرب، وسموها الجيزة لأنها فى المكان الذى اجتازوا فيه نهر النيل بين الفسطاط وبين جانب الوادى الغربى الممتد من الجيزة إلى الجبل. انظر د. محمد رمزى: تعليقات على كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، جـ٥، ص٣٤٨ حاشية(١) ويقول المقريزى: الجيزة: بالكسر، وللجيزة فى لغة العرب الوادى أو أفضل موضع فيه: الجيزة بليده فى غربى الفسطاط. انظر: النقود الإسلامية ط النجف ١٩٦٧م، ص١٣٩؛ وانظر أيضا: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٢٨، ١٢٩.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣٠، ١٣١.

٤ – السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى (حتى الفتح العثمانى) ط الأولى مصر ١٩٦١، ص٤٨، ١٤٣؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٤٨.

وقد انضمت جماعة من القيسية مع فئات أخرى من المجموعة اليمنية[١] وذلك تكملة للعدد المخصص للخطة، فعندما ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر سنة ٦٥هـ/٦٨٤م نقلت إلى مصر بطون كثيرة من قيس[٢].

كما أذن هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٣-٧٤٣م) فى ترحيل ثلاثة آلاف من قيس إلى مصر، ولكنهم لم ينزلوا الفسطاط، فلقد اشترط أن ينزلوا فى الحوف الشرقى[٣] من أجل انتشار المسلمين فى أنحاء متعددة.

وكانت ربيعة من قبائل الحوف أيضا[٤]، ويبدو أن تمركزها الفعلى فى الحوف جاء على أثر من قدم من ربيعة حيث توجد قبيلتهم، وذلك فى أوائل القرن الثالث الهجرى، حيث أتوا فى جيش خالد بن يزيد الشيبانى، وكان بنى وائل وهم من ربيعة ممن أقام بالشرقية[٥].

وقد اختلفت آراء المؤرخين المسلمين القدامى حول أسباب هجرة قيس إلى مصر، فيذكر ابن عبد الحكم: "ولم تكن قيس بالحوف الشرقى قديما، وإنما الذى أنزلهم به ابن الحبحاب، وذلك أنه وفد إلى هشام بن عبد الملك، فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل أو ثلاثة آلاف رجل، شك عبد الرحمن، فجعل ابن الحجاب الفريضة فى قيس وقدم بهم فأنزلهم بمصر الحوف الشرقى[٦]".

ويقول الكندى: "نقلت قيس إلى مصر فى سنة تسع ومائة، ولم يكن لها منهم أحد قبل ذلك إلا من كان من فهم وعدوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام،فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتا، فأذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن لا ينزلهم الفسطاط[٧]".

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٦؛ ابن دقماق: الانتصار، لواسطة عقد الامصار، جـ٤، ص٣-٥.

٢ - يذكر الكندى: أن عبد العزيز بن مروان قال: يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى "الولاة والقضاة، ص٤٧، ٧٦-٧٧.

٣ - انظر: الكندى: الولاة، ص٧٦، ١٧٥، ١٨٥، ١٨٨؛ المقريزى: البيان والأعراب، ص٦٦؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، دار النهضة العربية ١٩٦٣، ص١١٠.

٤ - اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، ليدن ١٨٨٣، جـ٢، ص ص٥٥٥، ٥٥٦.

٥ - القلقشندى: صبح الاعشى، قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابيارى، ط الأولى ١٩٦٣م، ص١٣٠.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٣؛ المقريزى: البيان والأعراب، ص٦٦.

٧ - الكندى: الولاة، ص٧٦.

ويضيف المقريزى: "ان عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيها حظا الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان، فكتب إلى هشام، أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس، ونعشهم ورفع من ذكرهم، وانى قدمت مصر، ولم ارلهم حظا الا أبياتا من فهم، وفيها كورليس فيها أحد، وليس يضر أهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجا وهى بلبيس[1]".

وكان الهدف من الهجرة القيسية التى استوطنت بلبيس عامل اقتصادى إذ أريد أن يعمل هؤلاء المهاجرون بالزراعة استغلالا للأراضى، وزيادة للخراج، يؤيد ذلك ما ذكره المقريزى من: "أنه لم يظهر من خراج مصر بعد تناقصه إلا فى وقتين أحدهما فى خلافة هشام بن عبد الملك عندما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب، فخرج بنفسه، ومسح العامر من أراضى مصر والغامر[2]"، وهيئت لهم عوامل نجاح الزراعة فى تلك الأراضى الجديدة (أرض الدلتا) فصرف لهم الصدقة من العشور لتساعدهم على شراء الإبل والخيول[3]، حتى وصل مقدار ما تحصله الرجل فى شهر عشرة دنانير وأكثر، يقول المقريزى: "وليس عليهم مؤتة فى علف أبلهم، ولا خيولهم لجودة مرعاهم" كل هذا كان حافزا على الهجرة حتى وصل إليهم (بلبيس) خمسمائة أهل بيت، فمات هشام، وأصبحت القيسية ألف وخمسمائة أهل بيت[4].

فلما كانت ولاية الحوثرة بن سهيل السباهلى على مصر سنة ١٢٨-١٣٨هـ/ ٧٤٥-٧٥٥م) فى عهد خلافة محمد بن مروان، وفدت أعداد كبيرة من القيسية، حتى وصلت إلى ثلاثة آلاف أهل بيت عند موت مروان[5]. ومن ثم اخذوا يتناسلوا بالإضافة إلى من قدم عليهم من البادية، فاحصوا فى سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م) وكان

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٨٠، جـ٢، ص٢٦١؛ انظر ملحق البحث خريطة رقم (٤)
Lane Poole (Stanly): History of Egypt in the Midle Ages, London 1901, PP. 28, 29.

٢ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٩٨، ٩٩.

٣ – المقريزى: البيان والأعراب، ص٦٧، ٦٨.

٤ – المصدر السابق، ص ص٦٧، ٦٨؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٥١، ٢٥٢.

٥ – المقريزى: البيان والأعراب، ص ص٦٧، ٦٨؛ محمد ضياء الدين الريس: الخراج، ص ص٢٥٤، ٢٥٥.

على خراج مصر محمد بن سعيد فوجدوا "خمسة آلاف ومائتين أهل بين صغيرا وكبيرا[١]".

وكانت السياسة العربية منذ تم الفتح تفرض على القبائل العربية الوافدة عدم الاشتغال بالزراعة، أو امتلاك الأراضي، فلم يكونوا بعنون بغير السياسة والحكم والحرب، ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية، ومعنى ذلك أن العرب فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح، ليكونوا على استعداد دائما للجهاد[٢].

كذلك نجد من القبائل التى شاركت فى فتح مصر، ولعبت دورا بارزا فى الحياة السياسة – قبيلة المعافر[٣]، إذ اختطوا فى بداية الأمر بجانب عمرو بن العاص حول المسجد الجامع، حتى اشتكوا لعمرو بن العاص من كثرة البعوض فى زمن الفيضان، فنقلهم إلى الجبل المشرف على البركة التى أطلق اسمهم عليها، وبذلك اصبحوا يشرفون على قبائل مصر، ولكنهم لم يكونوا وحدهم فى مسكنهم هذا، فقد كانت معهم قبائل حمير[٤].

ويذكر الكندى من أن بشر بن صفوان (١٠١هـ/٧١٩م)، لما رأى افتراق قضاعة فى القبائل كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الأذن له فى استخراج من كان فى القبائل منهم فيجعلهم دعوة منفردة، فإذن له يزيد بن عبد الملك فى ذلك، فأخرج مهرة من كنده، وأخرج تنوخا من الازد، وأخرج آل كعب بن عدى التنوخى من قريش، وأخرج جهينة من أهل الراية، وأخرج خشينا من لخم فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة[٥].

---

١ – المقريزى: البيان والأعراب، (خاتمة) ص١٠١، ١٠٢.

٢ – حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١١؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٤٨.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٢٦، ١٢٧؛ شحاتة عيسى: القاهرة، الألف كتاب، ص ص١٩، ٢٠.

٤ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٩٨.

٥ – يقول الكندى: "وتدوين بشر بن صفوان هذا التدوين الرابع، لأن الأول تدوين عمرو بن العاص، والثانى تدوين عمر بن عبد العزيز بن مروان، والثالث قرة بن شريك والرابع هذا "وهذا يعنى أنه كلما وفدت مجموعة من قبيلة، وكان هناك مجموعة سابقة، ممن اشتركوا مع قبائل أخرى فى خطة، ففى هذه الحالة كان يتم أفراد خطة جديدة تجمع هؤلاء. الكندى: الولاة، ص ص٧٠، ٧١.

وكثيرا ما كانت تظهر مشاكل عديدة فى أثناء وضع خطط القبائل، فأهل الظاهر[١] قد عادوا من الإسكندرية متأخرين، فوجدوا أنهم ليس لهم مكان بين خطط القبائل، فتحاكموا إلى معاوية بن حديج فقال لهم: "انى أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل فسميت منازلهم الظاهر".

وكذلك كانت خطة اللفيف[٢] فإن معظمها كان من الأزد من الحجر ومن غسان ومن شجاعة، مضافا إليهم نفر من جذام ولخم والوحاف وتنوخ: قال عمرو بن جمالة بشأنهم: "تا الله ما رأيت قوما قد سدوا الأفق مثلكم وإنكم لكما قال سبحانه: " فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً[٣]".

وكانت هذه الجماعة قد سألوا عمرو أن يفرد لهم خطة، فامتنعت عشائرهم فعندئذ طلبوا أن يكونوا مجتمعين كما هم، ومتفرقين فى الديوان، حتى إذا دعى كل بطن منهم انضم إلى بنى ابيه، فأجابهم عمرو إلى ذلك[٤]، فكانت خطتهم مما يلى خطة أصحاب الراية[٥].

---

١ - وهؤلاء القوم هم الذين يطلق عليهم اسم العتقاء، وهم جماع من القبائل كانوا يقطعون الطريق، فجئ بهم أسرى إلى الرسول، ثم اعتقهم فعرفوا بالعتقاء، ودخل هؤلاء العتقاء مصر مع عمرو، وشهدوا الفتح وكانوا معدودين فى أهل الراية، ولما ذهب عمرو ليفتح الإسكندرية، ذهبوا معه، ولكنهم تأخروا فى العودة إلى الفسطاط، وعندما جاءوا لم يجدوا مكانا ينزلون به فى خطة أهل الراية، فغضبوا وشكوا ذلك إلى عمرو، ولكن معاوية بن حديج أحد المشرفين على الخطط قال لهم: "أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوه منزلا وتسموه "انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص١٣٠؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٨؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٩٧؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر، ص٢١٩.

٢ - لما فتح العرب الإسكندرية عام ٢١هـ/٦٤٢، ثم عادوا إلى الفسطاط لتشييدها ورد خبر ان الأسطول البيزنطى فى طريقه إلى الإسكندرية، فأرسل عمرو بن العاص رجلا من الازد يسمى عمرو بن جمالة ليأتيه بالخبر، وبعد قليل ثارت فى صدور بعض القبائل عاطفة هى مزيج من الحماسة والتدين والعصبية فتعاقدوا على اللحاق بأخيهم عمرو، فلما أدركوه فى الطريق فنظر إليهم فى دهشة وأعجاب وقال عمرو بن جماله مقولته "لفيفا". انظر: ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٧، ٣٢٨؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر، ص٣١٨.

٣ - سورة الإسراء/ آية ١٠٤.

٤ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٧؛ شحاته عيسى: القاهرة، الألف كتاب، ص ص١٩، ٢٠.

٥ - لكى نتتبع خطط أهل الراية، وخطط اللفيف نجد أنها تداخلا فى مواضعها. انظر المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٩٧؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤، على بهجت: حفريات الفسطاط، دار الكتب المصرية ١٩٢٨، ص٢٢.

واختطت همدان بالجيزة هي ومن والاها مثل يافع وذو أصبح وطائفة من الحجر ومعهم جماعة من الروم، والفرس المسلمين، ورفضت هذه القبائل العودة إلى الفسطاط وأقامت بصفة دائمة بالجيزة[١] وكان عمرو بن العاص قد كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر يقول:

"كيف رضيت أن تفرق أصحابك، ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لاحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره، فأجمعهم إليك فإن أبو عليك، وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فئ "المسلمين حصنا[٢]" فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة فى سنة ٢١هـ، وفرغ من بنائه سنة ٢٢هـ/٦٤٣م.

ومن القبائل التى احتفظت بالشرف فى الجاهلية والإسلام بنوسهم[٣] فقد حضر بعضهم فتح مصر، واضطر عمرو إلى أن يبنى لهم دار السلسلة التى فى غربى المسجد، والتى اشتهرت أيضا باسمهم، وهى التى أشار إليها الكندى[٤] فى حركة العلويين بمصر سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م، واستمرت هجرة سهم، ونزحوا فى حركة انتشار القبائل إلى الصعيد، وتمركزوا فى الاشمونين مع قريش[٥].

وكذلك نزلت فى الفسطاط كثير من القبائل فى خطة الحمراوات[٦] وخطة

---

١ - انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٨؛ النويرى: نهاية الارب، جـ١٩، ص٣٢٠.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٢٨، ١٢٩؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٠٦؛ وأيضا: النقود الإسلامية، ص١٣٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة جـ١، ص٥٩؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٤٨.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٠٢، ١٠٣؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣٤.

٤ - الكندى: الولاة، ص١١٤.

٥ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١، ص٣٥٣؛ وايضا: قلائد الجمان، ط ١٩٦٣، ص١٤٢؛ المقريزى: البيان والأعراب، ص٤٣؛ محمود عكوش: مصر فى عهد الإسلام، دار الكتب ١٩٤١، ص١١٧.

٦ - الحمراوات: وهى ثلاث خطط، وقد سميت بذلك لنزول الروم بها، وهم حمر الألوان: الحمراء الدنيا، وبها خطة بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة إلا من كان منهم فى أهل الراية، وخطة ثراد من الازد وخطة فهم، وخطة بنى بحر بن سوادة أما الثانية الحمراء الوسطى وبها خطة بنى ينه، وهم قوم من الروم حضروا الفتح وخطة هذيل، وخطة بنى سلامان من الازد. والثالثة الحمراء القصوى، وهى خطة بنى الأزرق من الروم، وحضر الفتح منهم أربعمائة رجل، وخطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم. انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٩؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٩، انظر: ملحق البحث، خريطة شكل(٣).

بنى وائل[١].

ورغم أن ابن عبد الحكم يذكر أنه لم يكن فى الإسكندرية خطط[٢]، غير أنه قال: "ان الزبير بن العوام اختط بالإسكندرية[٣]".

كما استقرت قبائل على مقربة من الإسكندرية فى سنة ٣٧هـ/٦٥٧م إذ نزلت قبيلة مدلج بقرية خربتا[٤]، اتجهوا منها نحو الغرب، كما نزل منهم وادى هبيب فيما بين مريوط والفيوم[٥]، ومع هذا فقد أقام جانب كبير منهم بالإسكندرية، وقاموا فى آخر القرن الثانى بأعنف الثورات، ويبدو أن المدالجة كانوا كثيرين بمصر، خصوصا بنو معاذ، بنو الهجيم[٦].

ونزلت بالإسكندرية أيضا قبيلة تجيب[٧]، وفى نهاية القرن الأول حظيت بمكانة ممتازة[٨]، خاصة أسرة معاوية بن حديج[٩]، ولم تكتف تجيب بالإقامة فى مصر، فقد اتجه بعضهم نحو الغرب، فكان منهم قوم فى جبل برقة الغربى مع غيرهم من بطول العرب اليمنيين[١٠].

---

١ – بنو وائل: من زيد بن أقصى بن جذام؛ انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٢.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣٠. يقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم: "كانت الاسكندرية فى العصر الإسلامى تزخر بالدور الفخمة التى أخذها المسلمون من الروم فسميت لذلك أخائذ، وذكروا أن عمرو حين افتتحها أحصى دورها، فوجد أنها أربعة آلاف دار، محكمة البناء، مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها حمام تختص بها ومضت موجة الفتح، وأقام العرب فى هذه الأخائذ، وما لبثت المدينة أن تعربت، وأقيمت فيها بجانب الدور الحكومية مثل دار الأمارة، ودار الطراز والاهراء وبيت المال، ودورا أخرى خاصة مثل الدار التى أقامها الزبير بن العوام عند الفتح "السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص١٤٣.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣٠.

٤ – خربتا: قرية من قرى البحيرة تقع على بعد ٩٠كم من الإسكندرية. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٢، محمد رمزى: القاموس الجغرافى، جـ٢، ص٣٣٤، ٣٣٥.

٥ – ابن المقفع: سير الآباء البطاركة، جـ١، ص٥٦٨.

٦ – الكندى: الولاة، ص١٥٣–١٦٣.

٧ – تجيب: من كنده، وهم بنو عديب وسعد ابن الاشرس بن شبيب بن السكين انظر: ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣١.

٨ – الكندى: الولاة، ص٦٤.

٩ – المصدر نفسه، صفحات ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٠، ١٩٦، ١٩٧. انظر: الخريطة شكل رقم (٤) ملحق الدراسة.

١٠– اليعقوبى: البلدان، ص٣٤٣.

القبائل العربية فى مصر العليا :

أخذت جيوش العرب طريقها إلى جنوب مصر فى ولاية عمرو بن العاص[١]، الا أن حملة عبد الله بن سعد على بلاد النوبة سنة ٣١هـ/٦٥١م، كانت أكثر تنظيما، ولكنها لم تستقر هناك بل اكتفت بعقد صلح مع أهل تلك البلاد[٢].

ومن القبائل العربية التى انتشرت فى الصعيد الأعلى بنو أمية، ومن المعروف أنها نزحت إلى مصر بعد مقتل عثمان بن عفان ٣٥هـ/٦٥٥م، ونشوب الصراع على الخلافة، وانتهى الأمر بسيطرة الأمويين على مصر سنة ٣٨هـ[٣]، لكن إقامتهم الفعلية لم تبدأ الا منذ النصف الثانى من القرن الأول، بدليل أن عبد العزيز بن مروان يتساءل عندما تولى مصر كيف يمكنه أن يحكم بلدا ليس به أحد من بنى أمية[٤].

وقد أخذ الأمويون فى التكاثر فى مصر منذ أواخر عهدهم، ومع هروب مروان بن محمد تمركزوا بصورة فعلية فى الصعيد الأعلى[٥].

وفى القرن الثالث الهجرى كان كثير من بنى أمية قد تمركزوا فى الصعيد[٦]. كذلك نقل بنو ربيعة إلى تلك المنطقة فى خلافة المتوكل، للوقوف أمام غارات البجة، ولكن ما لبثت ربيعة أن خالطت البجة وزاد نفوذها فى مناجم المعادن[٧]، وأصبح لها شأن عظيم فى أرض البجة[٨].

كذلك استقرت عدة قبائل فى الصعيد الأوسط ثم اتجهت إلى الصعيد الأعلى ومنها قبيلة همدان التى نزلت بالجيزة منذ بداية استقرار القبائل، ثم اتجهت نحو

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٦٩، ١٧٠؛ البلاذرى: فتوح البلدان، ص ص٢٣٦، ٢٣٧.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٨٨، ١٨٩؛ الكندى: الولاة، ص١٢، المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٩.

٣ – الكندى: الولاة، ص٢٨.

٤ – الكندى: الولاة، ص٤٧، ٧٦، ٧٧؛ المقريزى: البيان والأعراب، ص٤٣.

٥ – تؤكد أوراق البردى العربية أن الأمويين، قد تواجدوا منذ منتصف القرن الثانى أنظر: أدولف جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٣، لوحة (٨-١١) ص٣٩؛ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص٣٦٧.

٦ – الادفوى: الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والنشر، صفحات ٩٤، ١٤٥، ١٧٤.

٧ – المقريزى: البيان، ص ص٤٤، ٤٥؛ الخطط جـ١، ص١٩٧.

٨ – ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٣٢، ١٥٠.

الصعيد الأوسط ثم الأعلى. فمنذ النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى اســتقرت القبيلة الطحاوية بمدينة طحا[١].

وقد اتجه العلويون إلى الصعيد[٢]، منذ ظهورهم فى مصر سنة ١٤٤هــ/٧٦٣م، عندما دخلها على بن محمد بن عبد الله بن الحسن الذى كـان أول علـوى يدخـل مصر ثم اتجهو إلى الأشمونيين[٣].

ولقد حظى الصعيد الأعلى بهجرات عربية كان على رأسها قبائل بلـى التـى كانت تؤلف ثلث المجموعة القضاعية الساكنة فى بلاد الشام، فقد نقلت كلـها بـأمر عمر بن الخطاب إلى مصر، وتفرقت بأرض مصر، ويبدو أن جـزءا كبـيرا قـد اتجهوا إلى الصعيد[٤].

وكانت هذه القبائل العربية تفد إلى مصر باستمرار، وتصـاهر أهـل البـلاد، ومنهم أولاد الكنز[٥]، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان، أى من عرب الشـمال، وكانوا ينزلون اليمامة، وقد قدم كثير منهم إلى مصر فى خلافة المتوكـل علـى الله العباسى (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م) وانتشروا فى أنحائها، ونزلت طائفة منـهم بأعالى الصعيد[٦]، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية حتى خربوهـا،

---

١ - يختلف المؤرخون المسلمون حول طحا، فيفهم من كلام الكندى أنها قريبة من الفسطاط، بينما يذكر ابن تغرى بردى أنها إحدى ضواحى القاهرة، ويذكر جروهمان: هناك أحد عشر مكانا باسم (طحا) تقع فى مصر السفلى ومصر العليـا. (طحا المرج- طحا نوب - طحا سها - طحا ماعد - طحا بوش - طحا بيشا - طحا المدينة - طحا الخراب - طحا سوا - ديوب)، انظر: الكنـدى: الـولاة، ص١٦٨؛ ابـن تغرى بردى: النجوم، جـ٣، ص٣، ٢٣؛ جروهمان: أوراق البردى، ط دار الكتـب ١٩٦٨، جـ٥، ص١٢٣-١٢٥.

٢ - الكندى: الولاة، ص١١١.

٣ - الاشمونيين: مدينة قديمة كانت من كور الصعيد، وتقع غرب النيل. انظر: ياقوت: معجم البلـدان، ط بيروت ١٩٥٥، جـ١، ص٢٠٠، وهى الآن قرية من قرى مركز ملوى بمحافظة أسيوط محمد رمزى: القاموس، جـ٤، ص٦٠، انظر: الخريطة، ملحق الدراسة، شكل رقم (٥).

٤ - عبد المجيد عابدين: البيان والأعراب، ص٩٧، ١٠٥.

٥ - انظر: المقريزى: البيان والأعراب، ص٤٤؛ عطية القوصى: بنو الكنز، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٠، ص٤٥.

٦ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١٠، ١١٢.

فقامت بطون ربيعة تصدهم، ثم تزوجوا منهم، واستولوا على معدن الذهب بــوادى العلاقى. فكثرت أموالهم، وأصبحوا فى سعة من العيش(١).

أما قريش فيذكر المقريزى أنها نزلت بكثرة فى أسوان(٢)، منذ العهد الأمــوى، وملك أبناؤها الضياع فى بلاد النوبة(٣).

كذلك وفدت قبائل عربية أخرى إلى الصعيد الأقصى، منهم بنو هــلال، وبنــو سليم، ومعروف أن بنى سليم كانوا من بين البطون القيسية التى دخلت مصر ســنة ١٠٩هـ/٧٢٧م(٤)، ولكن يبدو أن سليما لم تستقر فى حوف مصر مع قيــس، بــل اتجهت جنوبا(٥)، وفى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، كانوا يعملــون فــى استخراج الذهب من مناجم الجنوب.

أما بنو هلال فقد دخلوا مع هجرة قيس، إلا أن ظهورهم فــى مصــر بشــكل واضح جاء بعد نقل كثيرين منهم إلى مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان، حيــث نزلوا الصعيد(٦)، وكان الهلاليون من أكثر القبائل تمسكا بــالبداوة، يؤثــرون حيــاة الانتقال والترحال والعصبية، وقد بلغوا فى تجوالهم الواحات(٧).

---

١ – المقريزى: البيان والأعراب، ص٤٤؛ وسوف تشهد حركة الهجرة والاستقرار فى الصعيد تطورا كبيرا فى القرن الثالث حين أخذت تنزح من الفسطاط إلى الصعيد. انظر: القسم الثانى من الدراسة.

٢ – يفسر المقريزى كلمة "أسوان" من قولهم أسى الرجل إذا حزن ورجل أسيان وأسوان أى حزين، ويفسره سليم حسن: بأنه مشتق من أسمها الفرعونى سونت أى السوق، وذلك لشهرتها كسوق تجارى لمصــر والنوبة، ثم حذفت الكلمة بعد ذلك، فأصبحت أسوان، ويفسرها البعض بأنها مشتقة من كلمة صــوان، وذلك لوجود محاجر الصوان والجرانيت بكثرة، كما عرفت باسم سونييت Swenet وســينييه Syenne عند اليونان أنظر: المقريزى الخطط، جـ١، ص١٩٧، سليم حسن: مصر القديمة جـــ٢، ص٢٩٦؛ سعاد ماهر: محافظات الجمهورية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٢١، العدد الأول ١٩٥٩، ص٨١؛ دائرة المعارف الإسلامية مادة (أسوان)؛ محمد رمزى: القاموس الجغرافى القسم الثانى، جـ٤، دار الكتب ١٩٦٣، ص٢١٦.

٣ – الخطط، جـ١، ص ص١٩٧، ١٩٨.

٤ – الكندى: الولاة، ص٧٦؛ المقريزى: البيان، ص٦٧.

٥ – اليعقوبى: البلدان، ص٢٣٥.

٦ – دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص٣٤٧ مادة (أبو زيد).

٧ – عبد الحميد يونس: الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى، جامعة القاهرة ١٩٥٦.

أما قبيلة جهينة، فقد اشتركت فى الفتح العربى بأعداد قليلة[١]، إلا أنها فى القرن الثالث الهجرى غزت بلاد البجة، وامتد نفوذها إلى بلاد النوبة، وأرض السودان لتسهم فى نشر الإسلام[٢].

ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان، إذ نرى فى معظم شواهد القبور التى كشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم المتوفى كان يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتسب إليه المتوفى، فيكتب السيوطى، أو الأدفوى أوالكوفى أو المصرى[٣].

ومع ذلك فتشير أوراق البردى العربى إلى وجود اسم القبيلة خلال القرن الثالث من الهجرة، فهذا عقد زواج يظهر فيه اسم الشخص متبوعا باسم قبيلته "هذا ما أصدق إسماعيل مولى أحمد بن مروان القرشى بمدينة أشمون عايشة[٤]".

الموالى والاقليات الأخرى :

استقر بمصر منذ عشية الفتح عناصر من الموالى، وخاصة من الفرس والترك، فيذكر ابن عبد الحكم أنه "قدم مع عمرو بن العاص قوم من العجم يقال لهم

---

١ - جهينة من قبائل اليمن، وهى جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، وهى قبيلة عظيمة، وفيها بطون كثيرة، وهى أكثر عرب الصعيد، وكانت مساكنهم فى بلاد قريش. انظر: المقريزى: البيان والأعراب، ص٣٢، ٣٣؛ عبد الله خورشيد: القبائل العربية، ص١٩٢.

٢ - انظر: رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ط دمشق ١٩٤٩، جـ١، ص٢١٦، ٢١٧؛ مصطفى مسعد: البجة والعرب والعرب فى العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادى والعشرين، جـ٢ ديسمبر ١٩٥٩م، ص ص٤٨، ٤٩، عبد المجيد عابدين: البيان والأعراب، ص١٠٥، عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص١٩٤؛ ارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص١٣٢.

3 - C. F: Wiet (Gaston): Catalogue Generel du Musée Arabe du Caire. Stéle Funéraires. Tomes I.V. Le Caire. wiet (G): L'Egypte musulmone (Précis de l'histoire d'Egypt. T. II) PP. 136- 137. Le Caire 1932:

سيدة كاشف: دراسات فى المجتمع المصرى الإسلامى قبل العصر الفاطمى، المجلد الثانى، ١٩٨٠، ص٢، مصر فى فجر الإسلام، ص٢٥٨؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١٢.

٤ - انظر: أدولف جورهمان: أوراق البردى العربية، دار الكتب ١٩٣٤، جـ١، ص٧٣ (لوحة ٣) عقد زواج رقم ١٥٩.

الحمراء والفارسيون[١]"، "فنزلت الروم الحمراء التى بالقنطرة، ونزلت الفرس بناحية بنى وائل، فمسجد الفارسيون هناك مشهور ومعروف[٢]"، ويتضح من هذا أن وجود الروم فى خطط الفسطاط، أنهم لم يكونوا مع عمرو عند حضوره، وإنما هم من البيزنطيين الذين فضلوا البقاء فى مصر، فقد ترك لهم حرية الخروج أو البقاء[٣]، واعتقد أن وجودهم بين خطط المسلمين لأنهم اعتنقوا الإسلام، أما الفرس فقد جاءوا مع الفاتحين، وأنهم كانوا مسلمين.

لقد كان بالفسطاط حمراوين أحدهما للفرس، والأخرى للروم[٤]، وزيدت خطة ثالثة بعد أن ازد حمتا بالنازحين، ويذكر المقريزى أن اسم الحمراء كان يطلق على المنطقة الواقعة بين الحصن، وبين جبل يشكر[٥].

ولقد تولى الموالى العديد من المناصب الإدارية بمصر، وخاصة العجم، فيذكر الكندى أنه "فى ولاية بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك سنة إحدى ومائة، جعل على شرطه شعيب بن حميد بن أبى الربذاء البلوى من الموالى[٦]".

وقد أخذ هذا العنصر فى التدرج فى سلم المناصب بمصر حتى وصل بعضهم إلى منصب الوالى، يقول الكندى: "ثم وليها مولى أبى جعفر من قبل المهدى على صلاتها وخراجها يوم دخلها يوم الثلاثاء لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين ومائة فجعل على شرطه موسى بن زريق مولى بنى تميم[٧]".

وفى خلافة المأمون العباسى، وولاية كيدر جعل على الشرطة رجل من العجم اسمه بسطام، وقد عزله كيدر لرشوة ارتشاها، فأمر بضربه بالسوط فى صحن المسجد الجامع، وولى رجلا بخاريا يقال له داوه[٨].

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٩؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٩٨؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٥.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٩، انظر: الخريطة، ملحق الدراسة، شكل (٣).

٣ – ابن عبد الحكم، ص٧٠، ٧١.

٤ – المصدر نفسه، ص١٢٩.

٥ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٠.

٦ – الكندى: الولاة، ص٧٠.

٧ – المرجع السابق، ص١٢١.

٨ – المصدر نفسه، ص١٩٣.

ويشير المقريزى أيضا إلى عناصر السكان من غير العرب فيقول: "أعلم أن أرض مصر، لما دخلها المسلمون كانت مشحونة... وكلهم روم من جند القسطنطينية ملك الروم، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومى[١]".

وقد وجدت عناصر من الجنسيات الأخرى منها الشاميون الذين جاءوا مع الجيش الفاتح، وقد خرج بعضهم فى خلافة يزيد بن عبد الملك، وقد قتل زعيمهم ربيعة من موالى أهل حمص، وأخرج أصحابه إلى أجنادهم فى سنة خمس وعشرين ومائة هجرية[٢].

كذلك وفد على الإسكندرية عنصر جديد، هم الأندلسيون، جاءوا من أجل التجارة فى سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، وقد أثروا فى الحياة السياسية بعد انضمامهم إلى قبائل لخم[٣].

هذا وقد وجد فى مصر العنصر النوبى والحبشى[٤]، إذ تشير أوراق البردى إلى وجود الرقيق الأسود، فهناك خطاب خاص ببيع جارية نوبية من الرقيق، يرجع إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى[٥]، ومن المعروف أن العرب حرضوا على شراء الاقنان، إذ يذكر البلاذرى: "كان خباب قينا، وكان قد أسلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يألفه ويأتيه[٦]" ولما كثرت حركة الفتح كثر الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة، ووزع المسترقون رجالا ونساء وذرارى على العرب الفاتحين[٧].

ويشير القلقشندى إلى أن أحمد بن طولون خصص لهم قطيعة باسمهم فى مدينته الجديدة هى قطيعة السودان، وهذا دليل على كثرة عددهم بمصر منذ سنة ٢٥٦هـ، إذ شكلوا عنصرا أساسيا فى المجتمع المصرى[٨].

١ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٢.

٢ – الكندى: الولاة، ص٨٣.

٣ – المصدر نفسه، ص١٥٨، ١٦٢، ١٦٣.

٤ – المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص٣٢٤.

٥ – جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، طراز رقم ٦٠٥، ص٣٥.

٦ – البلاذرى: أنساب الإشراف، جـ١، ص ص١٧٨، ١٧٩.

٧ – أحمد أمين: فجر الإسلام، جـ١، ص ص٨٨، ٨٩.

٨ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣١، ٣٣٢؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٣١٥.

العصبية القبلية فى مصر:

وظهرت عدة ظواهر اجتماعية متأثرة بالسلوك القبلى العام نذكر منها، (الحلف)، وهو ارتباط بين القبائل فى تحمل أعباء الحاضر ومواجهة حوادث المستقبل، فقد تحالفت مدلج (قبيلة فى مضر) ونبحان (قبيلة من حمير) وأقامتا بخربتا[١]، كما حالفت قبيلة جيشان أبو سالم المعافرى وأصبح هو وبنوه ينسبون إليها[٢].

وكان عبد الله بن المهاجر الذى أخمد ثورة القبط فى بلهيب سنة ١٥٦هـ/٧٧٢م، حليفا لبنى عامر من تجيب[٣]، وكان إبراهيم بن اسحق قاضى مصر (٢٠٤-٢٠٥هـ) حليفا لبنى زهرة[٤].

ومن مظاهر السلوك القبلى الاستجارة، مثلما حدث فى مصر، لما استجار كريب بن أبرهة سيد حمير الخليفة مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ عندما تجمع المصريون على بابه يريدون قتله انتقاما للاكدر بن حمام سيد لخم[٥].

كما لعبت العصبية القبلية دورا كبيرا بين القبائل العربية المقيمة فى مصر، فقد وقف قيس بن سعد الأنصارى، والى مصر، يوصى خليفته محمد بن أبى بكر القرشى (سنة ٣٧هـ/٦٥٧م) بأن يعامل قومه المضريين معاملة طيبة فقال: "وانظر هذا الحى من مضر، فأنت أولى بهم منى، فألن لهم جناحك، وقرب عليهم مكانك، وارفع عنهم حجابك[٦].

وبلغ من قوى العصبية بين العرب فى مصر، أنه فى القرن الثانى، كان القاضى توبة بن نمر (١١٥-١٢٠هـ) لا يقبل شهادة مضرى على يمانى ولا يمانى على مضرى[٧].

أما عن العطاء، فالواقع أن هذه القبائل العربية المهاجرة ظلت طوال عصر الراشدين، والأمويين وأوائل العصر العباسى، تكون طبقة ارستقراطية حاكمة

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٢.

٢ - الكندى: الولاة، ص٣٥٣.

٣ - المصدر نفسه، ص١١٩.

٤ - عبد الله خورشيد: القبائل العربية، ص٢٣٤.

٥ - الكندى: الولاة، ص٤٦.

٦ - المصدر نفسه، ص٣٧.

٧ - الكندى: الولاة والقضاة، ص٣٤٦.

تحتكر الخدمة فى الجيش، والمناصب الإدارية والعسكرية، وتنال العطاء من بيت المال(١).

وإذا كان المؤرخون قد ذكروا أن عمر بن الخطاب أمر مناديه بالخروج إلى أمراء الأجناد ليتقدموا إلى الرعية "بأن عطاءهم قائم، وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون(٢)". فالحقيقة أن عمر بن الخطاب قصد بذلك الا ينشغل جند المسلمين بغير الجهاد، حدث ذلك عقب الفتح مباشرة.

ومن النظم الأساسية التى سنها عمرو للعرب فى مصر، بعد أن يعودوا من غزوهم، أذن لمن أراد منهم الخروج بجواده يربعه أى ليرعى فى مراعى الريف، وذلك حتى لا يكون جواد كل منهم هزيلا، وترك لكل قبيلة حرية اختيار الكورة التى تحب أن ترتبع فيها(٣).

ولا شك فى أن الارتباع كان فرصة للعرب ليتعرفوا فيها على البلاد، ويختلطوا بأهلها، وكان لذلك أثر كبير فى امتزاج الفريقين امتزاجا أدى إلى انتشار العرب فى مصر، وترك أثره فى نشر الإسلام.

وكانت حركة الارتباع هذه تتم حسب نظام مرسوم، فكان الوالى إذا جاء الربيع يصدر أمرا كتابيا يحدد فيه القرية التى تذهب إليها القبيلة(٤)، وكميات اللبن التى يسمح لها بالحصول عليها من المصريين.

وحركة الارتباع هذه تتركز فى عدد من القرى منها منف أول مدن الصعيد،

---

١ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١١؛ جرجى زيدان: تاريخ التمدن الاسلامى، جـ٥، ص١٨.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٦٢؛ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٤٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٧٣.

٣ - جاء فى خطبة عمرو بن العاص: "فحى لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيره، ولبنه وخرافه وصيده وأربعوا خيلكم وأسمنوها، وصونوها واكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأثقالكم واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا واياى والمشمومات والمعسولات فأنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم". وقد خصص ابن عبد الحكم فصلا بعنوان "ذكر مرتبع الجند" انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣٩، ١٤٠، ١٤١؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٨٠، وأيضا جـ٢، ص٢٦٠.

٤ - يذكر ابن عبد الحكم: "وكان إذا جاء وقت الربيع واللبن، كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا" فتوح مصر، ص١٤١؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٦٠، انظر ملحق الدراسة، خريطة شكل (٦).

على غربى النيل من أعمال الجيزة[١]، وأوسيم، كما كانت تتركز فى الشمال الشرقى من الفسطاط فى عين شمس، وهى المدينة المعروفة اليوم بتل الحصن، وما جاوره بأرض المطرية، وأتريب[٢]، وبالقرب من بنها وبسطة وهى قرية فى محافظة الفيوم، وطرابية وهى إحدى قرى محافظة الشرقية، ومركزها فاقوس[٣]، وأبليل وهى مجاورة لطرابية ونتو[٤].

وكان موسم الارتباع يستمر حوالى ثلاثة أشهر، فهو يبدأ عادة أخر الشتاء، وقد "تدلت الجوزاء وذكت الشعرى[٥]" وينتهى فى أوائل الصيف، وكان فرصة كبيرة للاتصال المباشر بين العرب والمصريين، إذ كان يتم بالتدريج فى هذه الهجرة السنوية الداخلية، ويتم تبادل الصلات والمؤثرات بين العرب والمصريين.

وظلت الهجرات العربية تفد إلى مصر حتى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م) إذ شهد عهده تطورا هاما ترك أثر فى تاريخ البلاد، فقد بدأت هذه لقبائل تفقد امتيازاتها العسكرية والإدارية والمالية[٦]، إذ كانوا يأخذون العطاء من بيت المال[٧]، ويبدو أن الولاة قد راعوا أن يكون العطاء مجزيا بحيث يغنى العرب عن الاشتغال بحرف أخرى، والتفرغ للجهاد.

ويذكر البلاذرى أن العطاء كان يصرف للجند شهريا، قال: "أن عمر بن الخطاب صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنا أجرينا عليكم اعطايتكم

---

١ - محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص٤٢٢؛ ويذكر المقريزى: "وكان إذا جاء وقت الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا، وكانت القرى التى يأخذ فيها معظمهم منوف وسمنود وأهناس وطحا، وكان أهل الراية متفرقين" انظر: الخطط، جـ٢، ص٢٦٠، ٢٦١.

٢ - اندثرت هذه القرية، ويدل على موقعها التلول التى بأحواض أتريب الواقعة فى الجهة الشمالية من بندر بنها. انظر: محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص٤٢١.

٣ - ابليل بالقرب من صا الحجر وطرابية بمركز فاقوس مديرية الشرقية، وقد اندثر مكانها، ويعرف مكان ابليل اليوم "بتل بليم" المحرفة من ابليل، ويقال له أيضا تل البطيخ بجزيرة فى بحيرة المنزلة شرقى صان الحجر على بعد ٣١كم. انظر محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص٤.

٤ - هى قرية آثارها باقية إلى اليوم تعرف باسم تل المقدام بأراضى كفر المقدام بمركز ميت غمر. انظر، محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ص٤٥٣. انظر: ملحق الدراسة، خريطة شكل (٤).

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٠.

٦ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١١.

٧ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٢٠٢، ٢٠٣.

وأرزاقكم فى كل شهر، وفى يديه المدى والقسط، قال فحركهما، وقال: فمن انتقصهم فعل الله به كذا ودعا عليه[١]".

كذلك تذكر المصادر أنه فى عهد عمر بن عبد العزيز كان يصرف العطاء فى موعده، فإذا مات صاحب العطاء يأخذه ورثته[٢].

وكان الناس فى الديوان مرتبين حسب النسب[٣]، وحسن الأثر فى الدين، ثم روعى فى التفضيل عند انقراض أهل السوابق التقدم فى الشجاعة والبلاء فى الجهد[٤].

وكان الحد الأعلى من العطاء الذى يدعى "شرف العطاء" ألفين وخمسمائة درهما[٥]، وكان يعطى لأهل الأيام والفتوح الأولى، ولا يورث، كما كان لنساء

---

١ - البلاذرى: فتوح البلدان، ص٤٤٧.

٢ - يذكر ابن سلام: "ان المبلغ المحدد من العطاء كان يورث إلى أن أنكر عمر بن عبد العزيز الوراثة" وقال: "اقطع الوراثة واعم الفريضة" إلا أنه خشى أن يستن به فى قطع الوراثة، ولا يستن به فى عموم الفريضة، فترك الأمر كما كان. انظر: ابن سلام: الأموال، القاهرة، بدون، ص٢٣٦-٢٤١؛ البلاذرى: مصدر سابق، ص٤٤٧.

٣ - الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، وفى تسميته ديوانا وجهان: أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرأهم يحسبون مع أنفسهم، فقال ديوانه أى مجانين فسمى موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان، والثانى أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور، ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان. انظر الماوردى: الأحكام السلطانية، ص١٩٩؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص١٠٦-١١٠.

٤ - يذكر البلاذرى: "أن عمر بن الخطاب استشار المسلمين فى تدوين الديوان فقال على بن أبى طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئا، وقال عثمان: أرى مالا كثيرا يسع الناس، وأن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ من لم يأخذ حسب أن ينتشر الأمر، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جند فدون ديوانا وجند جندا، فأخذ بقوله... فقال: اكتبوا الناس على منازلهم فبدءوا ببنى هاشم، اتبعوهم أبا بكر وقومه ثم عمر وقومه على الخلافة، قالوا لما أجمع عمر على تدوين الديوان وذلك فى المحرم سنة عشرين بدأ ببنى هاشم فى الدعوة". انظر البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٤٣٥-٤٣٧؛ الماوردى: الأحكام السلطانية، ص١٩٩-٢٠٣؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص١٠٨؛ أبى الفدا: المختصر، ط بيروت، جـ١، ص١٦٠؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١٩، ص٣٣٤، ٣٣٥.

٥ - ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٤٢.

العرب عطاء يبلغ مائتى درهم لكل امرأة، كما خصص للأطفال دون السابعة عشرة "مائة درهم سنويا تدفع عند الفطام[١].

وكان عمر بن الخطاب لا يفرض للمولود شيئا حتى يفطم إلى أن سمع امرأة ذات ليلة، وهى تكره ولدها على الفطام، وهو يبكى إذ سألها عنه: فقالت: ان عمر لا يفرض للمولود حتى يفطم فأنا اكرهه على الفطام حتى يفرض له، فقال: يساويل عمر كم احتقب من وزر وهو لا يعلم، ثم أمر عمر مناديه فنادى: الا تعجلوا أولادكم بالفطام، فأنا نفرض لكل مولود فى الإسلام وقد فرض للمولود مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتى درهم[٢].

وفى عهد عثمان بن عفان كان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار، وذلك عندما كان الجيش يستعد لغزو أفريقية مع عبد الله بن سعد[٣].

وقد تم اختلاط العرب بالمصريين فى خلافة المعتصم العباسى، إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان وليا للعهد تنطوى على الاعتماد على الأتراك، وعدم الثقة بالعرب[٤]، فلما بويع بالخلافة أرسل إلى والى مصر كيدر بن نصر ابن عبد الله (٢١٦-٢١٩هـ/ ٨٣١-٨٣٤م) يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب وقطع اعطياتهم فتم ذلك[٥].

ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب، وبين أهل البلاد[٦]، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند، لم يكن له رد فعل عنيف، فعندما قطع كيدر العطاء، ثار يحى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم[٧] وجذام، وقال: "هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه، لأنه منعنا حقنا وفيئنا" ولكن لم

---

١ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٤٥٨، ٤٥٩.

٢ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٢٠٢؛ ضياء الدين الريس: الخراج، الأنجلو ١٩٦١، ص ص١٤٥، ١٤٦.

٣ - الكندى: الولاة والقضاة، ص١٢.

٤ - عبد المنعم ماجد: العصر العباسى الأول، الأنجلو ١٩٧٣، جـ١، ص٢٨٨.

٥ - الكندى: الولاة، ص١٩٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٢، ص ص٢٢٢، ٢٢٣؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٩٤: انظر: إهمال العباسيين العصبية العربية، والابتعاد عنها، والعمل على أضعافها، والاعتماد على عصبيات أخرى؛ ابن خلدون: العبر، جـ١، ص١٥٦.

٦ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١١.

٧ - الكندى: الولاة، ص١٩٣، ١٩٤، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ص٢٢٢، ٢٢٣.

يتبعه أكثر من خمسمائة رجـــل، وانتـــهت ثورتـــهم بأســـر زعيمـــهم فـــى ســـنة ٢٦٩هـ/٨٣٤م فتفرق عنه أصحابه(١).

ولم يكترث العرب بتلك الثورة، ولا بضياع امتيازاتهم الطبقيـــة، إذ لـــم تعـــد مصالحهم مجرد مصالح عسكرية، سياسية تستهدف الحكم والسلطان وإنما أصبحـت مصالح اقتصادية.

وقد اضطر العرب إلى الانتشار فى الريف والاختلاط بالمصريين والـــتزاوج والمصاهرة ومن ثم بدأت حركة الاندماج بين العرب وبين المصريين(٢) ، التى كـان لها أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية والإسلام(٣).

وتتحدث المصادر الإسلامية ابتداء من القرن الثالث عن الألقاب العربية، وقـــد بدأت تتغير فبدلا من الانتساب للقبائل، نسبوا إلى أسماء وطنهم فى مصر، ومدنـــها، وأقاليمها، فمثلا ذو النون المتصوف المعروف فى شاهد قبره سنة ٢٤٥هـــ ذو النـــون المصرى(٤).

وبدأت منذ العصر العباسى أيضا ظاهرة أخرى وهى اتجاه الكثير من القبـــائل العربية التى لم ترض بالاستقرار، ولم ترد أن تترك حياة البداوة إلى الـــهجرة فـــى حركات مطردة نحو صعيد مصر، ثم نحو حدود النوبة، ثـــم داخـــل بـــلاد النوبـــة والسودان(٥).

الخلاصة أن العرب فى مصر لم يكونوا فى عزلة عن أهلها فقد تعاملوا معـــهم، ولا يمكن إغفال دور الدعوة إلى الإسلام بينهم، وقد أتاح إسلام مـــن أســـلم منـــهم الفرصة لمزيد من التقارب، حتى إذا رفع اسم العرب فيها من الديوان، كـــانوا قـــد انتشروا واستقروا، وصار تعاملهم مع المصريين على أسس راسخة.

---

١ – الكندى: الولاة، ص ص١٩٣، ١٩٤.

٢ – المقريزى: البيان والأعراب، ص ص٥٠، ٥١؛ وأيضا الخطط، جــ١، ص٨٠، ٨١،

3- Wiet: Precis de L' histoire d' Egypte T II. PP. 136-137.

٤ – ابن تغرى بردى: النجوم، جـــ٢، ص ص٣٢٠، ٣٢١؛ ابن الوردى: تتمة المختصر فى أخبـــار البشـــر، ط بيروت، ص٣٤٢؛ ابن جبير: الرحلة، بيروت ١٩٦٤، ص٢٣-٢٦؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربيـــة، جـــ١، ص١١١.

٥ – سوف نتعرض لطبيعة الهجرات العربية إلى النوبة والسودان فى القسم الثانى من الدراسة. انظر: حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـــ١، ص ص١١٢، ١١٣.

الفصل الثالث
انتشار الإسلام والثقافة العربية فى مصر

- انتشار الإسلام:
  - الدعوة إلى الإسلام.
  - انتشار الإسلام التدريجى.
  - انتشار اللغة العربية وتعريب مصر.
- الثقافة العربية فى مصر ودور مدرسة الفسطاط:
  - النشاط الثقافى لمدرسة الفسطاط (العلوم الدينية)
  - تأثر مدرسة الفسطاط بالمذاهب الفقهية الأربعة.
  - ذو النون المصرى رائد التصوف فى مصر.
  - العلوم العربية الأخرى (التاريخ- الشعر- النحو).

الفصل الثالث

انتشار الإسلام، والثقافة العربية في مصر

الدعوة إلى الإسلام :

كان للفتوحات الإسلامية أثر ملحوظ فى سرعة وصول الدعوة الإسلامية إلى كافة المناطق التى تم فتحها[١]، فقد تمكن الدعاة من بث الدعوة بين الناس بالتى هى أحسن من غير إكراه فى الدين، فلم يلبث ان أعتنق البعض الإسلام، وتبعهم غيرهم على مر الأيام[٢]، حتى أصبح المسلمون فى مصر وفى غيرها أغلبية[٣].

فعالمية الإسلام فرضت على المسلمين القيام بالدعوة إلى الإسلام، والعمل على إعلام الناس كافة به[٤]، فقد بعث الله تعالى رسوله برسالة الإسلام إلى الناس كافة لدعوتهم إلى الإسلام بالحسنى، ومن غير إكراه[٥].

وقد تسامح المسلمون مع أهل البلاد المفتوحة، واحترموا عقيدتهم[٦] وفيما يتعلق

---

١ - ساويرس: سير الإباء البطاركة، جـ١، ص ١٦٤، محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية، ص٣٣، شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامي، ص١٠٩.

2- Miline: A history of Egypt under Roman Rule, London, 1924, P. 215;

زبيدة عطا: إقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م، ص٨٣.

٣ - المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٢، ٤٩٤، سيدة كاشف: تاريخ بطاركة الكنسية المصرية، لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى ، مجلة الجمعية التاريخية، المجلدان التاسع والعاشر ١٩٦٠-١٩٦٢، ص١٢.

٤ - أنظر: محمد عبد العال: الإسلام فى غرب القارة الأفريقية جذوره الأولى ووسائل انتشاره، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٦م، ص٢، أحمد أمين: فجر الإسلام، جـ١، ط١٠، النهضة المصرية ١٩٦٥م، ص ص ٨٥، ٨٦، أرنولد: الدعوة الى الإسلام، ص٢٧-٣٠.

٥ - الآيات القرآنية: التى تنص على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: " قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً"، سورة الأعراف، آية ١٥٨، وقوله سبحانه " ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا" سورة سبأ، آية ٢٨، وقوله تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" سورة النحل ، آية ١٢٥.

٦- المقريزى: الخطط، ج ٢ ، ص ٤٩٢، على عبدالواحد وافى: الحقوق الانسانية فى الاسلام، ط ٥، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٢٠، محمد عبدالعال: مرجع سابق، ص ٣ ، أرنولد : مرجع سابق، ص ١٥٧ سعيد عاشور: الاسلام والتعريب، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثانى ١٩٧٩، ص ١٧٥.

بمصر فقد تضمنت معاهدة عمرو بن العاص مع المصريين ما نصه: التعهد بتحقيق الأمان للمصريين على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم[1].

وقد اعترف المصريون بسماحة الإسلام والمسلمين، يؤكد ذلك ما ذكره أحد أساقفة الكنيسة المصرية فقد قال: ان العرب الذين فرضوا سيادتهم علينا يحترمون الديانة المسيحية ورجالها، ولا ينتهكون من حرية ديننا مطلقا[2].

وقد اتسم الإسلام بالبساطة، وعدم التعقيد، ولم يجعل للكهنوت سلطانا على المسلم، بل جعله متصلا بالله دون واسطة، واتسمت سيرة الفاتحين بالعدل والرأفة، والتسامح على خلاف ما شهده مسيحيو مصر في أيام الحكم البيزنطي[3].

وهكذا وجد الإسلام طريقة بسرعة إلى قلوب المصريين، وأقبل كثير منهم على اعتناق الإسلام، ولم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان ، بل دخل القلوب عن شوق واختيار[4].

كانت السياسية الإسلامية قبل الفتح تخير أهل الأمصار المفتوحة بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب، وراعوا في تقدير الجزية على حسب ثروة الفرد فالغني لا يجبى منه مثل فقير أو متوسط الحال، وبتمام الفتح أو التوصل لصلح يكون الخيار بين الإسلام أو الجزية فقط[5].

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٠، الطبري: تاريخ الامم والملوك، جـ٣، ص ص١٩٩-٢٠٠، القلقشندي: صبح الاعشي، جـ١٢، ص٣٣٤، ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١ ، ص ص٢٤، ٢٥.

٢ - محمد عبد العال: مرجع سابق، ص٤، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ص١٨٨-١٩١.

٣ - ساويرس: سير الآباء البطاركة، جـ١، ص ص١٠٥، ١٠٦، أرنولد: الدعوة، ص ١٢٣، بتلر، مرجع سابق، ص١٣٥، محمد عزة دروزة، عروبة مصر، ص٩٥.

Marcel· Egypt depuis la conquete des Arabes Jusque à la domination. Francais. P. 12; Father C. Anwati: Op. Cit., P. 29.

٤ - دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، القاهرة ١٨٩٨م، ص ص٤٤، ٤٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٦٥، ٦٦، الماوردي: الاحكام السلطانية، ص ص١٤٤، ١٤٥، المقريزي: النقود الإسلامية، ط النجف ١٩٦٩، ص٢٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ص١٢، ١٣، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١ ، ص١٠٢.

انتشار الإسلام التدريجى فى مصر:

أقبل المصريون على اعتناق الإسلام، وأخذ عددهم يتزايد تدريجيا، كلما تقدم العهد بالعرب فى مصر حتى صار من بقى منهم على دينه المسيحى قليل العدد على انه يمكن القول بأن الإقبال على اعتناق الإسلام، كان على نطاق أوسع فى عصر الولاة عنه فى عصر الدول المستقلة- أى الطولونية والإخشيدية والفاطمية – التى أصبح فيها القبط أقلية[١].

وأيا ما كان الأمر، فان من أسلم من المصريين أصبح له ما لغيره من المسلمين وعليه ما عليه، فبإسلامهم انضموا إلى صفوف المسلمين، وشاركوهم فى الجهاد[٢]، ولم يقتصر اعتناق الإسلام على العامة منهم، بل كان كثير من رجال الدين المسيحى ممن اعتنقه ومن هؤلاء يوحنا أحد رهبان سيناء، الذى كان يعتنق المذهب الملكانى، ولكنه تركه، واعتنق الإسلام، وحمل السلاح إلى جانب المسلمين، وكان يشتد على المسيحيين أكثر من الملكانيين أو اليعاقبة[٣].

ولعل صدق مشاعر قبط مصر نحو العرب، وأخذهم عهد الأمان، هو ما ذكرته المصادر العربية والمسيحية من خروج سبعمائة راهب من وأدى هبيب ، طالبين من عمرو بن العاص أن يكتب لهم عهدا وأمانا ، وقد حدث هذا بالفعل وأخذوا يتوارثونه جيل بعد جيل[٤].

كان اعتناق الإسلام يبرز فى فترة أكثر من غيرها، وان كنا لا نستطيع أن نحدد عدد من كان يتحول إلى الإسلام فى عصر كل والى أو خليفة، هذا بجانب أن فكرة إحصاء سكان مصر سواء من المسلمين أو المسيحيين المصريين أو اليهود، لم تكن تتم دائما فى تلك المرحلة المبكرة التى اتسمت بتحويلات كبيرة فى مصر، وان كان التدوين الخاص بالقبائل قد وجد مع الفتح[٥]، وأحصى الرهبان فى عصر

---

١ – ساويرس: سير الاباء البطاركة ، ج ١، ص ١٦٤، حسن محمود: مصر الطولونية، مكتبة النهضة، القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٤. وأيضا: حسن محمود: العالم الاسلامى فى العصر العباسى، ط الاولى، القاهرة ١٩٦٦م، ص٢٢٦.

2 - Chronique de Jean. PP. 440. 465

3 - C.F Hardy: Christian Egypt. Churches and People, New YorkK 1952. P. 189

٤ – ساويرس: سير الآباء البطاركة، جـ١ ، ص١٢٧، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١ ص١٨.

٥ – البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص ص٤٣٦، ٤٣٧، الكندى: الولاة، ص ص٧٠، ٧١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ٢، ابن اياس: بدائع الزهور، ص١، ص١٢٥.

الولاة الأمويين[١]، ولكن نلاحظ أن هذا الإحصاء كان يتم فـــى عصـــور مختلفـــة ومتباعدة.

وهناك من يرى أن التحول إلى الإسلام من جانب أهل الذمة كـــان مـــن أهـــم عوامله الرغبة فى التخلص من الأعباء المالية، وفى مقدمتها الجزيـــة المفروضـــة عليهم[٢]، وصحيح ان إسلام الذمى يخلصه من الجزية، لكنه يفرض عليه نوعا آخر اختص الله به المسلمين هو وجوب الزكاة[٣]، وعلى ذلك فان القول بدخول الذمى فى الإسلام من أجل التخلص من عبء مالى لا أساس له من الصحـــة، لان الإســـلام أعطى الفرصة لمن يريد اعتناقه ان يكون ذلك عن اقتناع كامل وليس بـــالإكراه أو الضغط.

لقد شجعت الخلافة الإسلامية أهل الذمة على اعتناق الاسلام، وبخاصـــة منـــذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م) حين أعلن فـــى جميع الأمصار الإسلامية ومنها مصر، أن من يعتنـــق الإســـلام يعفـــى مـــن أداء الجزية[٤]، ونتيجة لهذه السياسة المالية كتب والى مصر آنذاك حيان بن سريج إلـــى عمر بن عبد العزيز يقول: "أما بعد فان الإسلام قد أضر بالجزية، حتى سلفت مـــن الحارث بن ثابتة عشرين آلف دينار، وتممت عطاء أهل الديوان، فـــان رأى أمـــير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل[٥]".

فكتب إليه الخليفة "ضع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك، فان الله أنمـــا بعـــث محمد صلى الله عليه وسلم هاديا، ولم يبعثه جابيا، ولعمرى لعمر أحقر من ان يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه[٦]".

---

١ - المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٣.

2 - Father C. Anawati: Op Cit., P. 28; Fowler: Christian Egypt, London, 1901, P. 58.

٣ - محمد ابن ادريس الشافعى: ألام، ط بولاق ١٣٢١هـ، جـ١، ص٢١١، أثبتـــت أوراق البردى أن الولاة فى مصر كانوا يقومون بجباية فريضة الزكاة وتسليم الأهالى ايصالا أو براءة، ولدينا ايصـــال يرجع إلى القرن الثانى الهجرى سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، عن زكاه بعض الاشخاص.
C.F: Grohmann: Arabic Papyri. Vol. III. P. 177.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥٦، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٧٨.

٥ - يشير المقريزى الى أن الخليفة أمر رسوله بضرب حيان بن سريج عشرين سوطا أدبا له على قولـــه. انظر: المقريزى، الخطط، جـ١، ص٧٨، ابن النقاش: المذمة فى استعمال أهل الذمة، مخطوط بـــدار الكتب، رقم ٣٩٥٢، ٤٣١٥ تاريخ، ص٨٣.

٦ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٧٨.

وكان حفص بن الوليد الحضرمى (١٢٥هـ-١٢٦/٧٤٣-٧٤٤)، من أكثر الولاة المسلمين تشجيعا لأهل الذمة على اعتناق الإسلام، يقول ساويرس: "وقد أعلن حفص أن كل من يتخلى عن دينه، ويصير مسلما، لا يؤخذ منه بعد جزية[1]، وبلغ عدد من أسلم فى عهده حوالى أربعة وعشرين ألف قبطيا[2].

على انه يمكن القول بأن رفع الجزية عمن أسلم أساسى، لأنه لا جزية على مسلم، فإذا كان عمر بن عبد العزيز أو غيره قد أمر بإعفاء من أسلم من الجزية، فذلك رجوع إلى الأصل والأساس، وأبطال ابتدعه بعض الولاة من عدم إسقاط الجزية على من أسلم.

ولاشك أن الثورات المناهضة التى قام بها الأقباط فى عصر الولاة الأمويين والعباسيين (فى الفترة ما بين سنتى (١٠٧-٢١٦هـ/٧٢٥-٨٣١م)، والتى كان الولاة المسلمون ينجحون فى القضاء عليها بسرعة كان يتبعها غالبا، تحول كثيرون من مسيحى مصر عن دينهم، واعتناقهم الإسلام[3].

وقد بلغ انتشار الإسلام مداه، بعد ثورة البشموريين[4] فى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م، فى عهد الخليفة العباسى المأمون[5]، وهى أخر ثورات القبط فى عصر الولاة، بل وفى عصر الدول المستقلة، إذا أصبح المسلمون بعدها أغلبية بعدَ ان أسلم عدد كبير من القبط، وفى ذلك يقول المقريزى: "ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم، بعد ذلك على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عامة القرى، فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة، واستعمال المكر والحيلة، ومكايدة

---

١ - ابن المقفع: سير الاباء البطاركة، م١، جـ٢، ص١٧٢، أرنولد: الدعوة، ١٢٥.

٢ - ساويرس: سير الاباء، م١، جـ٢، ص١٧٣.

٣ - انظر: الكندى: الولاة، صفحات ٧٣، ٧٤، ٨١، ٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٠٢، ١١٦، ١١٧، ١١٩، المقريزى: الخطط، جـ٢، صفحات ٢٦١، ٢٦٢، ٤٨١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٣.

٤ - أطلق على المنطقة التى اندلعت فيها ثورة القبط منطقة البشمور أو البشرود، وهى المنطقة الرملية الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد والتى عرفت قديما باسم بيكولى Bucolies. انظر صفاء حافظ: الموانى والثغور المصرية، ط الكويت ١٩٨٦، ص٥٦.

٥ - الكندى: الولاة، ص١٩٠-١٩٢، المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤ أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية، القاهرة ١٩٧٠، ص٤٦.

المسلمين وعملوا كتاب الخراج[١]".

ولكن يبدو أن انتشار الإسلام فى مصر لم يكن بوجه عام نتيجة اضطهادات أو إرغام على اعتناق الإسلام، ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هـذه النتيجة إذ قرأنا ساويرس أسقف الأشمونيين، الذى لم يكن ليغفل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين فى مصر[٢].

ولا ريب أن فريقا من القبط أقبلوا على اعتناق الدين الإسلامي عن إيمان واقتناع ولعل فريقا منهم كان قد مل الخلافات الدينية التى كانت تقسم العالم المسيحى فى ذلك الوقت، والاضطهاد الذى كان يتعرض له أصحاب المذهب اليعقوبى[٣].

هكذا تتابعت موجات الداخلين فى الإسلام من المسيحيين المصريين، وشهد النصف الأول من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، انتشارا واسعا للإسلام فى مصر، حتى إذا كانت أمارة أحمد بن طولون على مصر فى سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م، كان أكثر مسيحى مصر قد تحولوا إلى الإسلام، وصار المسلمون الأغلبية العظمى بين السكان[٤]، وصار أهل الذمة أقلية قليلة، ومن ثم أخذت الصبغة الإسلامية تشكل المجتمع المصرى[٥]، وتطبعه بطابعها فى العادات والتقاليد، وفى الحياة الاجتماعية بصفة عامة، وأكبر دليل على زيادة عدد المسلمين وتناقص عدد الذميين انذاك، تضاؤل حصيلة الجزية، فلم تعد بابا أساسيا من أبواب الدخل فى مصر، منذ العصر الطولونى، إلى جانب اختفاء ثورات القبط[٦]، التى كانت من مميزات عصر الولاة الأمويين والعباسيين[٧].

---

١ - المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤، وانظر كذلك بتشر: تاريخ الأمة القبطية، م٢، ط القاهرة ١٩٥٠، ص٢٢٤، منسى القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٢٤، ص٤٧٩.

٢ - سيدة كاشف: تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع، ص١٣.

٣ - المقريزى: الخطط، ج٢، ص٤٨٨.

4 - Father. C. Anwati: Op. Cit., PP. 32-34:

احمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية فى مصر، القاهرة ١٩٧٠، ص ص٤٦، ٤٧.

٥ - حسن محمود: حضارة مصر الاسلامية، العصر الطولونى، ص٥٤.

٦ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٨٢.

٧ - المصدر نفسه، جـ١، ص٨٢، جـ٢، ص٤٩٤.

ويؤكد ذلك ما أشار إليه المقريزى من انحطاط جباية خراج مصر، فبعد أن كانت فى إمارة عمرو بن العاص، اثنا عشر مليون دينار[١]، وفى ولاية خلفه عبد الله بن سعد بن أبى السرح أربعة عشر مليون دينار[٢]، انحطت كثيرا عن هذا المقدار، حتى وصلت إلى ما يتراوح بين ثلاثة وأربعة مليون دينار فى القرن الثالث الهجرى[٣].

وهذا يعتبر دليلا على تناقص أهل الذمة الذين يؤدون الجزية، وصارت موارد البلاد تعتمد إلى حد كبير على خراج الأرض الذى يؤديه الذمى المحتفظ بدينه، والذى اعتنق الإسلام أيضا، وتطور نظام جباية الخراج فى مصر، واتبع نظام قبالات الأراضي[٤]، وكان ذلك نتيجة مباشرة لتحول كثير من أهل الذمة إلى الإسلام، وانتشار المسلمين فى القرى المصرية واشتغالهم بالزراعة إلى جانب القبط المحتفظين بدينهم، وما حدث نتيجة لذلك من اختلاط العرب بالقبط، وما كان يتم من تزوج المسلمين من أهل الكتاب[٥].

ومن دراستنا لأوراق البردى العربية فى القرن الأول الهجرى نجد ان فيها أسماء المسيحيين فى العقود الرسمية، وفى المعاملات المختلفة ثم تقل هذه الأسماء بالتدريج وتغلب الأسماء الإسلامية ابتداء من القرن الثالث الهجرى، وهو القرن الذى

---

١ – المصدر نفسه، جـ١، ص٨٢، جـ٢، ص٤٩٤.

٢ – انظر: قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٣٩، المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص٧٨، ٧٩، ضياء الدين الريس: الخراج، ص ٢٣٧، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١ ص١٠١؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص٢١٧،

C. Anawati: Op. Cit., P. 28.

٣ – البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٢٣، ٢٢٦، ضياء الدين الريس: الخراج، ص ص١٥١، ١٥٢.

٤ – اثبت الدكتور راشد البراوى ان الفاتحين من العرب تركوا الارض للمصريين وفرضوا عليهم الضريبة العقارية، وأن نظرية اعتبار الارض وقفا وإذن فالمصريون فى مركز المنتفعين أو المستاجرين نظرية لا تستند الى أساس سليم، وأن المصريون كانوا يتصرفون فى هذه الأراضى التى تحت أيديهم بالبيع والتوراث والهبة والوقف. معنى هذا انهم يمتلكون الارض ملكية مطلقة (رقبة ومنفعة) ولم يكن للحكومة من حقوق على الملكيات الخاصة سوى حق السيادة العليا. انظر راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ط الاولى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م، ص ص ٢٥، ٢٧.

٥ – حسن محمود: مصر الطولونية، ص٥٤، حسن محمود والشريف: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص٢٢٦.

وضحت فيه التأثيرات الإسلامية فى البلاد[١].

ونلاحظ من دراستنا لوثائق دير سانت كاترين أن أهل الذمة من الأقباط واليهود، كان يطلق على من يعتنق الإسلام منهم "المسالمة" ومفردها "أسلمى" و"مسلمانى" وهو لفظ يطلق على كل من اعتنق الإسلام حديثا من النصارى أو اليهود، وفى بعض الأحيان أطلق لقب "المشرف بالإسلام" على من يعتنق الإسلام من أهل الذمة، وذلك بعد عصر الولاة[٢].

كما أن هناك عوامل أخرى جديرة بالاهتمام إذ أطاحت عملية استضافة السكان القبط للمسلمين طبقا للشروط التي أقروا بها منذ البداية، وخروج العرب إلى الريف للارتياع أطاحت فرصا للاحتكاك والاختلاط بين الجانبين وقيام الدعاة بدورهم فى بث الدعوة ونشر الإسلام[٣].

على أن أهم عوامل تعريب مصر وانتشار الإسلام هو توافد القبائل العربية، واستقرارهم فى كثير من المدن والقرى[٤]، واختلاطهم بالأقباط اختلاطا كبيرا، مما أدى إلى انتشار الإسلام، واللغة العربية بين الأهالى وبالتالى تعريب البلاد[٥].

ويعتبر المؤرخ ماكمايكل (MacMichael) عن ذلك، بقوله: "أنه ما ان حلت سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م حتى أصبح المسلمون أغلبية فى مصر، وازداد إقبال القبائل العربية على الاستقرار والتمركز فى كثير من القرى والاشتغال بالزراعة، بعد أن كان ذلك قاصرا على المدن الكبرى فقط[٦]".

وسبق ان أوضحنا أماكن انتشار القبائل العربية واستقرارها، وكان ذلك له أثر الكبير فى المجتمع المصرى، فقد هجرت القبائل العربية حياتها الأولى التى كانت

---

١ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، وثيقة رقم ٢٦، ص٤٦، وثيقة رقم ٣١، ص ٥٣. حيث نجد الوثيقة الثانية مؤرخة من سنة ١١٦-١١٩هـ وهى بحروف عربية مما يدل على بداية اندثار الأسماء المسيحية.

٢ – وثائق سانت كاترين: رقم ٢٦٥ (وهى وثيقة بيع) وتاريخ هذه الوثيقة سنة ٨٩٥م، قاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، ص١٧١.

3 - Father. C. Anawati: Op. Cit., P. 32.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٠، المقريزى: البيان والاعراب، ص ص٥٠، ٥١، وأيضا: الخطط جـ١ ص ص٨٠، ٨١.

٥ – المقريزى: الخطط جـ١، ص ص ٨١، ٨٢.

6 - C.F: MacMichael: A history of the Arabs in the sudan, Vol I, Cambridge, 1922, P. 163, C. Anawati: Op. Cit., PP. 32- 33.

تعتمد فيها على العطاء الذى كان مقررا لهم فى الديوان[١] وأخذت تسعى إلى كسب عيشها بالعمل بالزراعة وغيرها، وتعاملوا مع المصريين وشاركوهم أعمالهم، مما يعتبر تحولا كبيرا فى حياة تلك القبائل، وازدياد إقبالهم على الارتباط بالأرض[٢].

وهكذا كان إسقاط العرب من الديوان، وقطع عطائهم دافعا على مزيد من الاختلاط والتداخل[٣]، مما أدى إلى ظهور المجتمع المصرى العربى الإسلامى، فبعد ان كان العرب يعيشون فى نطاق ضيق، وكان تأثيرهم ضئيلاً، أصبحوا منذ ذلك الوقت يختلطون بالمصريين اختلاطا كاملاً، ويمتزجون بهم مما كان له أثره فى النواحى الدينية والسياسية والاجتماعية واللغوية والأدبية، وبمرور الوقت ترك العرب الانتساب إلى قبائلهم، والافتخار بأصولها، وبالانتساب إلى الجهة أو الإقليم الذى عاش فيه الشخص، ففى شواهد القبور التى اكتشفت فى أسوان والفسطاط كان اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد ان اسم القبيلة قد حل محله اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتسب إليه المتوفى[٤].

انتشار اللغة العربية وتعريب مصر:

وقد تبع انتشار الإسلام فى مصر انتشارا اللغة العربية أيضا، لان من يعتنق الإسلام كان عليه أن يتعلم اللغة العربية حتى يمكنه قراءة القرآن وأداء الصلاة.

وكان المسلمون قد سمحوا للمصريين باستمرار استخدام لغتهم القبطية بالكتابة باللغة المستعملة فى الديوان، وهو أمر لم تسمح به بيزنطة إلا فى أواخر عهدها بمصر.

ولم تكن اللغة القبطية مستعملة كلغة رسمية عند الفتح الإسلامى، بل ان الصلوات فى الكنائس كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية ، وكانت اليونانية لغة

---

١ - الكندى: الولاة، ص١٩٣، المقريزى: الخطط جـ١، ص ٩٤.

٢ - المقريزى: الخطط جـ١ ، ص٨٢.

٣ - الكندى: الولاة، ص ١٩٣، المقريزى: الخطط جـ١، ص٩٤.

4 - C.F: Wiet: Catalogue Génerale du Musée Arabe du Caire Steles Funéraires, T. I. PP. 2–13;
سيدة كاشف: دراسات فى المجتمع المصرى الإسلامى، ص٢.

الوثائق والإدارة منذ العصر البطلمى[١].

لقد كان طبيعيا أن تنتشر لغة العرب بين المصريين، وان يتطور الأمر فتصبح اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بدلا من اللغة اليونانية أو القبطية، وكان ذلك فى الواقع نتيجة لانتشار الإسلام بين المصريين.

وهكذا كان انتشار اللغة العربية فى مصر، مصاحبا لانتشار الإسلام، حتى أصبحت تلك اللغة لغة التخاطب، والكتابة والعلم[٢].

ومما لا شك فيه أن انتشار اللغة العربية بين المصريين كان تدريجيا، بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لانتشار الإسلام، ومن الملاحظ أن المصادر التاريخية المختلفة لم تحدد بدايات استخدام المصريين المسيحيين واليهود اللغة العربية فى حياتهم اليومية[٣].

ويمكن القول أن من أسلم من أهل الذمة قد اقبلوا على تعلم اللغة العربية منذ اعتناقهم الإسلام حتى يتمكن كل منهم من تفهم دينه الجديد، ومعرفة شرائعه وأداء الصلاة إلى جانب قراءة القرآن[٤].

ولاشك أن الاختلاط بين المسلمين وأهل الذمة[٥] أتاح للطرفين تبادل الأفكار واللغات، ويبدو أن بعض المصريين كانوا قد أتقنوا اللغة العربية، وتشير بعض المصادر أن أول نقل فى الإسلام بين لغة إلى لغة هو نقل كتب الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى لخالد بن يزيد بن معاوية على يد جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كانوا ينزلون مصر[٦].

والدليل على ان إرهاصات حركة التعريب قد بدأت منذ الفتح، هو وجود برديتان عربيتان ترجعا إلى عام ٢٢هـ/٦٤٢م.

---

١ – انظر: جورجى صبحى: قواعد اللغة المصرية القبطية، ط المعهد العلمى الفرنسى، ١٩٢٥م، ص٦، يس عبد المسيح: اللهجات القبطية وآثارها الأدبية، ص٤٩.

٢ – زكى محمد حسن: مصر والحضارة الاسلامية، القاهرة ١٩٤٢م، ص٢٤٠.

٣ – إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٢٩م ص٢٢٠.

٤ – ابن النديم: الفهرست، القاهرة، ص ص٥١١–٥١٢.

٥ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٠، المقريزى: الخطط، جـ١ ص٢٩٢، السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٥١.

٦ – ابن النديم: الفهرست، ص ص٥١١، ٥١٢، توفيق سلطان: التعريب فى العصرين الأموى والعباسى، مجلد ٢٤، ١٩٧٧م، ص ص٣، ٤.

البردية الأولى قصيرة وناقصة، ليس فيها من الكلمات التى يمكن قراءتـــها إلا القليل مثل (ونصف) و (فى) و (سنة اثنتين وعشرين) بحروف عربية[١].

أما البردية الثانية فهى مكتوبة باللغتين الإغريقية والعربية، والجزء الاغريقـــى منها ترجمة للأصل العربى[٢] وهى طويلة نسبيا وكاملة نصها:

١- بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اخذ عبد الـ(ــ)ــه.

٢- ابن جبر[٣] واصحبه من الجزر من اهنسى اخذنا.

٣- من خليفة تذرق ابن أبو قــ(ــير) الأصغر ومن خليفة اصطفن ابن أبـــو قـــير الأكبر خمسين شاه.

٤- من الجزر وخمس عشرة شاه أخرى اجزرها اصحب سفنه وكتئبه وثقلاه فى

٥- شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين[٤].

وكتب) ابن حديدو[٥].

---

1 - Grohamann: The problem of dating Early Qurans Der Islam.. Berlin 1958. XXX III/3. P 220.

2 - Grohamann: From the World of Arabic Papyri. Al Maaref Press Cairo. 1952. P. 113

لقد تم اكتشاف هذه البردية فى سنة ١٨٧٧م فى مصر، وهى محفوظة الآن فى المكتبة الوطنية فى فينــا فى مجموعة رينر، تحت رقم ٥٥٨ لوحة "X I A"

Ibid . P. 113

٣ – قراها المنجد "جبير" صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايتـــه الـــى نهايـــة العصر الاموى، ط الاولى، بيروت ١٩٧٢م، ص٣٧. ويظهر أن الأمر قد اختلط علـــى المنجـــد إذ أن عبد الله بن جبير كان صحابيا شهد العقبة وبدرا، وكان أمير الرماة يوم أحد واستشهد فيها. (خير الدين الذركلي: الإعلام، ط الثالثة، بيروت ١٩٦٩، ص٢٠٣، والظاهر أن المقصود بعبد الله بن جبـــير فـــى البردية هو الذى وردت ترجمه له عند العسقلانى والسخاوى: عبد الله بن جبير بن عتيك الأنصـــــارى المدنى. روى حديث أبو العميس عن عبد الله بن عبد الله بن جبر عن ابيه ان النبى صلـــــى الله عليـــه وسلم عاد جبرا "انظر: العسقلاني: تهذيب التهذيب، الطبعة الأولـــى، ط الـــهند ١٩٠٨م، جـــ٥، ص ١٦٧، السخاوى: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تصحيح وتحقيق محمد حامد الفقى، القـاهرة ١٩٥٧م، جــ٢، ص٣٨١. ويرى جروهمان أن عبد الله بن جبر كان قائد الكتيبة العربية التي ذهبـــت لفتح مصر سنة ٦٤١م– ٦٤٣م.

Grohamann. A.: From the World of Arabic Papyri, pp. 114-115.
Ibid P 114.

٤ – قرأها جروهمان "اثنين".

٥ – قراها المنجد "حديدة" المنجد: مرجع سابق، ص٣٧.

وتعتبر هذه البردية نموذجا حسنا للكتابات العربية المبكرة، فهى تضم اغلب الحروف العربية بضروبها المختلفة[١].

ولدينا وثائق بردية تدل على انتشار اللغة العربية فى مصر منذ القرن الأول الهجرى، حيث أصبحت اللغة العربية ليست لغة الكتابة والمخاطبة فحسب، بل دخلت فى صميم الحياة الاجتماعية للمجتمع الإسلامى المصرى، فهناك عقد زواج مكتوب بالحروف العربية، ومؤرخ منذ عام واحد وتسعين هجرية[٢]، يدل على أن التعريب قد بدأ قبل ذلك، ولم يمنع ذلك من وجود وثائق بردية كانت تكتب بحروف عربية، ويونانية وقبطية، وترجع إلى القرنين الأول والثانى الهجريين[٣].

ان سياسة تعريب الإدارة الحكومية فى مصر[٤] ، دفعت الكثيرين من أهل الذمة إلى الإقبال على تعلم العربية، حتى يمكنهم الاحتفاظ بوظائفهم، نذكر من هؤلاء الشماس بنيامين الذى تقرب من الأصبغ بن عبد العزيز، الذى عهد إليه أبوه عبد العزيز بن مروان بكثير من أمور مصر[٥]، فقد أطلع هذا الشماس على كثير من

---

١ - نلاحظ فى هذه البردية: ليس بينها حرفى (ض) و(ظ)،
C. F· Grohamann: From the World of Arabic Papyri. P. 114.

٢ - بردية غير منشورة، مسجلة تحت رقم ٢٥٢٩٥، المتحف المصرى الإسلامى بالقاهرة وهى ضمن مجموعة د/هنرى أمين عوض.

٣ - انظر: أدولف جروهمان : أوراق البردى العربية، جـ١ ص ٣٥/١١، حيث أورد بعض القطع المؤرخة من عهد الوليد بن عبد الملك من ١٩ شوال سنة ٨٦هـ إلى ١٥ جمادى الثانى ٩٦، (١٤ أكتوبر سنة ٧٠٥م/٢٦ فبراير سنة ٧١٤م)، وقد كتبت هذه القطع بالعربية واليونانية معا، كما أورد بعض القطع غير المؤرخة مكتوبة باللغتين أيضا (جـ١ ص٣٩، ٤٩)، كما أورد وثيقة مكتوبة بالقبطية واليونانية والعربية (جـ٣ ص٩١ وما بعدها) وهى عبارة عن اخطارات بالتظلم من ١٠١ سطرا موزعة كالتالى: سطور ١ - ٨٠ قبطية، سطور ٨١-٩٢ يونانية، سطور ٩٣-١٠١ عربية، وانظر كذلك: سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة، ص١٤١، دينيت: الجزية والإسلام، ص ص١٠، ١١.

٤ - الكندى: الولاة، ص ص٥٨، ٥٩، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٩٨، ابن ايـاس: بدائع الزهور، جـ١، ص ١٢٥، وقد حل الأقباط فى إدارة البلاد محل الروم الذين غادروا مصر، والذين كانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها، كما ظلوا فى وظائفهم العامة كما كانوا قبل الفتح سواء بسواء، فكان منهم حكام المحافظات ورؤساء الدواوين وصغار الموظفين ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس استبقاه المسلمون فى عمله، وآخر اسمه شنودة وكلت إليه حكومة الريف، وثالث تولى حكومة الفيوم، انظر: أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص ص٣١، ٣٢، سيدة كاشف: مرجع سابق، ص٢٥٩.

٥ - ساويرس: سير الأباء البطاركة، جـ١، ص ص١٣٩-١٤٠.

أسرار مسيحى مصر، بل انه قام بترجمة الإنجيل من اللغة القبطية إلى العربية، وذلك بناء على طلب الأصبغ، وكتب له عدة مؤلفات عربية فى الكيمياء، والعلوم الدينية حتى يكون على بينة من علوم أهل الذمة[١].

ويعتقد إزاء هذه الحركة العلمية التى قام بها الأصبغ من ترجمة المؤلفات المسيحية إلى العربية أنها مقدمة لتعريب الدواوين، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للبلاد.

وفى إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر، أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بترجمة النصوص التى اعتاد أن يكتبها صناع أوراق البردى فى مصر على ما يقومون بصناعته من هذه الأوراق، بالكتابة فى رؤوس الطوامير (الصحف) عبارات تنسب الربوبية إلى المسيح، كما ترسم فى صدرها الصليب. فلما تبين لعبد الملك معناها قال: ما أغلظ هذا فى أمر الدين والإسلام[٢]. وأمر عبد الملك أن يكتب فى مكانها آية: "قل هو الله أحد"، وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بذلك[٣]، وقد مهد ذلك كله فيما بعد لأن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للبلاد بدلا من اليونانية، وأن تكون أيضا لغة التخاطب بين أهل مصر جميعا.

وقد استمرت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية فى الدواوين حتى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م)، ويؤيد ذلك أوراق البردى التى يرجع تاريخها إلى عهد الوليد[٤].

---

١ - المصدر السابق جـ١، ص١٤٠، بتشر: تاريخ الأمة القبطية، جـ٢ ص١٦٧.

٢ - انظر: البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١ ص٤٥٣، ابن خلدون: العبر، جـ١ ص ص٤٦٣، ٤٦٤، المقريزى: النقود الإسلامية، ص ص١١، ١٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى: جـ١، ص٤٤٩، توفيق سلطان: التعريب فى العصرين الأموى والعباسى، المجلد ٢٤، ص ص١١، ١٢، إبراهيم العدوى: التاريخ الإسلامى، ص٢٤٢.

٣ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٤٥٣.

٤ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١ ص٢١٠، جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، (طراز رقم ٦ مؤرخ ٨٦-٩٦هـ)، ص١١، عبد المنعم ماجد: علم البردى العربى لأول مرة، بحث منشور فى ندوة الدراسات البردية، جامعة عين شمس ١٩٨٢، ص١-١٠.

وقد أدت عملية تعريب الدواوين فى مصر إلى نقل كثير من المصطلحات اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية[١]، ومن ثم صارت للعرب السيادة اللغوية إلى جانب السيادة السياسية والحربية، وبدأت اللغة العربية تنتشر فى جميع المدن والقرى المصرية، وأصبحت لغة الإدارة والحكم، وبالتدريج صارت لغة الثقافة، ولغة التخاطب فضلا عن أنها لغة السياسة والدين.

ونلاحظ أن تعريب الدواوين فى سنة ٨٧هـ/ ٧,٥هـ لم يقض نهائيا على استخدام اللغة اليونانية فى كتابة الوثائق الرسمية، فكان من الضرورى ان تكون هناك مرحلة انتقال يتم بعدها توقف استخدام اللغة اليونانية فى الأعمال الرسمية، فقد استمرت اليونانية تدون بها الوثائق إلى جانب اللغة العربية طوال عهد إمارة كل من عبد الله بن عبد الملك، وقرة بن شريك، ويؤيد ذلك كثير من الأوراق البردية التى ترجع إلى الفترة ما بين ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م[٢].

وبالرغم من أن اللغة العربية ، أصبحت اللغة الرسمية فى الدواوين فانه من الواضح انه حتى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، لم تصبح لغة التخاطب فى الحياة اليومية، إذا كان لا يزال يجهلها كثير من القبط، بدليل انه حينما قبض مروان بن محمد- أخر الخلفاء الأمويين على البطرك انيا خايال، وبعض الأساقفة، لوحظ

---

١ - من الكلمات القبطية التى وردت فى وثائق البردى:
- كلمة "بقط" بمعنى عقد ايجار.
- كلمة "حالوم" نوع معين من الجبن"
- هذا الى جانب أسماء الإعلام بمختلف أنواعها.
- كلمات تدل على انواع من الطعام غير معروفة عند العرب مثل "بصارة" وعيش "بتاو" وجبنه "حالوم"، وأسماء لانواع من السمك والحيوان مثل "ملوحة" و"بورى" و"شلبة" و"انومة" و"تمساح" و"بس" ونباتات وغير ذلك.

أنظر: جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ٢، ٣، احمد مختار: مرجع سابق، ص١١٦، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ٣٤، سيدة كاشف: عبد العزيز بن مروان، القاهرة ١٩٦٧، ص١٤٥، وأيضا: الوليد بن عبد الملك، القاهرة ١٩٦٢م، ص١٨٤، توفيق سلطان: التعريب فى العصرين الاموى والعباسى، مجلة الجمعية المصرية للدارسات التاريخية، م(٢٤) لعام ١٩٢٧م، ص٩.

٢ - انظر: جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، طراز رقم (٦) ص١١، طراز (٢١) ص١٣، طراز (٢٢) ص١٤، طراز (٣١) ص١٦، طراز (١٨) ص١٧، طراز (٥٠) ص١٨، طراز (٥١) ص١٩ الى غير ذلك.

أنهم لا يفهمون العربية، ولا يمكنهم الحديث بها، وكان مروان بن محمد يصحب معه بعض التراجمة الذين تولوا ترجمة الحديث الذى دار بين مروان وبين البطرك المذكور[١].

ويذكر الكندى: "أن الخليفة المأمون مر فى طريقة بقرية طاء النمل، فلم يدخلها، وكانت ملكا لعجوز قبطية تسمة مارية، فخرجت هذه المرأة تنادى على الخليفة، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها، وكان لا يمشى أبدا، إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس[٢].

لقد ظلت اللغة القبطية مستخدمة فى الحياة الاجتماعية فى مصر طوال القرن الثالث الهجرى بدليل أن هناك بردية مؤرخة فى ذى القعدة سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م، تحوى عقد بيع، وتشير إلى أن أحد النصارى قد أدلى بشهادته على هذا العقد وكتبت شهادته، واسمه باللغة القبطية[٣].

وقد أخذت اللغة العربية تجد طريقها بين أهل الذمة، حتى صارت الأغلبية منهم تجيدها قراءة وكتابة، وتتحدث بها فى العصر الطولونى يدلنا على ذلك ما جاء فى بعض الأوراق البردية، فهناك بردية مؤرخة فى سنة ٢٧٤هـ/٨٨٧م، وفيها أن احد القبط قد أدلى بشهادته، وجاء فى هذه البردية: "إقرار دانيال بجميع ما فى هذا الكتاب، بعد ان قرىء عليه حرفا حرفا، فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه[٤].

على ان هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهى أن حركة التعريب فى المجتمع المصرى لم تتعارض مع الاحتفاظ بالثقافات القديمة وبالأسماء القبطية.

فلدينا وثيقة عقد زواج، مؤرخة سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م، تبدأ بالبسملة:" هذا ما أصدق يحنس بن شنودة، الساكن مدينة أشمون دروا ابنت شنودة، الساكنة مدينة كذا،

---

١ - ابن المقفع: سير الأباء البطاركة، م١، جـ٢ ص ص١٩٧، ١٩٨.

٢ - الكندى: الولاة، ص١٩٤، المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٤، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١٤.

٣ - عقد بيع (تاريخ) رقم ١٨٦٥ مؤرخ فى شهر ذى القعدة سنة ٢٣٩هـ الأسطر ٢٧-٢٩ مكتوبة باللغة القبطية، وقد كتب متن العقد اليسع بن عيسى. انظر: جروهمان: أوراق البردى،جـ١، ص١٤٦-١٥٢.

٤ - جروهمان: أوراق البردى، جـ٢، ص١٧٠.

عندما خطبها إلى نفسها، وهى امرأة أيم بالغ تلى "....." الله وحدة لا شريك له وإحسان صحبتها ، وقد أوصل يحنس بن شنودة الدينرين[١]".

وفى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، أصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء، من أسلم منهم ومن لم يسلم ويؤيد ذلك الحقائق الآتية:

- ظهور مؤلفات باللغة العربية لمؤلفين أقباط لم تعرف لهم مؤلفات بغير العربية، فقد كتب سعيد بن البطريق تاريخه المعروف باللغة العربية وهو من أقدم تواريخ الكنيسة المصرية، وله مؤلفات فى الرد على النساطرة واليعاقبة[٢].

كما كتب معاصره ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين تاريخه با للغة العربية، وهو المعروف باسم" سير البيعة المقدسة" أو "سير الإباء البطاركة"، وله عدة مؤلفات منها كتب دينية وأخرى فى التاريخ، وله رد على ابن البطريق (الملكانى) دفاعا عن اليعقوبية[٣].

كذلك أوراق البردى الطبية التى نشرها Chassiant تستعمل بكثرة مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية، وأحيانا بحروف عربية، لقد كتبها مؤلفون أقباط فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، استعملوا كلتا اللغتين القبطية والعربية، ولكن بشكل يجعلنا نقول أنهم كانوا على علم باللغة العربية أكثر من علمهم باللغة القبطية، وقد كانوا كثيرا ما يفضلون استعمال المصطلح العربى على مقابلة اليونانى أو القبطى[٤].

كل هذه المؤلفات باللغة العربية مما يؤكد انتشار اللغة، وانتشار الإسلام من جهة أخرى.

---

١ - نفسه: أوراق البردى، جـ١، طراز رقم (٤٠)، ص ص٨٥، ٨٦.

٢ - شيخو: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، بيروت، ١٩٢٤، ص٤، حسن محمود: انتشار الإسلام، جـ١، ص١١٥، فييت: القاهرة، ص ص٢٤، ٢٥، أحمد مختار عمر: تاريخ اللغة العربية، ص٥٢، عبد المنعم ماجد: تاريخ الدولة العربية، جـ١، ص ص٤٠، ٤١.

٣ - شيخو: مرجع سابق، ص١٧ سيدة كاشف تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، ص٨ .

٤ - أحمد مختار عمر: مرجع سابق، ص٥٣.

أما اليهود فقد استخدموا لغتين العربية، والعبرية[1]، والواضح أن لغة الحياة اليومية كانت هى العربية، بينما ظلت العبرية مرتبطة إلى حد كبير بالنواحى الدينية، كما كان الشعر اليهودى فى غالبيته، وقليل من النثر، يكتب بالعبرية، بينما كان معظم النثر وأقل الشعر يكتب بالعربية، وفيما عدا بعض التعبيرات العبرية الخاصة والمفردات التى وجدت طريقها إلى اللغة العربية، فقد استخدم اليهود العربية حتى فى شروح التوراة والتعليق على التلمود بعكس يهود البلاد المسيحية الذين لم يستخدموا فى كتاباتهم الدينية سوى العبرية، وفى رأى بعض الباحثين أن ذلك يرجع إلى أن الكتابة العربية آنذاك كانت هى الشيء الطبيعى والأقل جهدا، كما ان اللغة فى المؤلفات العلمية لا تحمل مفهوما أيديولوجيا كما هو الحال فى الإبداع الفنى مثل الشعر[2]، علما بأن الأسباب المباشرة لتلك الظاهرة تكمن فى حقيقة سيادة اللغة العربية فى ذلك الحين.

وثمة دليل قوى على تسيد اللغة العربية بين يهود مصر فى تلك الفترة هو أن ما ورد فى وثائق الجنيزة كان عربيا، إلا أنه كتب بحروف عبرية أو على حد تعبير بعض الباحثين" بالعبرية اليهودية التى كانت لغة يهود مصر[3].

ونسمع فى ذلك الوقت عن بعض مشاهير المثقفين من اليهود مثل ما شا الله (١٥٤-٢٠٥هـ/٧٧٠-٨٢٠م) وهو فلكى مشهور يحتمل أن يكون مصريا[4] ويمكن القول أنه حوالى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، كانت دراسة العبرية، والأدب العبرى قد ازدهرت فى مصر، مما مهد لظهور "سعديا الفيومى" أول من نقل التوراة من العبرانية إلى العربية، ووضع شروحا وتفاسير عليها بالعربية،

١- انظر: اوراق الجنيزة فقد استخدم فيها لغتين العبرية والعربية. جوايتاين: دراسات فى التاريخ الإسلامى، ص.ص١٥٠، ١٥١، توفيق سلطان: التعريب، ص٥.

2- C.F: Ibraham S. Halkine: The Arab Jewish literature "the jews" their history, Culture and Religion" Vol I. PP. 1116: 1146;

عطية القوصى: اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٧٨م، ص١٢٧.

٣ - انظر: حسنين ربيع فى كتابه:

Financi\ial System of Egypt: PP. 3- 4,

وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى/ جـ٢، ط الرياض ١٩٧٩، ص١٣١-١٤٤.

4 - Mann, J. : the jews in Egypt and palastine under the Fatimid Caliphs, V. 1, Oxford 1969, PP. 14 – 15.

ويعتبر أول فلاسفة اليهود الربانيين[١] وهكذا أرسخت اللغة العربية، وأصبحت لغة المصريين جميعا عربا أو مصريين، وأصبحت الطابع المميز للثقافة الإسلامية فى مصر زمن عصر الولاة[٢].

مدرسة الفسطاط العربية نشأتها ونموها:

بعد استقرار العرب فى مصر، واختطاط مدينة الفسطاط[٣]، صارت المدينة إحدى المراكز العلمية فى الدولة العربية الإسلامية[٤].

وكانت بداية الحركة العلمية فيها مثل سائر مراكز الثقافة الإسلامية الأخرى، فقد بدأت دينية، لأن القرآن الكريم كان هو محور الحياة الدينية والدنيوية.

وقد أجمع العلماء على فرض تعليم القرآن[٥]، ولذلك كانت النهضة العلمية دينية فى بدايتها تتمثل فى علوم القران الكريم بمعناها الواسع مثل القرآن الكريم، وتفسيره والحديث وروايته، ثم الفقه، أو "استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والسنة النبوية، ثم علم قراءات القرآن الكريم[٦].

وكانت المدينة مركز الإشعاع العلمي، وجامع عمرو بن العاص ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة واليه يلجأ الناس للاستفتاء، واليه يفد الطلاب لتلقى العلوم، ومنه

---

١ - "الجاعون سعديا" مصرى الموطن ينتسب الى مدينة الفيوم، وكان معاصرا لرأس الجالوت داوود بن زكى، وذلك فى خلافة المقتدر العباسى، وهناك خطابات وجدت فى الجنيزة للجاعون سعديا أرسلها إلى مصر من بلدة سورا سنه٣١٦هـ/٩٢٨م تفيد تعينه جاعونا على أكاديميتها. كذلك وجدت خطابات أرسلها إلى داخل مصر لبعض أصدقائه.

C.F: Mann : Texts and studies in Jewish history and literature. New York, 1972. PP 73- 75.

٢ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١ ص١١٥، ارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٩٢.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩١، أبى الفدا: المختصر، جا١ ، ص ص١٦٣، ١٦٤، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٢٦، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٦، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٩٩، ليو الأفريقى: وصف أفريقيا، ط الرياض ١٣٩٩هـ ص٥٨٦.

٤ - القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٣٨.

٥ - طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، تحقيق كامل بكرى واخرون، القاهرة، دار الكتب الحديثة، جـ٢، ص٢٥٩، صحيح البخارى، جـ١، ص٢٧.

٦ - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٨٣.

يتخرج خيرة العلماء والفقهاء[١].

وكان نواة الحركة العلمية فى مدينة الفسطاط الصحابة الذين جاءوا مع جيش الفتح أو بعده، واستقروا بالمدينة بعد ان اختطوا مساكنهم حول المسجد الجامع[٢].

ويشير ابن دقماق إلى ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص أمير مصر يأمره أن يقرب دار ابن ملجم من المسجد ليعلم الناس القران والفقه ففعل عمرو[٣].

وقد حظيت الفسطاط بعدد كبير من الصحابة[٤] الذين نزلوا مصر معلمين[٥].

النشاط الثقافى لمدرسة الفسطاط:

العلوم الدينية:

تعتبر وثيقة عبد الله بن لهيعة (٩٧-١٧٤هـ/٧١٥-٧٩٠م) أقدم وثيقة إسلامية، تحوى بعض أسماء من الصحابة الذين استقروا فى مصر، ابتداء من القرن،

---

١ - إذ كان المتقدمون يجلسون للعلم بالجامع العتيق، فان فكرة بناء المدارس لم تحدث فى الفسطاط إلا على يد بنى أيوب، انظر: القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣، ص ص٣٤٢، ٣٤٣، سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٤٧ جاستون فييت: القاهرة، ص٢٥.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٩٢، ٩٣، المقريزى: الخطط جـ٢ ص٣٣٢، ابن أياس: بدائع الزهور، جـ١، ص٣٣.

٣ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٦.

٤ - أنظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٩٢، ٩٣، وقد أفرد السيوطى أسماء هؤلاء الصحابة فى فصل خاص، نقل معظمة من كتاب محمد بن الربيع الجيزى، وزاد عليه السيوطى. حسن المحاضرة، جـ١، ص ٩٩-١٤٠.

٥ - حدثنا على بن سعيد قال: يا بن ابى عمر قال: اخبرنا سفيان بن عيينه عن إبراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهدا يقول: صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ بسورة البقرة، فما ترك ألفا ولا واوا، انظر الكندى: الولاة، ص ٣٩، وقد أثر عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب قوله "الا أنى انما ابعث عمالى ليعلموكم دينكم، ويعلموكم سنتكم، ولا ابعثهم ليضربوا ظهوركم ولا يأخذوا أموالكم".

الماوردى: الاحاكم السلطانية، ص ص ٣٠، ٣١.

ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٥٠.

الأول الهجرى إلى أوائل القرن الثالث الهجرى، وهـــى سلســلة أحــاديث بأســانيد كاملة[1].

وعبد الله بن لهيعة يعود معظم الرواية إليه، فالحديث مساق اليه عـــن تلميــذه عثمان بن صالح الذى توفى فى أوائل القرن الثالث الهجرى[2].

وبجانب عبدالله بن لهيعة، ظهر الليث بن سعد[3] (٩٤-١٧٥هـ/٧١٣-٧٩١م) وهو إمام الديار المصرية فى العلم والحديث، وتشير بعض المصادر إلى أن الليــث بن سعد كان يضارع الإمام مالك، فقد أثر عن الإمام الشافعى قوله: "كان الليث أفقـه من مالك، إلا أن أصحابه ضيعوه[4] "أى أن أصحابة الذين أخذوا عنه لـــم يدونـــوا مذهبه، وكان أجل تلاميذه عبدالله بن وهب، وعبدالله بن عبدالحكم وأولاده، إذا تفقهوا عليه، وعلى الإمام مالك، ولكنهم آثروا إظهار مذهب مالك[5].

---

1 - Raif Georges khoury: "Abd Allah Ibn Lahia Juge et grand maitre de L'Ecole Egyptienne Avec édition de L'unique Rouleau de Papyrus conserv é à Heidelberg. Wisebaden (codices Arabici Antiqui Iv).

وثيقة عبد الله بن لهيعة التى وصلت إلينا وسلمت من الفناء طولها ١٨٩سم وهى مكتوبة على الوجـــه والظهر، وهى تحتوى على ٤٢٢ سطرا عريضا، لم ينشر منها إلى الآن الاسطر الإسناد الأول ســـنة ١٩٠٦، نشرة بيكر فى كتابه قرة بن شريك، أنظر:

Carl Heinrich Becker: Papyri schott- Reinhardt in der universitats- Bibliothek in Heidelberg. L. Heidelberg 1906, Arabische Papyri des Aphrodita fundes In: Zeitschrift fur Assyriologie, 206. 1907, 68- 104.

٢ - عبد الله بن لهيعة. هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عتبه بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى، كـــان مكثرا من الحديث والاخبار والرواية، وكـــان أبـــو جعفـــر المنصـــور قـــد ولاه القضـــاء بمصـــر ١٥٥هـ/٧٧٢م، وصرف عنها فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وهو أول قاضى حضـــر لنظر هلال شهر رمضان، أنظر:

أحاديث أبن لهيعة. ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٢٥٧، ٢٥٨، ابن خلكان: وفيـــات الأعيـــان، جـ٣، ص ص٣٨، ٣٩.

٣ - الليث بن سعد: أبو الحارث الليث بن سعد عبد الرحمن أمام أهل مصر فى الفقة والحديث، كان مولى قيـــس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى، وهناك اختلاف عن أصل موطنه، فقيل مـــن أصبهان، وقيل من قلقشندة، وهى قرية من الوجه البحرى بالقاهرة، بينها وبين القاهرة مقدار ثلاثـــة فراسـخ، انظر الكندى: الولاة، صفحات ٨٩، ٩٠، ١٣٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٢٧- ١٢٩؛ ابـــن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٦، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ص١٣٨.

٤ - ابن قيم الجزوية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط الثانية، القاهرة ١٩٥٥، ص ٧٣-٧٥.

٥ - الشيرازى: طبقات الفقهاء، بغداد، المكتبة العربية ١٣٥٦هـ ص ٥٧، النووى: تهذيب الأســـماء واللغـــات، القاهرة، القسم الأول، جـ٢، ص٧٤، ابن فرحون: الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهـــب، ط الأولـــى، مصر ١٣٥١هـ ص ١٣٢-١٣٤، ابن حجر: الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية، القاهرة ١٣٠١هـ ص٦.

يقول يحى بن بكير: "الليث أفقه من مالك، لكن الحظوة كانت لمالك[١]" ومما يدل على عظم مكانة الليث بين تلاميذه.. ان رجلا قال أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب: بل كان يسمع الليث يجيب فيجب هو، والله الذى لا اله إلا هو ما رأينا أحدا قط أفقه من الليث[٢]".

وكان لجهود الليث بن سعد العلمية أثر كبير فى قيام نهضة فقهية كان هو على رأسها[٣]، فقد كان كبير الديار المصرية وعالمها الأنبل، حتى ان نائب مصر وقاضيها، إذا رابه من أحد أمر كاتب فيه الخليفة فيعزله، وقد طلب منه المنصور أن يعمل نيابة الملك فامتنع [٤]".

كذلك تشير الوثيقة إلى أن عبد الله بن وهب[٥] (١٢٥-١٩٧/٧٤٣-٨١٢م) صاحب كتاب (الجامع فى الحديث، وأحد اعلام المدرسة المالكية.

هكذا يتثنى ان كلا من عبد الله بن لهيعة، وصديقه الليث بن سعد، احتلا مكانة رفيعة بين علماء وفقهاء العصر، فقد وضعا أساس المدرسة المصرية فى الحديث والتاريخ، فأليهما يرجع الفضل الأول فى جمع التراث المنسوب للصحابة والتابعين وتابعى التابعين، ولتلامذتهما من بعدهما عبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك خاصة، فكل ما صنفاه من الكتب فى الحديث والتاريخ فقد أغلبه، فلم يبق إلا ما حفظته كتب العصور اللاحقة لهما.

---

١ - ابن حجر: المصدر نفسه، ص٦.

٢ - نفسه، ص٩؛ الأفضل أبو الربيع بن على: شيوخ ابن وهب وأخباره، ميكروفيلم بمعهد المخطوطات، رقم ٦٢١ تاريخ، ورقة ١٩ب.

٣ - انظر أهمية الليث بن سعد فى بعض المصادر القديمة، وخاصة فى بردية ابن لهيعة:

C.F: Al-Layth Ibn Saed (94/713-175/791), grand maitre et mécene de L'Egypte, VU à travers quelques documents islamiques anciens. In journal of Near Eastern studies,40 (1981) (Arabic and Islamic studies in Honor of Nabia Abbott. Part one) 189- 202.

٤ - الذهبى: تذكرة الحفاظ، ط حيدر أباد الهند، ١٣٣٣هـ جـ١، ص ص٢٨٠، ٢٨١، أحمد أمين: فجر الإسلام، جـ١، ص١٩١.

٥ - هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم، القرشى بالولاء الفقيه المالكى المصرى مولى ريحانه مولاه أبى عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهرى، كان أحد ائمة عصره، وصحب الإمام مالك بن أنس عشرين سنة، وصنف "الموطا الكبير والموطا الصغير"، وقال مالك فى حقه عبد الله بن وهب إمام. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٣٦، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ص٣٩، ٤٠، انظر كذلك بردية ابن وهب فى الحديث.

David-Well: Le Djami 'd' Ibn Wahb. Le Caire (Publications de L' Institut Francais d' Archeologie Orientale du Caire), 1939-1948.

وليس من قبيل الصدفة أن مؤلفى هذه النصوص القديمة مرتبطون بصورة أو بأخرى بعضهم ببعض، فمصر لم تكن فقط بلد ورق البردى[١] الذى دونت عليه تلك المؤلفات القديمة، بل أصبحت ابتداء من النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى، حلقة وصل بين العالم الإسلامى فى الشرق وبين المغرب والأندلس، ومحط رجال عدد كبير من العلماء المسلمين، فأصبحت كتب وهب بن منبه يرويها راوى مصرى[٢] أخذها عن بعض أفراد عائلة القاضى اليمنى بطريقة أو بأخرى، وعائلة أبى رفاعة وأبيه وثيمه أصلها من بلاد فارس، وكان وثيمه - المؤلف الأول لكتاب البدء وقصص الأنبياء. أتى من بلاد فارس، وسكن الفسطاط حيث قادة البحث عن الكتب القديمة فى هذا المجال من التاريخ، إلى ما تركه وهب بن منبه أو صنفه من بعده أحد أفراد أسرته، وقد وصلنا منه بعض الشىء فى بردية حديث داوود[٣].

وأما مؤلف كتاب الزهد أسد بن موسى (١٣٢-٢١٢هـ/٧٥٠-٨٢٧م) الأموى الأصل- فجاء أيضا هاربا من اضطهاد العباسيين متنكرا إلى الفسطاط أيضا، وزار الليث بن سعد وتتلمذ على عبد الله بن لهيعة[٤].

---

١ - انظر: الثعالبى: اللطائف ومحاضرات الأوائل ومسامرات الأواخر، ط بولاق ١٨٨٣، ص٣٩، عبد المنعم ماجد، علم البردى العربى، بحث منشور فى ندوة الدراسات البردية- جامعة عين شمس ١٩٨٢، حسن رجب: البردى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م، ص٩، وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص١١٠، محمد الصغير: البردى واللوتس فى الحضارة المصرية القديمة، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ص٦.

٢ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٦، ص ص٣٥، ٣٦.

٣ - فى حديث داوود، انظر: كتاب وهب بن منبه:

Khpury (R. G): Wahb. B. Munabbih.
I.: Der Heidelberger papyrus Heid Arab 23. Lebenund werk des Dichters Wiesbaden "Codices Arabici Antiqui 1" 1972. 23- 115.

٤ - اسد السنة: أسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم القرشى الذى ولد بمصر سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، اشتهر برواية الحديث بالفسطاط، وبسبب اهتمامه بالحديث اكتسب اسمه من هذه الخاصية، فأصبح مشهورا بين العلماء بأسد السنة. أنظر: الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ١، ص٣٦٣، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ط بيروت، ١٣٢٥هـ، جـ١، ص٢٦٠،

Khoury (R. G): Asad. B. Musa (132-212/750-827): kitabaz- Zuhd. Nouvelle edition revue, corrigeé et Augmentee de tous les certificates de Lecture d' après les deux Copies de Berlinet de Damos. Avec étude Sur L'quteur. Wiesbaden. (Codices Arabici Antiqui II) 1976.

وكان لابن لهيعة مكتبة فى بيته جمع فيها الكتب، وكان يتردد عليها أئمة الفكر المصرى فى ذلك العصر مثل عبدالله بن وهب[١]، وعبد الله بن المبارك[٢] واخرون.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة مصر الدينية[٣]، قد أخذ عنه المصريون أكثر من مائة حديث[٤]، وقد حفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف مثل[٥] – وبفضله انفردت مدرسة الفسطاط التى اتخذ فيها دار له[٦]، بأول صحيفة مدونة فى التفسير فى عصر كان فيه التدوين مشوبا بالكثير من الغموض[٧].

---

١ – وصلتنا لعبد الله بن وهب بردية عظيمة تعتبر أطول ما بين أيدينا من هذا النوع على ورق البردى، وهى جامع ابن وهب فى الحديث. نشر المستشرق الفرنسى J. David Well

Le Djami "d" Ibn wahb – Le Caire publications de L' Institut Francais d' Archeologie orientale du caire) 1939 – 1948.

٢ – عبد الله بن المبارك: هو مولى لبنى تميم، ثم لبنى حنيفه، وكنيته أبو عبدالرحمن. قال الشيرازى: تفقه بمالك والثورى. وكان اولا من أصحاب ابى حنيفه، ثم تركه، ورجع عن مذهبه ، وقد روى فى حياته اكثر من خمسة وعشرين الف حديث، أنظر: القاضى عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، جـ٣، الرباط، ص٣٦- ٤٥.

٣ – السيوطى: طبقات الحفاظ، تحقيق على محمد عمر، ط القاهرة ١٩٧٣، ص١٠، سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص ٣١٥، احمد أمين : فجر الاسلام، جـ١، ص١٩٠.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٥٤، الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ١، ص٣٩.

٥ – ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، جـ٣ ط القاهرة، ص٩٥٧، ابن الأثير: أسد الغابة فى معرفة الصحابة، القاهرة ١٩٣٨، جـ٣، ص٣٤٩، الذهبى: سير أعلام النبلاء، القاهرة ١٩٦٢، جـ٣، ص٥٧.

٦ – ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٦.

٧ – فى البداية كان الاهتمام بتدوين القران الكريم وعدم الانشغال بغيرة ضمانا لعدم الخطأ أو الخلط فلما تم ذلك جاء الاهتمام بتجميع الأحاديث ومن بعد ذلك غيره، أنظر: ابن عبد البر: مختصر جامع بيان العلم وفضله، القاهرة، ص ص٣٤، ٣٥، حاجى خليفة: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، استنبول ١٩٤١، جـ١، ص٢٥، ابن قتيبة: المعارف، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١١٦، احمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، بيروت ١٩٥٤، ص٤٣، ٤٥.

وكان السبب المباشر للتدوين هو الخوف من ذهاب العلم بوفاة الرواة، وأول من نبه إلى ذلك أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز: "فقد أمر واليه بالمدنية أبا بكر بن عمر وبن حزم بالنظر إلى ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكتبه لخوفه من دروس العلم وذهاب العلماء..... وأمر ولاته ان يفشوا العلم، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم. فان العلم ليهلك حتى يكون سرا[١]".

على أن التدوين بالمعنى الحقيقى ابتدأ بتدوين الحديث، فكان أول من دون العلم محمد بن شهاب الزهرى المتوفى ١٢٤هـ/٧٤١م[٢]، ثم شاع أمر التدوين فى الأمصار الإسلامية قبيل منتصف المائة الثانية من الهجرة، وقد اشترك بعض أعلام المدرسة الدينية بمدينة الفسطاط فى تلك الحركة التى كان لها أثر بعيد فى حفظ العلم[٣]، وشيوع المؤلفات العلمية فى الأمصار الإسلامية بعد ان كان العلماء يقتصرون على الحفظ، فكان أول من صنف وبوب سعيد بن عروبة المتوفى سنة ١٥٥هـ/٧٧١م، والربيع بن صبيح المتوفى بالبصرة سنة ١٦٠هـ، ومعمر بن راشد الصنعانى المتوفى سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م باليمن[٤]".

وبعد ذلك صنف خثيم، والليث بن سعد، وعبدالله بن لهيعة، ثم ابن المبارك، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبيويه[٥].

وكان لجهود علماء مدينة الفسطاط مثل ابن وهب والليث بن سعد وابن لهيعة أثر بعيد فى المساهمة فى الحركة العملية "فقد كان ابن وهب يفوق بتصنيفه جماعة من الفقهاء المصنفين، وله من تصنيفه نحو مائه جزء[٦]".

---

١ - البخارى: الصحيح- كتاب العلم، جـ١، ص٣٦.

٢ - ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٤٨؛ الغزالى: أحياء علوم الدين، ط بولاق، جـ١، ص٧٩، ابن عبد البر: مختصر جامع بيان العلم، ص٢٧.

٣ - المقريزى: الخطط:، جـ٢، ص٣٣٢.

٤ - الغزالى: أحياء علوم الدين، ط القاهرة ١٣٥٦هـ جـ١، ص٣٩، المقريزى: الخطط جـ٢، ص٣٣٢، حاجى خليفة: كشف الظنون، جـ١، ص٨٠.

٥ - السيوطى: تاريخ الخلفاء، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٢٦١.

٦ - محمد مصطفى الماحى، وأخرون: شعراء مصر من الفتح الاسلامى الى قيام الدولة الفاطمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ١٣.

وكان لشيوع تلك المصنفات أثر فى ظهور طريقة أخرى للتحصيل والدراسة وهى طريقة الإملاء التى كانت أعلى مراتب التعليم فى مدرسة الفسطاط، فكثيرا ما كان المتكلمون واللغويون فى القرن الثالث الهجرى يتبعون طريقة الإملاء وكانت مجموعة الدروس التى تلقى بطريقة الإملاء تسمى الامالى[١]، "فكان الربيع بن سليمان أول من أملى الحديث بجامع أحمد بن طولون[٢]".

وكان للعلوم التى سادت فى الفترة المبكرة من تاريخ الحياة العلمية فى مدينة الفسطاط طابع مميز انعدم معه التخصص، فكان العالم الواحد يجمع بين أنواع مختلفة بين صنوف العلم، فلم يكن هناك من تخصص فى الفقه فحسب أو الحديث أو التاريخ، بل كان العالم يلم بفروع مختلفة من العلوم[٣].

فكانت حلقة الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م بالمسجد الجامع بمدينة الفسطاط- تدور على كثير من العلوم العربية " فكان يبدأ حلقته بدروس القرآن، ثم يأتى إليه طلاب الحديث، وفى الضحى تدور حلقته حول علوم اللغة والعروض والشعر والنحو[٤].

وقد بدأت دعوة التخصص بين العلماء منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، يقول ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩ م): "من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم وأن يأخذ من كل شىء أحسنه[٥].

---

١ - السيوطى: المزهر فى علوم اللغة، جـ٢، ص١٩٩.

٢ - نفسه، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٧.

3- *C. F: Ency. of Isl. art. "Masdjid". Vol. 3. P. 365.*

٤ - ياقوت: معجم الأدباء، القاهرة ١٩٣٨م، جـ١٧، ص٢٩٩-٣٠١، ابن حجر: توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس، بولاق ١٣٠١هـ ص ٦٢، النووى: تهذيب الأسماء واللغات، ق١، ص ص٤٩، ٥٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٣٠٥.

٥ - ابن قتيبة: المعارف، ص٣٧٥، ابن عبر البر: جامع بيان العلم، جـ١، ص١٣٠، ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، الهند، ١٣٥٣هـ ص ص١٢،١٤.

وقال يوسف بن عدى (المتوفى سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦ م، "أدركت الناس فقيها غير محدث، ومحدث غير فقيه، خلا عبد الله بن وهب، فأنى رأيته فقيها محدثا، زاهدا صاحب سنة وأثار[١]".

وهكذا ظهر التخصص عند العلماء ، فقد خرجت من بين فنون الآداب القديمة مجموعة من العلوم الدنيوية.

وقد كان للعلوم الدينية المنهج العلمى السليم الذى يؤدى إلى ضبط وتحقيق ما يتم تصنيفه، فهناك الجرح والتعديل وهناك الإسناد كما هو متبع فى علم الحديث[٢].

وقد اهتمت الدراسات العلمية ، بالفسطاط بدراسة القران وحفظه ما يتصل به من علوم، وبذلك تهيأت السبل أمام دارس القرآن والتفسير. فبالإضافة إلى تشجيع الولاة، وأولى الأمر، كانت هذه الدروس تلقى على الطلبة الراغبين فيه دون مقابل، لأن العلماء الدينين كانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على القران أجرا[٣].

تأثر مدرسة الفسطاط بالمذاهب الفقهية الأربعة:

تأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى، ففى ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية، وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والأدباء والشعراء، وإقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها[٤]، "فكان سيبويه المصرى يتمثل بأقوال فلاسفة الإغريق[٥]".

المدرسة الحنيفية :

نشأت فى العصر العباسى مذاهب لم يشتهر بعضها، ولا يزال بعضها الأخر قائما حتى اليوم، واهم المذاهب التى ذاعت فى العصر العباسى المذاهب الأربعة

---

١ – ابن فرحون: الديباج المذهب، ص١٣٣.

٢ – عبد المنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى ، ط الثالثة، الأنجلو المصرية، ١٩٧١، ص٦٥.

٣ – ابن قتيبة: المعارف، ص١٧٥، ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٣، ١٤، طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، جـ١، ص٣٣١، الخربوطلى: الحضارة العربية الاسلامية، ص١٨٤.

٤ – ابن خلكان: وفيات الاعيان، جـ١، ص٢٠٥، سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص٣٢.

٥ – ابن زولاق: اخبار سيبوبة المصرى، ط الأولى، القاهرة ١٩٣٣، ص٥.

وأقدمها مذهب الإمام أبى حنيفه[١] إذ يعد صاحبه أمام أهل الرأى والقياس[٢].

وكان المذهب الحنفى مختصا بأهل العراق ، وقد احتضنت هذا المذهب دار الخلافة ببغداد، وتؤازره وتعضده، يقول المقريزى: "فلما قام هارون الرشيد فى الخلافة وولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبى حنيفه بعد سنة سبعين ومائة، فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشاربه القاضى أبويوسف وأعتنى به[٣]، وكان أهل مصر لايعرفون هذا المذهب حتى ولى قضاؤها إسماعيل بن اليسع الكوفى من قبل الخليفة العباسى المهدى سنة ١٦٤هـ/٧٨١م فكان أول قاضى حنفى بمصر، وأول من ادخل إليها مذهب أبى حنيفة[٤].

ومن أشهر من تولى القضاء بمصر على مذهب أبى حنيفه القاضى بكار بن قتيبه المتوفى سنة ٢٧٠هـ، والذى كان له باع طويل فى الفقه والحديث، وولى من قبل المتوكل سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م، وكانت مدة ولايته أربعة وعشرون سنة[٥].

كذلك من فقهاء الحنيفية بمصر أبو جعفر الطحاوى المصرى (٢٣٧هـ-٣٢١هـ/ ٨٥١-٩٣٣م)، إذ كان حنفيا، يتفقه على مذهب أهل العراق، وكان أوحد زمانه علما وزهدا، ويعتبر إمام المصريين فى المذهب الحنفى لكثرة تلاميذه، وخصب إنتاجه، وقد انتهت إليه رياسة أصحاب أبى حنيفة بمصر[٦].

---

١ - الشيرازى: طبقات الفقهاء، ص٥٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، صفحات ١٢، ١٣، ١٤، ١٥.

٢ - وقد ولد الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠هـ وقيل سنة ٦١هـ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠هـ. انظر: الشيرازى: المصدر السابق، ص٥٧، القاضى عياض: ترتيب المدارك، جـ١، ص٩٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص٤٠٥.

٣ - المقريزى: الخطط جـ٢ ص٣٣٣.

٤ - الكندى: الولاة والقضاة وزيل قضاه مصر، ص ٥٠١. المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٣٣٤، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ص٦١، ٦٢.

٥ - الكندى: الولاة والقضاة، ص٤٨٥، ملحق قضاه مصر، ص٥٠٥، ٥١٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ص٢٨٠، ٢٨١.

٦ - الذهبى: العبر فى خبر من غبر، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، جـ١، ١٩٦٠، ص١٨٦.

ورغم إيثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفى إلا أن قضاة مصر فى العصر العباسى لم يكونوا كلهم ممن يتبعون هذا المذهب(١).

المدرسة المالكية بالفسطاط :

اشتهر المذهب المالكى لتوفر أصحاب مالك بمصر(٢)، ويعد ثانى المذاهب الأربعة فى القدم، ويمتاز مذهبة باعتماده، على الحديث أكثر من أبى حنيفه، ويذكر للإمام مالك انه كتب بيده حوالى مائة ألف حديث(٣)، ولهذا يقال لأصحابه أهل الحديث(٤).

يقول المقريزى: "أن أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحى، مولى جمح، وكان فقيها.. روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد، وتوفى بالإسكندرية سنة ثلاث وستين ومائة، ثم نشرة بمصر عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك بمصر، لتوفر أصحاب مالك بمصر، ولم يكن مذهب أبى حنيفه يعرف بمصر(٥).

ولكن ابن فرحون يشير إلى أن أول من أدخل علم مالك بمصر هو عثمان بن الحكم الجذامى، فهو من أصحاب مالك، يروى عن مالك وموسى بن عقبة، وابن جريح، وروى عنه ابن وهب، وتوفى سنة ١٦٣هـ(٦).

---

١ - الكندى: الولاة والقضاة، ص٣٨٣، ٣٩٣، محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص ص٦٢، ٦٣ سيدة كاشف: مرجع سابق، ص٣٢٦.

٢ - ينسب المذهب المالكى إلى الإمام" مالك بن أنس بن مالك الأصبحى الحموى المدنى. شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة، الذى ولد سنة ٩٣هـ، وتوفى سنة ١٧٩هـ بالمدنية المنورة. انظر: المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٣٣٤. وانظر كذلك: القاضى عياض: ترتيب المدارك، جـ١ ص١٠٤-١١٣، ابن كثير: البداية والنهاية، ط مصر ١٩٣٢. جـ١٠، ص١٧٤، الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ١، ص٢٠٧، وأيضا: العبر، جـ١، ص١٧٤، الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ١، ص٢٠٧، وأيضا العبر: جـ١، ص٢٧٢، ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ١٠، ص٥، ابن فرحون: الديباج المذهب ص ص١٧، ١٨، محمود مصطفى: الأدب العربى فى مصر، القاهرة ١٩١٧، ص٨٧، احمد أمين: فجر الإسلام، جـ١، ص٢٤٧.

٣ - القاضى عياض: ترتيب المدارك، جـ١ ص١٣٣.

٤ - أحمد تيمور: نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة، القاهرة ١٣٥١هـ، ص١٩.

٥ - القاضى عياض: ترتيب المدارك، جـ١ ص١١٤، المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٣٣٤.

٦ - ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ص١٨٧، ١٨٨.

ومن تلاميذ مالك الذين كان لهم دور في نشر مذهبه "عبد الله بن وهب بن مسلم الفهرى، المتوفى بمصر سنة ١٩٧هـ/٨١٢م[١].

وقد كانت لابن وهب شهرة علمية فائقة، فقد جمع بين الفقه والحديث والعبادة[٢]، وانتقل إلى المدينة المنورة سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وتتلمذ على الإمام مالك، وقال: "صحبت مالكا عشرين سنة، وقالوا: لم يكتب مالك بالفقه لأحد إلا إلى ابن وهب وكان يكتب إليه[٣]".

وكان أبرز أصحاب مالك الذين وضعوا الشروح والتعليقات على مدوناته عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جناده العتقى[٤] الذى ولد سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م، وكان عريفا للعتقاء بمصر فنسب إليهم، وقد ابتدأ حياته العلمية بمصر متتلمذا على بعض أعلام المدرسة المالكية بها مثل عثمان بن الحكم الجذامى، وعبد الحكم بن أعين، الليث بن سعد[٥].

وكذلك من تلاميذ الإمام مالك بمصر أشهب[٦] "أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داوود بن إبراهيم القيس ثم الجعدى الفقيه المالكى المصرى، تفقه على الإمام مالك، ثم على المدنيين والمصريين. قال الإمام الشافعى ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه، وكانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم، وانتهت الرياسة إليه بمصر بعد ابن القاسم[٧]".

---

١ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣ ص٣٦، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص١٣٢، الذهبى: ميزان الاعتدال، القاهرة ١٣٢٥هـ، ص٥٥٢، وأيضا: تذكرة الحفاظ، جـ١ ص٣٠٤.

٢ – الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ١ ص٣٠٤.

٣ – ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٢ ص٢٤١، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص١٣٢.

٤ – الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ١ ص٣٥٦، ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ٦، ص٧١، ابن فرحون: المصدر السابق، ص١٤٦.

٥ – وينسب عبد الرحمن إلى جماعة العتقاء، وهم قبائل كانوا يقطعون الطريق على النبى صلى الله عليه وسلم ومن يأتى إليه، فبعث الرسول إليهم فاتى بهم أسرى فاعتقهم فقيل لهم العتقاء.
انظر: ابن فرحون: الديباج، ص١٤٧، ومحمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص٤٤.

٦ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٢٣٨، الذهبى: تذكرة الحفاظ جـ١ ص٣٥٦، ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ٦ ص٧١، ابن فرحون: الديباح المذهب، ص٢٤٧.

٧– الذهبى: تذكرة الحفاظ: جـ١، ص٢٧٨، ابن فرحون: الديباح، ص٩٩.

وانتهت رئاسة المالكية بمصر بعد وفاة أشهب إلى بنى عبدالحكم" وهم أسـرة اشتهرت بالمال والجاه العريض ما لم يبلغه أحد[١]".

المدرسة الشافعية وأثرها فى قيام الحركة العملية بمدينة الفسطاط:

"لم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعى[٢] محمد بن إدريس إلـى مصر مع عبد الله بن العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله بـن العباس فى سنه ثمان وتسعين ومائه[٣]" فى عهد والى مصر العبـاس بـن موسـى العباسى، وتولى نشر مذهبه فى الفسطاط بنفسه[٤]، وكانت فترة بقائه بمصر أربـع سنوات إلى حين وفاته ٢٠٤هـ/٨١٩م[٥].

وكانت لحلقة الشافعى العلمية مكانها الذى اشتهر بها فى جامع عمرو[٦] وتسمى "زاوية الخشابية" فيما بعد.

ومن اخلص تلاميذه، أبو محمد بن سليمان بن عبدالجبار بن كـامل المـرادى بالولاء المؤذن المصرى، فهو صاحب الإمام الشافعى، وقد روى أكثر كتبه، وقـال الشافعى فى حقه "الربيع روايتى، وقال ما خدمنى احد ماخدمنى الربيع، وكان يقـول

١ - ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٣ ، ص ص٣٤، ٣٥ ، ابن فرحون: الديبـاج المذهـب، ص١٣٤، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص٤٤.

٢ - الإمام الشافعى صاحب المذهب المقرون باسمه وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بـن العبـاس بـن عثمان ين شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، القرشى المطلبى الشافعى، نزيل مصر المولود سنة خمسين ومائة بغزة ببلاد الشام، وصل إلى مكة فسكنها ثم تردد على الحجاز والعراق وغيرها، حتى استقر به المقام الأخير بمصر، أنظر: ابن خلكان: وفيـات الأعيـان، جـ٤، ص١٦٣، الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ١، ص٣٦١، ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ٩، ص٣٥، العبر، جـ١، ص٣٤٣، محمد مصطفى الماحى، شعراء مصر، ص١٣.

٣ - ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٦٣، المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٣٣٣، ابـن تغـرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ص١٧٦، ١٧٧، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٤٣، محمود مصطفى: الأدب العربى فى مصر، ص٨٩.

٤ - ابن حجر: توالى التأسيس، القاهرة ١٣٠١هـ، ص٧٧.

٥ - الكندى : الولاة والقضاة، ص ص١٥٣، ١٥٤، المقريزى: الخطط جـ٢، ص٣٣٣، ابن الـوردى: تتمة المختصر، جـ١، ص٣٢٢.

٦ - المقريزى: الخطط جـ٢ ، ص٣٣٣، ابن دقماق: الانتصار جـ٤، ص٩١.

له: ياربيع لو أمكننى أن أطعمك العلم لأطعمتك، وهو آخر من روى عن الشافعى بمصر(١).

لقد أثر الشافعى فى مدرسة الفسطاط فقها وعلما، وكان مجلسه حافلا بمختلف فروع العلوم والآداب العربية الإسلامية، وذلك لجمعه علوم متعددة مثل اللغة والنحو والعروض إلى جانب الحديث والفقه والتفسير التى كان قد بلغ فيها شأنا عظيما(٢).

إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تنافس المدرسة المالكية بمصر، وقد هيأت الشافعية جوا جديدا فى العلم لم تعهده مصر من قبل، إذ استطاعت ان تناقش المذاهب الأخرى وان تناظرها ، فابتدأت أذهان المصريين تتنبه لهذه المجادلات العنيفة والمناظرات العلمية(٣).

وتوفى الإمام الشافعى فى مصر فى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م بمصر عند عبد الله بن عبد الحكم ودفنه بنو عبد الحكم فى قبورهم، وظلت هذه المقبرة موضع تكريم، حتى عنى صلاح الدين بنشر مذهبه(٤).

وقد سار مريديه على نفس منهجه، ومن أبرزهم بمصر "البويطى" يوسف بن يحى ويكن أبا يعقوب يوسف بن يحى القرشى- أبو يعقوب البويطى المصرى

---

١ – ابن خلكان: وفيات الاعيان:، جـ٢، ص٢٩١، ٢٩٢، ابن حجر: توالى التأسيس، ص٤٢، السبكى: طبقات الشافعية، جـ٢، القاهرة ١٣٢٤هـ، ص١٣٢، الشيرازى: طبقات الفقهاء، ص٧٩.

٢ – اثر عن الشافعى قوله: "من حفظ القرآن نبل قدره، ومن تفقه عظمت قيمته ومن حفظ الحديث قويت حجته، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعة" أنظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ٢٢٩، السبكى، طبقات الشافعية، جـ١ ص٢٤١، ابن الوردى: تتمة المختصر، ص٣٢٢، ومما يذكر فى مجالس العلم التى كان يعقدها الشافعى عقب صلاة الصبح "اذا طلعت الشمس ختم دروسه فى علوم القرآن، وابتدأ درس الحديث فإذا ارتفعت الشمس انهى دروس الحديث وجلس للمناظرة، واستقبال طلاب الفتوى ، فاذا ارتفع الضحى، انصرف هؤلاء وتفرغ لمجلسه الأدبى ليحضر إليه أهل العربية أو العروض والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار" أنظر: ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١٧، القاهرة ١٩٣٨، ص٣٠٣، ابن حجر: توالى التأسيس، ص٦٢، النووى: تهذيب الأسماء واللغات، جـ١ ص ٤٩، ٥٠.

٣ – ابن خلدون: المقدمة، الفصل الثامن، ٤٥٦، ٤٥٧، ابن الوردى: تتمة المختصر، ص٣٢٢، محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص ص٥٢، ٥٣.

٤ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص١٦٥، ابن الزيات: الكواكب السيارة، القاهرة ١٩٥٧م، ص٢١٣، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص٢٢٩، محمود مصطفى: الأدب العربى فى مصر، ص٩١.

الفقيه، "وكان من أصحاب الشافعى رضى الله عنه والخليفة بعده فى الحلقة ، وكان صالحا متعبدا زاهدا[١]".

كذلك من تلاميذ الشافعى فى مصر الإمام المزنى- أبو إبراهيم إسماعيل بن يحى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزنى- صاحب الإمام الشافعى، وهو من أهل مصر وكان زاهدا[٢].

مدرسة الحنابلة

كان المذهب الحنبلى رابع مذهب أهل السنة والجماعة التى انتشرت فى العالم الإسلامى[٣]، ولم تكن فى مدينة الفسطاط فى عصر الولاة مدرسة خاصة بالفقهاء الحنابلة على غرار المذاهب الأخرى، ويرجع هذا إلى قله الفقهاء الحنابلة بالديار المصرية ، وعدم انتشار هذا المذهب بمصر إلا فى القرن السابع الهجرى وما بعده، وذلك لان الإمام "احمد بن حنبل، كان فى القرن الثالث ، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا فى القرن الرابع[٤].

هكذا نرى أنه أصبح بمصر فى ذلك العهد مذهبان يتعادلان هما المالكى والشافعى فى فترة عصر الولاة.

ذو النون المصرى والتصوف فى مصر:

ومن الجوانب الفكرية التى شهدتها مدينة الفسطاط ظهور علم التصوف الذى بدأ فى فترة مبكرة، يقول السيوطى: "سليم بن عتر بن حجيره التجيبى المصرى- قاض مصر وناسكها من الطبقة الأولى من التابعين، شهد خطبه عمرو بالجابيه، وكان يسمى بالناسك لكثرة فضله وشدة عبادته[٥].

---

١ - ابن حجر : تهذيب التهذيب، جـ٩ ص٤٢٧، السبكى: طبقات الشافعية، جـ١ ص٢٧٦، الشيرازى: طبقات الفقهاء، ص٧٩.

٢ - ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص٦٦، ابن حجر : توالى التأسيس، ص٤٠، محمود مصطفى: الأدب العربى فى مصر، ص٩٣، محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية، ص ص٥٦، ٥٧.

٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١ ، ص ص٦٣، ٦٤ الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ١ ص٤٣١، ابن حجر : تهذيب التهذيب، جـ١، ص٧٢، الشيرازى: طبقات الفقهاء، ص٩١، محمود مصطفى: الأدب العربى فى مصر ص ٩٨.

٤- ابن خلدون: المقدمة، فصل علم الفقه وما يتبعه من فرائض، ص٤٨٨، محمود مصطفى: مرجع سابق، ص٩٨.

٥- السيوطى: حسن المحاضرة، در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة جـ١، ص٢١٨.

والحياة الصوفية بمدينة الفسطاط، أصبح لها نظامها وتعاليمها وتقاليدها الخاصة بفضل أحد الزهاد من مدينة اخميم "مواطن أهل الحكمة والمعرفة وهو ذو النون المصرى الأخميمى[١] – أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم وقيل الفيض بن إبراهيم المصرى، المعروف بذى النون– احد رجال الطبقة الثالثة[٢]".

يقول نيكلسون أن ذا النون المصرى أول من وضع الأسس الأولى للصوفية فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية[٣]، "وقد كان ذو النون أوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا[٤]".

ولم ينفصل ذو النون عن المناخ العلمى السائد فى عصره، فكان له نظر فى العلوم الدينية، فقد اشتغل فى أول أمره بعلم الحديث، " فهو معدود فى جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك[٥]".

انصرف ذو النون عن الاشتغال بعلوم الحديث ، ويبدو أن سلوك أهل الحديث لم يرق إلى ما تصبوا إليه نفسيته الزاهدة، فقد سئل عن سبب تركه الاشتغال بالحديث فقال: "للحديث رجال وشغلى بنفسى استغرق وقتى والحديث عن أركان الدين ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقه لكانوا أفضل الناس فى زمانهم، الا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم فحجبوهم واستكبروا عليهم، وافتتنوا لما رأووا حرص أهل العلم والمتفقهين عليها، فخانوا الله ورسوله، وصار ثم كل من تبعهم فى عنقهم، جعلوا العلم فخا للدين وسلاحا يكبسونها به بعد ان كان سراجا للدين يستضاء به[٦]".

---

١ – السلمى: طبقات الصوفية، ط الأولى، مصر ١٩٥٣م، ص١٥، أبو نعيم الاصبهانى: حلية الأولياء، ط القاهرة ١٩٣٨م، جـ٩، ص٣٣١، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ص٣١٥، ٣١٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢ ص٣٢٠، السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٢١٨، ابن الجوزى: تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٧٦م، ص٢٢٨.

٢ – حول أصله قال أبو عمر الكندى فى كتاب أعيان الموالى، ومنهم ذو النون المصرى بن إبراهيم الأخميمى، كان أبو إبراهيم عبدا نوبيا. انظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١ ص ص٣١٥، ٣١٦، ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص٢٢٨، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٥٣.

٣ – نيكلسون: فى التصوف الإسلامى وتاريخه، القاهرة ١٩٥٦م، ص١١٢.

٤ – السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٢١٨.

٥ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٣١٥.

٦ – الشعرانى: الطبقات الكبرى المسماه "بلواقح الأنوار فى طبقات الأخبار، القاهرة ١٢٩٦هـ، جـ١، ص٧٠، ١٤٩، السمعانى: انساب العرب، ليدن ١٩١٢، ص ص٣٢٤، ٣٢٥.

يقول أبو المحاسن أن "ذو النون المصرى كان اول من تكلم فى الأحوال ومقامات أهل الولاية، وانه انتقل إلى الفسطاط وكانت له بها مجالس علم[١]" وقد بدأت خصومة الفقهاء للصوفية تشتد وخاصة فى خلال محاكمة ذى النون المصرى الذى كانت آراؤه موضع نقد الفقهاء فاتهموه بالزندقة وأنكر عليه أهل مصر ذلك، أى أقواله الفلسفية فى التصوف "وقالوا: أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة، وسعوا به إلى الخليفة العباسى المتوكل على الله، ورموه عنده بالزندقة، وأحضر من مصر على البريد فلما دخل سر من رأى عاصمة العراق فى ذلك الوقت" وعظه فبكى المتوكل ورده مكرما[٢]".

وكان ذو النون حجة فى الإقناع مما جعلة يؤثر فى نفس المتوكل فيطلق سراحه، وقد بلغ من منزلته عند الخليفة المتوكل " أنه إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكى ويقول: "إذا ذكر أهل الورع فحى هلا بذى النون[٣]".

لم يقتصر نشاط ذو النون على وضع أسس علم التصوف، بل كانت له علوم ومعارف أخرى، فقد ألحقه القفطى "بطبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء، وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة[٤]".

وكان ذو النون من أوائل الصوفية الذين استعلموا كلمة الحب وتوسع فى معنى الحب الالهى وفسره تفسيرا لا يزال أساسا من أسس الصوفية، وتكلم فى الأحوال والمقامات، وأول من وسع الكلام عن الولاية[٥].

وكانت لدى ذى النون المصرى مكانة عظيمة فى قلوب المصريين "فقيل أنه لما توفى سنة خمس وأربعين ومائتين هجرية بالجيزة لم يتمكنوا من نقل جثمانة عبر

---

١ – ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٣٢٠، ٣٢١.

٢ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ص٣١٥، ٣١٦.

٣ – قال اسحاق بن إبراهيم السرخسى بمكة: سمعت ذا النون وفى يده الغل وفى رجليه القيد وهو يساق الى المطبق والناس يبكون حوله وهو يقول: هذا من مراهب الله تعالى ومن عطاياه، وكل فعاله عذب حسن طيب، ثم أنشد:

لك من قلبى المصون — كل لوم على فيك يهون

لك عزم بأن اكون قتيلا — فيك والصبر عنك ما لا يكون

أنظر ابن خلكان: جـ١، ص٣١٦.

٤ – القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص١٨٥.

٥ – محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، ص٦٦.

الجسر المقام على النيل خشية أن ينقطع من كثرة تزاحم المشيعين، فهربوا وحملوه فى قارب تفاديا للزحام[١]".

وهكذا كانت لذى النون مكانة مرموقة فى عالم التصوف، وكان له أتباع ومريدين ساهموا فى قيام حركة صوفية قوية بمصر[٢].

العلوم العربية الأخرى بمدرسة الفسطاط

شهدت مدينة الفسطاط تطور عدد من العلوم العربية، شارك فيها العلماء من محدثين وفقهاء، وأسهموا فى تسجيل أحداث التاريخ المصرى، ورواية سيرة الرسول ومغازيه[٣]، لهذا اقترنت الروايات التاريخية برواية الحديث.

مدرسة كتابة التاريخ الإسلامى فى مصر:

يعتبر يزيد بن أبى حبيب الأزدى المتوفى سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م، من أوائل الذين شاركوا برواياتهم فى التاريخ المصرى، اذ يبدو أنه كان على دراية واسعة بأحداث التاريخ المصرى، لذلك أننا نجد رواياته متناثرة فى كتاب "فتوح مصر وأخبارها" فعنه روى ابن عبد الحكم ومما رواه: "أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمه إلى صدره[٤]"، وغير ذلك من أحداث الفتح الإسلامى لمصر، وما يتعلق بعدد جنود عمرو، ثم المدد الذى أرسله الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة الزبير بن العوام[٥]، وعن عقد الصلح مع المقوقس، وموقف الروم من هذا الصلح[٦]، وكانت له روايات خاصة بتاريخ مصر القديم[٧].

---

١ – ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج ١، ص ١١٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٢٠، الشعرانى: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٠، ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص ٢٣٣.

٢ – السلمى: طبقات الصوفية، ص ٦٧.

٣ – انظر بردية مغازى رسول الله، تنسب الى وهب بن منبه:
Raif Georges Khoury: Wahb. B. Mounabbih. I: Der Heidelberger papyrus Heid Arab 23. Leben Und Werk des Dichaers Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui 1) 1972, 33- 115.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٤٨.

٥ – المصدر نفسه، ص٥٥–٦٢.

٦ – المصدر نفسه، ص٧٢.

٧ – المصدر نفسه، ص٢٨.

وكان ليزيد بن أبى حبيب، والليث بن سعد، وابن لهيعة أثرا كبيرا فى أحداث تاريخ مصر، فقد كان عبد الرحمن بن عبد الله بن لهيعة الحضرمى الحافظ المتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م منزلة في الفقه والحديث والأخبار[١]، فأكثر مادة ابن عبد الحكم مأخوذة من رواياته[٢].

أما الليث بن سعد، فقيه مصر ومحدثها، "تشير بعض المصادر إلى مشاركته في حركة التدوين فكان من أوائل من دونوا العلم[٣]".

وروى عن الليث بن سعد بعض العلماء الذين أسهموا بدور كبير فى مجال الدراسات التاريخية" فكان ممن روى عنه من تلاميذه المصريين عبد الله بن وهب (المتوفى سنة ١٩٧هـ/٨١٢م) ويحى بن حسان وعبد الله بن عبد الحكم، وسعيد بن عفير، ويحى بن بكير، وعبد الله بن صالح كاتبه، وهم من أبرز علماء مدرسة الفسطاط، وغالب هؤلاء التلاميذ هم شيوخ الإمام احمد (المتوفى سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م)، والبخارى (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) ومسلم (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م)[٤]".

هكذا بدأ التدوين التاريخى فى مدينة الفسطاط بما كتبه بعض علماء المدرسة الدينية من أئمة الحديث والفقه، فكان أول مؤلف وصل إلينا من تأليف "أبى محمد عبد الله بن عبد الحكم بن اعين بن الليث المتوفى سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م[٥]". فقد ألف كتابا فى سيرة عمر بن عبد العزيز[٦]، باعتباره أول خليفة ولد بمصر ونشأ بها، ويمكننا اعتبار سيرة عمر بن عبد العزيز بمثابة مقدمات لبداية كتابة التاريخ فى مصر.

---

١ – ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها وخواصها، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، برقم ٣٥٩١ تاريخ منقولة عن نسخة خطية بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٦٩٩٣ تاريخ ورقة ١٨، وأيضا: مختصر تاريخ مصر ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٢٧١٧ تاريخ، ورقة ١٠.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦.

٣ – ابن حجر: الرحمة الغيثية، ص٩٢٨، الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ١، ص٢٢٤، السمعانى: الأنساب، ص٤٥١، إبراهيم العدوى: ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، الأنجلو ١٩٦٣م، ص٤٨.

٤ – أبو نعيم الاصبهانى: حلية الأولياء، جـ٧، ص٣٢٤، ابن حجر: الرحمة الغيثية، ص٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص ص١٢٧، ١٢٩.

٥ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٣٤، ابن فرحون: الديباج المذهب ص١٣٤.

٦ – يقول النووى: أنه مجلد مشتملا على جميل سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه، وفيه من النفائس ما لا يستغنى عن معرفته والتأدب به "النووى: تهذيب الأسماء واللغات، ج ٢ ، ص ٢٧، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص١٣٤.

عبد الرحمن بن عبد الحكم ..

نشأ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم فى أسرة عريقة اهتمت بالدراسات الفقهية، وتوراث أفرادها المذهب المالكى[١]، اهلته هذه البيئة لدراسة الحديث، وترجع شهرته إلى كتابه "فتوح مصر وأخبارها" وقد رواه عنه على بن قديد[٢].

وكان ابن عبد الحكم أول مؤرخ مصرى آلف فى تاريخ مصر بطريقة الرواية المسندة[٣]. إذ يعتبر كتابه مصدرا لمن جاء بعده من مؤرخى مصر الإسلامية مثل الكندى فى كتابه "الولاة والقضاة" وابن زولاق فى كتابه "فضائل مصر" وغيرها.

المدرسة الأدبية فى الفسطاط:

الشعر

شارك أعلام مدينة الفسطاط فى علوم اللسان العربى (اللغة والنحو والبيان والأدب[٤]، وكان للشعراء الوافدين دور كبير فى ازدهار الحياة الأدبية فى مصر منذ بداية عهدها بالإسلام[٥].

وابن جذل الطعان من الشعراء البارزين فى فترة الفتح، وكان شاعرا قبليا يدافع عن قبيلته، وكانت له مقالات ومحاورات مع أحد شعراء خولان إحدى القبائل

---

١ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣ ص ص٣٤، ٣٥.

٢ – القاضى عياض: ترتيب المدارك، جـ٤، ص١٦٥.

٣ – كان عبد الله بن عبد الحكم والد المؤرخ أول من كتب التاريخ بمصر وكان كتابه الموسوم "سيرة عمر بن عبد العزيز" عبارة عن مجموعة غير مرتبة من الآثار براوية ابنه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، القاهرة ١٩٦٢، جـ٣، ص٧٦. أما ابنه عبد الرحمن فقد كان أول مؤرخ مصرى باعتباره قد دون حوادث خاصة بتاريخ مصر: محدودة فى كثير من الأحيان بالتوقيت الزمنى "التأريخ" الذى صار عنصرا حيويا فى الكتابة التاريخية، انظر: السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، القدس، ١٣٤٩هـ، ص٧، الكافيجى: كتاب المختصر فى علم التاريخ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢٨ تاريخ ، ورقم ٥ أ).

٤ – حاجى خليفة: كشف الظنون، جـ١ ص٥٥.

٥ – محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص١٢٦.

العربية التي نزلت بمصر، واتخذت موطنها جنوب حصن بابليون، وكان رائم بن ثعلبة قد نزل معهم فقال ابن جذل الطعان قصيدته التي جاء فيها[١].

ومن القصائد الأولى التي رويت بمصر قصيدة أبي مصعب قيس بن سلمة البلوى التي هجا بها أشراف مصر، وأعجب بها معاوية بن أبي سفيان[٢].

وقد نظم بعض الشعراء القصائد فى بعض المناسبات الهامة إذ مدح عبد الرحمن بن قيسيه بن كلثوم التجيبى أباه لتبرعه بمنزله فى الفسطاط ليكون مسجدا جامعاً للمسلمين[٣].

ومن الشعراء القبليين الذين جعلوا أشعرهم وقفا على القبيلة ابن نعيم التجيبى الذى نزل بمصر مع قبيلته تجيب أثناء الفتح، ولذا افتخر بفتح حصن بابليون[٤].

وكان بين الولاة من أحب الشعر ورواه، ومنهم من كان شاعرا كالوالى عقبة بن عامر[٥] (٤٤-٤٧هـ/٦٦٤-٦٦٧م).

---

١ - من مبلغ خولان عنى رسالة ـــ يربضها أبنا فراس بن مالك
بأن أخانا رائم الخيـر فيكم ـــ مقيم بلا ذنب بأزل المهالك
الى مالك ينمى إذا عد أصله ـــ كنانه أهل المكرمات الموالك
ورد عليه شاعر خولان ينقض قوله ويفتخر بخولان، انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص ١٢٥، ١٢٦.

٢ - وليس بماجد الجدات قيس ـــ ولكن حضر ميات قماء
واعرض نفحة اليربو ع ع نى ـــ يزيد بعد ما رفع اللواء
أشار بكفه اليمنى وكانت ـــ شمالا لا يجوز لهما عطاء
أنظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٤، محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص١٢٦، ١٢٧.

٣ - مدح أباه بقوله: وأبوك سلم داره وأباحها ـــ لحياه قوم ركع وسجود
ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٦٥، المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٤٦، محمد مصطفى الماحى: شعراء مصر، ص٢٣.

٤- وجاء فى قصيدته:
وبابليون قد سعدنا بفتحها ـــ وحزنا لعمر الله فيئا ومغنما
وقيسية الخير ابن كلثوم داره ـــ أباح جماها للصلاة وسلما
فكل مصل فى فنانا صلاته ـــ تعارف أهل المصر ما قلت فاعلما
انظر: المقريزى: الخطط جـ٢، ص٢٤٦.

٥ - الكندى: الولاة، ص٣٧، محمد كامل حسين: مرجع سابق، ص ص١٢٨، ١٢٩.

ويعد عهد عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م) من أزهى عصور الحياة الأدبية فى مصر، فقد كانت العاصمة فى عهده ملاذا لكثير من الشعراء الوافدين الذين كانوا لهم أثر كبير فى النهضة الأدبية "فقد كان عبد العزيز بن مروان جوادا ممدحا، ذو مروه وكرم[١]".

ومن أبرز الشعراء الذين وفدوا إلى مصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان عبيد الله بن قيس الرقيات[٢]، الذى نظم قصائد فى أعمالة العمرانية[٣]، وكرمه[٤].

وكان عبدالعزيز نفسه "فصيحا" ثقة قليل الحديث، وكان يلحن فى كلامه، ثم تعلم العربية فأحسن تعلمها[٥]، وهو معدود فى الطبقة الثالثة من تابعى أهل الشام[٦]".

وكان لجوده وكرمه أثر كبير فى أن سعى إليه عدد كبير من الشعراء ولازمه كثير منهم، ونظموا فى مدحه والإشادة به، ومن أشهر هؤلاء الشعراء أيمن بن خزيم بن فاتك[٧]، ونصيب بن رباح بن مروان[٨]، (المتوفى سنة ١٨٠هـ)، وكثير عزه- أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر أبو صخر الخزاعى[٩] الذى أقام بمصر مدة يمدح عبد العزيز بن مروان.

---

١ - انظر: الكندى: الولاة والقضاة، ص٥٢.

٢ - الكندى: الولاة والقضاة، ص٢٥٠، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٩.

٣ - يصف مدينة حلوان التى شيدها عبد العزيز بن مروان:

سقيا لحلوان ذى الكروم وما ... صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من البرنى ... غلب يهتز فى شربه
اسود سكانه الحمام فما ... تنفك غربانه على رطبه.

انظر: الكندى: الولاة، ص٥٠، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٩.

٤ - قال ابن قيس الرقات:

تكون جفانه رذما ... فمصبوح ومغتبق
إذا ما أزحفت رفق ... جنت من دونهم رفق

انظر: الكندى: الولاة، ص٥٢.

٥ - المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٠٩.

٦ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١، ص ١٧٢.

٧ - الكندى: الولاه، ص ٥٢.

٨ - ابن قتيبه: الشعر والشعراء، ج ١، ص ٩٣، الاصفهانى: الاغانى، ج ١، ص ٣٤٢.

٩ - الاصفهانى: الاغانى، ج ٩، ص ٢٤.

وفى عصر الولاة العباسيين ظهر كثيرون من الشعراء من أبناء القبائل العربية التى استقرت بمصر، وقد رسم هؤلاء بشعرهم صورة صادقة للبيئة الاجتماعية، ومن أبرز هؤلاء سعيد ابن عفير، كما كان الليث بن سعد يحسن النحو، ويحفظ الشعر[١]، وكان ورش المقرىء يحسن الشعر[٢].

وكان عمرو بن الحارث الانصارى- عالم مصر ومحدثها أخطب أهل عصره ومن أحسنهم شعرا[٣].

وقد وفد الى الفسطاط فى فترة حكم الولاة العباسيين كثير من الشعراء المتكسبين، وكان هدفهم من المجيء اما رغبة فى تولى المناصب، وأما طمعا فى العطاء، مثلما حدث في ولاية يزيد بن حاتم[٤] (١٤٤-١٥١هـ/٧٦١-٧٦٩م) إذ تقاطر إليه عديد من الشعراء، ومنهم بشار بن برد الذى مدحه لجوده وكثرة عطاياه[٥].

وفى أواخر القرن الثانى الهجرى شهدت مصر نشاطا أدبيا واسعا، فقد زار مصر أبو نواس- الحسن بن هانى- الذى جاء إليها يمدح أميرها الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الخليفة العباسى الرشيد، وشارك فى الحياة الأدبية فى مصر[٦].

وفى أواخر القرن الثانى الهجرى امتزجت الدراسات الفقهية والدينية بالدارسات الأدبية، وشهدت جوانب المسجد الجامع وأروقته نهضة أدبية عظيمة بعد رحيل الإمام الشافعى سنة ١٩٨هـ[٧]، وقد ظلت الحياة الأدبية مزدهرة

---

١ - الذهبى: تذكرة الحفاظ، جـ١، ص ٢٢٦.

٢ - ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١٢، ص١١٦.

٣ - ابن حجر: تهذيب التهذيب، جـ٨، ص١٤، الزركلى: الإعلام، جـ٢، ص٧٣١.

٤ - الكندى: الولاة، ص١١١.

٥ - بعد ان صرف يزيد بن حاتم عن ولاية مصر سنه ١٥٢هـ انقطع الشعراء عن الرحلة إلى مصر لفترة من الزمن. انظر: الاصفهانى: الأغانى، جـ٣، ص١٢٤.

٦ - قال أبو نواس: انه لما قدم من الخصيب وجد مجلسه غاصا بالشعراء المصريين الجالسين، فقال وهنا أيها الأمير جماعة من الشعراء هم أقدم منى وأسن فإذن لهم فى الانشاد، فأن كان شعرى نظير أشعارهم انشدتك والا امسكت". انظر: ابن منظور: أخبار أبى نواس، ص٢٣٤، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٠٥، محمد كامل حسين، مرجع سابق، ص١٢٤.

٧ - ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١٧، ص٢٩٩، ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص١٤٠.

بمصر حتى نهاية عصر الولاة، وكان بعض المصريين يقرضون الشعر ويلمون بغريبة[١].

النحو واللغة..

اللغة والنحو من أبرز علوم اللسان العربى التى ازدهرت بمصر[٢]، وقد تأثرت مصر بأنواع الثقافات التى كانت موجودة بعواصم الدولة الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بالدارسات العربية.

ومنذ البداية كان معلموا القرآن والسنة النبوية هم أساتذة العربية الأول بمصر[٣] وكان أول هؤلاء القراء "عبد الرحمن بن هرمز مولى ربيعه بن الحارث ابن عبد المطلب الذى كان أحد الحفاظ والقراء، إذا أخذ القراءة عن أبى هريرة وابن عباس، وكان يكتب المصاحف ويقرىء القرآن[٤]، وقد أخذ عن أبى الأسود علم العربية[٥]، وتكاد تجمع المصادر على أن كل القراءات فى مصر رواية عن نافع بن أبى نعيم فقيه أهل المدينة الذى بعثه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها قرءاة القرآن والسنة[٦]، وكان ورش المقرئ من أجل تلاميذه "فقد انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية[٧].

ونبغت طائفة من فقهاء ومحدثى الفسطاط فى اللغة والنحو، فقد كان الليث بن سعد عربى اللسان، فصيح البيان، يحسن القرآن والنحو[٨]، وكان احمد بن صالح أحد الحفاظ إماما فى القراءات والنحو[٩]، وكذلك احمد بن يحى الوزير بن سليمان

---

١ – ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١٨، ص٦٠.

٢ – جرجى زيدان: تاريخ أداب اللغة العربية، جـ٢، ص١٤٨.

٣ – شوقى ضيف: المدارس النحوية، القاهرة ١٩٦٨، ص٣٢٧.

٤ – الذهبى: تاريخ الإسلام، القاهرة ١٣٦٨هـ جـ١ ص١٩٥، السيوطى: بغية الوعاه، ص٣٠٢.

٥ – القفطى: أنباء الرواه على أنباء النحاه ط دار الكتب ١٩٥٠م، جـ١، ص١٥، السيوطى: بغية الوعاه، ص ٣٠٣، الزبيدى: طبقات النحويين واللغويين: القاهرة ١٩٥٤، ص ص١٩، ٢٠، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ١، ص٥٣، حفنى ناصف: تاريخ الأدب العربى، جـ٢، ص ص٨٤، ٨٥.

٦ – ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٠.

٧ – ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١ ص١١٨.

٨ – السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١ ص١١٨.

٩ – القفطى: انباء الرواه، جـ١، ص ٥٢.

التجيبى (١٧١هـ/٢٥٠هـ) شيخا مبرزا من شيوخ مصر حافظا نحويا[١].

وكان للشيوخ الوافدين على مصر أثر كبير فى تعميق اثار اللغة العربية بما لهم من ملكات لسانية قوية، ومن أبرزهم محمد ابن إدريس الشافعى الذى كان حجة فى اللغة والنحو[٢].

ومن أئمة اللغة الذين وفدوا على الفسطاط "عبد الملك بن هشام الذى كان إماما فى اللغة والنحو والعربية[٣]، وقد التقى ابن هشام بالشافعى فى المسجد الجامع، وقد التف حوله المصريون الذين عرفوا قدره، فاتخذوه أستاذا لهم، مثل الربيع بن سليمان، وسرج الغول عالم مصر باللغة[٤].

ولم تلبث الدارسات اللغوية والنحوية بمصر أن تطورت فى القرن الثالث الهجرى على يد أسرة مصرية كان لها أكبر الأثر فى وضع أساس علم النحو فى مصر، وهى أسرة بنى ولاد، وكان رأس هذه الأسرة "الوليد بن محمد التميمى المعروف بولاد المصادرى المتوفى سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م[٥]، فعلى يديه تكونت المدرسة التى تعد النواة الأولى لدراسة النحو فى مصر.

كذلك من النحاه البارزين فى مصر "أحمد بن جعفر أبو على الدينورى، المتوفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م"، فقد الف كتابا فى النحو سماه المهذب[٦].

هكذا أسهم هؤلاء النحاه فى ازدهار حركة النحو واللغة، وكان لهم الفضل فى شيوع المؤلفات اللغوية والنحوية بها.

---

١ - السيوطى: بغيه الوعاه، ص ١٧٤.

٢ - السبكى: طبقات الشافعية، جـ١ ص٢٧٤، ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١٧، ص٢٩٠، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص١٣٤.

٣ - القفطى: أنباء الرواه، جـ٢، ص٢١١، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣، ص١٧٧.

٤ - ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١٧، ص٢٩٩، ابن فرحون: الديباج المذهب، ص١٣٣، السيوطى: بغية الوعاه، ص٢٥٢.

٥ - كان ولاد بصرى الأصل، نشأ بمصر، ورحل إلى العراق، وسمع بها العلماء، ورحل إلى المدينة، وسمع ولاد بالخليل بن احمد، وسمع منه ولازمه ثم انصرف إلى مصر، انظر: القفطى: أنباء الرواه، جـ٢، ص٣٥٤، السيوطى: بغية الوعاه: ص٤٠٥، الزبيدى: طبقات اللغويين والنحويين، ص٢٣٢، شوقى ضيف: المدارس النحوية، ص ص٣٢٨.

٦ - القفطى: أنباء الرواه، جـ١، ص ص٣٣، ٣٤، السيوطى: بغية الوعاه، ص١٣٠، ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ٢، ص٢٤٠، حاجى خليفة: كشف الظنون، جـ١، ص١٠٨.

لقد أظهرت الثقافات العربية فى مصر تفوقها بهؤلاء العلماء الذين جعلوا مـــن مصر الإسلامية منارا يهتدى إليه الكثير من العلماء الوافدين، لكى تتوطـــن الثقافـــة العربية فى مصر، وتنتشر على نطاق أوسع بين أهل البلاد، ومن ثم كــــان ظـــهور مدارس مصر الإسلامية، وتفوقها على جميع المدارس الإسلامية الأخرى[1].

١- القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص ص٣٤٢، ٣٤٣، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١٢٤.

الفصل الرابع
تخطيط المدن الإسلامية

- الفسطاط، العسكر، القطائع.
- دراسة خطط المدينة الإسلامية.
  - الدروب والأزقة.
  - أبواب الدروب.
  - السقائف والرحاب.
  - الأزقة.
  - إنارة الدروب والأزقة.
  - المسكن الإسلامى.
  - العمارة الدينية الإسلامية.
    - المساجد.
  - المرافق العامة.
    - الأسواق.
    - الحمامات.
    - وسائل الانتقال.

الفصل الرابع

تخطيط المدن الإسلامية

تخطيط المدن :

لا ريب فى أن دراسة التطور الاجتماعي في مصر في عصر الولاة يستتبع بالضرورة دراسة تخطيط المدن مثل الفسطاط والعسكر والقطائع ، فقد اعتاد العرب أن يؤسسوا فى الأقطار التى يفتحونها عواصم جديدة، يختارون مواقعها بما يتفق ومصالحهم العامة والخاصة.

وقد أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط(١) سنة ٢١هـ/٦٤٢م بعد فراغه من الفتح الأول لمدينة الإسكندرية(٢).

وقد تعددت آراء المؤرخين فى الأسباب التى دعت عمرو بن العاص إلى اختيار هذا الموضع مكانا لعاصمة مصر الإسلامية، فالدولة لم تكن قد وطدت

---

١ - اسم فسطاط الراجح أن أصله غير عربي، وأنه مشتق من اللفظ اليونانى qssatov "فساطن" وذلك اللفظ اشتق من اللفظ اللاتينى Fossatum الذى كان يطلقه الرومانيون على معسكراتهم الحربية، وتؤيد أوراق البردى ذلك القول، ففي إحدى الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ سنة ٩٠هـ، وفي أخرى متشابهة سنة ٩١هـ نجد اسم باب اليون qssatov والفسطاط، فاسم فسطاط كان موجودا قبل تأسيس الفسطاط وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربي. انظر : جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن، ص ص١٥، ١٦، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى، ص٢٢٣؛ ويذكر بتلر: أن كلمة فسطاط مشتقة من اللفظ الرومانى fossatum مستندا على كتاب سفوكليز "القاموس البيزنطى" أن العرب يحتمل أن سمعوا بهذا اللفظ في الشام، كما سمعوه عند حصن بابليون، وأكثر ما يطلق على ما يتصل بالمدن المحصنة، ولعل هذا الاتصال هو الذى جعل بعض العرب يذهب إلى أن الفسطاط معناها المدينة انظر : المسعودى: مزوج الذهب، جـ١، بيروت ١٩٧٣م، ص٤٠٥؛ خطط المقريزى، جـ١، ص٢٩٦؛ ليو الأفريقي: وصف أفريقيا، ص٥٨٦؛ مصطفى طه: مصر الإسلامية، جـ١، ص٥٩؛ على بهجت: حفريات الفسطاط، دار الكتب ١٩٢٨، ص١٠، ١١؛ بتلر: فتح العرب، ص٢٥٠.

٢ - تاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه، فالبلاذرى يذكر أنه كان بعد فتح بابليون فى حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية عندما أبى عمر أن يبيح لعمرو المقام فى الإسكندرية انظر : البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ط بيروت ١٩٧٨، ص٢٢١، ٢٢٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٦؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٩٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية، ص٤٠؛ بتلر : مرجع سابق، ص٥٠؛ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية، ص٦٦؛ جاستون فييت: القاهرة ص١٥؛ جمال الشيال: الفسطاط، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد ١٢، سنة ١٩٥٨، ص١٣٤.

دعائم سلطانها بعد، كما أنه لم يستتب لها الأمر فى البلاد التى تحيط بالبحر الأبيض المتوسط الذى يفصل بينها وبين أقوى عدو لها، وهو الدولة البيزنطية، فضرورات الدفاع حدت بالفاتحين إلى البعد عن الساحل[١].

ويذكر ابن عبد الحكم إلى "أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها، هم أن يسكنها، وقال مساكن قد كفيناها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمون ماء؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو أنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف، فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط[٢].

فالمؤرخون المسلمون يرجعون عدم اختيار الإسكندرية عاصمة للعرب إلى خوف عمر من ركوب البحر[٣]، ولكن الواقع أن الإسكندرية متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم[٤]، على غرار مدينة الفسطاط التى يسهل منها الإشراف على الصعيد الأعلى والصعيد الأسفل.

وترجع المصادر[٥] سبب اختيار هذه المدينة إلى عنصر الصدفة المحضة، ذلك أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية بعد استيلائه على حصن

---

١ - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص ص٤٠، ٤١؛ سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية، ص٦٦؛ جاستون فييت: القاهرة، ص١٥؛ أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، نقله للعربية أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م، ص٦٥ ؛ سعد زغلول: تاريخ الإسكندرية من الفتح الإسلامى إلى بداية العصر الفاطمى ، من كتاب تاريخ الإسكندرية وحضارتها منذ أقدم العصور ١٩٦٣، ص٢١٨؛ صفاء حافظ عبد الفتاح: الموانى والثغور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى، دار الفكر العربى، ص ص٣١، ٣٢.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩١؛ ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، جـ١، ط القاهرة ١٩٥٣م؛ ص ص٣٩، ٤٠؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٦؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص ص١٣٠، ١٣١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١٩، ص٣١٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق، ص٣٩؛ عبد المنعم ماجد: مرجع سابق، ص٢٢٤؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٤١.

٣ - لمزيد من المعلومات عن البحرية الإسلامية فى عهدها الأول انظر: سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية، ص٦١-٦٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٩، ٤٠.

٤ - ابن الفقية: مختصر كتاب البلدان، ط ليدن ١٩٦٧، ص ص٥٩، ٦٠؛ سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٤٢.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩١؛ الكندى: الولاة، ص٩، النويرى: نهاية الأرب، جـ١٩، ص٣١٩؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٢٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٦.

بابليون "أمر بنزع فسطاطه"، وكان قد تركها بجوار الحصن أثناء الحصار، فإذا فيه يمام قد فرخ، فقال عمرو: لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به فاقز كما هو، وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الإسكندرية فقالوا أين ننزل؟ قالوا الفسطاط، لفسطاط عمرو الذى كان خلفه وكان مضروبا[1].

"وقال الجوهرى: الفسطاط بيت من شعر. قال ومنه فسطاط مدينة مصر[2]، وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط، ولذلك قيل لمصر فسطاط، وقال الزمخشرى: الفسطاط اسم لضرب من الأبنية، والذى عليه الجمهور، أنه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص يعنى خيمته[3]".

وهذه الروايات أقرب إلى الخيال منها للحقيقة، لأن المواقع معروفة وأن تغيرت أسماؤها بتغير الزمان، ولابد أن العرب تنبهوا إلى أهمية موقع هذه المدينة التى اتخذوها عاصمة لمصر[4]، إذ يمتاز موقعها بتوسطه بين مصر السفلى

---

١ - ويذكر الكندى: "بعد ما شرع عمرو فى الاستيلاء على الحصن أجمع على المسير إلى الإسكندرية فسار إليها فى ربيع الأول سنة عشرين، وأمر بفسطاطه أن يقوض فإذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال: لقد تحرمت بجوارنا، أقروا الفسطاط حتى تنقف وتطير فراخها. فاقروا الفسطاط" انظر: الكندى: الولاة، ص٩؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٦٣؛ ابن خلدون: العبر، م٢، ق٥، ص٩٧٢.

٢ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٦؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٩٦.

٣ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٢٦، ٣٣٠.

٤ - يذكر د. جمال الدين الشيال فى مقال له بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية عدد ١٢ سنة ١٩٥٨م، ص١٣١. أنه "كان فى مصر وقت الفتح مدينتان هامتان أحدهما الإسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى، وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحب السيادة، وبابليون وتعتبر العاصمة الثانية، وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى، ولوقوعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال بواسطة هذا النهر بكل أطراف القطر المصرى ولتوسطها بين النيل غربا وبين جبل المقطم شرقا، ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان لحكمهم.. فاتخذوا منف عاصمة لهم. وكانت هليوبوليس حاضرة مصر لمدة طويلة" وهو يعتقد فى ذلك على ابن دقماق، جـ٤، ص٣، الذى ينقل عن ابن سعد "كانت مبانيها فى قديم الزمان متصلة بمبان عين شمس" كما يعين ابن الفقية فى كتاب البلدان موقع الفسطاط بالنسبة للمدينتين بقوله: "وعين شمس على ثلاث فراسخ من الفسطاط ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ثلاث فراسخ" كما يذكر ابن حوقل فى كتاب المسالك والممالك: "عين شمس ومنف قريتان قد ضربتا كانتا منتزها لفرعون. وعين شمس عن شمال الفسطاط ومنف عن جنوبه" ويؤكد هذا الرأى قول المقريزى: "وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحرية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق، وفيما بينها وبين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى" انظر: المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٠٥؛ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ص٥٩، ٦٠، ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٣١١؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٨٦؛ جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ١، دار المعارف ١٩٦٧، ص ص٣٦، ٣٧.

ومصر العليا، وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحربية[1].

ويشير المقريزى إلى أن إنشاء مسجد عمرو بن العاص الجامع كان نواة تأسيس مدينة الفسطاط فيقول: "... ولما افتتح عمرو مدينة الإسكندرية الفتح الأول، نزل بجوار هذا الحصن، واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق، واختطت قبائل العرب من حوله، فصارت مدينة عرفت بالفسطاط، ونزل الناس بها[2]".

وقد اتفق المؤرخون على أن جامع عمرو بنى على شاطئ النيل[3]، وهو اليوم يبعد عنه بنحو خمسمائة متر؛ وكذلك قصر الشمع كان على شاطئ النيل، وكان بابه الغربى أو باب الحديد مطلا على النيل مباشرة، ومنه خرج المقوقس ليحتمى بجزيرة الروضة كما ذكر المقريزى[4]، وعلى هذا الباب وجد المقوقس السفن التى عبر عليها النيل.

وثمة نقطة ثالثة تساعد على تحديد موقع المدينة وأقصد القنطرة الأولى التى أقيمت على الخليج فى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م، قال المقريزى: "أنها كانت قائمة فى المكان الواقع بين قناطر السباع، وقنطرة السد[5]، ومن هذا نعرف شاطئ النيل فى سنة ٦٩هـ كان يمتد بين الموقعين المذكورين[6].

---

١ – سيدة كاشف: مرجع سابق، ص٢٤٣.

٢ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٦.

٣ – انظر المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٤٣، وذكر المقريزى أيضا "وكان بجوار الحصن (يعنى قصر الشمع) من بحرية وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق، الخطط، جـ١، ص٢٨٦، جـ٢، ص١٣٢.

٤ – أورد المقريزى خبرين مختلفين عن رحيل المقوقس، الخطط، جـ١، ص٢٨٦، ٢٩٠.

٥ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص١٤٦.

٦ –على بهجت: حفريات الفسطاط، دار الكتب المصرية ١٩٢٨م، ص٢١؛ ويذكر جورج سكانلون الأثرى: "ويبدو أن أى سعى لتصور الوضع الجغرافى "للخطط" الأولى لمدينة الفسطاط، وهو أمر من قبيل المستحيل، ولقد كانت محاولة كازانوفا فى هذا الصدد مجرد تكهنات، معتمدة على الاعتماد على ابن دقماق، والمقريزى؛ بلا أى استناد إلى مصدر أثرى محدد. أما الحفريات التى أجراها على بهجت فقد اقترنت بهذا التصور، وأن لم تتقيد به تماما، على أنه إذا – أمكن إجراء أى حفريات أخرى فى المنطقة مهتدية بالأساس العلمى، ففى إمكانها أن تمدنا بحقائق أكيدة عن وقائع التعاقب الزمنى لأى موقع بذاته، وبهذا يمكن أن نميز المراحل الأموية والعباسية من الطولونية، وأن نفرق بين هذه جميعا وبين المرحلة الفاطمية على أساس فحص الشوارع والأرضيات والقنوات وشبكات المجارى وذلك بدراسة طبقات الأرض، كذلك فإن أنماط العمارة ودرجات الفاعلية فى فنون البناء يمكن الربط بينها وبين المصنوعات ذات المغزى من الوجهة العلمية، وتكمن وسائلنا فى التحقيق من هذه الوقائع الأثرية فى دراسة الفروق

ويضيف المقريزى: "أن موضع مدينة الفسطاط حين اختطها العرب كان فضاء ومزارع بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم، وليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة، وكان بجوار هذا الحصن من بحرية وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم، صار موضعها الجامع العتيق، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس للنصارى[١]".

وكانت خطط القبائل قائمة حول المسجد الجامع، وعلى مقربة من قصر الشمع[٢]، وكانت هذه الخطط تمتد من النيل غربا حتى عين الصيرة شرقا، ومن جبل يشكر شمالا حتى الشروق وجبل الرصد (إسطبل عنتر) جنوبا[٣].

وقد اتسعت المدينة، وكثر فيها العمران، وتغيرت أحوالها وتطورت مع الزمن وبنيت فيها القصور والدور، فقد بنى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وفى ولايته على مصر زمن عثمان بن عفان (٢٥-٣٥هـ/ ٦٤٥-٦٥٥م)، قصر الجن[٤]، كما بنى ابن ملجم الدار المبنى وجهها بالحجارة[٥]، وبذلك صارت الفسطاط عاصمة لمصر الإسلامية، وقلبها النابض، ومركز النشاط العقلى.

يقول المقريزى: "تداولت عليها ولاة مصر بعد ذلك فاتخذوها سريرا للسلطنة، وقد تضاعفت عمارتها الفسطاط، فأقبل الناس من كل جانب عليها، وقصروا

البارزة أو المتراكمة أى التى تبدو لنا فى حالة موقع كثر استعماله لأغراض شتى والتى تظهر فى أرضيات الشوارع الحجرية - وسائل حفظ المياه - تخطيط الشوارع محتويات القنوات والمستودعات التى أوقف استخدامها، أو التى ظلت على حالها دون مؤثرات خارجية، كل هذا من الدلائل المتجمعة الناشئة عن تحليل المواقع، إنما تسمح لنا بأن نميز بين موقع ظل على الدوام مأهولا بسكانه، وبين تلك المواقع التى لم تستغل فى يوم من الأيام، والتى تركت فى شكل خرائب" انظر" جورج سكانلون: إعادة النظر فى المعالم الأثرية، دار الكتاب، القاهرة ١٩٧٠م، ص ص٣٥٥، ٣٥٦.

١ - انظر: المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٦؛ مصطفى العبادى: ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربى، المجلة التاريخية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م، ص٩٤.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩١-١٣٠؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، القاهرة ١٩٢٥م، جـ٢، ص٤٤؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣-٥.

٣ - عبد الرحمن زكى: خطط الفسطاط فيما كتبه عبد الرحمن بن الحكم، مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم، إعداد مجموعة من الأساتذة، المكتبة العربية، القاهرة ١٩٧٥م، ص٥٧-٥٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٧، ط بيروت ١٩٠٨، ص٤٩٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٢.

أمانيهم عليها، إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون فبنــوا إلــى جانبــها المنــازل المعروفة بالقطائع"[١].

العسكر:

كان أمراء مصر ينزلون بالفسطاط طوال عصر الخلفاء الراشدين، حتى نهايــة الدولة الأموية[٢]، وشرع العباسيون في بناء مدينة العسكر[٣]، وهى موضع إحــدى خطط الفسطاط القديمة بالحمراء القصوى، وقد أنشأت العسكر فى هذا الموضع "أمـا لرغبة العباسيين فى أن يتخذوا لأنفسهم مقرا لم يسبق إليه غيرهم، وأما لأن مــروان بن محمد كان قد خرب جانبا كبيرا من الفسطاط[٤]"، فقد أنشئت العسكر بعد تغلــب العباسيين بقيادة صالح بن على العباسى على آخر خلفاء بنى أميــة (مــروان بــن محمد) سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م[٥] والغرض من إنشائها كان لإيواء عســكر العباســيين ولذا سميت بالعسكر، وكان حدها من الجنوب عند كوم الجارح، ومن الشمال قنـاطر السباع، ومن الغرب قنطرة السد، ومن الشرق تلال المقطم، وبنى هناك دارا جديـدا للأمارة، ومسجدا جامع عرف بجامع العسكر[٦].

وقد نزل ولاة مصر العباسيون فى العسكر بعد تأسيسها، يقــول الكنــدى: "أن موسى بن كعب بن عيينة الذى ولى مصر من قبل أبــو جعفــر المنصــور ســنة ١٤١هـ/٧٥٨م نزل العسكر، وجعل وجوه الجند يغدون عليه ويروحون[٧]".

وكان بعض الأمراء يسكنون مدينة الفســطاط إلــى جــانب العســكر، يقــول المقريزى: "... بعد بناء العسكر بظاهر الفسطاط. نزل فيه أمراء مصر وســكنوه، وربما سكن بعضهم الفسطاط[٨]".

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٥، ٣٤٠؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣.

٢ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣١.

٣ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٠٤؛ جمال محرز: منازل الفسطاط دار الكتاب ١٩٧٠م، ص٣٢٧.

٤ – زكى محمد حسن: الفن الإسلامى فى مصر، جـ١، ص٥٦.

٥ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣١.

٦ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٣٠٤.

٧ – الكندى: *الولاة*، ص١٠٧.

٨ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٨٥.

ورغم بناء العسكر فإن مدينة الفسطاط نالت اهتمام الولاة العباسيين، "ففي ولاية الوالي العباسي يزيد بن حاتم الذي ولي مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٤٤هـ/٧٦١م شكت المعافر إلى يزيد بن حاتم بعد الماء عنهم، فابتنى يزيد بن حاتم فسقية المعافر، وأجرى إليها الماء من ساقية أبي عون وانفق فيها مالا عظيما[١]"، وما لبثت الفسطاط أن استردت أهميتها الأولى كحاضرة لمصر بعد تأسيس العسكر بقليل" فقد ورد كتاب أبي جعفر على يزيد بن حاتم يأمره بالتحول من العسكر إلى الفسطاط سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م[٢]".

ويذكر المقريزي[٣] " أنه في ولاية السري بن الحكم سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، أذن للناس في البناء فيه (يعني العسكر) وصار مملوكا بأيديهم، واتصل بناؤه ببناء الفسطاط" والواقع أن العسكر كانت امتدادا طبيعيا للفسطاط من ناحية الشمال الشرقي، فقد كان يطلق على شرطتها اسم الشرطة العليا باعتبارها تقع شمالا، في حين كان يطلق على شرطة الفسطاط اسم الشرطة السفلى، لأنها تقع جنوبا[٤]، مما يشهد باتصال العمارة بينهما، ولم يتغير من وضع المدينة (الفسطاط) شيئا يذكر سوى انتقال دار الأمارة إلى العسكر[٥]".

القطائع :

كانت القطائع هي الضاحية الثانية لمدينة الفسطاط، وكان موقعها في الامتداد الواقع نحو الشمال الشرقي من المدينة، وقد أسس أحمد بن طولون هذه المدينة سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م في المنطقة الواقعة بين جبل يشكر حد الفسطاط الشمالي، وبين سفح المقطم، وكان هذا الموقع يعرف بقبة الهواء[٦]. فأمر ابن طولون بحرث قبور

---

١ - الكندي: الولاة، ص١١١، ١١٥.

٢ - الكندي: الولاة، ص١١٥؛ المقريزي: الخطط جـ١، ص٢٨٧.

٣ - المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣٠٤.

٤ - المصدر نفسه، جـ١، ص٣٠٤، ٢٩٩، د. سيدة كاشف: مصر في عهد الإخشيديين، ط الثانية، القاهرة ١٩٧٠م، ص١٨٤.

5 - M. Sohemhiem: Encyclopaedia of Islam, History of the town of Fustat. Vol. I, P. 817.

٦ - الكندي: الولاة، ص٢١٥؛ البلوي: سيرة ابن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق ١٩٤٠، ص٥٣؛ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٦٢.

اليهود والنصارى وبنى موضعها، ثم بنى الجامع على جبل يشكر[١]".

وقد اختلفت هذه المدينة عن مدينة الفسطاط فى تخطيطها، فقد قسمت على أساس الطوائف والحرف[٢] "فكانت كل قطعة تعرف باسم من اتخذها، قطيعة للسودان، وقطيعة للروم، كما جعل قطائع خاصة للحرف، مثل سوق الصيادين، ويجمع فيه البزازين والعطارين، وسوق الشوائين وسوق الطباخين يجمع فيه الصيارفة والخبازين".. ثم لكل صنف من جميع البضائع أفرد له سوقا حسنا، وأمر غلمانه أن يختطوا به" ويعد تخطيطها أصبح يطلق على مدينة ابن طولون اسم القطائع[٣].

والقطائع، والعسكر من قبل ما هى إلا ضاحيتين للفسطاط أو امتداد لها[٤]، "فكان العسكر قد اتصل بناؤه ببناء الفسطاط[٥]"، وعندما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم، فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء لعمارة الفسطاط[٦].

ويشير المقريزى أثناء حديثه عن الفسطاط إلى اعتبار مدينة القطائع جزءا مكملا لها، وأحد ضواحيها فيقول: ".... وتضاعفت عمارتها، يعنى الفسطاط" وأقبل الناس من كل جانب، وقصورا أمانيهم عليها إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون، فبنوا جانبها المنازل المعروفة بالقطائع[٧]" ويقول فى موضع آخر "وكان خارج

---

١ – اختلف المؤرخون فى سنة بنائه، فيذكر الكندى أنه ابتدئ فى بنائه سنة أربع وقضى فى ست وستين ومائتين (الكندى: الولاة، ص٢١٩)، بينما يذهب كل من ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٢٢؛ وابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١٠، أنه قد شرع فى بنائه سنة ٢٥٩هـ، ويذكر المقريزى ان بنيانه بدأ سنة ٢٦٣هـ، وقضى سنة ٢٦٥هـ. المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٦٥. وكانت رواية المقريزى هى الاصوب، فقد وجدت لوحة حجرية مثبتة على إحدى دعامات المسجد، ومنقوشة بالخط الكوفى جاء فيها (أمر الأمير أبو العباس أحمد بن طولون... ببناء هذا المسجد المبارك الميمون من خالص ما أفاء الله عليه وطيبة لجماعة المسلمين، ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة فى شهر رمضان من سنة خمس وستين ومائتين (مايو ٨٧٩م)، زكى محمد حسن: الفن الإسلامى فى مصر، جـ١، ص٣٧.

٢ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣٢.

٣ – البلوى: سيرة ابن طولون، ص٥٤.

٤ – عبد الرحمن زكى: الفسطاط وضاحيتاها – القطائع والعسكر، ص٨٩.

٥ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٠٤.

٦ – المصدر نفسه، جـ١، ص٣١٥؛ البلوى: سيرة بن طولون، ص٥٣.

٧ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٣٤٠.

الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا فى ميل يسكنها جنده وتعرف بالقطائع[1]" وبعد اتصال العسكر، ثم القطائع بالفسطاط، صارت منهم جميعا عاصمة كبيرة واحدة لمصر[2]، وكان اسم مصر يطلق على مدينة الفسطاط باعتبارها عاصمة البلاد[3].

الدروب والأزقة:

يذكر ابن عبد الحكم فى معرض حديثه فى خطط القبائل العربية فى الفسطاط أسماء بعض الدروب مثل درب حوى البحرى[4]، وبعض الدروب كانت تأخذ نسبتها إلى أسماء الدور المشهورة بها أو نسبة إلى بعض من اشتهر من أهلها بحرفة معينة مثل درب السراجين[5]، ودرب الزجاج[6].

هذا ويذكر ابن دقماق والمقريزى أسماء دروب أخرى بالفسطاط مثل درب بادى، ودرب عمار، ودرب البقالين، ودرب الحبالين، ودرب الإعلام، حيث كانت تنصب عليه البنود فى الأعياد[7].

ويصف المقريزى درب الفسطاط وأزقتها بالضيق الشديد فيقول: "وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة[8]".

والواقع أن الحفريات التى قام بها على بهجت كشفت عن مجموعة مختلفة الاتساع والامتداد من الطرقات لا يزيد عرض أكبرها عن ستة أمتار، وأضيقها لا يتجاوز مترا ونصف متر، ومن العسير التوفيق بين الدروب والحوارى التى كشفت، وبين ما ذكره كل من ابن دقماق والمقريزى لأن المنطقة التى تم الحفر فيها كانت خرابا وقت أن كتب ابن دقماق والمقريزى كتابيهما فى خطط الفسطاط[9].

---

١ - المصدر نفسه، جـ١، ص٣٤١.
٢ - المصدر نفسه، جـ١، ص٣٤٣.
٣ - المصدر نفسه، جـ١، ص٢٨٦؛ جمال محرز: منازل الفسطاط، ص٣٢٤.
٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٠.
٥ - المصدر السابق صفحات ١٠٨، ١١٢، ١١٩، ١٢١، ٢٤٤.
٦ - المصدر نفسه، ص١١٦.
٧ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص ص٢٥، ٢٦؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٤٢
٨ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٣٣٩.
٩ - على بهجت: حفريات الفسطاط ص ص٣٧، ٣٨.

ويعتقد أن تسمية طرقات الفسطاط باسم شارع أو حارة أو درب أو زقاق ترتبط بعرضها واتساعها، فالأكثر اتساعا سمي شارعا، والأقل حارة والأقل دربا، والأقل من الدرب اتساعا أطلق عليه اسم زقاق.

أبواب الدروب :

كانت القاعدة المتبعة فى مصر الإسلامية منع السير فى الطرقات ليلا بإغلاق أبواب الدروب، وفى ولاية يحى بن داود والى مصر من قبل المهدى (١٦٢هـ-١٦٤هـ/ ٧٨٨-٧٨٠م) "منع من غلق الدروب بالليل، ومن غلق الحوانيت، حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها، وقال: من ضاع له شئ فعلى أداؤه[١]".

ويذكر أبو المحاسن أنه: "كان يمنع الناس من غلق الدروب والأبواب، وغلق الحوانيت[٢]، حتى جعلوا عليها (شرائح[٣]) القصب".

معنى ذلك أن دروب مصر كان لها أبواب تغلق ليلاً، إذ أثبتت الحفريات ذلك، وعثر على عتبة باب من "قبيل عتبات الأبواب التى كانت تغلق فى ذلك العهد، وكان لهذا الباب مصراعان بدليل بقاء سكرجيته على أصلها منقورتين فى الحجر[٤]".

وأظهرت حفريات الفسطاط أن تلك الدروب وغيرها من الطرقات لم تكن مبلطة، إذ لم يعثر مطلقا فى أى موقع من مواقع المدينة على أثر للبلاط، أو أية مادة أخرى فرشت بها الأرض[٥]، كما لم تثبت الحفريات ما إذا كانت الدروب يعلوها قباب أو سقائف، وأن كان ابن دقماق يتحدث كثيرا عن السقائف مثل سقيفة الزوايا التى تعلو سويقة ابن العجمية، وسقيفة مسجد العتبة[٦]، كما يبدو من رواية ابن دقماق أن بعض الدروب المسدودة كانت مسقوفة كسقيفة الكباد[٧].

---

١ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٠٧.

٢ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٤٤.

٣ - شرائح: جمع شريحة وهى باب من القصب يعمل للدكاكين انظر: الكندى: الولاة، ص١٢٢.

٤ - على بهجت: حفريات الفسطاط، ص٣٨.

٥ - المرجع نفسه، ص٣٩.

٦ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٤٦.

٧ - المصدر نفسه، جـ٤، ص٣٦.

كما يذكر ابن عبد الحكم أسماء بعض السقائف مثل سقيفة تركـــي[١]، وأن لـــم يفسر لنا سبب تسميتها بذلك، وسقيفة الغزل[٢]، ولكنه يضيف أن سقيفة جواد كـــانت تفصل ما بين خطة غافر عن يسارها، وخطة الصدف عن يمينـــــها[٣]، ويذكـــر أن سقيفة ينه التى تنسب إلى ابن ينه من الفرس، وموقعها بخطة الحمراء[٤].

والرحاب هى اتساع عند ملتقيات بعض الدروب[٥]، ولم يذكر ابن عبد الحكـــم سوى رحبة واحدة، وهى رحبة السوسى "ولبنى شبانة المسجد الـــذى فـــى رحبـــة السوسى[٦]" ولم يذكر سبب تسميتها بذلك الاسم، بينما يعدد ابن دقماق أسماء بعـــض الرحاب مثل "رحبة دار الأنماط" التى تقع أمام الدار المشهورة بـــدار الأنمـــاط[٧]، و"رحبة عقيل" و"رحبة أبى رجب" ويبدو أن هذه الرحاب لم تكن من السعة بحيـــث يمكن أن تطلق عليها اسم "ميدان".

أما الأزقة، فتشير البرديات العربية إلى أسماء بعضها، فهذه بردية ترجع إلـــى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) تحوى أسماء بعض الأشـــخاص، وكشـــف بحساب السلع، نلاحظ فيها ذكر "زقاق الكناديلى[٨]".

ويذكر ابن عبد الحكم أسماء بعض الأزقة المشهورة بالفســـطاط مثـــل "زقـــاق القناديل[٩]" الذى كان يطلق عليه زقاق الإشراف، لأن دار عمرو كانت على طرفـــة مما يلى المسجد الجامع، ودار كعب بن ضنة على طرفه الآخر مما يلى سوق بربر.

ويذكر الكندى زقاق أشهب[١٠] الذى تقع على جانبيه كل من خطتى غافق والأزد،

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٠.

٢ – المصدر نفسه، والصفحة .

٣ – المصدر نفسه، ص١٢١.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٩.

٥ – على بهجت: حفريات الفسطاط ص٣٨.

٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٠.

٧ – ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣٥، ٣٦، ٣٧.

٨ – آدولف جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٦، رقم (٤٠٢) ص١٣٢.

٩ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٠٩.

١٠ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١١١، ١١٢، "وكانت توضع القناديل على أبواب دور الإشراف التى بالزقاق، ولذا سمى بزقاق القناديل" المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٣٩، ويذكر ابـــن دقمـــاق أن سبب تسمية زقاق القناديل بذلك الاسم بأنه كان برسمه قنديل على باب عمرو، انظر: الانتصار، جـ٤، ص١٣.

وزقاق البلاط[١]، وزقاق أبى حكيم[٢]، وزقاق حمد[٣] وزقاق أبى رفاعة[٤]، وزقـــاق الرواسين[٥]، وزقاق الزمامرة[٦]، وزقاق السعى[٧] وزقاق عبد الملك بن مســـلمة[٨]، وزقاق بنى عبس[٩]، وزقاق المكى[١٠]، وزقـــاق المـــوزة[١١]، وزقـــاق وردان[١٢]، ويشير ابن دقماق الى "زقاق الصنم[١٣]" وسبب تسميته بهذا الاسم وجود صنـــم بـــه كان يسمى "سرية أبى الهول" ويتفق هذا مع ما رواه ابن الفقيه عن وجود تمثال مـــن الحجر لامرأة بالفسطاط[١٤]، وما رواه المقدسى من أن "فى الفسطاط عنـــد قصـــر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها صخرة من حجر[١٥]".

إنارة الدروب والأزقة:

لقد عرفت مصر الإسلامية استخدام المشاعل فى الإنارة وبخاصة فى دروبـــها وشوارعها[١٦] عرفت باستخدام فوانيس الإنارة فى عهد محمد بن طفـــج الإخشـــيد، فيذكر القلقشندى أن "أول من حمل الشمع معه على البغال فى الليل من ملوك الديـــار المصرية محمد بن طفج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفـــراش

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٠٣.

٢ – المصدر نفسه، ص١١٩.

٣ – المصدر نفسه، ص١٢١.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١١٨.

٥ – المصدر نفسه، ص١٢٠.

٦ – المصدر نفسه، ص٦٤.

٧ – المصدر نفسه، ص١١٧.

٨ – المصدر نفسه، ص١١٥.

٩ – المصدر نفسه، ص١٢٦.

١٠– المصدر نفسه، ص ص١١٧، ١١٨.

١١– المصدر نفسه، ص١٢١.

١٢– المصدر نفسه، ص١١٩.

١٣– ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص ص٢١، ٢٢.

١٤– ابن الفقيه: كتاب البلدان، ص٦٠.

١٥– المقدسى: احسن التقاسيم، ط ليدن، ص٢١١.

١٦– القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١، ص٤١٦.

راكب أمامها، وهو يلتفت فى كل قليل يصلحها، فأبدلها الملوك بعده. بهذه الفوانيس التى تحمل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية فى الليل[١]".

المسكن :

عندما استقرت القبائل العربية المهاجرة فى خططها بالفسطاط، أخذ هؤلاء العرب فى بناء المنازل أو الدور على حسب رواية ابن عبد الحكم[٢]، فيذكر أن عبد الله بن عمرو بن العاص اختط "هذه الدار الكبيرة التى عند المسجد الجامع وهو الذى بناها هذا البناء، وبنى فيها قصرا على تربيع الكعبة الأولى" وهذا يدل على بساطة البناء ويتفق هذا مع الدور المكتشفة فى أعمال التنقيب[٣].

كما يدل تعدد أبواب بعض الدور التى تطل على شوارع مختلفة على اتساع الرقعة التى بنيت عليها مثل دار العمد التى ذكرها ابن عبد الحكم، وذكر أن "بابها فى زقاق القناديل، وبابها الآخر مما يلى دار البركة من هناك راجعا إلى سوق بربر إلى قصر ابن جبر[٤]".

وظاهرة تعدد أبواب المنزل انتشرت فى الفسطاط، وهناك أكثر من وثيقة بردية تدل على أن المنزل كان له أكثر من باب[٥].

وفى دراستنا لأوراق البردى العربية نستطيع أن نعرف المواد التى كانت تستخدم فى بناء المنازل بمصر، ففى وثيقة مؤرخة فى شهر رجب سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م خاصة بعقد بيع أحد المنازل فى مدينة الفيوم، يذكر المتعاقد أن: "جميع هذا المنزل المحدود الموصوف فى باطن هذه الحجة بحده، وحدوده وعيونه وسبله وأرضه وسمايه وطوبه وخشبه وأبوابه وحجارته، وكل حق هوله داخل فيه وخارج منه شرا ثابت[٦]".

---

١ – المصدر نفسه، ص٤١٦.
٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٧.
٣ – المصدر نفسه، ص٩٧؛ جمال محرز: منازل الفسطاط، ص٣٢٧.
٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٠٩.
٥ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد بيع رقم ١٩٠٣، مؤرخ فى شهر جمادى الأخرة سنة ٣٤١هـ (لوحة ١٢)، عقد بيع رقم ١٩٠١ مؤرخ فى شهر شعبان سنة ٣٤١هـ (لوحة ١١)، ص ص١٦٣، ١٦٤، عقد بيع رقم ١٧٩٤ مؤرخ فى شهر رجب سنة ١٤٠٦هـ (لوحة ١٣)، ص١٦٦.
٦ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد بيع رقم ١٧٩٤ (لوحة ١٣)، ص ص١٦٦، ١٦٧.

وبالمقارنة فيما جاء فى البرديات، وما اكتشفت حديثا فـــى الفســطاط[١] وجـــد منزل مشيد من الحجر والآجر، حسن البناء لا يزال يحتفظ ببعض قاعاته وحجـــره ومرافقه الصحية، والدور الأول مشيد من الحجر غير المنتظـــم وبعــض الآجــر، وواضح أنه لم يكن للسكن، مما يؤيـــد قــول البعــض مــن أن الأدوار الأرضيــة بالفسطاط لم تكن للسكنى[٢].

وترجع أهمية هذا المنزل إلى أنه يثبت صحة ما ورد من بعـــض الأوصـــاف عن منازل الفسطاط[٣].

- وجود منازل من أكثر من دور.
- أن الأدوار الأرضية لبعض هذه المنازل لم تكن للسكنى.
- وجود مزروعات فى الأدوار العليا.
- استخدام الأقبية والقبوات للتغطية[٤].

وقد لوحظ أن كل دار تحوى على فنـــائين متجـــاورين، الفنـــاء الأول تحيـــط الأروقة بثلاثة من جوانبه، والرواق يفضى إلى قاعة كبيرة، تكتنفـــها حجرتـــان أو أكثر ويبدو أن نظام الدار ذات الفنائين المستقلين اللذين تحيط بكل منـــهما قاعـــات وملحقات أملته ظروف احتجاب النساء عن الغرباء فخصص لـــهن فنـــاء مســـتقل بملحقاته، وجعل الفناء الأخر لرب الدار والغرباء[٥].

هذا وكانت معظم دور الفسطاط فى بادئ الأمر ذات طابق واحد، إذ لـــم يكـــن هناك داع للارتفاع بالمسكن رأسيا لتوفر المساحة الأفقية، ويضيف ابن عبد الحكـــم

---

١ – اكتشفت البعثة الأثرية عام ١٩٦٤م منزلا بمدينة الفسطاط يعد المثل الوحيد إلى الآن فهو من أكثر من دور، في حين أن المنازل السابق الكشف عنها لم يكن باقيا منها الا تخطيطها وارتفـــاع بســـيط جـــدا لجدرانها. انظر جمال محرز: منازل الفسطاط، ص٣٢٨.

٢ – يذكر المقريزى: "وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمسا، وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس، ومعظم بنياتهم بالطوب، وأسفل دورهم غير مسكون". انظر المقريزى: الخطط جــــ١، ص٣٤١، آدم متز: الحضارة الإسلامية، جــ١، ٢، ط القاهرة ١٩٤٧م، ص١٩٩.

٣ – جمال محرز: منازل الفسطاط، ص٣٢.

٤ – جمال محرز: منازل الفسطاط، ص٣٢.

٥ – على بهجت: حفريات الفسطاط، ص٥٢.

سببا آخر[١]، إذ يذكر أن خارجة بن حذافة "أول من بنى غرفة بمصر، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فكتب إلى عمرو بن العاص: "أنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فاذا أتاك كتابي هذا فأهدمها[٢]".

يتضح من هذا أن التقاليد الإسلامية في صدر الإسلام، كانت ترى في ذلك استعلاء على الناس غير محبب، إلا أنه بمضى الوقت صار تعدد الطوابق أمرا معتادا، فيذكر ابن عبد الحكم أن معاوية بن أبى سفيان جعل دار الرمل للمسلمين، تنزلها ولاتهم، ولم يكن بنى منها الا سفلها حتى بنى علوها القاسم بن عبد الله ابن الحبحاب[٣].

ويصف ابن حوقل الفسطاط بقوله: "والدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات، وربما سكن في الدار المائتان من الناس، وبالفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز بن مروان كان يسكنها ويصب لمن فيها في كل يوم مهدنا هذا أربع مائة راوية ماء، وفيها خمسة مساجد وحمامان، وغير فرن لخبز عجين أهلها... وأكثر سفل دورهم غير مسكون[٤]".

كما وصفها ناصر خسرو بقوله: "وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات وسمعت من ثقات أن شخصا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار وحمل إليها عجلا رباه فيها، حتى كبر ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر[٥]".

والخلاصة:

أن الدور في أيام عمرو بن العاص أى في الفترة التى تلت الفتح مباشرة كان تصميمها يميل إلي البساطة، وعدم الإسراف، حتى أن دار عمرو نفسه وصفت بالدار

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٠٤.

٢ – المصدر نفسه، والصفحة .

٣ – المصدر نفسه، ص١٠١.

٤ – ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٤٦؛ آدم متز :الحضارة الإسلامية، جـ١، ٢، ص١٩٩.

٥ – ناصر خسرو: سفرنامة، نقله للعربية يحى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص٥٨.

الصغرى[١]، وكانت من الطوب اللبن[٢].

نستنتج أيضا أن المسلمين منذ أول العصر الإسلامى كانوا حريصيـــن غايـــة الحرص على المحافظة على حرمات الناس داخل بيوتـــهم[٣]، وأن المنـــازل منـــذ العصور المبكرة لم تكن لها نوافذ أو شبابيك كبيرة تطل على الطرق والشوارع.

كذلك كانت المنازل فى أول الأمر تتكون من طابق أرضى واحد، ثـــم أخـــذت تتعدد طوابقها بعد الفتح بفترة ليست طويلة وفى خلافة عمر بن الخطاب نفســـه[٤]، غير أن النوافذ فى الطوابق العليا كانت صغيرة، وجلساتها – أى حافتها الســـفلى – مرتفعة عن أرضية الطابق بأكثر من مترين حتى لا يتمكن شخص متوسط الطـــول من أن يطل منها على الجيران، حتى ولو وقف على كرسى[٥]، كل ذلك يدل علـــى أن بناء المنزل كان يخضع لقيود فرض على الناس العمل بها، وكان على الوالـــى أن يراعى تطبيقها ويلزم الناس باحترامها[٦].

ومنذ بداية العصر الأموى (٣٨هـ-١٣٢هـ/ ٦٥٨-٧٤٩م) أصبح هناك ميـل إلى الضخامة والفخامة، وشيدت بعض الأبنية فى ذلك العصر بحيـــث بلغـــت مـــن الكبر والزخرف حدا عظيما[٧]، بعد أن كان التقشف والاعتدال والبساطة سمة مـــن سمات البناء بعد الفتح مباشرة، فنجد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قـــد أضـــاف إلى الدار الصغرى السابقة التى بناها والده، أو بنى مكانها بمعنى أصح دارا كبـــيرة كانت تمتاز بالتأنق والاتساع فى أرجائها حتى سميت بالقصر.

---

١ – فريد شافعى: العمارة العربية فى مصر الإسلامية فى عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٠، ص٣٥٣؛ عبـــد الرحمن زكى: خطط الفسطاط ضمن دراسات عن ابن عبد الحكم، ص٦٤؛ محمود الحسينى: التطـــور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، كلية الآثار ١٩٨٧ م، (رسالة غير منشورة)، ص٤٨٠.

٢ – عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد حتى الجبرتى المؤرخ، الدار المصريـــة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، جـــ١، ص١٤.

٣ – ابن خلدون: المقدمة، جـــ١، ص٣٥٨.

٤ – محمود الحسينى: التطور العمرانى، رسالة دكتوراة، ص٤٨٢؛ محمود عكوش: مصـــــر فـــى عـــهد الإسلام، ص٢٥٥.

٥ – فريد شافعى: مرجع سابق، ص٣٥٤؛ عبد الرحمن زكى: خطط الفسطاط ص٦٤.

٦ – محمود الحسينى: مرجع سابق، ص٤٨٢.

٧ – على بهجت: حفريات الفسطاط، ص١١.

كما بنى عمر بن مروان بن الحكم قصرا آخر امتاز بصفات مشابهة من التأنق والاتساع[١].

أما بالنسبة لتصميم الدور والمنازل التى تعود إلى فترة ما قبل العصر الطولونى، يذكر الدكتور فريد شافعى – اعتمادا على بقايا المساكن المبكرة فى العالم الإسلامى – أنها كانت تبنى على نموذجين أساسيين أحدهما سامى والأخر عراقى[٢].

وتشير أوراق البردى العربية إلى عبارة أسفلها وعلوها، التى وردت فى معظم عقود العقارات منذ نهاية القرن الثانى للهجرة[٣]، فقد وردت بشأنها تفسيرات متعددة[٤]، ويرى جروهمان أن هذه العبارة تختلف عما يماثلها فى الوثائق الديموطيقية واليونانية، ولكنها تعادل عبارة "أرضها وسمائها[٥]"، ويبدو أن المقصود بهذا التعبير هو الفضاء الذى يعلو العقار، وقد صيغ هذا التعبير زيادة فى الاحتياط حتى إذا ما رغب الملك الجديد فى تعلية العقار بالبناء لا يجد صعوبة تواجهه ممن يحيطون به من جيران وعقارات[٦]. أن تأكيد هذه العبارة لدليل قاطع على تعدد طبقات المسكن عندما يريد صاحبه فى البناء بشرط إلا يعلو بعضها عما يجاورها.

العمارة الدينية الإسلامية:

المساجد[٧] من أهم عمارة المدينة الإسلامية، وأهم ما تتمثل فيها العمارة العربية،

---

١ – فريد شافعى: مرجع سابق، ص٣٥٥.

٢ – فريد شافعى: مرجع سابق، ص٣٥٤.

٣ – انظر: مجموعة بردى دار الكتب المصرية بالقاهرة (عقود بيع) أرقام ١٧٩٢، ١٧٩٤، ١٧٩٦، ١٨٩٩، ١٩٠١، ١٩٠٤، ١٧٩٨، ١٧٩٧.

٤ – هذه الآراء نقلها جروهمان عن:

E. Carusl. M.Y. Berchem

فى أوراق البردى العربية، جـ١، ص١٣٧، ١٣٨، وانظر كذلك

A Dietrich: Arabic Papyri aus der Hamburger Staots universitat Bibliothek & 61/23-29.

٥ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص ص١٣٧، ١٣٨.

6 - Grohmann. Heischelheim: Die Arab papyri aus der giessner univers Biblio, 1960, P. 29-30.

٧ – المسجد: هو الموضع الذى يسجد فيه، قال الزجاج. كل موقع يتعبد فيه فهو مسجد. والجامع نعت للمسجد، وإنما نعت بذلك لأنه علامة الاجتماع وما كانوا فى الصدر الأول يفردون كلمة "الجامع" وإنما كانوا تارة يقتصرون على كلمة المسجد، وطورا يضيفونها إلى الصفة فيقولون "المسجد الجامع أو مسجد الجامع" ويطلق هذا الاسم عادة على المسجد الكبير لأنه مكان اجتماع الناس. انظر: المقريزى: الخطط، جـ٢ ص٤٠٨.

فقد حرص المسلمون على بناء المساجد الجامعة عند إنشائهم المدن[١].

ويعتبر مسجد البصرة أول مسجد انشئ بعد الفتح ١٤هـ/٦٣٥م فى أول مدينة أسست فى الإسلام[٢]، وفى مدينة الفسطاط أسس أول مسجد بمصر الإسلامية وهو مسجد عمرو بن العاص، أو المسجد الجامع أو المسجد العتيق أو تاج الجوامع[٣]، وكان بنائه ٢١هـ/٦٤٢م[٤].

يشير ابن عبد الحكم إلى موضع المسجد فيقول: وقد شيد على الشاطئ الشرقى للنيل من بحريه، وهى الجهة الشمالية، وأن ما حوله كان حدائق وأعنابا[٥]"، وكانت المسافة بينه وبين شاطئ النهر حوالى مائتى متر، الا أن المسافة الآن بين الجامع وبين شاطئ النهر حوالى خمسمائة متر لانحسار ماء النهر[٦].

وكان المسجد فى بدايته بسيط البناء[٧]، طوله خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين، ولم يكن بجدرانه شئ من البياض أو الزخرف، وكانت أرضيته مفروشة بالحصباء[٨]، وكان الطريق يحيط به من كل جهة، وجعل له عمرو ستة أبواب، فى الجهة الشرقية المواجهة لداره بابان، ومثلهما فى الجهة البحرية والشمالية، وبابان فى الجهة الغربية، وكان سقفه مطأطئا جدا، وفى فصل الصيف يجلس الناس بفنائه فى كل ناحية[٩].

---

١ - على حسن الخربوطلى: العرب والحضارة، ص١٥٠.

٢ - البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٤٦، ٣٥١؛ المقريزى: الخطط، جـ٢ ص٢٤٦.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩١، ٩٢؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٦٥؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣٧؛ المقريزى: الخطط، جـ٢ ص٢٤٦.

٤ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٥٩؛ المقريزى: الخطط، جـ٢ ص٢٤٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٦٧؛ أبو الفدا: المختصر، جـ١، ص٧٢؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ص١٠٣، ١٠٤.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩١، ٩٢، ويشير البعض من المؤرخين إلى موضعه كان خطه القيسية بن كلثوم التجيبى انظر: القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٢٥٤؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٤٦.

٦ - فريد شافعى: العمارة العربية فى مصر "عصر الولاة" جـ١، ص٢٦٣.

٧ - لم يكن لمسجد عمرو فى البداية محراب مجوف، بل عمد قائمة بصدر الجدار. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٩١، ٩٢؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٦٥؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣٧؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ص١٠٣، ١٠٤.

٨ - المقريزى: للخطط جـ٢، ص٢٤٧؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٦٧؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١٠٤.

٩ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣٧.

وأول من زاد فى جامع عمرو مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر[١] من قبل معاوية فى سنة (٥٣هـ/٦٧٢م)، وبنى به أربعة صوامع فى أركانه الأربعة، ولم يغير فى البناء القديم، وإنما زاد من جهة الشمال رحبة واسعة وقيل أنه زاد كذلك فى شرقية حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو، وفرشه بالحصر، وفى سنة (٧٩هـ/٦٩٨م) أمر عبد العزيز بن مروان بهدم جدرانه وزيادته فى كل من وجهتيه الغربية والشمالية[٢].

وفى سنة ٨٩هـ/٧٠٧م فى ولاية عبد الملك أمر برفع سقف المسجد[٣] وفى سنة ٩٢هـ/٧١٠م قام قرة بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد وإعادة بنائه، وادخل فيه جزءا من دار عمرو بن العاص والطريق الذى كان يفصل بينها وبين المسجد[٤]، كما أمر بعمل محراب مجوف بجدار القبلة فى موضع المحراب القديم، ومن ثم عرف باسم محراب عمرو[٥]، كما نصب له منبرا خشبيا ونزع المنبر القديم[٦].

وعبد الله بن ظاهر والى مصر من قبل المأمون من أهم الولاة الذين أدخلوا زيادة فى المسجد الجامع سنة ٢١٣هـ/٨٢٧م، فتضاعفت مساحته من الناحية الغربية، فأدخل فيه الزقاق المعروف بزقاق البلاط، وجزء كبير من دار الرمل[٧].

وترجع أهمية مسجد عمرو بن العاص رغم تأسيس جامعى العسكر[٨] وجامع

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣١؛ الكندى: الولاة، ص٣٨، ٣٩، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٦٨.

٢ – الكندى: الولاة، ص٥١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١٠٥.

٣ – الكندى: الولاة، ص٦٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ص٦٦، ٦٧.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣١؛ الكندى: الولاة، ص٦٥؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ص١٠٤، ١٠٥.

٥ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٤٦.

٦ – حول المبنى وبنائه. انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٢؛ الكندى: الولاة، ص٦٥؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٦٧.

٧ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣٢؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٦٥.

٨ – جامع العسكر. انظر المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٦٤؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٣٠.

ابن طولون[١]، إلى نه ظل مكان الصلاة الجامعة للمسلمين[٢].

وقد وصفه الرحالة المقدسى حين زار مصر فى منتصف القرن الرابع الهجرى بقوله: "بأنه أعمر موضع فى مصر[٣]"، ولم تقتصر أهمية مسجد عمرو بن العاص على أداء الشعائر الدينية بل كان دار عبادة وإدارة وقضاء، ثم مدرسة جامعة تعقد فيها مجالس العلوم والآداب على اختلافها، يقول الطبرى: "أن ولاة الخلفاء الراشدين اتخذوا من المساجد أماكن مختارة يصرفون فيها شئون الحكم ويحفظون فيها أموال المسلمين[٤]".

مساجد القبائل:

كان بجانب المسجد الجامع الذى أنشأه عمرو فى الفسطاط عدة مساجد أخرى أنشأتها القبائل المختلفة فى خططها، فيذكر ابن عبد الحكم أن أول مسجد خاص عرفته الفسطاط كان "فى أصل حصن الروم" عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس، وكان يسمى مسجد القلعة[٥]. وهناك مساجد أخرى أنشئت بالفسطاط مثل مسجد بادى[٦] الذى يقع فى خطة قبيلة غافق، ومسجد إبراهيم القراط[٧] فى خطة قبيلة "دهنة" إحدى بطون غافق، مسجد سيبان[٨]، ومسجد أحدب[٩] الذى كان يجاور خطة قبيلة الصدف، ومسجد القرون الذى كان يقع

---

١ - جامع ابن طولون: انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٦٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص ص٣٤٠، ٣٤١؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٦٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص١٦٣، ١٦٤؛ ابن جبير: الرحلة، ط. بيروت ١٩٦٤م، ص٢٦.

٢ - المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٤٦، ٢٤٨، ابن جبير: الرحلة، ص٢٢.

٣ - المقدسى: أحسن التقاسيم، ص١٩٩.

٤ - الكندى: الولاة، ص٤٤٣؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص١٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٣٨< المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٥٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٠٤؛ على الخربوطلى: العرب والحضارة، ص١٥٥.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣٢.

٦ - المصدر نفسه، ص١٢٢.

٧ - المصدر نفسه، ص١٢٢.

٨ - المصدر نفسه، ص١٢١.

٩ - المصدر نفسه، ص ص١٢١، ١٢٢.

جنوب سوق وردان فى خطة بلى[١]، ومسجد عبد الله ابن عبد الملك بن مروان[٢].

كما يشير ابن عبد الحكم إلى مسجد سمى مسجد الأبيض "وكان قاضى الفسطاط يجلس فيه للقضاء سنة ١٤٤هـ/٧٦١م[٣] ومسجد لخم[٤]، ومسجد عنزة من ربيعة[٥]، ومسجد مهرة، ومسجد ذى أصبح وهمدان بالجيزة[٦]، وأصبحت هذه المساجد تعرف فيها بعد باسم مساجد الصلوات الخمس[٧]، حيث أصدر مسلمة بن مخلد أوامره سنة ٥٣هـ إلى القبائل بأن تبنى كل منها منارة لمسجدها[٨].

ويشير ابن عبد الحكم إلى أن مساجد الإسكندرية خمس "مسجد موسى النبى عند المنارة أقربها إلى الكنيسة[٩]، ومسجد سليمان ثم مسجد ذى القرنين أو الخضر عليهما السلام"، ولكنه لم يشير إلى موضع مسجد عمرو بن العاص بالإسكندرية[١٠].

المرافق العامة :

الأسواق :

يشير ابن عبد الحكم إلى الأسواق التى وجدت مع خطط القبائل نفسها بين الدور العامرة بسكانها، وأنها لم تكن فى اماكن معزولة خاصة بها، وكان أكثرها إزدهار القريبة من المسجد الجامع[١١] بالفسطاط، ومن أمثلة ذلك سوق "بربر" الذى كان يقع فى خطة غفار قريبا من الزقاق المشهور بالفسطاط بزقاق القناديل، وكان إلى جواره كثير من الدور المشهورة مثل دور مطر، ودار النخلة، وهى خطة

---

١ – المصدر نفسه، ص١٣٥.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، صفحات ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ٢٣٧؛ الكندى: الولاة، ص٥٩، ٤٠٦، ٤٠٧؛ ابن زولاق: اخبار سيبويه المصرى، ص٤٤، ٤٦.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٤٣.

٤ – المصدر نفسه، ص١١٩.

٥ – المصدر نفسه، ص١١٦، ١١٨.

٦ – ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص١٢٧.

٧ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٦٥.

٨ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٣١؛ الكندى: الولاة، ص٣٨.

٩ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٤١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١٠٢.

١٠– ابن عبد الحكم: نفس المصدر السابق، ص٤١، ٤٢، ١٣٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ص ص٤٨، ٤٩.

١١– ابن عبد الحكم: نفس المصدر السابق، ص١٠٩، ١١١، ١١٩؛ جمال محرز: منازل الفسطاط، ص٣٢٦.

كعب بن ضنه، ويذكر الكندى أنه "سمى بسوق البربر لنزول قوم من البربر علـى كعب بن ضنه فنسب الموضع اليهم[١].

وكذلك سوق وردان[٢]، الذى كان يقع بين دور مسلمة بن مخلـد الانصـارى، وأبى رافع وعقبة بن عامر، ودار الزبير بن العوام، وأيضا سوق الحمام[٣]، الـذى يقع بين خطط عبادة بن الصامت، وابن رمانة، ودور بنى وردان، وسوق القنـاديل الذى يقع على الجانب الشمالى لمسجد عمرو، وهو من أشهر أسواق الفسطاط[٤].

ويذكر ابن دقماق[٥] أنه كان بجوار المسجد الجامع عدة سويقات مثل "سـويقة دار فرج" الواقعة فيما بين رحبة دار جوهر وباب مسجد عمرو "وسـويقة مسـجد العيثم"، وسوقية مسجد القرون فى ظاهر مسجد القرون الذى يقع فى خطة الحمـراء الوسطى[٦] وسويقة مسجد عبد الله فى الظاهر جنوب الطريق المؤدى إلى المسـجد الجامع، وكانت هذه السويقة شرقى مسجد عبد الله[٧].

يقول ابن عبد الحكم[٨]: "كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب أنا قـد اختطلنا لك دارا عند المسجد الجامع، فكتب إليه عمر أنى لرجل بالحجاز تكون لـه دار بمصر وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين... فجعلت سـوقا فكـان يبـاع فيـها الرقيق.

وتشير أوراق البردى العربية إلى كثير من أنواع السلع التى كانت تبـاع فـى أسواق مصر الإسلامية، فهناك خطاب خاص ببيع جارية نوبية من الرقيق، يرجـع تاريخه إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى[٩]. وهذا دليـل واضـح علـى

---

١ – ابن عبد الحكم: نفس المصدر السابق، ص١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٩، ٢٣٠، الكندى: الولاة، ص٣٠٥.

٢ – ابن عبد الحكم: المصـدر السـابق، ص١٠٠، ١٠١، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٣٢، الكنـدى: الـولاة، ص١١٢.

٣ – ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص٦٣، ١٠٤، ١١٣؛ الكندى: الولاة، ص١١٢.

٤ – الكندى: الولاة، ص٣٦٢؛ المقدسى، أحسن التقاسيم، ص١١٩؛ العمرى: مسالك الابصـار، جـ١، ص٢٣٤.

٥ – ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٣٣.

٦ – المصدر نفسه، ص٨٦.

٧ – الكندى: الولاة، ص ص٤٧، ٤٠٨.

٨ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٢.

٩ – أدولف جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، (خطابات للتموين رقم ٢٩٥) (لوحة ٦) ص٣٥.

وجود سوق للرقيق مع بداية وضع خطط القبائل فى مصر لبيع وشراء الرقيق، حتى وقت ازدهاره فى عهد أحمد بن طولون[١].

و"دار الأنماط" المتخصصة فى بيع الأقمشة الحريرية، وعديد من البضائع الواردة من البلاد المختلفة[٢]، ودليلنا على ازدهار الحركة التجارية هو ما نستمده من المراسلات البردية، فهناك وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجرى[٣] (التاسع الميلادى) بشأن طلب شراء ثياب.

- بسم الله الرحمن الرحيم احب ان تشترى لى اعزك الله إذا رزقك الله السلامة وبلغك.
- باربعة طرز حفيه مليح الرقعة رطب خليع فيه بقيا ألبس ابراسى بثلثة دنانير[٤].
- كل أعجب إلى إن شاء الله وثوب شى جديد خفيف واسع العرض.
- من تسعة أشبار بوجه ولا شبث خفيف الوقع رقيق الحواشى مليح.
- مطور بسواد أو بجمرة طياز رقيق شطوى[٥] إن شاء الله وثوب تربولى.
- معسولة إن شاء الله.

وتحدد لنا هذه الوثيقة أسماء بعض الأسواق التى كانت مشهورة بصناعة النسيج وهى بلدة شطا فى الدلتا، وهى المشهورة بنسيجها الرفيع[٦].

ويشير الكندى إلى أسواق السلع الغذائية مثل سوق السماكين لتجارة السمك، وسوق الزياتيين لتجارة الزيت[٧].

---

١ – الكندى: الولاة، ص٥٦٩.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٠٠، ١٠١؛ العمرى: المسالك، جـ١، ص٢٣٤.

٣ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٥، (خطابات تموين رقم ٣٠٨)، ص ص٧٠، ٧١.

٤ – الكلمات (حفيه، الرقعة، رطب، خليع فيه، بقيا، اللبس، منقوطة فى الأصل، كلمة (حفيه) يحتمل أنها نسبة إلى نسيج صنع فى (الحفا) غربى حلب انظر: ياقوت الحموى: معجم، جـ٢، ص٢٩٦، أو أن تكون منسوبة إلى آلة يستعملها تسمي (حف) وهى نوع من المشائع التى يستخدمها الحائك فى إعداد هذا النوع من النسيج. انظر: جروهمان: أوراق البردى العربية، حاشية ص ص٧١، ٧٢.

٥ – شطا مدينة عند تنيس وإليها تنسب الثياب الشطوية، انظر المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٢٦.

6 - Maspers G. Wiet, Matericau, Paur Seriv a la geographie de L'Egypte, P. 112.

٧ – الكندى: الولاة، ص٥٦٩.

وكانت الأسواق تأخذ أسماء بعض الجنسيات مثل سويقة المغاربة، وسويقة العراقيين، وسوق البربر لنزول عدد من البربر على كعب بن ضنه فسمى السوق باسمهم[1] ويصف الرحالة الذين زاروا الفسطاط مدى ما كانت تتمتع به أسواقها من عمارة وإزدهار حيث "تكثر بها المتاجر والأسواق والمعايشة وساحلها كثير المراكب وسكانها كثيرون[2]".

الحمامات :

قال ابن الأخوه[3]، خير الحمامات ما قدم بناؤه، واتسع هواؤه وعذب ماؤه..، فالحمام يشتمل على منافع ومضار، فأما منافعه فتوسيع المسام واستفراغ الفضلات، وتحبس الطبع إذا كانت سهولته عن هيضة وتنضف الوسخ والعرق، فتذهب الحكة والجرب، والأعياء، وترطب البدن، وتجود الهضم، وأعظم مضارها صب الماء الحار على الأعضاء الضعيفة وقد يستعمل على قرب عهد بالشبع بعد الهضم الأول فانه يرطب البدن ويسمنه ويحسن بشرته.

ويذكر ابن عبد الحكم أن الفسطاط عرفت الحمامات، وأن أقدم تلك الحمامات حمام الفأر الذى بناه عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد سمى بهذا الاسم لصغر حجمه، إذا ما قورن بحمامات الروم الكبيرة[4].

وقد كان الحمام فى بداية الأمر منفصلا عن البيت، ولم يكن جزءا منه، وكان استعماله لعامة الناس مثل حمام سوق وردان[5]، وحمام سهل[6]، وحمام زيان بن عبد العزيز[7]، وحمام الكبش[8] وحمام الحمراء[9].

---

١ – المصدر نفسه، ص٣٠٥.

٢ – المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٩٨.

٣ – ابن الأخوة: معالم القربة، ص ص٢٤٠، ٢٤١؛ جاستون فيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص٢٠٠.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٩٦.

٥ – المصدر نفسه، ص١٠٠، ١٣٧.

٦ – المصدر نفسه، ص١١٢، ١٢١.

٧ – المصدر نفسه، ص١١٤.

٨ – المصدر نفسه، ص١٣٦.

٩ – المصدر نفسه، ص١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٩.

وسائل الأنتقال :

كانت الدواب وسيلة الانتقال الرئيسية في مصر "ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمير المسرجة في ذهابهم وأيابهم من البيوت إلى السوق، وفي كل حي على رأس الشوارع حمر كثيرة فيها برادع مزينة يركبها من يريد نظير أجر زهيد[١]".

فكان أكثر الحمير للانتقال مألوفا في ذلك العصر بين سكان المدن ولا سيما الفسطاط، أما في الريف فكان معظم أهل الطبقة الوسطى يمتلكون الحمير لهذا الغرض، وكان لكثير من أهل الطبقة الوسطى في المدن لهم حمير ينتقلون بها ويعيرونها أصدقاءهم في بعض الأحيان[٢].

كما كانت السفن تستخدم في الانتقال من الفسطاط إلى جزيرة الروضة، وكذلك إلى الجيزة، يقول ابن حوقل: "والفسطاط على شمال النل، وهي مدينة حسنة ينقسم النيل لديها قسمين، فيعدى من الفسطاط إلى عدوه أولى فيها أبنية حسنة، ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة، ويعد إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة. ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر إلى القسم الثاني كالجسر الأول إلى أبنية جليلة، ومساكن على الشط الثاني تعرف بالجيزة[٣]".

ويشير ابن الفقيه إلى وسائل المواصلات في مصر بقوله: "وقالوا ولنا الحمير المرسية والبغال المصرية، والخيال العتاق والمطايا من الإبل[٤]" وهي التي كانت تستخدم في نقل المسافرين والتجار.

وتشير أوراق البردى العربية إلى استعمال السفن في شحن السلع، فهذه وثيقة ترجع إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، خاصة بخطاب شحن سفينة من أدفو إلى الفسطاط[٥].

---

١ – ناصر خسرو: سفرنامه، ص٦١، ٦٢.

٢ – ابن زولاق: أخبار سيبوية المصرى، ص٥٠؛ ويذكر القلقشندى: حول وسائل المواصلات في مصر؛ والخيول المسومة والبغال النفسية، والحمر الفارهة مما ليس له نظير في أقليم من الأقاليم "القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣١٠؛ جاستون فيت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ص٦٩، ٧٠.

٣ – ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٤٦.

٤ – ابن الفقيه: مختصر تاريخ البلدان، ص٦٩.

٥ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٥، لوحة ١٢٠، ص ص١٣٥، ١٣٦.

الفصل الخامس
العادات الاجتماعية الخاصة عند العرب

- الزواج فى ضوء أوراق البردى العربية.
- الولادة والتسمية.
- الختان.
- الملابس وتطورها فى مصر.
- الطعام والشراب.
- المآتم والأحزان.

الفصل الخامس

العادات الاجتماعية الخاصة عند العرب

الحياة الاجتماعية الخاصة عند العرب المسلمين :

الزواج فى ضوء أوراق البردى العربية :

أقرت الشريعة الإسلامية أشياء من العرف والعادات[١] التى كـــانت موجــودة عند العرب قبل الإسلام، وأبطلت أشياء أخرى[٢].

أما ما أقرته الشريعة فهو يتفق وكريم العادات وفضائل الأخـــلاق. فقـد كـــان العرب فى جاهليتهم – بل وشعوب أخرى[٣] – يحرمون على الرجـــل أن يــتزوج بأمه، وبنته وأخته وعمته، وخالته، وبنت الأخ، وبنـــت الأخـــت، فجــاء الإســلام، وأقرهم على هذا العرف، وأيد هذا التحريم فى قوله تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّـــهَاتُكُمْ وبَنَاتُكُمْ وأَخَوَاتُكُمْ وعَمَّاتُكُمْ وخَالاتُكُمْ وبَنَاتُ الأخِ وبَنَاتُ الأُخْتِ[٤]"، كذلك كان كثـــير من العرب لا يجمعون بين الأختين، فأقر الإسلام هذا العـــرف، وكـــانوا يكرهـــون زواج أكبر الأبناء بزوجة أبيه بعد وفاته، بل كثيرا منهم كانوا يمقتون هذا الــــزواج ويبغضونه، ولذلك سموه زواج المقت، وأطلقوا على الأبن الذى يولد نتيجـــــة هـــذا الزواج (المقتى[٥])، فأقر الإسلام هذا العرف، "ولا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَـاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ومَقْتاً وسَاءَ سَبِيلاً[٦]".

---

١ – أحمد فهمى أبو سنة: العرب والعادة فى رأى الفقهاء، مصر ١٩٤٧، ص ص٩، ١٠.

٢ – ابن نجيم: الاشباه والنظائر على مذهب أبى حنيفة النعمان، القاهرة ١٢٩٨هـــ جـــ١، ص١٢٦ ومـــا بعدها؛ ابن عابدين: رسائل ابن عابدين، ط الأستانة سنة ١٣٢٥هـــ جـــ٢، ص١١٥.

٣ – انظر: الزواج ومقارنته بقوانين العالم، لزهدى يكن، حيث أورد أمثلة متعددة لما كانت عليه الشـــعوب من عادات وتقاليد تتصل بمسألة الزواج. زهدى يكن: الزواج ومقارنته بقوانين العالم، بيروت ١٩٥٢م.

٤ – سورة النساء ٤/٢٣.

٥ – عبد السلام الترمانينى: الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام، عالم المعرفة، العدد (٨٠)، ١٩٨٤م، ص٥٣.

٦ – سورة النساء ٤/٢٢، وانظر كذلك تفسير ابن كثير، ط بيروت ١٩٦٩م، جـــ١، ص٤٦٨.

حقيقة أن العرب عرفت أنواعًا أخرى من الزواج مثل نكاح الاستبضاع[١] ونكاح الخدن[٢]، وزواج المتعة[٣]، وزواج الشغار[٤]، وتعدد الزوجات، وقد حرمت الشريعة الإسلامية هذه الأنواع من الزواج لمضارها الاجتماعية والخلقية واختلاط الأنساب، وعدم مواءمة هذه الأنواع من النكاح للفطرة السليمة.

أما تعدد الزوجات فقد قيدته الشريعة بأربع زوجات فقط[٥]، وأباحته لضرورات أحصاها فقهاء الشريعة، وضعت شروطا له من أهمها العدل بين الزوجات، ومع كل هذه الشروط والقيود نجد أن الإسلام يحث على الاكتفاء بزوجة واحدة يتضح لنا ذلك فى قوله تعالى "فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ[٦]".

كانت هذه أنواع الزواج عند العرب فى جاهليتهم، فما هو نظام هذا الزواج، وما هى الطريقة التى كان يتم بها؟

نستطيع أن نستخلص من رواية أم المؤمنين عائشة (رضى) أن جماهير من العرب كانت تتبع نفس النظام الذى ساد في الدولة الإسلامية، فالمرأة تخطب إلى وليها، وتعطى صداقها، ففيما ترويه عائشة قولها:

"كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء، منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها[٧]".

---

١ - نكاح الاستبضاع: وهو أن يقول الرجل لامرأته إذ طهرت من حيضها: ارسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويفعل ذلك رجاء نجابة الولد، فيأمرها بالاستبضاع من ذى شهرة أو فصاحة أو نحوهما. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٣، ص١٤٤؛

Huart: histoire des Arabes. Paris. 1912, P. 18;

د. عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، ص٥٤، عبد السلام الترمانينى: الزواج ص١٧.

٢ - نكاح الخدن: وهو أن يكون لها خليل فى السر يعاشرها معاشرة الأزواج، وقد حرمه الله تعالى بقوله: "مُحْصَنات غيْر مُسافِحَات ولا مُتَّخِذَات أَخْدان" سورة النساء ٢٥/٤، عبد السلاك الترمانينى: الزواج، ص٢٣.

٣ - نكاح المتعة: وهو التزوج بالمرأة لمدة معينة، وقد أبيح فى صدر الإسلام للضرورة القصوى مرة أو مرتين فى المغازى خوف الزنا، ثم حرمه الله تعالى بتاتا. انظر: يكن: الزواج، ص ص٦، ٧، انظر موقف الإسلام من نكاح المتعة. عبد السلام الترمانينى: الزواج عند العرب، ص٥٤: ٦٠.

٤ - الصنعانى: سبل السلام، جـ٣، ط الرياض ١٩٧٧م، ص٢٠٠.

٥ - انظر: قوله تعالى: فى سورة النساء ٣/٤ "فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّساءِ مثْنَى وثُلاث ورُبَاعَ".

٦ - سورة النساء ٣/٤.

٧ - راجع البخارى (باب النكاح) وأبو داود (باب النكاح).

ففى عصر الجاهلية القريبة كان الزواج مشافهة، فلم يعرف العرب عقود الزواج المكتوبة، وكان الزواج يتفق عليه بين ولى الزوجة وكان فى الأغلب اباها. وبين وكيل الزوج. وكان فى الأغلب كذلك أباه. وفى حالات نادرة جدا كان الزوج يتولى بنفسه اتمام إجراءات الزواج مع ولى الزوجة، ولكنه لا يتم إلا فى حضور عدد من الأهل والأصدقاء فى حفل يقام لهذا الزواج، وهكذا كان العقد غير مكتوب. وظلت هذه الطريقة سائدة حتى نهاية القرن الثانى واوائل القرن الثالث الهجريين (٨-٩م) الميلاديين(١).

أما فى مصر خاصة فالبعض يذكر أن عقود الزواج عرفت منذ فجر التاريخ، ويستدلون على ذلك بأن أول عقد زواج عثر عليه يرجع تاريخه إلى سنة ٣٦٥ق.م، وأن النص المدون فى هذا العقد يعطى بيانا عن قيمة الهبة المالية من الزوح لزوجته، وهو ما يعبر عنه بالصداق فى الشريعة الإسلامية(٢).

ووثائق البردى الخاصة بعقود الزواج فى مصر الإسلامية ترجع إلى عصور زمنية مختلفة، تنحصر فيما بين نهايات القرن الأول والقرن الرابع الهجريين، وعلى سبيل المثال:

- عقد زواج رقم ٢٥٢٩٥، ومؤرخ فى سنة ٩١هـ/٧٠٩م(٣).
- وعقد الزواج رقم ١٥٩ مؤرخ فى شهر ربيع الأول ٢٥٩هـ/ يناير ٨٧٣م(٤).
- وعقد الزواج رقم ١٢٨ مؤرخ فى شهر شوال ٢٦٤هـ/ يونية ٨٧٧م(٥).

---

١ – انظر: زواج محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) قبل الرسالة من خديجة بنت خويلد وعدم وجود عقد زواج تحت أيدى الباحثين، وزواج على بن أبى طالب من فاطمة (رضى) وعدم وجود عقد زواج مكتوب. ابن كثير، جـ٧، ص٢٤٣؛ السمرقندى: تحفة الفقهاء، جـ١٧٤-١٧٨.

٢ – انظر: بردية (Prisse Papyrus) يرجع تاريخها إلى حوالى ٤٥٠٠ عام، وتتحدث عن الأسرتين الخامسة والسادسة للوزير بتاح حتب فى الأسرة الخامسة، وتوضح علاقة الزوج بزوجته.
حسن رجب: البردى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١، ص١٢٩، حسن كمال: الطب المصرى القديم، جـ٣، ٤، مجلد ٢، ١٩٦٤، صفحات ٦٧، ١٧٥، ١٨٨؛ شفيق علام: الزواج فى مصر القديمة، مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس ديسمبر ١٩٨١م.

٣ – بردية غير منشورة، رقم ٢٥٢٩٥، متحف الفن الإسلامى، (مجموعة هنرى أمين عوض) انظر: ملحق الدراسة، شكل رقم (٣).

٤ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٥٩، ص٧٣-٧٨.

٥ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٢٨، ص٧٨-٨٤.

- وعقد الزواج رقم ١٤٠+٨٦ مؤرخ فى شهر شعبان ٢٧١هـ/ يناير ٨٨٥م[١]
- وعقد الزواج رقم ١٢١ مؤرخ فى شهر جمادى الأخر ٢٧٩هـ/ أغسطس ٨٩٢م[٢].
- وعقد الزواج رقم ١٧٣ مؤرخ فى شهر رجب سنة ٢٩٩هـ/ فبراير – مارس ٩١١م[٣].
- وعقد الزواج رقم ١٤٤ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادى[٤].
- وعقد الزواج رقم ١١٦ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادى[٥].
- وعقد الزواج رقم ١٠٨ يرجع تاريخه إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادى[٦].

بالإضافة إلى مجموعة غير قليلة من عقود الزواج فى مجموعة الإرشيدوق رينر (Rainer) الموجودة بالمكتبة الأهلية بفينا (البرتينا) من ضمنها عقد الزواج رقم ٩١٣، ويرجع تاريخه إلى عهد الخليفة العباسى القاهر بالله (٣٢٠-٣٢٢هـ/ ٩٣٢-٩٣٤م)، وأخرى مجموعة برديات جامعة هايدلبرج، وكذا مجموعة برلين وغيرها[٧].

وكانت معظم عقود الزواج التى تحت أيدينا متقاربة إلى حد كبير فى صيغتها وطريقة كتابتها.

فصيغة العقد نفسه تكاد تكون واحدة فى معظم العقود، فبعد البسملة تأتى الصيغة الشرعية للعقد من حيث أداء الصداق المترتب على الإيجاب والقبول، والتعبير الشائع فى هذه العقود هو "هذا ما أصدق فلان بن فلان ثم يذكر النسب (القرشى أو المصرى)، ويذكر اسم المدينة التى يسكن فيها العريس، ثم يلحق اسم العروس صاحبة الصداق واسم ابيها أو وليها فى الزواج، ويبين حالتها إن كانت إيما (ثيبا) أو بكرا، ويذكر قيمة الصداق، ويحدد المعجل منه وهو الذى يدفع

---

١ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٤٠+٨٦، ص٨٥-٨٨.

٢ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٢١، ص٨٨-٩٢.

٣ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٧٣، ص١١٢-١١٣.

٤ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٤٤، ص٩٢-٩٤.

٥ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١١٦، ١٠٣-١٠٤.

٦ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٠٨، ص ص١١٣، ١١٤.

٧ – أحمد الشامى: أوراق البردى العربى، مجلة المؤرخ العربى، العدد التاسع، بغداد، ص١٢٩.

للزوجة عن طريق وليها ساعة العقد أمام الشهود، كما يحدد المؤجل منه ويبين كيفية سداده، هل سيؤديه الزوج إلى زوجته بالتقسيط، أو دفعة واحدة بعد أجل معلوم كما يتضح ذلك فى النماذج الآتية:

عقد زواج رقم ١٥٩

- بسم الله الرحمن الرحيم
- هذا ما أصدق إسماعيل مولى أحمد بن مروان القرشى بمدينة اشمون عايشة.
- أبنت يوسف الساكنة... عندما خطبها إلى نفسها وهى امرأة أيم بعد ان فوضت.
- أمرها إلى جدها يعقوب بن اسحق ... وأشهدت له شهود.
- بتوكيلها إياه فقبل وكالتها وانفذ نكاحها وأصدقها إسماعيل مولى.
- أحمد بن مروان القرشى أربعة دنانير مثاقيل طراجياد وازنة يعجل لها.
- إسماعيل دينرين مثقالين نقدا حالا معجلا ويبقى لعايشة ابنت يوسف.
- على زوجها إسماعيل مولى أحمد بن مروان دينرين مؤخرين إلى خمسة سنين.
- أولهم شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين وشرط إسماعيل مولى.
- أحمد بن مروان لامرأته عايشة تقوى الله العظيم بحسن الصحبة والمعاشرة.
- كما أمر الله عز وجل وسنة محمد صلى الله عليه وسلم على.
- الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان وشرط إسماعيل.
- مولى أحمد أن كل امرأة يتزوجها على امرأته عايشة أبنت يوسف.
- زمام تلك المرأة بيد عائشة تطلق كيف شاءت من الطلاق.
- وولى عقده هذا النكاح يعقوب بن اسحق فقبل الوكالة وانفذ.
- النكاح ورضى إسماعيل بالمهر المعجل والمؤخر والشروط والمسمات.
- فى هذا الكتاب والزم ذلك نفسه فى صحة عقله وبدنه وجواز.
- أمره لا علة به ولا مرض ولا غيره فى شهر ربيع الأول سنة تسع.
- وخمسين ومائتين وشهد على ذلك.

عقد زواج رقم ١٢٨ ...

- .... الله ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها وعليه أن يتقى الله فيها.
- ويحسن صحبتها بالمعروف كما أمر الله تعالى الذى لزم ذكره وجل ثناوه وسنة نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه.
- وسلم.... وولى عقده نكاح عباسه ابنت سرى أبوها سرى بن عبد الله فازوجها.

- على نفس الشروط المسماه فى هذا الكتاب وبه حضر محمد بن راشد

....

....

- شهد عبد الله بن اسحق البزاز على اقرار محمد بجميع ما فى هذا الكتاب.
- شهد - فلان بن فلان - على اقرار سرى بن عبد الله بن يحى الطحان الولى وعلى إقرار محمد بن راشد الجزار بضمانه.
- وكتب فى شوال من سنة أربع وستين ومايتين.

ثم تتوالى بقية الشهود على هذا العقد حتى بلغ عددهم تسعة عشر شاهدا.

ويشترط لصحة عقد الزواج ..

- توافق إرادتي المتعاقدين على وجه ينتج عنه أثره الشرعى، وهذا ما يعبر عنه بالإيجاب من جانب الزوج، والقبول من جانب الزوجة، وهذه الإرادة يعبر عنها بالمشافهة لفظا وبالكتابة تحريرا، وبالإشارة المتداولة عرفا[1].
- اتحاد المجلس أى لا يكون هناك فاصل زمنى بين الإيجاب، والقبول، بل ينبغى أن تتم موافقة كل من العروسين فى مجلس واحد، وأن يكون العروسان سامعين لكلام بعضهما، وعدم مخالفة الإيجاب للقبول.
- أن يشهد على العقد شاهدين من العدول.
- أن لا يكون هناك مانع شرعى بين المتعاقدين[2].

الصداق (المهر)[3] :

نتعرض إلى جانب أخر من جوانب عقود الزواج التى تحت ايدينا وهو المهر أو الصداق، وقد وردت كلمات متعددة فى القرآن الكريم، وفى الأحاديث الشريفة تعريفا لهذا المدلول فى قوله تعالى:

---

١ - السمرقندي: تحفة الفقهاء، جـ٢، ص١٧٤-١٨٠؛ ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله، القاهرة ١٩٨٠، ص٦٩؛ الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الراوية والدراية فى علم التفسير، بيروت، (باب النكاح).

٢ - ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله، ص٧١؛ ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير، جـ١، ص٣٧١-٣٧٥؛ عبد السلام: الزواج، ص١٠٤-١١٤، يكن: الزواج، صفحات ٩٥، ١٧٧، ١٧٨.

٣ - المهر. كلمة من أصل سامى (موهار Mohar) وانتقلت إلى العربية باسم (مهر) وكانت تعنى ثمن المرأة: انظر: سفر التكوين: ٣٤: ١٢؛ عبد السلام: الزواج، ص١٩٩.

"وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ[١]"، ولدينا أمثلة لهذه المهور فى عصور مختلفة، فالصداق الذى قدمه محمد بن عبد الله (ص) قبل الإسلام إلى زوجته خديجة بنت خويلد كان خمسمائة درهم[٢]، وكذلك عندما تزوج رسول الله (أم حبيبة) زمله بنت أبى سفيان، التى أسلمت مع زوجها عبد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة، وبقيت هى على الإسلام، ففقدت أهلها وزوجها، وعلم رسول الله، فأرسل إليها يخطبها لنفسه وتزوجها، وقد أصدقها النجاشى عنه أربعمائة دينار[٣].

وهكذا كانت مهور معظم زوجاته بعد البعثة[٤]، وفى عقود الزواج المكتوبة على ورق البردى نجد أن أقل صداق كان دينارا واحدا[٥]، واعلا قيمة للصداق كانت ثمانين دينارا[٦].

ولا يشترط أن يكون الصداق دينارا أو درهما أو اية عملة أخرى، بل يجوز أن يكون سلعة تباع وتشترى ولها ثمن معلوم، مثل القمح أو الشعير أو التمر، وأن كان العرف قد جرى على أن يكون الصداق (مالا)[٧]، فنلاحظ فى العقد المؤرخ فى شهر ذى القعدة سنة ٢٣٩هـ بأن الزوج أعطى زوجته يونة داره عوضا عن بقية صداقها ومقداره دينار واحد، وعلى ذلك اعترفت يونة ابنت حليصا ببراءة ذمة زوجها من الدينار الذى هو بقية الصداق[٨].

---

١ – قرآن كريم سورة النساء: ٢٤/٤.

٢ – اثنى عشر اوقية ونصف الاوقية من الفضة (الاوقية ٤٠ درهما).

٣ – انظر: ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص١٢٣؛ عبد السلام الزواج، ص٢٥٦.

٤ – ابن عبد البر القرطبى: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، جـ٨، ص٢١، ١٦١.

٥ – يقدر الدينار باثنى عشرة درهم، انظر: جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١ عقد زواج رقم ١٥٧+ ١٤٢+ ١٤٣ (لوحة ٦) ص ص٩٦، ٩٧؛ عقد زواج رقم ١٤٥ (لوحة ٥)، ص ص١٠٠، ١٠١.

٦ – عقد زواج – دار الكتب المصرية – رقم ١٧٣٥/٣ تاريخ ٤

عقد زواج – دار الكتب المصرية – رقم ١٧٣٥/٤، وفى عهد بنى العباس ارتفعت مهور الخلفاء والأمراء إلى مائة ألف دينار، وبهذا القدر من المهر تزوج الخليفة المعتضد قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، أمير مصر سنة ٢٨٢هـ. انظر: المسعودى: مروج الذهب، جـ٤، ص١٤٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٤٠٤، ٤٠٥؛ مصطفى بدر: مصر الإسلامية، ص١٤٣.

٧ – الصنعانى: سبل السلام، جـ٣، ص ص٢٦٥، ٢٦٦؛ ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله ص ص٦٨، ٦٩.

٨ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، طراز رقم ١٨٦٥، ص ص١٤٦، ١٤٧.

ويشترط الإمام مالك إلا يقل ما يؤدى منه عن ثلاثة دراهم، (١/٤ دينار)، بينما الإمام الشافعى يجعل الصداق عشرة دنانير (١٢٠ درهما) على أن يؤدى نصفها معجلا[١]، ومع كل أقوال الفقهاء فما هو ثابت ومدون فى عقود الزواج على ورق البردى يختلف معظمه تماما عنها، فعقد الزواج رقم ١٤٥ كان المهر ٤ دنانير[٢]، عجل الزوج دينارا واحدا وأجل الثلاثة الباقية، وعقد الزواج رقم ١٥٩ اثبت المهر فيه أربعة دنانير كذلك[٣]، عجل الزوج منها دينارين وقسط المؤجل (دينارين) على خمسة سنوات، وعقد الزواج رقم ١٢٨ كان الصداق عشرة[٤] دنانير كلها معجلة كما يفهم من السطر السابع من العقد[٥].

وفى كل الحالات كان لابد من النص فى العقد على موافقة الزوجة على الزواج ورضاها بالمبلغ المقدر للصداق، ومن الحالات النادرة جدا التى صادفناها فى عقود الزواج دقة الموثق فى تحرى شروط صحة العقد، حيث أخذ هذا الموثق شهادة مكتوبة بتوقيع عدد من شهود العقد اثبت فيها انهم يعرفون العروس فاطمة بنت[٦] أبى بكر ابن على الرديثى، وانها بكر وبالغ وحرة ومسلمة وخالية من موانع الزواج، ولم يسبق لأحد أن عقد عليها بالزواج حتى تاريخ يوم العقد، (السابع من شهر جمادى الأخرة سنة ٦٤٠هـ/ ديسمبر ١٢٤٢م، وأن شقيقها أحمد هو ولى تزويجها وأن الزوج الراغب فى عقد زواجها وهو عبد الملك بن شجاع بن طرخان كفء لها[٧].

ويتضمن غير قليل من عقود الزواج المدونة على ورق بردى بعض الشروط الخاصة لمصلحة الزوجة كأن تكون العصمة بيدها، وهو ما يعبر عنه الفقه بـ(تمليك المرأة أمرها)، من هذه الشروط ما ورد فى عقد الزواج رقم ١٥٩ (س-١٢-١٤) المؤرخ فى ربيع أول ٢٥٩هـ/٨٧٢م، حيث اشترطت الزوجة أن أية

---

١ - الصنعانى: سبل السلام، جـ٣، ص٢٦٦؛ جروهمان: أوراق البردى، جـ١، ص٧٦.

٢ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص١٠٠.

٣ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص٧٣.

٤ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص٧٨، ٧٩.

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص ص٧٦، ٧٧.

٦ - فى الأصل (أبو).

٧ - عقد الزواج رقم ١٧٣٥/٤ تاريخ (مجموعة دار الكتب المصرية).

زوجة أخرى يتزوجها زوجها بعدها تكون عصمتها بيدها هى، ان شاءت ابقتها وان شاءت طلقتها[١]. وفى بعض العقود يكون شرط الزوجة هو الطلاق للزوجة الثانية، والعتق للجارية إذا اتخذها زوجها سرية عليها[٢].

ومن الشروط التى كانت تدون فى عقد الزواج حرية الزوجة فى التصرف فيما تملك، وعدم تدخل الزوج فيما تتصرف فيه "ان شاءت باعت وان شاءت وهبت وان شاءت تصدقت"، كذلك يسمح الزوج لأهل زوجته بزيارتها فى بيتها، ولا يمنع زوجته من زيارة أهلها[٣].

ومن الملاحظ فى عقود الزواج المدونة على ورق البردى أن وصية الزوج بزوجته، وحسن معاملته لها، ووجوب طاعة الزوجة لزوجها، كانت ضمن النصوص الثابتة التى تكتب فى العقد، وتدعم بذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدل على ذلك[٤].

الشهود :

لهذه الكلمة الكثير من المعانى فى اللغة[٥]، وقد وردت فى القرآن الكريم فى عدة مواضع، وبمعانى مختلفة مثل قوله تعالى: "والَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً[٦]".

والحقيقة أن رجال الفقة لا يختلفون في وجوب شهادة الشهود على عقد الزواج، مستندين إلى ما سبق ذكره من آيات قرآنية وأحاديث نبوية[٧].

---

١ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص٧٤.

٢ - عرفت نساء العرب فيما قبل الإسلام مثل هذه الشروط، فكان يحق للمرأة أن تطلق زوجها أو تطلق نفسها من زوجها، وكانت علامة ذلك أن تحول المرأة مدخل الخباء (الخيمة) إلى عكس الاتجاه الذى اقيمت عليه الخيمة أولا، فكان الزوج يمتنع عن الدخول، ويعلم أن زوجته قد طلقته أو طلقت نفسها منه. انظر: أحمد الشامى: تاريخ العرب والإسلام، الأنجلو ١٩٨٢م، ص٥٩.

٣ - فى بيان ما يجب عليها من تسليم النفس، وما لها من حق المنع. انظر: السمرقندى تحفة الفقهاء، جـ٢، ص٢١٠-٢١٣.

٤ - راجع العقود رقم ١٢١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٧، مجموعة دار الكتب المصرية.

٥ - لها غير قليل من المشتقات مثل: شهد، مشاهد، شاهدة، شهود، شهيد.

٦ - سورة النور ٢٤/٤، ابن كثير: مختصر، جـ٢، ص٥٨٣.

٧ - يكن : الزواج، ص١٣٦.

وقد ذكرت أن حضور رجل من أهل الزوج، ورجل من أهل الزوجة عقد الزواج يكون الشهود عدول، وكان على القاضى أن يتأكد من توفر هذه الصفة فيهم، يدلنا على ذلك ما ذكره الكندى عندما تعرض لذكر قاضى مصر غوث بن سليمان فى خلافة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م)[١] وكان من أعوان القاضى من يتولى عملية التحرى عن الشهود وعرف صاحب هذه الوظيفة باسم (صاحب المسائل)[٢]، وكان بعض القضاة ينتخبون الشهود العدول، الذين يبقون إلى جوار القاضى ما ظل على ولاية القضاء[٣]، إذ عليهم التحرى عن الأمور التى سيتولون الشهادة فيها، وقد تمتع هؤلاء بمنزلة كبيرة.

أما عدد الشهود الذين يشهدون على عقد الزواج فكانوا أثنين طبقا للشرع ولم يمنع ذلك زيادة عددهم إلى أكثر من ذلك، ففى أحد العقود بلغ عددهم ثلاثة وعشرين شاهدا كما يتضح من العقد (رقم ١٢٨)[٤].

وقد بقيت عقود الزواج المكتوبة على ورق البردى تكتب بأيدى من يجيد صياغتها لعدم وجود نظام ثابت للتوثيق، فالذى تولى كتابة عقد الزواج رقم ١٧٣٥/٣ (مجموعة دار الكتب) كان والد العروس، والعقد مؤرخ فى جمادى الاخرة سنة ٦٤١هـ/ نوفمبر ١٢٤٣م، وفى عقد الزواج رقم ١٨٧١ كان كاتب العقد أحد الشهود.

نخلص فى كل ما تقدم إلى أن أقدم عقود الزواج المكتوبة عرفت فى مصر منذ القرن الأول الهجرى، فلدينا أقدم زواج إسلامى تم فى مصر، ومؤرخ من سنة ٩١هـ/٧٠٩م[٥]. وهو يعكس مدى حالة المجتمع المصرى عقب الفتح الإسلامى من تسجيل عقود الزواج، وقد استخدمت هذه العقود عدة قرون، ولكن لم يكن تحريرها وتوثيقها أمرا واجبا فى كل الأحوال، إذ كانت بعض العقود تتم من غير

---

١ - الكندى: الولاة والقضاة، ص٣١٦.

٢ - ظهرت هذه الرتبة منذ منتصف القرن الثانى للهجرة، راجع دائرة المعارف الإسلامية، جـ٣، ص١٢٤؛ وترجمة الضبى فى تهذيب التهذيب للعسقلانى، جـ٥، ص٢٥٠.

٣ - الماوردى: الأحكام السلطانية، ص١٢٨.

٤ - عقد رقم ١٢٨ بتاريخ شوال سنة ٢٦٤هـ. انظر: جروهمان: أوراق البردى، جـ١، ص٧٨.

٥ - بردية غير منشورة. عقد زواج رقم ٢٥٢٩٥، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، انظر: ملحق الدراسة شكل رقم (٣).

تدوين وذلك إلى أن صدرت لائحة ترتيب المحاكم الشرعية بالأمر العالى من الدولة العثمانية بتاريخ ٢٥ ذى الحجة ١٣١٤هـ/٢٧ مايو ١٨٩٧م، وتنص على تحرير عقود الزواج على يد القاضى الشرعى[١].

زواج المسلم من أهل الكتاب :

وأباح الإسلام الزواج من نساء أهل الكتاب بالنص القرآنى: "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌ لَّكُمْ وطَعَامُكُمْ حِلٌ لَّهُمْ والْمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ والْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ[٢]".

وبذلك تكون كل مؤمنة بكتاب سماوى، إذا كانت محصنة، أى عفيفة حلا للمسلم يمكنه أن يتزوج منها.

والواقع أن زواج المسلمين من الذميات بدأ فى مصر منذ بدأ العرب ينزلون الريف، والقرى المصرية، ويعملون فى زراعة الأراضى[٣]، كما أن القبط الذين اعتنقوا الإسلام اختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين العرب بعد نكاحهم المسلمات[٤].

ونستدل على ذلك بعقد الزواج المؤرخ فى آخر صفر سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م، "ذكر حق يونة ابنت حليصى على زوجها يزيد بن قاسم"، ونلاحظ على شهادة الشهود هى اختلاط الأسماء القبطية والإسلامية، فقد شهد علي العقد حوالى ثلاثة وعشرون شاهدا[٥].

وهناك أيضا عقد زواج إسلامى من العصر الطولونى، اسم الزوج يحنس بن شنودة من مدينة الاشمونين، والزوجة اسمها دروا ابنة شنودة[٦]، فالواضح هنا بأن

---

١ – كمال صالح البنا: قوانين الإجراءات فى مسائل الأحوال الشخصية، مصر ١٩٥٨م، ص ص٣٦، ٣٧.

٢ – سورة المائدة: آية (٥).

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٠؛ المقريزى: البيان والأعراب ص ص٥٠، ٥١؛ حسن محمود: حضارة مصر الإسلامية، ص٢١٧.

٤ – يذكر المقريزى "بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات" انظر: الخطط، جـ١، ص٨٢.

٥ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٨٧١ (لوحة ٧)، ص١٠٥-١١٠.

٦ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، عقد زواج رقم ١٤٠+٨٦ (لوحة ٤) ص٨٥-٨٨.

دخول أهل الكتاب فى الإسلام كان يتبعه الاحتفاظ بأسمائهم القديمة، فلم يتخلصوا منها حتى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى.

ويصور أبو صالح الأرمنى تلك العلاقة الطيبة التى جمعت بين المسيحيين والمسلمين فى مصر، وخاصة فى الاحتفال بالأعراس لدى المسلمين، فيذكر "وفى أعراس المسلمين وأفراحهم يحضروا النصارى ... ويمشوا قدام العريس فى أسواقها وشوارعها وصار هذا عندهم عرف وعادة مستقرة إلى عصرنا نحن[١].

أما عن إعداد العروس للاحتفال بزفافها، فتعطينا الوثائق البردية مادة طيبة عن مستحضرات التجميل التى تهيأ بها العروس، فهذه وثيقة محفوظة الآن فى مجموعة الأرشيدوق "رينر" فى فينا، تتضمن بيان بعض حوائج تتجمل بها وتستخدمها إحدى العرائس فى القرن الرابع الهجرى/ الحادى عشر الميلادى عبارة عن:

الحنا وماء الورد والخروب والزعفران للحمام[٢].

فضلا عن نعل من نعال السند المشهورة "حذاء ذو رباط" تنيسى "مصنوع فى تنيس" بربع دينار[٣].

ومن الروائح التى كانت تتعطر بها المرأة فى مصر ماء الورد والياسمين، فقد جاء فى بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى ذكر "قارورة ماء ورد جيد جورى[٤]" وماء الورد الجورى كان يصدر إلى مصر، بالإضافة إلى ما تنتجه مصر من زيت الورد فى الفيوم.

---

١ – أبو صالح الأرمنى، تاريخه، ص١٢٩.

2 - Papyrus Erzherrog Rainer: Fuher durch die Ausstllung (P.E.R.F) P.256. N1014 wien. (1894).

برديات الارشيدوق رينر. دليل المعرض فينا ١٨٩٤م (P.E.R.F.)

رقم ١٠١٤ س٨ (أشياء مطلوبة لعروس) انظر: جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٦، ص١٩٥؛ حسن رجب: البردى، ص١٥٠.

٣ – حول صناعة النعال السندية انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٢؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٢٤١، ٢٤٢.

٤ – جورى "مدينة جور" فى إقليم فارس وهى على بعد عشرين فرسخا من شيراز بوردها قانى الاحمرار. جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٦، ص١٨١، الماء ورد الذى كان يصنع هناك (الماء ورد الجورى) فاق كل المنتجات الأخرى من هذا النوع، وكان يصدر بالبحر ويوزع على الأقطار الأخرى منها مصر، انظر أيضا جروهمان: أوراق البردى، جـ٦، ص١٨١ بردية رقم (٦٩٨).

وكذلك أشارت البرديات العربية، إلى زيت الياسمين (زنبق) وهو الذى يصنع خاصة فى دمياط من الياسمين الأبيض المعروف فى مصر، وقد كانت النساء والعرائس يستعملونه عطرا، ويفضلنه على غيره، وكان الزنبق يستعمل كأحد العناصر التى تدخل فى تركيب العطر المسمى "سك" Sukk[١].

ويقول ابن الجوزى[٢]: "ومن الحجارة التى قد عمم نفعها حجارة الكحل المسمى بالانمد وهى حجارة شديدة السواد" فالكحل من أدوات الزينة عند المرأة وقتذاك، ومن الطبيعى أن يصل إلى مصر عبر التجار، ويذكر المسعودى أن "معدن الزمرد فى عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط[٣]".

وتختلف مظاهر الاحتفالات بليلة العرس "الزفاف" بين جموع العامة، والطبقة العليا من الارستقراطية الحاكمة[٤]، إذ اهتمت المصادر الإسلامية بوصف حفلات الزواج لدى الطبقة الحاكمة من الأمراء، وخاصة منذ القرن الثالث الهجرى، بوصف مظاهر الأبهة والبذخ عند الطولونيين فى الاحتفال بزواجهم[٥]، فقد استطاع خمارويه بما هيأه له بيت المال أن يبذل الأموال الضخمة عند زواج ابنته أسماء المعروفة بقطر الندى إلى الخليفة العباسى المعتضد، فيذكر ابن دقماق[٦] أنه: "حمل معها ما لم يرمثله ولا سمع به الا فى وقته"، ويذكر المقريزى[٧] أنه: "لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها فكان من جملته دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب"، وقد أمر خمارويه أن يبنى لابنته

---

١ - هذه البردية ترجع إلى القرن الثالث أو الرابع الهجرى تحت رقم (٣٢٦). جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، ص٨١-٨٢.، وثائق البرديات - بدار الكتب المصرية، طراز رقم ١١٨.، ويذكر القلقشندى: عن وجود الآس، والورد، والبنفسج والنرجس والياسمين، والنسرين والنيلوفر والريحان الفارسى ويكثر فى الإسكندرية؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٨.

٢ - ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص٦٠؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص١٨، ١٩.

٣ - المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص ص٤٤٣، ٤٤٤.

٤ - انظر الاحتفالات بالأعراس لدى الطبقة الحاكمة. جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٥، ص١٦٨-١٧٠.

٥ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٦٧.

٦ - المسعودى: مروج الذهب، جـ٤، ص١٤٥؛ ابن دقماق: الانتصار، ص٦٧.

٧ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣١٩.

على رأس كل مرحلة قصرا أو مكانا للراحة تنزل فيه فى طريقها إلى بغداد، وقد بلغ مقدار صداقها مليون درهم(١)، حتى حصل من قام بإعداد جهازها على أربعمائة ألف دينار(٢).

وكان من عادات القوم وتقاليدهم فى الحفلات والمناسبات السعيدة أن ينثروا النقود على الحاضرين، وقد عرفت مصر هذا التقليد فى العصر الطولونى والإخشيدى فى المآدب التى يقيمها الأمير أو تقام له(٣).

وقد أقيمت فى قصر خمارويه الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج(٤)، واجتمعت النساء فى أحسن ملابسهن الحريرية، وظهرن فى أجمل حليهن، وارتدت قطر الندى ثوبا من الحرير الأبيض، ووضع على رأسها إكليل من الذهب، وطرحة مرصعة بالجواهر، وعلى أذنها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب، وفى أصابعها الخواتم، وفى معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة، فبدت فى أحسن زينة.

ومد السماط، وزين بالأزهار ذات الرائحة الذكية والألوان المختلفة وجلست العروس فى صدر السماط، وجلست أمها عن يمينها وجدتها عن يسارها، ووضعت فى طرفى السماط قطعتان كبيرتان من الحلوى، ونثرت عليه صحاف ملأى بألوان الطعام المختلفة(٥).

وخرجت قطر الندى فى موكب اشترك الأهالى فى توديعها، يتقدمهم الأمير خمارويه ممتطيا فرسه ويحف به حرسه المختار يلبسون الاقبية ويتقلدون السيوف المحلاء بالذهب، ويتبع الموكب جيش من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام، ومن السودانيين يرتدون الأردية والعمائم السود(٦).

---

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٤٠٤.

٢ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٦٧.

٣ - انظر: المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٢١؛ ابن سعيد: المغرب، ص١٧٩؛ سيدة كاشف: دراسات فى المجتمع المصرى، ص٢٠.

٤ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص٦٧ وما بعدها.

٥ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص١٧٤.

٦ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٣١٩.

ويلاحظ أن من مراسيم الزواج أن يأكل العروسان طعاما من صحن واحد[١] فعند زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أم حبيبة عند النجاشي الذى دفع صداقها إلى خالد بن سعيد فقبضها ثم أراد الحاضرون أن يقوموا فقال: أجلسوا فان سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج[٢].

الولادة[٣] والتسمية:

الحمل هو الصفة المطلوبة فى المرأة، لأن الانسال هو الغاية من الزواج وفى ذلك يقول الرسول: "انكحوا فانى مكاثر بكم[٤]"، ويروى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: انى أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وأنها لا تلد فأتزوجها، قال لا ثم أتاه الثانية فنهاه ثم أتاه الثالثة، فقال تزوجوا الودود الولود فأنى مكاثر بكم[٥]"، وقد كان العرب يؤثرون المرأة الولود ويسمونها الضانية[٦].
ويذكر ابن الفقيه: "أن نساء أهل مصر والقبط ضد نساء خراسان، لأن نساء خراسان يلدن أذكارا، نساء القبط لا يكاد يرى منهم الاميناث وتلد الاثنين والثلثة والأربعة، ولا نعلم ناسا فى الأرض أكثر ذكرانا من آل أبى طالب[٧]"، فالمرغوب

١ – عبد السلام الترمايني: الزواج عند العرب، ص٢١٩.

٢ – ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص١٢٤؛ وانظر كذلك وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العرس، ترجمة زينب بنت جحش، ووليمة العرس والأطعام فيها. محمد السفاريني الحنبلي: ثلاثيات مسند الأمام أحمد، ط الأولى ١٣٨٠هـ دمشق جـ١، ص ص٣٤١، ٣٤٢.

٣ – وهى صناعة يعرف بها العمل فى استخراج المولود الآدمى من بطن أمه، من الرفق فى إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك، وهى مختصة بالنساء فى غالب الأمر، لما انهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض، وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة انظر: ابن خلدون: المقدمة، جـ١، ص٧٣٥؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٤٣١.

٤ – (انكحوا) أى الود وقدر المفعول بقرينة فانى مكاثر بكم انظر ابن ماجة: السنن تحقيق محمد فواد عبد الباقى: ط بيروت ١٩٨٧م، جـ١، (كتاب النكاح) ص٥٩٨.

٥ – روى هذا الحديث أبو داود والنسائى، وقد وثق وهو ضعيف، انظر: الشوكانى نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، ط بيروت ١٩٧٣، جـ٥، ص٢٣٢.

٦ – الضانية: المرأة الكثيرة الأولاد: يقال ضنئت المرأة تضنوا إذا كثر أولادها، والضنن هو الولد وجمعه (الضنى) لسان العرب ضنا، الترمانينى: الزواج، ص٢١٩.

٧ – ابن الفقيه: مختصر تاريخ البلدان، ص٧٥.

فى الحمل عند العرب هو الولد الذكر، لأنهم قوم عصبية وحروب، ورغبتهم فى الذكر مستمدة من طبيعة حياتهم، ولذلك كان العربى فى الجاهلية يغضب إذا ولدت زوجته البنات وقد يهجرها كما فعل أبو حمزة الضبى[١].

وكانت القابلة هى المسئولة عن القيام بتوليد من حان وقتها، وكانت معظم المولدات من الجوارى السمراوات[٢].

وقد زاد العرب فى مصر باطراد حتى تضاعفوا حوالى سبع مرات فى أقل من نصف قرن[٣]، وطبيعى أن تكون كثرة التناسل هى أول عوامل هذه الزيادة.

ويحذر عمرو بن العاص فى خطبة الارتباع فيقول: "يا معشر الناس اياى وخلال أربعا فانها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى المذلة بعد العزة اياى وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال ثم أنه لابد من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها[٤]". أى أنها دعوة إلى عدم الانشغال، وعدم تضييع الفراغ فى ذلك، ليكون هناك وقت يأخذ فيه نصيبا من العلم والعبادة.

ومع الزيادة المستمرة فى النسل اضطرت الحكومة الإسلامية فى مصر زمن معاوية بن ابى سفيان إلى تخصيص شخص فى كل قبيلة من قبائل العرب فى الأمصار لتسجيل المواليد[٥]، يكون له نصيب من الديوان.

يقول ابن عبد الحكم: "كان معاوية بن أبى سفين قد جعل كل قبيلة من قبائل العرب رجلا فكان على المعافر رجل يقال له الحسن يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود، وهل نزل بكم نازل، فيقال: ولد لفلان غلام، ولفلان جارية، فيقول سموهم فيكتب[٦]". فكان إذا فرغ من القبائل كلها

---

١ – عبد السلام الترمانينى: الزواج، ص٢٢٠.

٢ – ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص٤٢.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٥، ١٠٢؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ص١-٧٥؛ عبد الله خورشيد: مرجع سابق، ص٥٣.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ص٧٢، ٧٣.

٥ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٠٢.

٦ – المصدر نفسه، ص١٠٢.

أتى إلى الديوان حيث يسجل أسماء القادمين الجدد ليخصص لهم نصيب في العطاء[١].

وقد انتبه الكندى إلى أثر هذين العاملين فى النمو السريع لقبيلة قيس بعد أن هاجرت إلى مصر عام (١٠٩هـ/٧٢٧م) فقال أنهم "توالدوا وقدم عليهم من قدم[٢]".

وقد فرض عمر بن الخطاب العطاء للمولود فى بداية الأمر "يفرض للمولود إذا ولد فى عشرة، فإذا بلغ أن يفرض له الحق بالفريضة، فلما كان معاوية فرض ذلك للفطيم[٣]".

وقال البلاذرى: "وأمر عمر فكتب له عمال أهل العوالى، فكان يجرى عليهم القوت، ثم كان عثمان فوسع عليهم فى القوت والكسوة، وكان عمر يفرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتى درهم، فإذا بلغ زاده، وكان إذا أتى باللقيط فرض له مائة، وفرض له رزقا يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصى بهم خيرا ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال[٤]".

أما عن أسماء المواليد فى مصر الإسلامية، فواضح من دراسة الأوراق البردية[٥]، أن الأسماء التى جاءت فى هذه الوثائق تشهد باحتفاظ أغلب المصريين بالأسماء القبطية أو بقايا المصرية القديمة أو بالأسماء المقتبسة من اليونانية والرومانية، بعكس شواهد القبور التى تغلب عليها الأسماء العربية[٦].

ويعتقد أن السبب فى هذا أن الأوراق البردية التى وصلت إلينا ترجع إلى أماكن متفرقة فى الريف المصرى، ولا سيما مصر الوسطى والصعيد، أما شواهد القبور فمعظمها من جبانة الفسطاط والعسكر والقطائع، حيث كان الأكثرية من العرب الوافدين على مصر أو ممن تناسلوا عنهم.

---

١ – المصدر نفسه، والصفحة .

٢ – الكندى: الولاة، ص٧٧.

٣ – فى رواية أخرى: "أن عمر كان لا يفرض للمولود حتى يفطم، ثم نادى مناديه لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود فى الإسلام". انظر: البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٥٤٤

٤ – المصدر نفسه، جـ١، ص٤٣٨.

5 - Grohmann: Arabic papyri in the Egyptian Library. Vol I, II, IV.

6 - Wiet (Gastion): Catalogue General du Musee, Arab du Cairo, Stele Funeraires. Tomes I-V. Le Caire, Wiet: L'Egypte Musulmane, (Precis de L'Inst. d'Egypte t-II) PP. 136-137. Le Caire 1932.

كذلك أخذت المسميات العربية فى الأنتشار بين من أسلم من المصريين[١] هـذا بجانب احتفاظ بعضهم بأسمائهم القبطية أو المصرية القديمة[٢].

وأخذت الأسماء العربية أحيانا شكل الحروف التى يزاولونها فى مصر مثل الطحان، الجزار[٣] والسماك[٤] وهذا يعطينا مؤشرا على بداية التعريب الحقيقى للمسميات فى مصر.

ختان الأطفال:

جاء الإسلام بقواعد متكاملة، كان بعضها معمولا به، ومنها عادة الختان إذ ترجع إلى العهد المصرى القديم[٥]، ودعاه "بالتطهير[٦]"، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اختتن إبراهيم خليل الرحمن بعدما اتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم[٧]" وكان الذى يقوم بعملية الختان عند الرجل يسمى الحجام حيث يستعمل من الأدوات آلة الختان وهو الموس والمقص[٨].

---

١ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص٧٣.

٢ – انظر: عقد الشراء المؤرخ ذى العقدة ٢٣٨هـ، وهو باسم عبيد الله بن بطرس الادفوى المشترى من النصر بن النصر بن عبد الله الزيات. وثيقة غير منشورة، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، رقم ٩٨١٨، وكذلك هناك عقد شراء باسم على بن عبد الله المشترى من ورثة بشنده بن عيسى الشماس، ومؤرخ شهر ربيع الأول ٢٤٦هـ، وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى، رقم ٩٨١٧. انظر: ملحق الدراسة شكل رقم (٤)، رقم (٥).

٣ – جروهمان: أوراق البردى، جـ١، ص٧٩.

٤ – المرجع نفسه، والجزء، ص١٦٧.

٥ – عبد العزيز صالح: التربية والتعليم فى مصر القديمة، ط القاهرة ١٩٦٦، ص١٩؛ حسن كمال: الطب المصرى القديم، جـ٣، ٤، مجلد ٢، القاهرة ١٩٦٤، ص٧٢، ١٤٥.

٦ – عبد السلام الترمانينى: الزواج، ص٢٢٣.

٧ – "هذا الحديث متفق عليه الا أن مسلما لم يذكر السنين" انظر: الشوكانى: نيل الأوطار، جـ١، (باب الختان) ص١٣٧؛ وقال أبو حنيفة الختان سنة مؤكدة، وليس بواجب، وبعض أصحابه يقول أنه واجب، وليس بفرض، ودليلنا ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل أسلم: (ألق عنك شعار الكفر واختتن) ولأنه قطع شئ من البدن فى حق الله تعالى، فوجب أن يكون واجبا كالقطع فى السرقة فإذا ثبت هذا فصفة الختان فى الرجل أن يقطع منه الغلفة التى توارى الحشفة. انظر: ابن الاخوة: معالم القربة، ص٢٥١.

٨ – والحجامة عظيمة المنفعة وهى أقل خطرا من القصاد، وينبغى أن يكون الحجام خفيفا رشيقا خبيرا بالصناعة، فيخف بيده فى الشروط، ويستعجل ثم يعلق المحجمة، وعلامة خفة يده الا يوجع المحجوم، المصدر نفسه، ص٢٥١.

وكان يصاحب الختان إعلان الأفراح فى مصر، وإقامة الولائم، والمنشدون من حول المختون، فعند ولاية عنبسة ابن اسحق على مصر فى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م، ومع قدوم عيد الأضحى المبارك "أراد طهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح، واحتفل بذلك احتفالا كبيرا، حتى بلغ به الأمر أن أرسل إلى حامية ثغرى دمياط وتنيس، فأحضر سائر من كان بهما من الجند والخرجية والزراقين وغيرهما، وكذلك من كان بثغر الإسكندرية من المذكورين، فرحلوا إليه بأجمعهم وقد هجم الروم على دمياط فوجدوا البلد خاليا من الرجال والمقاتلة[١]" ومثل هذا كان يحدث في الاحتفال في سار الكور المصرية عند ختان الأولاد.

الملابس وتطورها فى مصر :

أتت القبائل العربية إلى مصر وهى ذات مستويات حضارية متعددة، وطرز من الأنسجة والألبسة متنوعة، لأن أكثرهم كانوا بدوا، ولدينا بعض التفاصيل عن ألبستهم التى حفظها اللغويون، والمؤرخون.

يقول ابن خلدون عن الحياكة والخياطة[٢]: "هاتان الصناعتان ضروريتان فى العمران، لما يحتاج إليه البشر من الرقة، فالأولى تنسج الغزل من الصوف والقطن سدوا فى الطول والحاما فى العرض لذلك النسج فيتم بالالتحام الشديد منها قطع مقدرة، منها الاكسية من الصوف الاشتغال، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس، والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد: تفصل أولا بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدنية، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو حبكا أو تنبيتا أو تفسخا على حسب نوع الصناعة، وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضرى، لما كان أهل البدو يستغنون عنها، وانما يشتملون الأثواب اشتمالا، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها[٣]".

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يهتم باللباس كما يهتم بنظافة ثيابه وبساطتها، وقد حفظت كتب الحديث والسيرة النبوية معلومات عن البسة الرسول.

---

١ – ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ق٣، ص ص٢٩٥، ٢٩٦.

٢ – ابن خلدون: المقدمة، ص٤١١.

٣ – المصدر نفسه، ص٤١١، سعد الخادم: تاريخ الازياء الشعبية، دار المعارف ١٩٥٩م، ص٢٥.

وقد ذكر ابن الجوزى "أخبرنا الرواة عن عائشة (رضى) قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله (ص) ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم، وفى الدار ركوة فيها ماء فجعل الرسول (ص) ينظر فى الماء ويسوى شعره ولحيته فقالت عائشة: يا رسول الله وأنت تفعل هذا قال نعم إذا خرج الرجل إلى اخوانه فليهئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال[١]".

وكان النبى (ص) يلبس القطن والكتان واليمنه، وكانت له قلنسوة اسماط[٢]، وكانت فيها ثقبة[٣] "كما كانت له ملحفة مصبوغة بورس أو بزعفران[٤]" كما ذكر عن النبى (ص) "أنه كان يرقع ثوبه وأنه قال لعائشة (رضى) لا تخلعى ثوبا حتى ترقعيه، كما ذكر أن الخليفة عمر (رضى) كان فى ثوبه رقاع[٥]".

وقد روى أن رسول الله (ص) "ترك عشرة أثواب، ثوب حبرة[٦] وازارا عمانيا وثوبين صحاريين، وقميصا صحاريا وقميصا سحوليا[٧] وجبة يمانية، وملحفة مورسة وخميصة وكساء ابيض وقلانس صغارا ثلاثا أو أربعا[٨]" وذكر ان رسول (ص) سجى حين مات ببرد حبرة[٩]، فقد أرسل المقوقس، ضمن هداياه إلى الرسول الثياب البيض، التى بقى منها، فكفن فيها رسول الله[١٠] كما روى أن النبى لبس خفين أسودين ساذجين[١١].

---

١ - ابن الجوزى: ابليس، ط النهضة مصر ١٩٢٨م، ص٢٠١.

٢ - اسماط - غير محشوة - ابن سيدة: المخصص، ط بيروت، جـ١، ص٨٢؛ دوزى: المعجم المفصل، ط بغداد ١٩٧١، ص١٩.

٣ - البلاذرى: انساب الإشراف، جـ١، ص٥٠٧.

٤ - المصدر نفسه، جـ١، ص٥٠٧؛ سعاد ماهر: مخلفات الرسول في المسجد الحسيني، دار مطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٥، ص٧٨.

٥ - ابن الجوزى: تلبيس ابليس، ص١٨٦.

٦ - الحبرة: أى ثوب موشى وهو من التحبير أى التزيين، ابن سيدة: المخصص، جـ١، ص٧٣.

٧ - السحل - ثوب من القطن - ضرب من برود اليمن. ابن سيدة: المخصص جـ١، ص٦٧.

٨ - البلاذرى: أنساب الإشراف، جـ١، ص٥٠٧؛ سعاد ماهر، مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى، ص٧٨.

٩ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٦٤.

١٠- ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٥٢، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٩٢؛ دوزى: المعجم المفصل، ص١٧.

١١- ابن الجوزى: تلبيس ابليس، ص٢٠٠؛ دوزى: المعجم المفصل، ص١٩.

وكان العرب فى صدر الإسلام يتوخون الخشونة فى العيش والتعفف فى الطعام، والتواضع فى اللباس، "فكان الخليفة من الراشدين يمشى فى الأسواق، وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه، أو ثوب من كرياس[١] غليظ، وفى رجليه نعلان من ليف، وحمائل سيفه من ليف، وكان عمالهم فى الامصار، إذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبه من الصوف وتعمم بعمامة دكناء، واحتذى خفين ودخل عليه[٢]".

فعندما شدد عمرو وجنده الحصار على حصن بابليون، وطلب الرومان المعتصمون بالحصن التفاوض، ومنحهم الامان أجابهم عمرو إلى طلبهم، على أن يؤدى كل واحد منهم للمسلمين" دينارا واجبة وبرنسا وعمامة وخفين[٣]".

واستضاف الرومان عقب هذا الصلح، جند عمرو بن العاص فقدموا عليهم، وقد ارتدوا البرود، ثم استضاف عمرو الرومان ومن معهم من القبط، وأمر أصحابه بلبس الاكسية، واشتمال الصما[٤].

فالبرانس من الاكسية الخارجية، وهى كل ثوب رأسه منه ملتزق به دراعه كانت أم ممطرا أو جبة[٥]، والبرنس قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام، وأنه من البسة الرجال وبعض النصوص تقول أنها من ألبسة النساء أيضا[٦]، أما قماشها فيكون من الخز، وتكون ألوانها غامقة "فقد ذكر برنس خز أدكن[٧]".

أما العمامة التى كان يرتديها العرب المسلمون فهى من ألبسة الرأس للرجال، قال عمر بن الخطاب "العمائم تيجان العرب" والعمامة هى مايلات على الرأس

١ - الكرياس والكرياسة - ثوب فارسي. انظر: ابن سيدة: المخصص: جـ١، ص٦٧.

٢ - جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٣، القاهرة ١٩٣٥، ص٦٠٩.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٣؛ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢١٦؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٠.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٦.

٥ - ابن سيدة: المخصص، جـ١، السفر الثالث، ص٨١.

٦ - سيد أمير على: تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٨٣، ص٣٨٩.

٧ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤، قسم ٢، ص٣٦.

تكويرا ويقال "تعمم بها واعتم وانه لحسن العمة" وقد تكـون تحتـها قلنسـوة أو لا تكون(١).

وكانت العمائم فى صدر الإسلام متنوعة من حيث حجمها وأشـكال تكويرهـا ولبسها وقد أوردت كتب الحديث والسيرة تفاصيل عن عمائم الرسول فقـد روى أن الرسول كان يعتم بعمامة معروفة باسم السحاب، وقد تنازل عنها للإمام على. قـال الإمام على: "عممنى رسول الله (ص) فسدلها بين يدى، وقيل أيضا "اعتـم فسـدل عمامته بين كتفيه(٢)".

ونوع آخر من العمائم اسمه (الكور) وهو "لـوت العمامة وادارتها على الرأس" ويقال "قد كارها كورا وكورها(٣)".

ويشير ياقوت الحموى إلى العمائم البورية(٤) "بأنه فى مدينة بورة على سـاحل بحر مصر قرب دمياط، تنسب إليها العمائم البورية" كمـا تشـير أوراق الـبردى العربية إلى العمائم الفائقة التى كان يرتفع سعرها فى مصر، كما كان فى خراسـان والعراق، والعمائة السوسية، والعمائم القطن والكتان، والعمائم الخز، وممـا يذكـر عن العمائم القطن، والكتان أنه كان يصل ثمنها فى مصر كل واحدة منـها بدينـار (أو درهم)(٥).

أما عن البرود التى كان يرتديها جند عمرو بن العـاص(٦)، فيذكـر دوزى "أن البرد كان معروفا كثيرا لدى فلاحى مصر فـى الأزمنـة الغـابرة - بنـاء علـى مشاهدات أسير مسيحى وصف رحلته - وأن فلاحى هذا القطـر، يرتـدون فـوق

---

١ - ابن سيدة: المخصص، جـ١، السفر الثالث، ص٨٢.

٢ - فنسنك: المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى جـ٤، القاهرة ١٣٦٤هـ، ص٣٤٤.

٣ - ابن سيدة: المخصص، جـ١، السفر الثالث، ص٨٢.

٤ - انظر : ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٥٠٦.

٥ - جروهمان: أوارق البردى العربية، جـ١، وثيقة رقم ٥٥٢ قطعة ب، ص٩٤.

٦ - اختلف اللغويون فى تعريفهم البردة ومزج كثير منهم بين شكلها وقماشها وألوانها، وقـد جمـع ابـن منظور كثيرا من ارائهم فقال البردة كساء يلتحف به، وقيل إذا جعل الصوف شقة ولها هـدب، فـهى بردة. وقال الأزهرى: وجمعها برد. وهى الشملة المخططة. قال الليث "وأما البرد فكساء مربع أسـود فيه صفر تلبسه الأعراب" انظر: ابن منظور: لسان العرب، جـ١، القـاهرة ١٩٤٧، ص٥٣؛ دوزى: المعجم المفصل، ص ص٥٥، ٥٦.

قميصهم الواسع الفضفاض بردة طولها عشر أذرع وعرضها ذراعان يلفــون بــها أجسامهم ويلتحفون بها فى الليل[١].

وقد عرف العرب المسلمون أنواعا عديدة من الأكسية منها.. العبــاءة.. التــى هى من ألبسة الرجال، وهى ليست من لباس الأغنيــاء[٢]، والعبــاءة هــى الثــوب الخاص بالبدو، وتكون قصيرة مفتوحة من الجهة الأمامية لا أكمـــام لــها، ولكــن تستحدث فيها تقويرات لأمرار الذراعين، وتكون فى الغالب منســوجة مــن نســيج غليظ مثل الصوف المبروم، وتكون مخططة على سطور بيضاء وسوداء[٣].

وكذلك كان من الاكسية الأزار، وهو قطعة قماش تلف على الجسم، ويختلــف طول الازار، فكان للنبى (ص) ازار من نسيج عمان طوله أربعة أذرع وشبر فــى ذراعين[٤].

والمشهور عن الأزار أن يلف على أسفل البدن لفا، ويلفح به أعــلاه ويعقــد عنــد المحزم عقده يسمى موضعها (الحجزة) والأزار ألبسة الرجال والنساء[٥].

وألوان الأزارالأكثر شيوعا الأبيض ثم الأزرق ثم اللون الــذى تغلــب عليــه الحمرة والصفرة.

ويصنع الأزار من الصوف، والقصب والخز أو من القماش الرخيص ويســمى بالفوطة[٦].

وكذلك من الأكسية القباء: "وهو لباس خارجى للرجال فارسى الأصل، وهـــو يطوى تحت الابط بصورة منحرفة[٧]".

وكانت أكمامه ضيقة فى زمن الرسول، والقباء فيه شق من خلفــه "وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عليه فروج من حرير [٨] "ومن أنواع القباء أيضــا

---

١ – المرجع السابق، ص٥٧.

٢ – ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤، ص٦٢.

٣ – دوزى: معجم أسماء الملابس عند العرب، ص٢٣٨.

٤ – ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣ن ص ص١٧، ١٨.

٥ – مصطفى جواد: مجلة التراث الشعبى، أزياء العرب الشعبية، العدد الثامن، ١٩٦٤، ص٥.

٦ – ابن منظور: لسان العرب، جـ٨، ص٣٧٣.

٧ – ابن الجوزى: أخبار الحمقى والمغفلين. بغداد – مطبعة البصرى، ١٩٦٦م، م٢، ص١٧٧.

٨ – الفروج: هو القباء الذى فيه شق من خلفه. ابن سيدة: المخصص جـ١، ص٨٦.

القباء المحشو[١]".

وكذلك البرنكان، ضرب من الثياب يلبسه من الاعراب البدو، عبارة عن برنكان من صوف سميك لونه لون البن الغامق طوله خمسة أو ستة أذرع، وعرضه ذراعان، وهذا زيهم فى النهار، أما فى الليل فهو فراشهم وغطاؤهم، ويلبسون هذا الثوب بضم نهايته العاليتين بمعونة سيخ من حديد أو خشب، وبعد أن توضع هاتان النهايتان على الكتف اليسرى يطوى الرداء طيات حول الجسم[٢].

وكذلك الجبة ضرب من مقطعات الثياب، والجبة أو الجباب من الثياب المفصلة، والمخيطة، ولها أكمام تحيط باليد، وكانت تلبس فوق القميص[٣].

والطيلسان نوع من الكساء يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء والقضاء يوضع على الرأس ويدلى طرفه من الخلف إلى ما بين الكتفين[٤].

أما عن اشتمال[٥] الصما فهى من الالبسة الخارجية، وهى شديدة الشبه بالبردة، ولكنها مخططة، وحواشيها غير منسوجة، وأنها تلبس على البدن فتكسوه كله، وقد لا يجعل تحتها لباس[٦].

وكان الرسول (ص) يرتدى شملة من النسيج الخشن، وهو ما نسميه عادة بالبردة المكونة من قطعة كبيرة من النسيج الصوفى السميك وهى شهباء اللون، وروى أن أبا بكر (رضى) لبس الشملة لزهده وتواضعه[٧].

ويذكر ابن عبد الحكم فى خطبة عمرو بن العاص عقب الفتح " فقام عمرو

---

١ – المحشو: هو ثوب واسع، وقيل هو الثوب المبطن. ابن سيدة: المخصص، جـ١، ص٨٦.

٢ – دوزى: المعجم المفصل، ص ص٦٢، ٦٣.

٣ – ابن الجوزى: تلبيس ابليس، ص١٨٤.

٤ – الهمذانى: المقامات: ط بيروت، ص٢٠٠.

٥ – المشمل ثوب يشتمل به واشتمل بالثوب إذا أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده، والشملة الصماء التى ليس تحتها قميص أو سراويل، وكرهت الصلاة بها. وقد نهى الرسول عن اشتمال الصماء واشتمال الصماء هو أن يشتمل بالثوب حتى يجلل جسده، ولا يرفع منه جانبا، يخرج من يده وهو التلفح. انظر ابن سيدة: المخصص، جـ١، السفر الثالث، ص٩٧؛ فنسنك: المعجم المفهرس، جـ٣، ص١٨١.

٦ – ابن سيدة: المخصص، ص٩٧.

٧ – دوزى: المعجم المفصل، ص١٩.

بن العاص على المنبر... عليه ثياب موشية كأن به العقبان تتألف عليه حلة وعمامة وجبة[١]".

ويذكر البلاذرى أنه عندما كان يتم توزيع العطاء على المسلمين، أحصى المسلمون فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف،وبرنسا أو عمامة، وسراويل، وخفين فى كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا[٢].

وهذا يوضح أن مصر لها شهرة فى صناعة النسيج "القباطى".

أما عن البسة القدم: وهى الخف "والخفاف قد تكون ساذجة أو ملونة[٣]" أما ألوانها فقد تكون سوداء ومنها الخف الذى لبسه الرسول، وقد تكون حمراء أو صفراء، ويروى أن الصحابة كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر، ويقولون هو من زينة آل فرعون أى أنها من مظاهر الترف[٤].

ويتحدث ابن اياس عن صنع الخفاف فى مصر فيقول: "وبها طير الحواصل وهو البجع الذى يعمل من جلده خفاف، ومن حواصله فراء، وتقوم مقام الفراء الفنك وهو غاية فى الدفء[٥]".

أما عن النعال فقد عرفها المصريون القدماء[٦] وأخذها منهم العرب[٧] ويشير ابن عبد الحكم إلى صناعة النعال السندية التى كانت تعمل على باب دار ابن هجالة "وهى الدار الملاصقة بمسجد الزنج[٨]".

أقبل المسلمون فى العصر الأموى على المنسوجات يسرفون فى اقتنائها، ويحملون النساج على التسابق فى أجادة نسجها، وابتداع الأنواع المختلفة منها، هذا

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص ص٧٢، ٧٣.

٢ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢١٦.

٣ - جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٣، ص٦٠٩.

٤ - ابن الجوزى: تلبيس ابليس، ص١٩٩.

٥ - ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٤.

٦ - كان المصريون القدماء يصنعون النعال من مواد مختلفة منها الحلفاء، والبردى، وسعف النخيل او الدوم، والقش والجلد، وقد احتفظت النعال المصرية بشكلها البسيط الذى عرفت به، وقد استخدم البردى بوفرة فى صناعة النعال أما بمفرده أو مع غيره من النباتات السالفة الذكر، انظر: محمد الصغير: البردى واللوتس، رسالة ماجستير، القاهرة ١٩٧٦، ص١٩٧-١٩٩.

٧ - انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص١٠٤؛ دوزى: المعجم المفصل، ص١٢٧.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٢.

وقد استمر التطور فى الألبسة العربية فى زمن الأمويين نظرا لرقى مستوى المعيشة، فازداد استعمال الألبسة المترفة، كما دخلت أساليب متنوعة من البلاد المفتوحة إلى المجتمعات العربية[١].

ويذكر أنه فى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان الذى عهد لابنه عبد الله امرة مصر بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان فى سنة (خمس وثمانين هـ/ سبعمائة وأربعة ميلادية) أصدر أوامره بمنع أهل مصر من لبس البرانس[٢].

ويذكر أن فى أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك عملت الجبب الموشاه، ولبس الناس جبابا وأردية، وسراويل وعمائم وقلانس[٣]، وفى أيام هشام بن عبد الملك عمل نوع من الخز أقبل الناس على استعماله، وقيل أن هشاما أحب الوشى، وأكثر من لبسه، فاجتمع عنده" اثنا عشر ألف قميص وعشرة آلاف تكة حرير[٤]".

أما النساء فى مصر فى العصر الأموى "فقد لبسن الغلالة[٥]، وتكون معصفوة" وفى زمن الأمويين حدث شئ من التطور فى الملابس يمكن إيجازه كما يلى:

- زادوا من طول القلانس[٦] - أدخل على الازار شئ من التطور بنوع من الخياطة[٧] - زادوا من طول الأكمام[٨].

وفى العصر العباسى ازداد الاهتمام بالملبس والتفنن فيه، وهذا أدى إلى أن يصبح اللباس الواحد له أشكال متعددة، فقد تفنن الناس بالقلنسوة الطويلة فى شكلها ولونها وطريقة وضعها وزخرفتها، "وكان العباسيون من أرباب المراتب زيهم السواد بالأقبية المولدة والخفاف ولهم منازل فى شد المناطق والسيوف وتقلدها[٩]".

---

١ - رتشارد ايتنكنهاوزن: فن التصوير عند العرب، ترجمة عيسى سليمان؛ وسليم طه التكريتى، وزارة الاعلام ١٩٧٣م بغداد، ص٣٤.

٢ - الكندى: الولاة والقضاة، ص٥٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢١٠.

٣ - محمد عبد العزيز مرزوق: المنسوجات الأثرية، بغداد ١٩٦٥م، ص١١٩.

٤ - تكة: التكة رباط السراويل وجمعها تكك. ابن سيدة: المخصص، جـ١، ص٨٤.

٥ - الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب أو الدرع، ولا يكون الا رقيقا. الهمذانى: المقامات، ص١٤٩.

٦ - الأصفهانى: الاغانى، جـ٢، ص٣٤٢.

٧ - مصطفى جواد: مجلة التراث الشعبى، عدد ٨، ص٦.

٨ - الكم من القميص. مدخل اليد ومخرجها انظر: ابن سيدة: المخصص، جـ١، ص٨٥.

٩ - الصابى: رسوم دار الخلافة، مطبعة العانى بغداد ١٩٦٤م، ص٩٠.

وقد أمر أبو جعفر المنصور أصحابه بلبس السواد والقلانس الطوال، حتى دخل عليه أبو دلامة فأنشد من الشعر[١]:

وكنا نرجى منحة من أمامنا ...... فجاءت بطول زاده في القلانس[٢]

تراها على هام الرجال كأنها ...... دنان يهود جللت بالبرانس

وقد اختلفت القلانس من حيث طولها وشكلها فى العصر العباسى،

ويذكر الكندى أن أول من خطب فى السواد عبد الرحمن بن معاوية بن حديج والى مصر من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور[٣].

وفى ولاية يحى بن داوود الخرسى سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م من قبل المهدى، أمر أهل مصر من الإشراف والفقهاء والأعيان، أن يلبسوا القلانس الطوال، ويدخلوا بها عليه فى يوم الاثنين والخميس بلا أردية[٤].

وقد ظلت القلانس الطوال مستعملة فى مصر عند الإشراف والفقهاء، وأهل البيوتات حتى عام ٢٣٠هـ/٨٤٥م، إذ يذكر الكندى: "أنه كان زى أهل مصر وجمال شيوخهم وأهل الفقة والعدالة منهم لباس القلانس الطوال، كانوا يبالغون فيها، فأمرهم ابن أبى الليث بتركها ومنعهم لباسها، وان يشبهوا بلباس القاضى وزيه[٥]"، ولذا فقد القى الشيوخ بقلانسهم حتى قيل بأن الصبيان والرعاع كانوا يلعبون بها فى الطرقات[٦].

ويذكر المسعودى[٧] أن المعتصم أعاد لبس القلانس تشبها بملوك الأعاجم،

---

١ – النويرى: نهاية الأرب، جـ٤، ص٣٦.

٢ – القلانس.. هى لباس مستدير مبطن من الداخل يوضع على الرأس، ويصنع من القماش أو الجلد، وتختلف القلانس بشكلها وهى تتنوع بحسب المناسبة التى تتخذ لها، كالقلانس المجالسية وهى التى تلبس فى مجالس المنادمة، وتكون موشاة ومذهبة كقلنسوة الوليد بن يزيد، وكان الناس لا يلبسون القلانس لوحدها بل يجعلون فوقها العمائم، وقد اعتبر ذلك من السنة، وكان الاعتناء بالقلنسوة كالاعتناء بالعمامة، وأن كانت الأخيرة أكثر شيوعا. انظر : الاصفهانى: الاغانى، جـ٧، ص٨٩؛ الهمذانى: المقامات، ص١١٩.

٣ – الكندى: الولاة والقضاة، ص١١٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص١٧.

٤ – الكندى: الولاة والقضاة، ص١٢٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٤٤.

٥ – الكندى: الولاة، ص٤٦٠.

٦ – المصدر نفسه، ص٤٦٠.

٧ – المسعودى: مروج الذهب، جـ٨، ص٣٠٢.

فلبسها الناس اقتداء به، وسميت المعتصميات، فكان من زى أهل مصر فى حوالى ٢٣٠هـ/٨٤٤م لبس القلانس الطوال[١].

وفى عهد المستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ/ ٨٦٢-٨٦٦م، صغرت تلك القلانس[٢].

أنواع الأقمشة التى عرفتها مصر :

كانت تنيس ودمياط تصنع الثياب الملونة والفرش[٣]، إذ كان فيها خمسة آلاف مغزل تصنع بصفة خاصة أقمشة القصب[٤] الملونة المستخدمة فى صنع العمائم والقلانس وملابس النساء، وكانت من خصائص الصناعة في تنيس البدنة[٥] التى يستخدمها الخليفة وهو رداء يخرج من المغزل كاملا لا يتطلب تفصيلا أو خياطة، وقد بلغ سعر الثوب المطرز بالذهب ألف دينار، والثوب غير المطرز بين مائة إلى مائتى دينار[٦].

كذلك جاء فى بردية ترجع إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادى ذكر "منديل تنيسى[٧]، وجبة خز خضرا" ودراعة خز خضرا، وخفتان خزا حمر، وكساء خزا أحمر، وسراويل وتكة[٨]" توضح إلى أى مدى بلغته مصر فى تطور الملابس وصناعاتها فى هذه الفترة.

---

١ - الكندى: الولاة، ص٢٦٠.

٢ - المسعودى: مروج الذهب، جـ٨، ص٢٠٢.

٣ - ابن الفقية: مختصر كتاب البلدان، ص٢٥٢، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٥١؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٧٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص٢٥، ٢٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ص٥٣، ٥٤.

٤ - القصب.. ثياب مصنوعة من الكتان، رقاق ناعمة، وغالى بعضهم فأدخل فيه مطروق الذهب والفضة انظر: ابن سيدة: المخصص، جـ١، ص٦٣.

٥ - البدنة: خرقةتخاط شبيه بالبرنس. ابن سيدة: المخصص، جـ١، ص٣٥؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٧٧.

٦ - ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص٢٥، ٢٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص ص٥٣، ٥٤؛ دائرة المعارف الإسلامية، مجلد٣، ص ص١٢١، ١٢٢.

٧ - تعنى كلمة منديل عدة معان فهى تعنى منديل، مشوش، وزرة عمامة (عمامة، شاش) منطقة، وبصفة عامة قطعة من كتان. انظر جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٦، ص١٠٦؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٧١.

٨ - جروهمان: أوراق البردى، جـ٦، ص٩٠.

وكان الصوف أهم المواد الأولية المستعملة فى نسيج الأقمشة، وهو أقدم المواد التى استعملها الإنسان فى النسيج، وقد ذاعت شهرة مصر فى نسيج الأقمشة الصوفية، فقد كانت تنسج من صوفها المرعز[١] العسلى غير المصبوغ.

وقد قيل أن معاوية لما كبر سنه، كان فى الشتاء لا يدفأ، فطلب من عامل مصر كساء منها "الصوف العسلية" يلتف بها حتى يدفأ[٢].

وقد ذكر ابن عبد الحكم[٣]: "لما بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، نزل بهذه القرية، فسميت به، وكان يعمل بها الأكسية العسلية من صوف المعز، تغنى فى الشتاء عن لبس الفراء".

والكتان[٤] أهم المواد التى استخدمها العرب فى النسيج، ومعظم الأقمشة الإسلامية القديمة منسوجة منه[٥]، وقد أطلق المسلمون عليها أسماء مختلفة منها القصب والدبيق[٦].

أما القطن فلم يستعمل بكثرة، ولكنه كان معروفا فى ذلك العصر، وقد استخدم فى نسيج بعض القطع[٧].

أما الحرير، فقد تقدمت صناعته على أيدى المسلمين فى هذا العصر، إذ لم يحرم الإسلام ارتداء الملابس الحريرية، حيث أبيح استماله للنساء من غير قيد أو شرط ورخص للرجال فى ارتداء الملابس الحريرية عند الضرورة، كما رخص أيضا لهم فى استعمال الثوب إذا كان به من الحرير قدر أصبعين أو أربعة أصابع[٨].

---

١ - المرعز: اللين من الصوف المنجد، والأكسية الصوف العسلية، التى كانت تعمل من صوف المعز انظر: ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٦٩، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٥.

٢ - ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٥.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٢؛ وانظر صوف القيس. المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٤.

٤ - يذكر ابن الفقيه: "قالوا والصوف والكتان لنا ليس لأحد من أهل البلدان مثلها" المختصر، ص٦٩.

٥ - ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص١٩٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٤، انظر ملحق الدراسة أشكال (٨)، (١٠).

٦ - قرية دبيق: هذه القرية من قرى دمياط وإليها ينسب الثياب الدبيقية، المنسوجة بالذهب، يبلغ الثوب مائة دينار، وكان الخلفاء يتغالون فيها، وإذ عمل بها العمائم الشرب المذهبة انظر: ابن الفقيه: المختصر، ص٢٥٢؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٤٧٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٤.

٧ - دوزى: المعجم المفصل، ص١٤.

٨ - محمد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامى، ص١٢٥؛ راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية، ص٣٨.

وقد ظهرت طريقة جديدة فى زخرفة الأقمشة، فإذا كان الثوب منسوجا من الكتان أو القطن أو الصوف يزين بأشرطة منسوجة من الحرير فى الثوب نفسه[١].

هكذا يتضح التطور فى الملابس العربية فى مصر منذ نهاية القرن الثانى الهجرى وبداية الثالث، فقد عاشت الطبقة الراقية مرفهة فى ملبسها الذى يتألف من سروال[٢] وقميص[٣]، ودراعة[٤]، وسترة وقفطان، وقباء، وقلنسوة بالإضافة إلى الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد فى بعض الأحيان[٥].

ولم يكن الأغنياء يتأنقون فى ملابسهم فحسب، بل كانوا يتسابقون كذلك فى الحصول على النادر والثمين منها، وكانت الفراء الغالية معروفة بين الأغنياء، ولم يكن لبسها وفقا على النساء، بل كان الرجال يلبسون المعاطف المصنوعة من الفرو[٦].

والأوراق البردية كثيرا ما تشير إلى أثمان الملابس المصرية[٧]، وأنواع منها مثل "الثياب البغدادية[٨]"، والتى كانت لها شهرتها وقتذاك فمنها الأزر والعمائم والمناديل التى وصلت إلى مصر لكى تقلدها فى الصناعة.

كذلك أشارت البرديات إلى عقال طبرى، وتيجان، وديباج مع أثمانهما بالدينار[٩].

وورد كذلك الخز، وهو نسيج حرير مصنوعا من سداه حريرية ولحمة صوفية، وهو نسيج مخملى ثقيل مثل القطيفة، ومصنوع من خيوط حريرية،

---

١ – ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٢٥٢؛ محمد عبد العزيز: الفن الإسلامى، ص١٢٣-١٢٥.

٢ – السروال: ان كلمة سروال مشتقة من الكلمة الفارسية شلوار وكانت مستعملة منذ العهود الإسلامية الأولى. انظر دوزى: المعجم المفصل، ص ص١٩٨، ١٩٩.

٣ – سعاد ماهر: مخلفات الرسول، ص٨٥، دوزى: المعجم المفصل، ص٣٠٢، جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، جـ٣، ص١٣٩.

٤ – ضرب من الثياب التى تلبس. وقيل جبة مشقوقة المقدم والمدرعة ضرب آخر لا تكون إلا من الصوف. ابن منظور: لسان العرب، جـ٢، ص٨٢.

٥ – د. حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص٢٢٤.

٦ – ابن سعيد: المغرب، ص١٥٠.

٧ – جروهمان: أوراق البردى، جـ٦، ص٩١.

٨ – المرجع نفسه، جـ٥، ص١٥٤.

٩ – المرجع نفسه، جـ٦، ص١٠١.

ويستعمل كملابس للتدفئة وقت البرد، وكان هذه النوع من النسيج له منزلة خاصة في بلدة السوس بإقليم فارس، ومعروفا با "الثياب السوسية من الخز" ويذكر الخز أحيانا في أوراق البردى[1].

وكانت النساء في مصر تفضلن لبس الثياب الزاهية الألوان، المصبوغة بالطيب والزعفران[2] في حين كان يفضل الرجال لبس الثياب المصنوعة من الكتان الناعم النقى اللون.

ومن ملابس النساء التى وردت في الوثائق البردية[3] "الغلائل القصبية" إذ جاء ذكرها في وثيقة ترجع إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وهى ثياب تتحلى بها النساء، ومصنوعة من الأنسجة البيضاء الرقيقة، وهى من مميزات مصر[4]. وتتغير أثمانها بشكل ملحوظ.

وإذا كانت مصر قد قطعت شوطا كبيرا في صناعة النسيج فمازالت بين أيدينا قطعا من الصوف، والكتان، بزخارف منسوجة، تمثل رسوم حيوانية أو نباتية أو آدمية، تظهر فيها تأثيرات ساسانية، وهى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى[5]، وهذا يدل على وصول تأثيرات فارسية خاصة في خلافة المعتصم العباسي.

الطعام والشراب :

اختلفت الأطعمة عند العرب المسلمين من أطعمة قائمة على منتجات الحيوان والطيور إلى أطعمة قائمة على النباتات، فعند الفتح كان طعامهم الثريد[6] والعَراق، إذ يقول ابن عبد الحكم[7] "فلما فرغ القبط من صنيعهم أمر عمرو بن العاص

١ – أوراق البردى العربية، مجموعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، وثيقة رقم ٨٣ على الظهر س٦؛ جروهمان: أوراق البردى، جـ٦، ص١٠٤.

٢ – آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ٢، ص٢٥٩.

٣ – جروهمان: أوراق البردى العربية، وثيقة رقم ١٣٩، جـ٦، ص٧٣.

٤ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤١٠.

٥ – انظر: ملحق الدراسة، شكل رقم (٨، ٩).

٦ – الثريد: يصنع من اللحم، واللبن والخبز انظر: ثلاثيات مسند، ص٣٠.

٧ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦٠. وفي موضوع آخر يذكر ابن عبد الحكم "العرق من اللحم" انظر: فتوح مصر، ص١٧٤، ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٣٩٦؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٩٣؛ جرجي زيدان: تاريخ التمدن، جـ٥، ص٩١.

بطعام، فصنع لهم، وأمرهم أن يحضروا لذلك. فصنع لهم الثريد والعُراق.. فجعل الرجل من العرب يلتقم اللقمة العظيمة من الثريد وينهش من ذلك اللحم فيتطاير على من إلى جنبه".

وعرف العرب ما يستطاب من الطعام من الألبان والأجبان، إذ أن مصر بها من لحم الضأن، والبقر، والماعز مالا يعادله غيره فى قطر من الأقطار من ناحية الطعم واللذة فى المأكل[١].

ولذا فيمكن القول بأن العرب بعدما أخذوا فى الاندماج مع المصريين، وخاصة بعد نزولهم للريف المصرى، واتخاذهم الزرع معاشا، ألفوا عادات المصريين[٢]، وخاصة فى تربية الماشية من الأبقار العظيمات القدود، والأغنام المستطابة اللحوم، والغزلان والأرانب[٣].

وتشير أوراق البردى العربية إلى مهنة الجزار الذى يتولى الذبح على الشويعة الإسلامية[٤]، ففى العقد رقم ١٢٨، المؤرخ فى شهر شوال سنة ٢٦٤هـ ورد اسم محمد بن راشد الجزار[٥]، وكانت هذه الذبائح تذبح فى المذبح، وليس على أبواب حوانيتهم حتى لا يضيق الطريق، وعدم تلويثه بالدم والروث، ومنعا من نجاسة ثياب الناس[٦]، فضلا عن هذا فكان يفرد أمكنة للحوم الماعز عن لحوم الضأن، ولا يخلط بعضها ببعض، وينقطون لحم الماعز بالزعفران ليتميز عن غيره[٧].

وتشير أوراق البردى العربية إلى مدى الإقبال على شراء اللحوم من الأسواق وما يدفع فيها ثمنا لذلك[٨]، إذ تبين طبيعة المراسلات الخاصة بشراء اللحوم، ومدى

---

١ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٩

٢ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٨٢

٣ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣١٠.

٤ – انظر: حكم الشرع ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٦١.

٥ – جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، ص٧٩.

٦ – ابن الاخوة: معالم القربة، ص١٦٣.

٧ – المصدر نفسه، والصفحة.

٨ – بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى (رقم ٤١٧)؛ أوراق البردى العربية، جـ٥، ص٥٥؛ بردية ترجع إلى القرن الثالث هـ/ التاسع الميلادى (رقم ٤٥٢)، أوراق البردى العربية، جـ٦، ص١٩٠.

العرض والطلب من حيث المطالبة فى سداد قيمة هذه اللحوم[١].

- (بسم الله الرحمن الرحيم)
- (أدفع) إلى اشيم بن المحب فى نفقته
- الـ (الشـ)ـهرين من اللحم رصل
- أن شاء الله وكتب فى فمنوت
- سنة سبع ومائتى
- رطل

كذلك تشير الأوراق البردية إلى منتجات الحيوان[٢] من إرسال الجبن، وهذا ما يظهر فى الطراز رقم (١٦٥)، والذى يرجع تاريخه إلى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى[٣]، ومن أنواع الجبن المشار إليها فى هذه الفترة نوع من الجبن يسمى/ (الجبن الجزائرى)، إذ يذكر النص المؤرخ فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، "بسم الله الرحمن الرحيم: ادفع إلى غلام الدار ستة أرطال جبن منها رطلين جزائرى[٤]"، ومن المعروف أن أهل مصر كانوا يكثرون من أكل الألبان، وما يعمل منها، وخاصة الجبن[٥] الذى كان يصدر إلى البلاد الشامية، ومنه الجبن الحالوم، والجبن الاقفهسى[٦].

ويشير المقريزى إلى مآدب الطعام التى كانت تعد فى أيام أحمد بن طولون فيقول: أن مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره، وغيرها بذبح فيها البقر والكباش، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة فى اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران على القدر، وكانت تعمل فى داره، وينادى من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر، وتفتح

---

١ – بردية رقم ١٨٣ بتاريخ التاسع من فمنوت ٢٠٧ هجرية (الخامس من مارس ٨٢٣ ميلادية، جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ٥، ص ص١٤٨، ١٤٩.

٢ – بخصوص إنتاج الجبن فى مصر انظر: جروهمان: أوراق البردى، جـ٣، ص٢١٠؛ وبخصوص الأنواع المختلفة للرطل. انظر: جروهمان: أوراق البردى، جـ٢، ص١٧٢.

٣ – جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، ص ص١٥٠، ١٥١.

٤ – المرجع نفسه، جـ٥، ص١٥٢.

٥ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٥.

٦ – ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٢.

الأبواب، ويدخل الناس الميدان وابن طولون ينظر الناس فى المجلس الذى تقدم ذكره، ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون[١].

هكذا تفنن العرب فى تذوق المأكولات المصرية بعدما كان طعامهم يعتمد على الثريد فى بداية الأمر، ويذكر عبد اللطيف البغدادى: "أنه من غريب الطعام المعروف فى مصر خلط الدجاج بأصناف من الحلوى مثل الفستق أو الخشخاش أو ماء الورد ثم يبتل، ويسمى الفستقية والبندقية والخشخاشية أو الوردية" وكثيرا ما يستعملون الفستق فى أطبختهم... ويتخذون منه هريسة ثم تسمى هريسة الفستق وهى لذيذة جدا، ومسمنة وموادها لحم الدجاج مسلوق منسر[٢]"

وقد عرف العرب أكل الأسماك إذ أن مصر بها كثير من البحيرات مثل "بحيرة الفيوم[٣]" التى يكثر فيها أنواع الأسماك، وبحيرة بوقير[٤]، وبحيرة نستروه[٥]، ويذكر القلقشندى "وليس بها غير صيد السمك".

ويذكر ياقوت الحموى أن[٦] "تنيس بها من السمك تسعة وسبعون صنفا" من هذه الأسماك سمك البورى نسبة إلى مدينة بورة التى تقع على ساحل بحر مصر قرب دمياط[٧].

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣١٦.

٢ – عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص٤١، ٤٢.

٣ – وهى بالقرب من الفيوم بين الشمال والغرب منه. القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٢.

٤ – وهى بحيرة ماءها مالح تخرج من البحر الرومى بين الإسكندرية ورشيد. القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٣.

٥ – وهى بحيرة ماءها مالح بالقرب من البرلس فى آخر بلاد الأعمال الغربية، وهى قريبة من بلدة اسمها نستروه. القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٣.

٦ – ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٥٣.

٧ – المصدر نفسه، جـ١، ص٥٠٦.

يذكر القلقشندى أن بحيرة تنيس هى بحيرة متصلة بالبحر الرومى أيضا بآخر عمل الدقهلية والمرتاحية، وفيها مصب بحر أشموم المتفرق من الفرقة الشرقية من النيل، ولذلك يعذب ماؤها فى أيام زيادة النيل. انظر:

القلقشندى : صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٣؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص١٨١؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٣؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٥٤.

وذكر المسعودى: "أنه فى نيل مصر... تلك السمك المعروف بالرعاد وهو نحو الذراع، إذا وقعت فى شبكة الصياد رعدت يداه وعضداه[١]".

ويذكر ابن الفقيه "أن بمصر الفرس الذى يكون فى النيل يأكل التماسيح وغيره من الدواب، ويربى هذا الفرس، إذا كان فلوا في البيوت من النساء والصبيان، وفى سنة شفاء من وجع المعدة، والنوبة والحبشة تتعالج به لأنهم يأكلون الأطعمة الغليظة فيشرفون على الموت من وجع المعدة فيأخذون من هذا ويتعالجون به فيبرؤون[٢]".

والأسماك من الأطعمة المحببة عند أهالى مصر، فقد لاحظ المقدسى[٣] "أنهم إذا رأوا شاميا قد اشترى سمكا اتبعوه، فإذا رمى رؤوسها أخذوها" وهذا عند العوام نتيجة الحاجة إلى الطعام، ويذكر أيضا "من واظب فى الفسطاط على أكل السمك جرب جربا لا يفارقه سبع سنين". وفى الحقيقة أن الأمر لا يعدو أن يكون إصابة بالحساسية أو أحد الأمراض الجلدية البسيطة التى تنتج عن أكل السمك وخاصة فى الصيف[٤].

ويشير المقريزى إلى أن كثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طريا ومالحا[٥].

ومن الملاحظ أن مهنة قلائين السمك قد وجدت فى المجتمع المصرى على حسب ما تشير إليه البرديات العربية[٦]، إذ حملت إحدى البرديات اسم على بن السماك، ويفضل أهل مصر من أنواع الأسماك السمك المالح والمقلى فى الزيت، وخاصة زيت القرطم، فإنه أطيب من زيت السلجم، هذا بالإضافة إلى السمك المشوى[٧].

---

١ – ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٦٦، ٢٥١، ٢٥٢؛ المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٣٩٤، ٣٩٥؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص ص٣٥٥، ٣٥٦؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٣٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٣.

٢ – ابن الفقيه: المختصر، ص٦٣.

٣ – المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٠٥.

٤ – المصدر نفسه، ص٢٠٩.

٥ – المقريزى: الخطط جـ١، ص ص٤٥، ٤٦.

٦ – جروهمان: أوراق البردى، جـ١، ص١٦٧.

٧ – ابن الأخوة: معالم القربة، ص ص١٧٨، ١٧٩.

هذا وقد توفرت فى البيئة المصرية الأطعمة النباتية فيقــول القلقشــندى: "أمــا زروعها فيزرع فيها من أنواع الحبوب المقتاتة وغيرها كــالبر والشــعير والــذرة، والأرز والباقلى، والحمص والعدس والبسلا واللوبيا، والسمسم[١]".

وقد أقبل العرب على تناول الطعام البقولى خاصة من العدس، إذ يذكر الكندى، أن قضاء مصر سنة ٩٠هـ/٧٠٩م، كان يتولاه عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى، من قبل قرة بن شريك، فنزل به صديق، وذلك بعدما انتهى مــن طعــام الغذاء، ولكنه أمر جاريته بعدما سأل صديقه بإعداد الغذاء للصديق مرة أخرى، فأتت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء فقال: أبلل وكل[٢].

ومن النباتات والخضروات التى تفنن العرب فى طبخها القثاء علــى اختــلاف أنواعها، والملوخيا، والقلقاس، والباذنجان، والبقول والفجل[٣]، كذلــك عــرف فــى صعيد مصر الفلفل والخيار[٤]، وقد جاء ذكر الخضروات فى البردية المؤرخة فــى ١٨ صفر سنة ٢٨٨هـ/١١ فبراير ٩٠١ فهى عن بيع ٣¼ أردب من الفجل[٥].

وفى الريف المصرى كان الفلاحون يصنعون نوعا من الكعــك يعمــل مــن جريش الحنطة، ويجفف، وهو أكثر أكلهم طوال السنة كلها[٦].

وكان الطحانين يعملوا على غربلة الغلة من الــتراب وتنقيتــها مــن الطيــن وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، ولهم أن يرشوا على الحنطة ماءا يسيرا عند طحنها، فإن ذلك يزيد الدقيق بياضا[٧].

ودليلنا على قيام العرب المسلمين باتخاذ هذه المهنة فى مصر، هو عقد الــزواج المؤرخ فى شهر شوال سنة (٢٦٤هـ/٨٧٨م)، فقد جاء فى شهادة العقد سرى بــن

---

١ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٧: المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٠١.

٢ – الكندى: الولاة والقضاة، ص٣٣١؛ ويذكر ابن ظهيرة: "أن أكثر الرهبان عمش العيون لمداومتهم أكــل العدس" الفضائل، ص١٣٤.

٣ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٧؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٠٢، ١٠٣.

٤ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٣٥٧.

٥ – جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، طراز رقم ٢٣٢، ص٣٠-٣٣.

٦ – يذكر المقريزى: "وعند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكليم السنة كلها" انظر: الخطط، جـ١، ص٤٥.

٧ – ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٥٢.

عبد الله بن يحى الطحان[1] وكذلك فى العقد المؤرخ فى القرن الثالث الهجرى، فقد جاء فيه "أبو شجاع الخباز[2]".

وتزيدنا الأوراق البردية وضوحا بشأن حركة الإمداد بالقمح[3] ففى العقد المؤرخ من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى وخاصة فى الأشمونين ورد فى البردية[4].

- فانك تعلم أنا ايما ثمن.
- السوق نشترى.
- الخبز فلم تجئنا به.
- وتركتنا وانت.
- تعلم شدة حاجتنا.
- إلى ويبه واحدة قمح[5].

وهناك كثير من الخطابات التى تشير إلى إرسال القمح، والتى ترجع إلى نهاية عصر الولاة[6]، ومحاولة نقله من أماكن زراعته إلى القرى والمدن التى تحتاجه لصناعة الخبز[7].

ومن الأطعمة التى عرفها العرب فى مصر النيدة، وهى تصنع من القمح، وهى غليظة القوام، متوسطة الحلاوة، وتباع بسعر الخبز[8].

ويذكر البلاذرى[9] بشأن توزيع العطاء، أن عمر بن الخطاب "أمر بجريب من طعام فعجن ثم خبز ثم برد بزيت، ثم دعا بثلاثين رجلا فأكلوا منه غذاءهم حتى

١ - جروهمان: أوراق البردى، جـ١، عقد رقم ١٢٨، ص٧٩.
٢ - المرجع نفسه، جـ٦، عقد رقم ١٩٩، ص٢٠٩.
٣ - المرجع نفسه، جـ٥، طراز رقم ٦٢٠، ص٣٨.
٤ - المرجع نفسه، جـ٥، طراز رقم ٦٤٦، ص٤١.
٥ - الويبه المصرية زنتها أربعون رطلا إلى أربعة وأربعين، ومازاد على ذلك بحسابه من الويبة يعلم قدر الاجرة على ذلك". انظر: ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٥٣.
٦ - انظر: جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، طراز رقم ٣١٢، ١٤١، (طراز رقم ٦٤٠) جـ٥، ص١٤٢.
٧ - المرجع نفسه، جـ٥، (طراز رقم ٢٩٦)، ص٨٧.
٨ - عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار، ص ص٤١، ٤٢؛ ويذكر ابن اياس أنها عرفت فى مصر مع السيدة مريم "فألهمها الله أن غلت النيدة وأطعمت منها عيسى عليه السلام" انظر: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ٤٢.
٩ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٤٤٦.

اصدرهم ثم فعل بالعشى مثل ذلك، فقال يكفى الرجل جريبان كل شهر، فكان يوزق الناس الرجل والمرأة والمملوك جريبين كل شهر" ومن طرائف الطعام، أن الرجل إذا دعى على صاحبه يقول له: رفع الله جريبك أى قطعهما عنك بالموت.

ويشير الكندى إلى الكرم الذى تحلى به عبد العزيز بن مروان من اغداقه فى الطعام على الفقراء، فيقول: "كان لعبد العزيز بحلوان ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وهى ملأنة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين ومعها الخبز... وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر[١]".

ويشير ابن اياس[٢] إلى منافع الطعام من الخيار البلدى والقثاء والخس والفقوس، والفجل الذى له منافع مفيدة فى هضم الطعام، بالإضافة إلى أنواع من الخضروات منها الجزر، والكرنب، والقلقاس، والفول الأخضر والحمص، والسلق، والبامية، والملوخية، والرجلة[٣].

كذلك الأطعمة التى تعتمد على النباتات الزيتية الزيتون الفيومى وهو غاية فى الكبر والطعم[٤] والخس، والهجليج، والسمسم والعرعر[٥].

---

١ - ويذكر الشاعر فى هذا الكرم:

كل يوم كأنه يوم أضحى ... عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات ... كل يوم تعدها ألف قدر

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

أعنى ابن ليلى عبد العزيز بباب ... اليون تعدو وجفانه رذما

الكندى: الولاة، ص ص٥١، ٥٢؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٩٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٢٢.

٢ - ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٢.

٣ - المقريزى: الخطط جـ١، ص١٠٢، ١٠٣.

٤ - تلاحظ من دراسة الأوراق البردية، وخاصة فى الطراز المؤرخ من القرن الثالث أو الرابع الهجريين/ التاسع أو العاشر الميلاديين أن شجر الزيتون كان يزرع فى مصر، ولا سيما فى الفيوم، ويستخرج منه زيت الزيتون، ألا أن أجود أنواع زيت الزيتون كان على الرغم من هذا يرد من سورية، حيث كانت مدينة نابلس مركز الإنتاج زيت الزيتون أو يبدو أنه الزيتون الفلسطينى الذى جاء ذكره فى البرديات. انظر: أوراق البردى العربية دار الآثار المصرية بالقاهرة، طراز رقم ٩٤٦، س٤، جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، طراز رقم ٣٢٦، ص٨٤؛ القلقشندى: "ولا يستخرج منه زيت البته، وإنما يؤكل ملحا..." وفى موضع آخر يذكر: "بأنهم كانوا يستخدمون زيت الزيتون فى الطعام" انظر: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٨، ٣١٢؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٠٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٤.

٥ - وليم نظير: الثروة النباتية، ص٩٥.

ومن الطبيعى أن هذا الطعام كان يوضع فيه ملح الطعام الذى كان يأتى من وادى هبيب، إذا كان يجلب مه الملح الأندرانى وهو على هيئة الواح من الرخام[١].

أما عن التوابل المستخدمة فى نكهة الطعام، فإننا نجد الكثير من المعلومات عن هذه التوابل، وخاصة عن الكمون[٢]، والكسبرة (كزبرة)[٣] ومن الأعشاب التى تستخدم كمشروب فى مصر الكرويا والتى أشارت إليها المصادر البردية[٤].

والحلوى التى عرفها العرب بحكم اندماجهم فى الحياة المصرية العسل الذى يستخرج من بنها، روى الليث بن سعد، قال: بارك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عسل بنها[٥]، ويقول القلقشندى: "وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من... العسل الذى لا يساوى حسنا، ولا يشبهه غيره من سائر الاعسال[٦]".

وتشير البرديات العربية إلى مدى الحاجة فى طلب العسل الذى يصنع منه شراب يسمى الفقاع، فى وثيقة مؤرخة من القرن الثانى أو الثالث الهجريين/ الثامن أو التاسع الميلاديين[٧].

ويذكر ابن الفقيه: "ومن مفاخرهم شراب العسل، وهو يختار على الخمر البابلى للذته وطيبه وشده أخذه وموضع الأعجوبة[٨]".

ويقول القلقشندى عن الفاكهة: "ومن محاسنها أن فاكهتها لا يدوم نوع منها فى جميع السنة فيمل ، بل يأتى كل نوع منها فى وقت دون وقت، فتتشوق النفوس إلى

---

١ – ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٨.

٢ – جروهمان: أوراق البردى، جـ٦، طراز رقم ٤٢٣، طراز رقم ٤٤٤، ص١٨٣.

٣ – المرجع نفسه، جـ٦، طراز رقم ٤٢٠، ورقم ٤٢٣، ورقم ٤٢٦، ص١٧٥، ١٨٢.

٤ – المرجع نفسه، جـ٦، رقم ٤٢٣، ص١٨٣.

٥ – ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٥٠١؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٢.

٦ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٩؛ ابن خلدون، العبر جـ٢، ص١٤٦، ١٤٧.

٧ – نص البردية: بسم الله الرحمن الرحيم

– اخرج مما فى ايديك من العسل

– لعمل فقاع لابى ذكر ابقاه الله

– قسـ(ـط واحد ....)

جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، طراز رقم ٧٣، ص١٤٧.

٨ – ابن الفقيه: المختصر، ص٦٦، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١٣٣.

طلبه، ويكون لقدومه بهجة، ولا يعترض ذلك بدوام أجل الجنة[١]".

ويذكر النويرى أن فى كل شهر من شهور القبط صنف من المأكول والمشروب والمشموم، فيقال: رطب توت، ورمان بابه، وموز هاتور، وسمك كيهك، وماء طوبة، وخروف أمشير، ولبن برمهات، وورد برمودة، ونبق بشنس، وتين بؤنة، وعسل أبيب، وعنب مسرى[٢].

وفى أرض الواحات يستطاب من الأطعمة التمر والزبيب والأعناب[٣]، وفى أسيوط يخرج منها سائر أنواع السكر، والسفرجل[٤]، وهى التى استحسنها هارون الرشيد وفي أسوان التمور المختلفة، وأنواع الأرطاب التى فاقت أرطاب العراق[٥].

ويذكر الادفوى "أنه ليس نوع من أنواع التمر بالعراق إلا فى صعيد قوص مثله، وفيه ما ليس فى العراق، وأنه لا يوجد تمر يصير تمرا قبل أن يكون رطبا الا بالصعيد[٦]".

ومن ثمرة البسر، والرطب والتمر بأنواعها يستخرج منه العجوة[٧]. كذلك وجد فى صعيد مصر من الفاكهة العنب الذى يبالغ فى وصفه الادفوى بالإضافة إلى الرطب الأخضر "عجيب المنظر، حسن المخبر"، وكذلك البطيخ كثير الحلاوة، والبطيخ الأخضر منه كبير الحبة، بحيث ما يكاد يستقل بحمل الحبة الواحدة الا الرجل الشديد القوة[٨].

ومن أنواع البطيخ الذى اختصت به مصر، البطيخ الصيفى الذى نقل من الهند إلى مصر، والبطيخ الغيتاوى، والبطيخ العبدلاوى نقل زراعته إلى مصر

---

١ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٩.

٢ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٣٥٦.

٣ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤٧.

٤ – ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص ص١٩٣، ١٩٤؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٢٠.

٥ – ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص١٩١.

٦ – الادفوى: الطالع السعيد، جـ١، ص٢٦-٢٨؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص١٨٩، ص ص٢٧، ٢٨، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤١.

٧ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٨٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤١؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٥٤.

٨ – الادفوى: الطالع السعيد، ص٢٦، ٢٨؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٨٩.

عبد الله بن طاهر سنة مائتين من الهجرة فنسب إليه وقيل العبدلى، والبطيخ الضميرى(١).

ومن المأكولات التى تغنى عن أكل الحلوى عند العرب التين البرشومى، والجميز والبرقوق، والنبق، واللوز الأخضر، والموز الدمياطى، والحمضيات منها الانزج، والحماض والكباد، والنارنج، والليمون على اختلاف أنواعها(٢)، وخاصة الليمون التفاحى "يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه(٣)". ومن الفواكه الخوخ الزهرى، والعنب البحيرى، وهو أصدق حلاوة من العنب الشامى، وبها التفاح السكرى، والكمثرى البلدى، والرمان المنزلاوى، والخوخ المشعر الفولى وهو غاية فى الحسن(٤).

وقد اختص ياقوت الحموى مدينة أسيوط بأنها مدينة السكر(٥) إذ هو يستخدم كثيرا فى طعام المصريين على حسب ما تشير إليه البرديات، إذ تشير إحدى وثائق القرن الثالث الهجرى، وهى تختص بتذكرة حساب عن مأكولات طعام جاء فيها اللحم واللوز والزيت والسكر(٦).

ومن تتبعنا لعادات أهل مصر فى المأكولات الشعبية، نجد أن الليث بن سعد فقيه مصر، كان يجلس بحضرته أصحاب الحوانيت والناس من عامة أهل مصر مهما كبرت حاجته أو صغرت، فكان فى استقبالهم ويطعمهم فى الشتاء الهرائس بعسل النحل، وسمن البقر، وفى الصيف اللوز بالسكر(٧)، فالحلوى المصنوعة من

---

١ – ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٢، ١٤٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١٣٤.

٢ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٣٠٨؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤١.

٣ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٧٣.

٤ – ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص٤٠، ٤١.

٥ – ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص١٩٣.

ويشير الكندى إلى زراعة القصب فى اصطبل قرة بن شريك إذ يقول "فى سنة ٩٣هـ أحيا قرة بن شريك الاصطبل من الموات وغرسه قصبا، فكان يسمى اصطبل قرة، ويسمى أيضا اصطبل القاسى يعنون القصب، كما يقولون قاسى مروان"

الكندى: الولاة، ص٦٥، ابن ظهيرة: الفضائل، ص١٣٤.

٦ – جروهمان: أوراق البردى، جـ٦، طراز رقم ١١٨، (٤١٧/٤١٨) ص ص١٦٨، ١٦٩.

٧ – ابن خلكان: وفيات الأعيان: جـ٤، ص١٣١.

السكر عرفت منها أنواع عديدة مثل خبيص اليقطين، وخبيص الجـــزر والورديــة المصنوعة من الورد، والزنجبيلة المصنوعة من الزنجبيل[١].

ومن أطعمة العرب رغيف الصينية، وهو نوع من الفطائر الكبــيرة المحشــوة باللحم، والفستق، وهو غذاء مفرط فى تكلفته بحيث يكون قاصرا على المترفـــهين، فهو كما يذكر البغدادى "يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف إلى متصيداتـــهم النائية ومتنزهاتهم[٢]".

وكان من أنواع الحلوى التى عرفت فى العصر الطولونى الفالوذج واللوزينـــج وتصنع بزيت اللوز والقطائف والهرائس من العصيدة[٣].

ولم يكن خماروية بأقل من أبيه كرما، فقد بلغت نفقات مطبخه الـــذى عــرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرون ألف دينار فى كل شهر، وقد عين لـــدار الحــرم التى بناها لنساء أبيه الطهاة والخدم وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التى بلغت مـــن الكثرة إلى درجة أن الطهاة كانوا يعطون ما بقى منها للعامة[٤].

وفى ذلك العهد رخصت أسعار أنـــواع الاطعمـــة الممتـــازة مثـــل الفـــالوذج واللوزينج والقطائف والهرائس، وقطع الدجاج، ولحم الضأن أو الجـــدى فـــأصبحت تباع بدرهم واحد أو درهمين[٥].

ومن الأطعمة التى عرفت فى عهد الأخشيديين "الحماضية" وهى تصنـــع مـــن الحماض الذى يستخرج من الأترج، وهو نوع من البرتقال يلقى بـــه فـــى العنــب الأخضر ثم يضاف إليه ماء الورد[٦]، كما كثرت فى الأسواق الأماكن الخاصة ببيــع الشواء، وكان معظمه يباع نيئا ويخلط بلحم الماعز[٧].

---

١ - عبد اللطيف البغدادى: الأفادة والاعتبار، ص٤٢،
خبيصة البقطين: هى الحلوى التى تصنع من دقيق الحنطة، مع دهن اللوز أو الشيرج، يضاف إليها بعد الطبخ، وترفع على النار لتجمد. انظر: ابن الأخوة: معالم القربة، حاشية، ص١٨١.

٢ - عبد اللطيف: الأفادة والاعتبار، ص٤٣.

٣ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣١٨.

٤ - المصدر نفسه، والجزء، والصفحة.

٥ - ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٨١-١٨٤؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣١٨.

٦ - ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، نشر ذكى محمد حسن، جـ١، القسم الخاص بمصر، ط جامعة القاهرة ١٩٥٣، ص٣١.

٧ - المصدر نفسه، ص٣٣.

ويذكر الثعالبى[1] دعوة بعض الشعراء أصدقاءهم إلى وليمة يصفونها فى قصائدهم شملت ألوانا من الشواء، والحلوى والشراب، وما تخلل الوليمة من ضروب اللهو والسرور، وسماع الموسيقى، والغناء، فضلا عن التفنن فى تزيين السماط بالورد والرياحين.

وكان الأغنياء فى عهد الأخشيديين يسرفون فى تقديم ألوان مختلفة من الطعام فى أوان جميلة من الخزف على درجة كبيرة من دقة الصنع وحسن الرونق[2]، ولا أدل على هذا من تطور صناعة الخزف فى مصر تلك الأطباق التى ترجع إلى القرن الثالث الهجرى بالمتحف الإسلامى المصرى[3].

هكذا اندمجت التقاليد العربية فى المأكل وتأثرت إلى حد بعيد بطباع المصريين.

الشراب :

"ومن محاسن مصر نيلها، وهو من أجل محاسنها فى حلاوته وسرعة هضمه للأكل[4]".

إذا أن أهل مصر اعتمدوا فى شربهم على مياه النهر، أما إذا انحسر فالاعتماد على مياه الآبار، وإلى ذلك يشير المسعودى بقوله: "صار شربهم من الآبار، وصار النيل على نحو يوم منهم[5]".

وإذا كان أهل مصر قد اعتمدوا فى شربهم على ماء النيل، فقد عرف الأغنياء منهم، ولا سيما فى العصر الإخشيدى، الماء المثلج، وكان الثلج بمصر يستعمل فى تبريد الماء والمشربات، ولكن الظاهر أنه لم يكن يصل إلى مصر كل يوم بانتظام[6].

---

١ – الثعالبى: يتيمة الدهر، جـ١، القاهرة ١٣٥٣هـ، ص ص٣٥٤، ٣٥٥.

٢ – ابن سعيد: المغرب، ص٩.

٣ – انظر: (ملحق الدراسة، طبق من الخزف صنع فى مصر يرجع إلى القرن الثالث الهجرى)، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة. شكل رقم (٧).

٤ – وقد ذكر المقريزى: "عذوبة طعمه وحسن أثره فى هضم الغذاء وأحداره عن المعدة بحيث أنه يحدث بعد شربه جشاء "المقريزى: الخطط جـ١، ص٦٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٦؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة ص١٣٧.

٥ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص١١٦.

٦ – الغزولى: مطالع البدور فى منازل السرور، ط الأولى مصر ١٢٥٩/١٣٠٠هـ جـ٢، ص٤٧١؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٨٨.

ومن المشروبات التى عرفها العرب باستخدام ماء النيل "عصير الليمون" يقدم كمشروب ترفيهى بالإضافة إلى التداوى[١] كعلاج لبعض الأمراض، وشراب الجلاب[٢] وشراب اللينوفر[٣] وشراب الورد الطرى، وشراب ورد مكرر، وشراب التفاح الساذج، وشراب التمر هندى، وشراب النعناع، وشراب الخل، وقد شملت شراب الجلاب وماء الفاكهة أو ماء الزهر، ومن الاشربة شراب الفقاع الذى ورد ذكره فى الأوراق البردية، فهو يستخدم فى هضم الطعام[٤].

المآتم والأحزان :

انفردت جبانة مصر بإطلاق لفظ القرافة عليها، وأصبحت هذه التسمية علما على الجبانات فى مصر دون غيرها من البلاد الإسلامية التى عرفت فيها أماكن دفن الموتى بالمقبرة[٥]، وبالجبانة[٦].

وتقع قرافة مصر عند سفح المقطم[٧]، وقد سميت بالقرافة نسبة إلى طائفة من

---

١ - ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٨٦؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٤٦.

٢ - شراب الجلاب: هو السكر إذا عقد بوزنه أو أكثر بماء الورد انظر ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٨٥.

٣ - شراب اللينوفر: فارسى معناه ذو الأجنحة، وهو نبت مائى له أصل كالجذر وساق املس، ومنه البرى ويعرف بمصر بعرائس النيل ويستعمل لقطع الحمى والقروح انظر معالم القربة، ص١٨٦.

٤ - المصدر نفسه، صفحات ١٨٨، ١٩٢، ١٩٧؛ جروهمان: أوراق البردى، جـ٥، طراز رقم ٧٣، ١٤٧.

٥ - القبر مدفن الإنسان، وجمعه قبور، والمقبرة موضع القبر، قال سيبوية المقبرة ليس على الفعل، ولكنه اسم، وقبره يقبره دفنه، وأقبره جعل له قبرا. انظر المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٤٢؛ ويذكر ياقوت الحموى: "والجبانة فى الأصل الصحراء، وأهل الكوفة يسمون المقابر جبانة كما يسميها أهل البصرة المقبرة" انظر: معجم البلدان، جـ٢، ص٩٩.

٦ - مما تجدر الإشارة إليه أن الزميل ا.د. محمد حمزة إسماعيل قام بإعداد رسالة ماجستير فى هذا الموضوع بعنوان: "قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك "ماجستير غير مطبوعة، جامعة القاهرة ١٩٨٧م، وقد خصص فيها قدرا كبيرا عن تطور الجبانة منذ الفتح العربى الإسلامى حتى نهاية الفترة موضوع البحث، انظر كذلك: محمود الحسينى: التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية، ص٥٤٣.

٧ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٥٦، ١٥٧، ابن الفقيه: المختصر، ص٥٩؛ ويذكر ياقوت الحموى: "القرافة خطة بالفسطاط من مصر كانت لبنى غصن بن سيف بن وائل من المعافر؛ وقرافة: بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم، وهى اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين وترب للاكابر مثل ابن طولون" انظر: معجم البلدان، جـ٤، ص٣١٧؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص ص٣٠٥، ٣٠٦؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١٩، ص٣٢٤؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص١٢٤؛ ابن ظهيرة: الفضائل، ص١٩٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٠٨؛ ليو الأفريقى: وصف أفريقيا، ص٥٨٥؛ على بهجت: حفريات الفسطاط، ص٢٣؛ محمد حمزة: مرجع سابق، ص٥، ص٧١.

قبيلة المعافر يقال لهم بنو قرافة نزلوا عند سفح الجبل[١]، وتمتد المقابر فيما بين مصلى خولان إلى المعافر[٢]، وقد خصص المسلمون في جنوبها جزءا لدفن موتى الأقباط[٣].

ويشير المقريزى إلى القرافة بقوله: "فما كان منها فى سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى، وما كان منها فى شرق مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى، وفى القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر، واختط العرب مدينة الفسطاط، ولم يكن لهم مقبرة سواها[٤]".

وتوصف هذه المقابر "بأنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهى ولا أعظم ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها، ولا أعجب تربة منها كأنها الكافور والزغفران مقدسة فى جميع الكتب، أو حين تشرف عليها تراها مدينة بيضاء، والمقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها[٥]"، وهذا يوضح أن المسلمين قد اعتنوا بنظافة مقابرهم، والاهتمام بعمارتها منذ أول اختطاط للمدينة.

ويصف المقدسى مقابر المسلمين بأنها كانت: "فى غاية الحسن والعمارة ترى البلد غبراء، والمقابر بيضاء[٦]".

ويصف الكندى أول قبر بيض فى الإسلام بمصر، عند وفاة إبراهيم بن صالح العباسى (١٧٦هـ/٧٩٢م) "بعد ولايته الثانية على مصر سنة ست وسبعين ومائة،

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٢٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم، ص٣٦.

٢ – على بهجت: حفريات الفسطاط، ص٣٣.

٣ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ص٤٤٣، ٤٤٤؛ على بهجت: حفريات الفسطاط ص٣٢.

٤ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٤٢، ويلاحظ أن القرافة الصغرى شهدت نشاطا عمرانيا ملحوظا فى العصر الأيوبى خاصة زمن السلطان صلاح الدين الأيوبى (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) والملك الكامل محمد (ت ٦٣٥هـ/١٢٣٨م) وظهرت تسميتها القرافة الصغرى فى العصر الأيوبى بعد أن أقبل الناس على البناء فيما حول قبر الإمام الشافعى فى عهدى كل من السلطان صلاح الدين والكامل محمد وقد امتدت هذه القرافة فى سفح المقطم، وعظم العمران بها، أما القرافة الكبرى فقد تلاشى أمرها إلى أن عاد إليها العمران من جديد فى عهد الناصر محمد بن قلاوون. انظر محمد حمزة إسماعيل: قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، ص٥٣، ٦٨.

٥ – المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٤٤.

٦ – المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٠٩.

كان مقامه بها شهرين وثمانية عشر يوما، فكان قبره أول قبر بيض فى مقبرة مصر[١]".

وأول من دفن فى قرافة مصر رجل من المعافر، يقال له عامر فقيل عمرت[٢]، وقبر فيها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة نفر: "عمرو بن العاص السهمى، وعبد الله ابن حذافة السهمى، وعبد الله بن جزء الزبيدى، وأبو بصيرة الغفارى، وعقبة بن عامر الجهنى، ويقال ومسلمة بن مخلد الأنصارى[٣].

ويذكر المقريزى نقلا عن القضاعى: "أن أول من صلى عليه من الموتى داخل الجامع، أبو الحسن سعيد بن عثمان، صاحب الشرط، فى النصف من صفر، وكانت وفاته فجاة، فأخرج ضحوة يوم الأحد السادس عشر من صفر، وصلى عليه خلف المقصورة، وكبر عليه خمسا، ولم يعلم أحد قبله صلى عليه فى الجامع[٤]".

وعندما حضرت عمرو بن العاص الوفاة فى ليلة عيد الفطر فى سنة ثلاث وأربعين هجرية قال: أى بنى إذا مت فكفنى فى ثلاثة أثواب أزرنى فى أحدهم، ثم شقوا لى الأرض شقا وتسنوا على التراب سنا فانى مخاصم[٥]، وكان ابنه عبد الله ابن عمر قد غسله ثم أخرجه حين صلى الصبح، فوضعه بالمصلى ثم جلس حتى إذا رأى الناس قد انقطعوا من الطريق الرجال، والنساء قام فصلى عليه، ولم يبق

---

١ - الكندى: الولاة والقضاة، ص١٢٥.

٢ - النويرى: نهاية الأرب، جـ١٩، ص٣٢٤؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٤٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٣٦.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥٧؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٤٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص١٠٨، ١٠٩؛ ابن جبير: الرحلة، ص٢٢.

٤ - يذكر البلاذرى "لما توفى سعد بن أبى وقاص، أرسل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمروا بجنازته فى المسجد، ففعلوا ذلك، ووقف بها على حجرهن، فصلين عليه، وخرجنه من باب الجنائز. فبلغهن أن الناس عابوا ذلك، وقالوا: ما كانت الجنائز تدخل المسجد، فبلغ ذلك عائشة، فقالت: ما أسرع الناس إلى عيب مالا علم لهم به، ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سهيل بن البيضاء الا فى جوف المسجد" البلاذرى: أنساب الإشراف، جـ١، ص ص٢٢٤، ٢٢٥؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٤٧؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٦٨.

٥ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٤٩٤؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٥١؛ الكندى: الولاة، ص٢٣؛ المسعودى: مروج الذهب، جـ٣، ص٢٣.

أحد شهد العيد الا صلى عليه ثم صلى العيد بالناس، وكان أبوه قد استخلفه على مصر[١].

وقد عرف العرب عادة البكاء على الموتى، ويحكى أن عمرو بن العاص أوصى عندما حضرته الوفاة: "فإذا أخرجتمونى فأسرعوا بى ولا تتبعنى نائحة ولا نار وشدوا على ازارى[٢]"، ويذكر ابن ظهيرة: "أن عمرو لما اشتد به المرض سمع البكاء من داره، فقال أحضروا لى الساعة أربعة آلاف نفس بالسلاح، فلما حضروا قيل له: فما تصنع بهم؟ قال يكون ألف بباب المدينة، وألف على الجبل، وألف على الفج عند بنى وائل، وألف على الجيزة، فقال له ابنه: ولم ذلك؟ قال يمنعون عنى الموت، فقال: ومن يقدر على هذا؟ قال: فما هذا البكاء[٣]".

كذلك قال عمرو بن العاص ولا تدخلن القبر خشبة ولا طوبة ثم إذا قبرتمونى فامكثوا عندى قدر نحر جزور وتفصيلها استأنس بكم[٤].

ويذكر البلاذرى: "أن زينب بنت جحش قد أوصت أن تحمل على السرير الذى كان حمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحملت عليه، ومن ثم فقد أخذ الناس يحملون عليه موتاهم، حتى جاء مروان، ومنع أن يحمل عليه إلا الرجل الشريف، وصنع سررا لحمل موتى المسلمين، فكان فى وسطه ليف منسوج[٥]".

وقد استن المسلمون الأوائل عادة الدفن فى نفس المسكن المقيمين به، فمما يذكر أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان قد ابتنى بمصر دارا قد أقام فيها حتى وافته المنية "فلم يزل بها حتى مات فدفن فى داره سنة سبع وسبعين هجرية فى خلافة عبد الملك بن مروان[٦]".

---

١ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٤٩٤؛ الكندى: الولاة، ص٣٤؛ المسعودى: مرج الذهب، جـ٣، ص٢٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص١١٧، ١١٨.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٥١؛ النووى: مختصر كتاب رياض الصالحين، ص٧٨.

٣ - ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٢٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٥١.

٥ - البلاذرى: انساب الإشراف، جـ١، ص٤٣٦، ٥٢٥؛ ويذكر القلقشندى أن: "أول امرأة حملت فى نعش زينب بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم" انظر صبح الاعشى، جـ١، ص٤٣٥.

٦ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٧، ص٤٩٥.

ويشير المسعودى إلى أن قراءة القرآن كانت ترتل فى البيوت والمنازل الخاصة، وقبل أن يسجى الميت إلى القبر، حيث تواجد المقرؤن داخل الجبانة[١].

وقد منع الرسول أن يناح على الميت[٢]، وقد حاول ولاة مصر أن يمنعوا هذه العادات السيئة فى أثناء الجنازة، ففى حرب الخندق التى دارت بين مروان بن الحكم، وعبد الرحمن بن جحدم والى مصر لعبد الله بن الزبير سقط كثيرون من جيش أبى جحدم قتلى، ويقال أن أكثرهم كان من قبيلة المعافر بمصر، وعند دفنهم ارتفعت أصوات نسائهم بالبكاء والنواح[٣]، وحاول مروان بن الحكم أن يمنعهن من ذلك دون جدوى، ولما مات عبد العزيز بن مروان خرجت وراءه النساء لابسات السواد نائحات صائحات[٤] وحتى نهاية القرن الثانى كانت تلك العادة مستمرة، ولما مات القاضى البكرى "قاضى مصر سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م) خرجت وراء جنازته نادية، وقد شجعها أحد أبناء العرب على الاستمرار فيما تقول[٥].

وفى القرن الثالث الهجرى رسخت تلك العادة رغم مجافاتها لروح الإسلام كما يقول آدم متز[٦] فكان الرجال والنساء يرتدون الثياب السود على حد سواء، وينحصر الحداد فى أن تصبغ النساء القميص وخمار الرأس وحجاب الوجه والمنديل باللون الأزرق الغامق أو باللون الأسود على وجه التقريب مضافا إلى اللون النيلى، ويرتدين ملابس الحداد سبعة أيام أو خمسة عشر يوما أو أربعين يوما أحيانا[٧].

ويذكر الكندى أنه حين تولى الحارث بن مسكين القضاء (عام ٢٣٧هـ/٨٥١م) من قبل أبى جعفر المتوكل "منع النداء على الجنائز[٨]".

---

١ - المسعودى: مروج الذهب، جـ٤، ص١٥٩.

٢ - النووى: مختصر كتاب رياض الصالحين، ص٧٧؛ ابن قيم الجوزية: فتاوى رسول الله، ص٨٨.

٣ - المقريزى: الخطط جـ٢، ص ص٤٥٨، ٤٥٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص٢٣٦، ٢٣٧.

٥ - الكندى: الولاة، ص ص٤١٦، ٤١٧.

٦ - ادم متز: تاريخ الحضارة، جـ٢، ص٢٢٦، ٢٢٧.

٧ - دوزى: المعجم المفصل، ص٢٦.

٨ - الكندى: الولاة، ص٤٦٩.

وفى ولاية يزيد بن عبد الله التركى من قبل المنتصر، سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م "منع من النداء على الجنائز وضرب فيه[١]".

وفى ولاية مزاحم بن خاقان على مصر سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م، نهى أن يشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة، وعاقب بسبب ذلك خلقا كثيرا وشدد على الناس[٢].

كذلك نعرف أن والى مصر بعد سقوط الدولة الطولونية، وهو عيسى النوشرى أمر فى سنة ٢٩٤هـ/٩٠٧م بمنع النواح والنداء على الجنائز[٣]، ولكن يبدو أن هذا المنع المتكرر لم يكن يستطيع القضاء على تلك العادات التى عرفها الشعب المصرى منذ العصور القديمة[٤].

١ - الكندى: الولاة، ص ص٢٠٢، ٢٠٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٣٠٨.

٢ - الكندى: الولاة، ص ص٢١٠، ٢١١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ص٢٣٧، ٢٣٨.

٣ - الكندى: الولاة، ص٢٦٦.

٤ - عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، جـ١، القاهرة ١٦٧، ص٣١٤-٣٢٤.

الفصل السادس
العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمة

- المصريون المسيحيون:
  - الزواج، الطلاق.
  - الختان.
  - الملابس.
  - الطعام والشراب.
  - المسكن.
  - المآتم والأحزان.
- اليهود :
  - المسكن.
  - الملابس.
  - الزواج.

الفصل السادس

العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمة *

المصريون المسيحيون :

التزم المسلمون بتحقيق مبدأ حرية أهل الذمة فى حياتهم الاجتماعية[1]، كما يفهم مما أورده المؤرخون وعلى رأسهم المقريزى[2]، من أن نصارى مصر كان لهم العديد من الكنائس والأديرة[3]، والقبور[4] فى عدة أماكن بالفسطاط أثناء الفتح العربى وهذه الأماكن هى:

- قصر الشمع وحوله.
- شمال قصر الشمع وجامع عمرو بن العاص.
- جنوب وشرق الفسطاط[5].

ووجود هذه الكنائس والديارات فى هذه الأماكن تثبت وجود مساكن أهلة ومبان عامرة بالسكان من أهل الذمة فى المدينة قبل الفتح وأثنائه.

---

١ – يتضح هذا من خطبة عمرو غداة الفتح مخاطبا جنوده ".. واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا"، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٤٠؛ ابن ظهيرة: الفضائل، ص ص١١٨، ١١٩.

٢ – حيث يذكر المقريزى: "أعلم أن موضع الفسطاط... ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم.. "ثم يقول بعد ذلك" وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى كانت بجانبه وبين الجوف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان يعرف فى أوائل الإسلام بالحمراء" انظر: المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٦.

٣ – مثل كنيسة أبى مينا التى شيدت فى عهد الوليد بن رفاعة فى سنة ١١٧هـ/٧٣٥م بالحمراء. انظر: الكندى: الولاة، جـ١، ص ص٧٧، ٧٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢٦٥.

٤ – بدليل أن عمرو بن العاص خصص للمقوقس مساحة من بركة الحبش لتكون جبانة للقبط يقول المقريزى: "فكتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر بن الخطاب أنى لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين فاجعله لهم مقبرة ففعل فغضب المقوقس من ذلك وقال لعمرو ما على هذا صالحتنى، فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى "الخطط، جـ١، ص١٢٤، جـ٢ ص٤٩٢؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٦٨، جـ٢، ص٢٧.

٥ – محمود الحسينى: التطور العمرانى، ص١٥٢.

وأشار ساويرس بن المقفع لما حدث أثناء القتال بين بنى أمية والجند العباسيين، حيث نادى العباسيون بأن: "من كان نصرانيا، فليعمل الصليب على جبهته وثوبه وعلى باب بيته[١]"، وهذا يدل على اعتناق كثيرين من الأقباط للإسلام، وقد ظلوا من غير شك في مساكنهم، ولتداخل تلك المساكن مع مساكن من ظل منهم على دينه، لهذا كان على المسيحيين أن يميزوا أنفسهم حتى لا يصيبهم مكروه، ومن ناحية أخرى يدل ذلك على أن القبط قد تشبهوا بالمسلمين فى الملبس إلى درجة عدم إمكان تمييزهم.

وذكر ابن عبد الحكم أنه أحصى من بقى بمدينة الإسكندرية بعد الفتح من أهل الذمة فكانوا ستمائة ألف سوى النساء والصبيان، على الرغم مما ذكر من رحيل سبعين ألف يهودى عقب الفتح، وبلغ عدد المسيحيين من الروم مائتى ألف من الرجال رحل منهم ثلاثون ألفا، أما الباقى منهم فقد أرتضوا الجزية[٢].

وقد اختلفت الروايات بشأن عدد الأقباط فى مصر كلها، فقد تراوح تقدير عدد مسيحى مصر ما بين ستة وثمانية ملايين عقب الفتح[٣].

ويذكر آدم متز أنه فى القرن الثانى الهجرى كان خمسة ملايين من القبط يدفعون الجزية، والعدد الكلى خمسة عشر مليونا من النصارى[٤].

والحقيقة أن أقباط مصر كان لهم نصيب واضح فى مشاركة العرب اجتماعيا، نذكر مثلا: أنه قد جرت العادة بين المسلمين فى مدينة أسنا بصعيد مصر على أن يدعو فى أفراح عرسهم بعض القبط الذين يحسنون الغناء والتلحين باللغة القبطية، ويشركونهم فى احتفالاتهم، فيتقدم هؤلاء المغنيين القبط موكب العروس فى شوارع المدينة وأسواقها[٥].

كما كان سكان هذه المنطقة من المسلمين، يشاركون القبط فى استقبال أسقفهم الجديد عند تعيينه. خارج المدينة (اسنا)، ويصلوا به إلى قلايته التى يسكن فيها طوال مدة توليه الأسقفية[٦].

---

١ – ساويرس: سير الآباء البطاركة، جـ١، ص١٩٥.

٢ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٨٢.

٣ – المصدر نفسه، ص ص٧٠، ٧١.

٤ – آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص ص٨٣، ٨٤.

٥ – أبو صالح الأرمنى: تاريخ كنائس وأديرة مصر، ص١٢٩؛ ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص١٧٠.

٦ – أبو صالح الأرمنى: مصدر سابق، ص١٢٩.

ومن مظاهر الود والوفاق بين مسيحى مصر ومسلميها، أنه إذا أصاب أحدهم، مرض فانهم يخرجون إلى جبل المقطم داعين بالشفاء، مثلما حدث عند مرض أحمد بن طولون[١].

وتشير الوثائق البردية إلى مدى العلاقة الطيبة بين المسلمين والأقباط، وخاصة فى الشهادة على عقود الزواج، ففى العقد المؤرخ فى أخر صفر سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م باسم يونه ابنت حليصى وزوجها يزيد بن قاسم، وقع من الشهود داود بن سليمن، ولقمان بن سليمن، واليسلاع بن عبد الوهاب[٢]، والتوقيع على عقود البيع والشراء، وخاصة فى العقد المؤرخ فى ذى القعدة من عام ٢٣٨هـ/٨٥٢م، وهو عقد شراء باسم عبيد الله بن بطرس الأدفوى المشترى من النصر بن النصر بن عبد الله الزيات[٣].

وهذ عقد شراء مؤرخ فى شهر ربيع الأول سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م، باسم على بن عبد الله المشترى من ورثة بشندة بن عيسى الشماس[٤]، ونلاحظ أن كثيرا من الوثائق البردية تشير دائما إلى عمليات البيع والشراء، وخاصة بين المسيحيين المصريين والعرب المسلمين حتى بعد عصر الولاة، ففى العقد المؤرخ فى شهر شعبان سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م، بيع منزل يحنس بن شنودة إلى عبد العزيز بن مقبل، وكلاهما من سكان بعض قرى كورة الفيوم. وتتضمن هذه الوثيقة وصفا كاملا للمنزل وحدوده من كل جانب، وثمن البيع، وتوقيع من اشترك فى الشهادة على عقد البيع من المسلمين والمسيحيين، وهذه الوثائق تدل على العلاقة الطيبة التى ربطت بين مسيحى مصر والمسلمين فيها، وتمتع هؤلاء المسيحيين بحرية البيع والشراء[٥].

وإذا كان المسيحيون المصريون وقعوا بشهاداتهم على عقود الزواج، والبيع والشراء، فقد شاركهم المسلمون فى الحرص على هذه العلاقة الطيبة، ودليلنا على ذلك العقد المؤرخ فى شهر المحرم سنة ٣٤١هـ/٢٨ يونية سنة ٩٥٢م، الذى

---

١ - ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٧٠.

٢ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، طراز رقم ١٨٧١، ص ص١٠٥، ١٠٦.

٣ - وثيقة غير منشورة، متحف الفن الإسلامى، تحت رقم ٩٨١٨، انظر: ملحق الدراسة شكل (٤).

٤ - وثيقة غير منشورة، متحف الفن الإسلامى، تحت رقم ٩٨١٧، انظر: ملحق الدراسة شكل (٥).

٥ - جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، طراز رقم ١٩٠١، ص ص١٦٣-١٦٤.

تضمن شراء يحنس بن شنودة بن بطاقس بن مقطلنى أبنت شنوده بن أيوب من كورة الفيوم حصتها من المنزل المشاع بينهما، وقد وقع وشهد على عقد البيع عبد الصمد بن يوسف بن هرون[١].

والواضح من الروايات التاريخية أن معظم أغنياء مسيحى مصر، كانوا يتركزون فى الريف المصرى بصفة خاصة، حيث يشير ابن الداية إلى أحد هؤلاء الأثرياء فقال: "كان ببعض أرياف مصر نصرانى من أهلها، كثير المال فاشى النعمة، سمح النفس، وكانت له دار ضيافة وجرايات واسعة على ذوى الستر بالفسطاط[٢]".

ويقول ساويرس: "ولما صار جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها، كلهم نصارى، وهم الملاك النافذ أمرهم، طغوا وعتوا، وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر، وتكبروا وعزت نفوسهم، ووقع بينهم البغضة والحسد، وبين مقدميهم، وصار أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيوية، والتفاخر والكبرياء على بعضهم البعض[٣]".

وبجانب تمتع المسيحيين المصريين بحرية شعائرهم الدينية منذ الفتح العربى، توثقت الروابط الاجتماعية، يتضح هذا من العلاقة التى تأصلت بين عمرو بن العاص والمقوقس الذى سمح له بالإقامة فى الكنيسة المعلقة، طوال حياته، ومدى شفاعته للمسيحيين الأرثوذكس لدى الإدارة الإسلامية "وكان المقوقس يحضر إلى عمرو إذ كانت له حاجة فيقضيها له[٤]".

وأجمع مؤرخو الكنيسة فى مصر على أن ولاة مصر لم يتدخلوا فى شعائرهم الدينية، وتعيين البطاركة، بل تركوا لهم الحرية فى الاختيار وحدث هذا فى عهد

---

١ – جاء فى نص العقد: بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اشترى يحنس بن شنوده بن بطاقس من مقطلنى أبنت شنوده بن أيوب وهما جميعا من سكان طمطون من كورة الفيوم حصتها من المنزل المشاع بينها وبينه وهو السدس منها أربع أسهم من أربع وعشرين سهما بحده وحدوده ومدخله ومخرجه وسفله وعلوه داخل فيه وخارج منه حده القبلى منزل تفرى القبشاوى".

جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، طراز رقم ١٨٩٩، ص ص١٥٣، ١٥٤.

٢ – ابن الداية: المكافأة، ص ص٣٦، ٣٧.

٣ – ابن المقفع: سير الآباء، جـ٣، ص١٧٣.

٤ – ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٠٩.

عبد العزيز بن مروان[١]، الذى أطلق سراح الأب يوحنا، وسمح ببناء كنيســـة فـــى حلوان[٢].

وإذا كانت قد صدرت بعض المراسيم من قبل الخلافة، فهى مراسيم اســتثنائية، كما حدث فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان فى سنة ١٠٢هـــــ/٧٢٠م، أثناء ولايته عقبة ابن مسلم التجيبى على مصر "وورد عليه كتـــاب الخليفـــة يزيـــد بكسر الأصنام والتماثيل، فكسرت كلها، ومحيت التماثيل من ديار مصـــر وغيرهـــا فى أيامه[٣]" باعتبارها نوعا من الوثنية، وكان ما حدث فى ذلك الوقت شبيها بحـــوب الأيقونات فى الدولة البيزنطية[٤].

كذلك عند ولاية على بن سليمان فى سنة ١٦٩هـــ/٧٨٥م من قبل الهادى "هـــدم الكنائس المحدثة بمصر فهدم كنيسة مريم الملاصقة لأبى شـــنوده، وهـــدم كنـــائس محرس قسطنطين، وبذل له خمسون ألف دينار فى تركها فامتنع[٥]" وذلـــك تطبيقـــا للشروط التى أقربها أهل الذمة فى هذا الشأن.

ولكن موسى بن عيســـى وإلـــى مصـــر مـــن قبـــل هـــارون الرشـــيد ســـنة ١٧١هـــ/٧٨٧م، أذن للنصارى فى بناء الكنائس التى هدمها علـــى بـــن ســـليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة وقالا: هو من عمارة البـــلاد، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام فـــى زمـــن الصحابـــة والتابعين[٦].

وفى عهد المأمون العباسى، وعند مجيئه إلى مصر ســـنة ٨١٣-٨٣٣م/ ١٩٨-٢١٨هـــ[٧]، أذن للنصارى ببناء كنيســـة على جبـــل المقطم، كما سمـــح لأحـــد

١- ساويرس: سير الآباء البطاركة، جـــ١، ص١٢٧.

٢- المصدر نفسه، جـــ١، ص١٢٦؛ ارنولد: الدعوة، ص٨٥.

٣- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـــ١، ص٢٥٠.

٤- هسى: العالم البيزنطى، ص١٣٦؛ اسد رستم: حرب فى الكنائس، بيروت ١٩٦٨م، ص٤٣-٤٦.

٥- الكندى: الولاة، ص١٣١؛ المقريزى: الخطط جـــ٢ ص٤٩٢، ٥١١.

٦ - الكندى: الولاة، ص١٣٢؛ المقريزى: الخطط، جـــ٢، ص٥١١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهـــرة، جـــ٢، ص٦٦؛ أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٨٦.

٧ - أرنولد: نفسه، ص٨٦.

المسيحيين، ويدعى بكام ببناء عدة كنائس حسان ببلدة بورة فى مصر[١].

الزواج عند مسيحيى مصر :

لاحظ ابن عبد الحكم تلك الحرية التى تمتعت بها المرأة الذمية، حيث يذكر: "أن نساء أهل مصر لم يصبرن عن الرجال فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال أن لا يفعلوا شيئا إلا بإذنهن فأجابوهن فى ذلك، فكان أمر النساء على الرجال[٢]"، وفى موضع آخر يقول "أن نساء القبط على ذلك إلى اليوم أتباعا لمن مضى منهم لا يبيع أحد منهم ولا يشترى إلا قال استأمر امرأتى[٣]".

ولإتمام مراسيم الزواج هناك محظورات على حسب القواعد المعمول بها عند المسيحيين المصريين الأرثوذكس، فلا يجوز الاحتفال به فى أيام الصوم الكبير، إذا يقول المقدسى: "ولا يحل لهم اللحم والجماع فى الصوم[٤]"، وإنما جرت العادة على أن يتم الزواج فى بداية العيد.

وكان يجب على القسيس أن يتأكد من أن الزوجين يقبلان على الزواج بإرادتهما دون إرغام أو ضغط من أحد[٥]، يقول المقدسى: "ولا يصح نكاحهم إلا بحضور شماس والعدول، والمهر[٦]".

ويرتدى الجميع اكليروس الكنيسة يوم حفل العرس، اللون الأبيض، وكان من الملبوسات الخاصة بالزواج صليب من الذهب، وخاتم من الذهب، ومن عاداتهم أن

---

١ - ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٥٨، ولمزيد من المعلومات عن كنائس وأديرة مصر، انظر: مصطفى عبد الله شيحه: الزخارف الإسلامية فى عمارة الكنائس الأثرية بمصر القديمة وما بها من التحف والآثار، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٢٨.

٣ - المصدر نفسه، الصفحة، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٩.

٤ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ط باريس ١٩٠٧م، ص٤٧؛ ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ٣، ص١٦٦؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ص٤٩٥، ٤٩٦.

5 - Butler: Ancient Coptic Churches, Oxford. 1884, T. 2, PP. 323-324;
مراد كامل: حضارة مصر فى العصر القبطى، القاهرة، ص١٧٤.

٦ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص ص٤٧، ٤٨؛ زكى شنوده: موسوعة تاريخ الأقباط، جـ١، ص٢٧٠.

يعطى الزوج هذه الملبوسات للبطرك ليباركها، ويقوم عليها يطقوس الخدمة، قبل ليلة الاحتفال(١).

وطبقا لشرائعهم لا يجوز ان يزيد عدد الزوجات عن واحدة(٢)؛ هذا وأن كان المسيحيون فى مصر يتشبهون أحيانا بغيرهم من عناصر المجتمع، فانتشرت بينهم عادة اتخاذ السرارى إلى جانب زوجاتهم، وظهر ذلك فى عهد البطرك سيمون فى ولاية عبد العزيز بن مروان، وأن كانت الكنيسة قد وقفت موقفا متشددا من هذه الظاهرة، فكانوا يمنعون من يتخذ السرارى من حضور القداسات، فلجأ هؤلاء إلى عبد العزيز، وشكوا إليه أن الأساقفة منعوهم من الزواج، مما اضطرهم إلى الانحراف الخلقى فغضب عبد العزيز بن مروان، وعقد اجتماعا حضره أربعة وستون أسقفا، على رأسهم البطرك أنبا سيمون، وبعد مناقشات وجدال تقرر حرمان هؤلاء من الكنيسة، أن لم يتخلوا عن السرارى(٣) وهذا يدل على أن والى مصر عمل على مساعدة الكنيسة فى تنفيذ النظام الكنسى على المسيحيين.

ومع ذلك فيبدو أن هذه العادة استمرت بين المسيحيين فى مصر حتى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، إذ أن كثيرا من كبار المسيحيين ظلوا يتخذون عدة سرارى، وينجبون منهم الأولاد، وقد انزعجت الكنيسة المسيحية فى مصر، وهددتهم بالحرمان والمنع من القداسات، وأمرتهم بتقديم القربان على كل من يتخذ سرية لنفسه(٤).

وكان حفل الزواج يتم بقراءة مزامير التوبة والغفران، ويشعل القسيس البخور، وبعد ذلك يبدأ جماعة المرنمين فى الغناء، ويلى ذلك قراءة الإنجيل بالقبطية

---

١ - وفى اليوم المحدد للعرس يخرج العروسان كل منهما على انفراد، تتقدمهما الموسيقى، ويسيران فى الطرقات حتى يصلا الكنيسة المحددة لإقامة العرس فيها، ويتقدمهما الشمامسة بالشموع الموقدة والأجراس، وفى داخل الكنيسة يجلس الزوج وسطه جماعة المرنمين، أما الزوجة فتجلس فى الجانب المخصصة للنساء.

Butler: Op. Cit. T. 2, PP. 323-324.

٢ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٤٨؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص ص٤٩٥، ٤٩٦.

٣ - ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ٢، ص ص١٣٥، ١٣٦؛ الشماس منسى القمص: تاريخ الكنيسة القبطية، ص٤٠٨.

٤ - ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ٢، ص٩٢؛

Le Synaxaire Arabe Jacobite, Redaction Copte Texte Arabe, T. 2, PP. 309-310.

ثم العربية ويقوم جميع الحاضرين بالصلاة[١].

وكان الزوج أثناء ذلك الاحتفال، يرتدى قونية بيضاء من الحرير، تصل إلـــى القدم، ويشد وسطه بحزام جلد، وعلى رأسه غطاء أبيض، ثم يضع البطرك الخـــاتم فى يده اليمنى ويباركه، وبعد ذلك يقف العروسان، وعلى رأسهما الصلبان الذهبيـــة، ويعلن القسيس برائتهما، ويقدم العروس للعريس، ويمنحهما بركاته، ثم تضاء جميـــع أرجاء الكنيسة، ويعلن القداس، ويقدم القربان، وبعد الانتهاء مـــن هـــذه المراســيم يخرج العروسان من الكنيسة إلى منزلهما الخاص[٢].

وعقود زواج الذميين سواء كانت مكتوبة باللغة المصريـــة أو بالإغريقيـــة أو بالقبطية– وحتى المكتوب منها بالعربية منذ دخول العرب– كلـــها تحمـــل طابعـــا واحدا، وذلك تضمنها لبعض الشروط وخاصة المالية، والبرديات القبطية تظهر أنـــه حتى القرن الثامن الميلادى على الأقل لم تكن هناك سلطة أو رقابة عامة مختصـــة بشئون الزواج، كما يبدو أن نفوذ الكنيسة لم يكن حتى هذا التاريخ قد تغلغل فى كـــل أركان الحياة، بل كان نظام الزواج يجرى مجراه القديم الذى عهدناه منـــذ العصـــر الفرعونى[٣].

أما عن وضع المرأة فى المجتمع كما يبدو من خـــلال البرديـــات القبطيـــة[٤]، فيبدو أنه كان يمثلها عامة أحد الوالدين عند عقد قرانها، ولكن لدينا وثيقتين تبينـــان بجلاء أن الزواج عند الأقباط كان يعقد بناء على رغبة الزوجين.

وبذلك كانت المرأة تلعب دورها فى عقد قرانها مثل الرجل تمامًا، إذ كانا همـــا الطرفين المتعاقدين، وهذا يتفق مع كفاءتهما القانونية التى كانت تتمتـــع بـــها منـــذ العصر الفرعونى، ولكى ندرك فكرة الزواج عند الأقباط ليس هنـــاك أفضـــل مـــن

---

1 - C. F: Butler: Op. Cit., PP.324-326.

2 - C. F: Butler: Op. Cit. PP. 324-326.

عبد السلام الترمانينى: الزواج عند العرب، ص١١٣.

٣ – شفيق علام: حول الزواج فى مصر القديمة، مجلة مركز الدراسات البردية، جامعة عين شمس، العدد الأول، ١٩٨٧، ص٢٠.

٤ – برديات قبطية نشرت حديثا:

C. F: Balogh/ Kahle, Two Coptic Documents Relating to Marriage. in Aegyptus 33. 1933, 33 IFF; P kahle, Balaizah II (1954), P. 566 FF; L. Maccoull, Coptic Marriage Contract in: Actes dyxve Congres International de Papyrologie (Papyrologice Bruxell ensia 17), 20 Partie (Papyri inedits), 1979, IIG FF.

الرجوع إلى بردية من القرن الثامن الميلادى، وفيها يوجه الزوج حديثه إلى زوجته بدون وسيط أو ولى أمر، وبناء على ما جاء فى البردية أعطاها مبلغا من المال كهبة (وتسمى تشاب[١]) وهذه الهبة بهذا المصطلح نجدها فى كثير من البرديات المصرية القديمة، وبعد ذلك تذكر البردية أن الزوج قد أخذ على نفسه حسن معاملة زوجته، وألا يطلقها[٢] جورا وبدون مبرر، ومع ذلك فإمكانية الطلاق دخلت فى الاعتبار، فللزوج ولزوجته حق تطليق الطرف الآخر، وتنص البردية على عقوبة مالية تقع على عاتق الطرف الذى يتسبب فى الطلاق، وقيمتها كانت مرتفعة جدا، حيث تبلغ أكثر من سبعة أمثال الهبة التى أعطاها الرجل لزوجته عند عقد قرانهما، وهذه العقوبة المالية يرجح أنها من أصل بيزنطى[٣]، وتذكر البردية أن أهل الزوج، (أبوه وأمه وأخوه الأكبر) قد حضروا للموافقة على عقد الزواج، وبهذا أصبحوا ضامنين لوفاء الزوج بالتزاماته المالية.

والبردية التى نحن بصددها توضح كذلك أن الطلاق عند الأقباط حتى القرن الثامن الميلادى، كان يحدث بكل بساطة عندما يفترق الزوجان، تماما كما كان عليه الحال فى العصور السابقة[٤].

وبخصوص الطلاق لدينا بردية قبطية هامة، وهى وثيقة طلاق، وقد وصلنا من هذا النوع برديات كثيرة منها المحرر بالديموطيقية ومنها المحرر بالإغريقية[٥].

---

١ - شفيق علام: مرجع سابق، ص ص٢٠، ٢١.

٢ - النصوص الواردة فى الأناجيل المتداولة لا تجيز الطلاق الا لعلة الزنا، ولا يرتضى الكاثوليك أن يسموا الطلاق فى هذه الحالة طلاقا، وإنما هو افتراق جسمانى فحسب: "ودنا إليه الفريسيون ليجوبوه، وقالوا: هل يحل للرجل أن يطلق زوجته لكل علة، فأجاب قائلا: أما قرأتم أن الخالق من البدء خلقهما ذكر، وأنثى؟ وأنه قال: لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ويصيران كلاهما جسدا واحدا، ومن ثم فليساهما اثنين بعد، بل جسد واحد- فما جمعه الله فلا يفرقه إنسان".

انظر: فتحى عثمان: مع المسيح فى الأناجيل الأربعة، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦، ص٣٢٩، هذا تعارض مع ما جاء فى دراسة البرديات، وخروج عن الكنيسة المصرية.

3 - A. Grohmann, Arabic Papyri in the Egyptian Library, I (Cairo 1934), PP. 65-121; II Cairo 1936), PP. 209-223; Grohmann, Arabische Papyri aus den Staotlichen Musseen Zu Berlin, in Der Islam 22, 1953, PP. 1-68.

٤ - شفيق علام: مرجع سابق، ص ص٢١، ٢٢.

5 - Papyrus Bodleian Library (Kahle Balaigah), 11, P. 566 FF).

ونص برديتنا القبطية التى ترجع إلى القرن السابع أو الثامن الميلادى تزيح لنا الستار عن عرف شائع منذ القرن السادس قبل الميلاد، وهو تحرير وثيقة، وأهم ما جاء فيها أن أحد الزوجين قد تخلى عن حقه فى الحياة الزوجية، وأنه يسمح للطرف الآخر أن يتزوج من شخص آخر، وهذه البردية القبطية توضح أن الطلاق وقع بناء على رغبة الطرفين، وتنص على أن المرأة قد حلفت اليمين ووعدت بالا تتصدى مستقبلا لزوجها السابق إذا عقد زيجة أخرى، والا وقعت عليها عقوبة مالية كبيرة، ومعنى ذلك أنه كان فى الإمكان عقد زيجة جديدة، وذلك مما يتعارض مع تعاليم الكنيسة وأوامرها. ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن البردية لا تنكر أسباب الطلاق، وهى وأن ذكرت أسماء بعض الشهود ألا أنها لا تشير إلى سلطة عامة أو مكتب عام لشئون الزواج والطلاق(١).

وأسماء المواليد عند المسيحيين فى مصر ارتبطت إلى حد كبير بأسماء القديسين والقديسات، ومن أوضح الأمثلة على ذلك اسم القديسة بربارة، إذ تشير بعض الروايات إلى أن نصف نساء أقباط مصر، اتخذن اسم بربارة، وذلك تيمنا بها(٢).

ومعظم المصريين بعد الفتح مسلمين كانوا أو أقباط احتفظوا بأسمائهم القبطية أو المصرية القديمة(٣).

أما عن الختان فى المسيحية، فقد جاء فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: "ليس الختان شيئا، وليست العزلة شيئا بل حفظ وصايا الله(٤)"، وعلى الرغم مما جاء فى الكتاب المقدس، إلا أنه كان الكثير من المصريين المسيحيين اعتادوا تعميد أطفالهم قبل الختان(٥)، ويفضلون أن يكون مع عيد الختان(٦).

---

1 - Balogh/ Kahle, Two Coptic Documents, in: Aegyptus 33, 1953, PP. 335 FF.:
شفيق علام: مرجع سابق، ص٢٢.

2 - Salamon: Un texte Arabe inedit Pour Servir a L'histoire des Chretiens d'Egypte, Le Caire, 1906; P. 18.

3 - Grohmann: Arabic Papyri, Vol. L, PP. 109-112.

٤ - الإنجيل: رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس. الاصحاح السابع، ١٨-١٩.

٥ - ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص٢٩٨؛ وأيضا تاريخ ابن الراهب، ص ص١٣٨، ١٣٩؛ فتحى عثمان: مرجع سابق، ص١٩٤.

٦ - يفضل كثير من المسيحيين المصريين ختان أطفالهم فى عيد الختان، الذى كان يحل فى سادس بؤنة، فى ذكرى ختان المسيح، وجدير بالذكر أن الأقباط دون غيرهم- كانوا يختنون أولادهم فى ذلك اليوم تبركا به. انظر: القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٧؛ بطرس الجميل: السنكسار، جـ١، ص٢٤٠؛ مراد كامل: مرجع سابق، ص١٧٥.

فالتعميد والتثبيت يتضمن تنصير الأطفال حديثي الولادة، ولم يحدث أن خالف القبط هذه التقاليد، أو تراجعوا عن القيام بها طوال عصر الولاة، كما أن مراسيم التعميد أو المعمودية لم تلغ إطلاقا. ولا يجوز تعميد الأطفال فى أيام الصوم الكبير والأسبوع المقدس، ولا فى عيد القيامة(١).

ويشير ساويرس إلى أن البطرك أنبا خريسطو دولس فى عهد الخليفة المستنصر كتب قانونا للكنيسة القبطية، ويتضمن هذا القانون، الا يعمد ذكر وأنثى فى معمودية واحدة، وأنه لا يجوز أن تتم المعمودية فى يوم الجمعة الكبير، ولا فى أيام الخماسين، وإذا عمد أحد الأطفال، فليصم إلى أن يتقرب إذا قدر، ولا يجوز معمودية بدون قربان(٢).

ويشير المقدسى إلى سر المعمودية بقوله: "من ذكر أحكامهم لابد من تنصير أولادهم، وذلك أنهم يعمدون إلى من يريدون تنصيره، فيغمسونه فى ماء قد أغلى بالرياحين، وألوان الطيب فى اجانة جديدة، ويقرؤون عليه شيئا من كتابهم، ويزعمون أنه ينزل عليه روح القدس، ويسمون هذا العمل المعمودية(٣)".

الملابس:

ومما لا شك فيه أن فرض قيود الملابس على أهل الذمة، كانت ضرورة حتمية لتمييز المسلمين من غير المسلمين، فلا تكون هناك فرصة للاندساس بينهم، وليحتفظ العرب بهيبتهم بين الرعايا، وللتأكيد من أن المسلمين محافظون على أداء الصلاة فى المساجد فى مواعيدها جماعة، ومحاسبة المقصرين منهم. هذا بالإضافة إلى سهولة التعرف على أهل الذمة، والتأكد من عدم مخالفتهم لما التزموا به، كأداء الجزية وغيرها.

ومما يذكر أن العهد الصادر من الخليفة عمر بن الخطاب إنما هو فى أساسه موافقة على ما طلبه النصارى أنفسهم حال فتح مصر فى رسالة إلى الفاتحين جاء

---

١ – المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٥،

Butler: Op. Cit., T. 2, PP. 363-371.

٢ – ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ٣، ص ص١٦٦، ١٦٧.

٣ – المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٤٦؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٥.

فيها: "إنكم لما قد متهم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا، على أن تؤدى الجزية عن يد ونحن صاغرون، وعلى ألا نمنع أحدا من المسلمين أن ينزل كنائسنا فى الليل والنهار، وإن نضيفهم فيها ثلاثا... ولا نضرب فيها بالنواقيس الا ضربا خفيفا... ولا نؤدى فيها ولا فى شئ من منازلنا جاسوسا لعدوكم، ولا تحدث كنيسة ولا ديرا ولا صومعة ولا قلاية، ولا نجد ما خرب منها... وأن نجز مقادم رءوسنا، ونشد الزنار فى أوساطنا... ولا تتشبه بالمسلمين فى لباسهم ولا فى هيئتم ولا فى سلوكهم، ولا فى نقش خواتيمهم... ولا نتكنى بكناهم، وعلينا أن نعظمهم ونوقرهم... ولا نبيع خمرا ولا نظهرها... ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، فأن خالفنا فلاذمة لنا ولا عهدا وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق والعناد(١)".

هذا وأن كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: " أن يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضا ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسى، ولا يضربوا على النساء ولا على الوالدان، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم(٢)" فنلاحظ أن الأختام كانت مؤقتة خلال جمع الجزية، وذلك حتى لا يفلت أحد، وبالرجوع للنص الخاص بتقدم الذميين بطلب أن يطبق عليهم الشروط التى ارتضوها ومنها الملابس فالأمر لم يكن الزامهم بتغيير هيئتهم، أو الزامهم بارتداء ملبس لم يتعودوه، وإنما الإبقاء على زيهم الذى حددوه فى النص واعتادوا عليه من قبل.

هذه أول إشارة إلى ملابس أهل الذمة وهيئتهم فى مصر حتى نهاية القرن الأول الهجرى، فقد ارتضو بشد المنطق- وهو حزام جلد- حول وسطهم، وأن يحلقوا مقدمة رؤسهم، وأن تكون أقدامهم من جانب واحد عند ركوبهم(٣).

ويبدو أن المسيحيين طوال هذا القرن، كانوا حريصين على ارتداء ملابسهم الخاصة بهم، دون القيام بأدنى محاولة للتشبه بالمسلمين، وارتداء ملابسهم، فلما

---

١ - انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ط روضة الشام سنة ١٣٣٠، جـ١، ص١٧٨.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٥١.

٣ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص٣٧٨.

أصبح العرب على جانب كبير من الحضارة والتمدن، ورسخت أقدامهم في البلاد رأى المسيحيون أن يتشبهوا بهم، وتطلعوا إلى ارتداء ملابسهم.

ولذلك أصبح من الضروري أن يتيقظ الحكام والخلفاء لذلك، فيبادرون إلى وضع حد لهذه الظاهرة، وبدا ذلك واضحا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي اشتهر بتشدده في تطبيق الأحكام الإسلامية بشأن أهل الذمة، فنراه يكتب إلى عماله في مختلف الأقاليم الإسلامية بما فيها مصر بضرورة الزام الذميين بعدم التشبه بالمسلمين في لباسهم[١].

وتكثر الروايات التاريخية عن أوامر عمر بن العزيز، شأن ملابس أهل الذمة، ومنها أن الخليفة عمر بن عبد العزيز حرم على جميع الذميين لبس العمائم، والتشبه بالمسلمين في لباسهم، وأنه منعهم من ارتداء ملابس الجند العرب، كما جاء في بعض كتبه إلى ولاته: "أن لا يمشين نصراني الا مفروق الناحية، ولا يلبس قباء، ولا يمشي الا بزناد من جلود، ولا يلبس طيلسانا، ولا سراويل ذات خذمة، ولا نعلا لها عذبة، ولا يوجد في بيته سلاح الا أنتهب[٢]".

وتلك الأوامر كانت نتيجة إهمال الذميين لبس الزنار أو المنطق الذي يشد أوساطهم، ويميز بينهم وبين أقدامهم على وضع العمائم على رؤوسهم.

ثم أننا لم نجد في المصادر آية إشارة إلى ملابس النصارى في مصر منذ عصر المأمون حتى عصر الخليفة العباسي المتوكل على الله ٢٣٥هـ/٨٤٩م الذي تشدد مع الذميين، وإلزامهم بكثير من الأمور، وهدد من يحاول عدم تنفيذها، فكتب في سنة ٢٣٥هـ إلى مختلف الأقاليم الإسلامية بما فيها مصر يوصي عماله بضرورة التمييز بين المسلمين وغير المسلمين في الملابس، والركوب[٣]، وإلزامهم ببعض الأمور في هذا الشأن وتحذيرهم بمخالفة ذلك، وبعض هذه الكتب جاء فيها:

---

١ – ابن الأخوة: معالم القربة، ص٩٣؛ ترتون: أهل الذمة، ص١٢٨.

٢ – عبد الله بن عبد الحكم: سيرة عمر بن العزيز، القاهرة ١٩٥٤، ص١٣٦؛ ابن كثير: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٢١.

٣ – ويذكر القلقشندي: "تلبس النصارى واليهود ثياب العسلي، وأن لا يمكنوا من لبس البياض كي لا يتشبهوا بالمسلمين، وأن تكون ركبهم خشبا، وأن تهدم بيعهم المستجدة، وأن تطلق عليهم الجزية، ولا يفسح لهم في دخول حمامات خدمها من أهل الإسلام، ولا يستخدموا مسلما في حوائجهم لنفوسهم" وأن المتوكل أول من ألزمهم ذلك. انظر: القلقشندي: صبح الاعشى، جـ١٣، ص٣٦٦؛ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤، وأيضا: القول الابريزي، ص٤٨.

"وقد رأى أمير المؤمنين، وبالله توفيقه وإرشاده، أن يجعل أهل الذمة جميعا بحضرته فى نواحى أعماله، أقربها وأبعدها، وأخصهم وأحسبهم، على تغيير طيالستهم التى يلبسها من لبسها من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم، ملونة كألوان الثياب العسلية لا يتجاوز ذلك متجاوز منهم إلى غيره... ومن مصر عن هذه الطبقة من اتباعهم، وارذالهم، ومن سعد به حاله من لبس الطيالسه، أخذ بتركيب خرقتين، صبغهما ذلك الصبغ، تكون استدارة كل واحدة منها شبرا تاما فى مثله، على موضع أمام ثوبه الذى يلبسه تلقاء صدره، ومن وراء ظهره، أن يؤخذ الجميع منهم فى قلانسهم تركيب ازرة عليها تخالف ألوانها، ألوان القلانس، وترفع فى أماكنها التى يقع بها منها، لئلا يلصق بها فيستتر ولا يكون ما يركب منها على احساك فيخفى، وكذلك فى سروجهم باتخاذ ركب خشب لها، ونصب اكر على قرابيسها[1] تكون نائية عنها، ومرفقة عليها لا يرخص لهم فى أزالتها عن أعلى قرابيهم، ومواخير سروجهم إلى جوانبها، بل يتفقد ذلك منهم ليتبع ما وقع من الذى أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه، ظاهرا، يثبت الناظر من غير تأمل، وتأخذه الأعين من غير طلب، وأن تؤخذ من أمهاتهم وعبيدهم من يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير مكان المناطق التى كانت فى أوساطهم...[2]".

هكذا نرى أن أوامر عمر بن العزيز كانت لا تتعدى المنطق وقص مقادم الشعر وغير ذلك، بينما المتوكل أمر بوضع علامات من الأمام والخلف والرأس، وحدد أوصاف ثيابهم.

والراوية الكنسية لا تعطينا تفصيلات عن مدى تطبيق أهل الذمة فى مصر لهذه الأوامر، ولكن يعتقد انهم وضعوها موضع التنفيذ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الذميين فى مختلف الأقاليم الإسلامية خاصة فى العراق، واقتصرت الرواية على الإشارة إلى أن المتوكل أمر المسيحيين فى مصر بعدم لبس الثياب ذات اللون الأبيض، وأن تكون ثيابهم مصبوغة[3].

---

١ - ابن زين القاضى: شروط النصارى، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٩٥٢، ١٣١٣ تاريخ، ورقة ١٤، ١٥.

٢ - ابن زين القاضى: شروط النصارى، ورقة ١٤، ١٥؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٢، ٤٩٤؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٥، ص٢٨٥؛ ابن الاخوة: معالم القربة، ص ص٩٣، ٩٤.

٣ - ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ١، ص ص٤، ٥.

كما أمر المتوكل نساء أهل الذمة بلبس أزار عسلى اللون(١)، وتشير بعض المصادر إلى أ المرأة الذمية كانت تتدثر بالدثار الأصفر، حين تغادر بيتها إلى الخارج، وتضع المنطق حول وسطها(٢)، وبعد بضع سنوات، وفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م الزم الخليفة المتوكل أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين، وأمرهم بالاقتصار على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين(٣).

أما رجال اكليروس الكنيسة فكانت فكانت لهم ملابس كنسية خاصة بهم، منها البرنس، وهو رداء مدور واسع مفتوح من الإمام بلا أكمام، وهو من ضمن ملابس الخدمة(٤).

والشملة، وهى تشبه العمامة التى كانت يلبسها رئيس الكهنة(٥)، وأيضا البلين أو الابهنس، فقد جاء فى الرواية القبطية عند الإشارة إلى القوانين التى وضعها البطرك بنيامين لدير أبى مقار، الا يصعد قس إلى هيكل هذا الدير إلا بعد أن يرتدى بلينة ولا يتقرب فيه قس ولا شماس إلا بعد ارتدائه الابهنسى أو بلين(٦).

أما التوبية فهى عبارة عن رداء طويل يصل إلى القدم، محلى بالجواهر فى شكل علامة الصليب أو بخيوط من الحرير(٧) والمنطق(٨)، ويمكن القول أن المنطق كان من أهم أنواع الملابس التى تميز المسيحيين فى مصر عن المسلمين وأنه لم

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤.

٢ – ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص ص١٣١، ١٣٢.

٣ – ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٥، ص٢٨٥؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤.

٤ – القمص يوحنا سلامة: اللآلئ النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، جـ١، ط٣، مصر ١٩٦٥م، ص٢٥٨؛

Butler: Op. Cit., T. 2, PP. 98, 99.

٥ – القمص سلامة: اللآلئ النفيسة، ص٢٥٨.

٦ – ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ١، ص١١٨.

٧ – التوبية: ويسميها اليونان استيخاره ومعناها فى الأصل اليونانى "اخط"، وتشير إلى ثوب المسيح، الذى ألقى عليه اليهود القرعة، وإلى حلة المجد النورانية يشترك فى لبسها جميع خدام المذبح على اختلاف درجاتهم، وقد أشار معلموا الكنيسة بأن تكون واصلة إلى القدمين.

انظر: اللآلئ النفسية، ص٢٥٤، رؤوف حبيب: دليل المتحف القبطى، القاهرة ١٩٦٦، ص١٢٣.

٨ – ويسمى فى الاصطلاح الكنسى (حياصة) وهى عبارة عن حزام من الحرير أو القصب أو الفضة يلبسها رئيس الكهنة ليشد بها وسطه وقت الخدمة. انظر: اللآلئ النفسية، ص٢٥٥.

Butler: Ancient Coptic Churches. T. 2. PP. 98, 99.

يكن خاص برجال الكنيسة وحدهم، ثــم هنــاك الحبريــة Chasnaleor Cope[١] والبدرشيل[٢] Stele، بينما تنفرد بعض الروايات بذكر ما يسمى الأكمـام Sleeves وهو غطاء للاذرع، وتشير روايات أخرى إلى ما يسمى المانبل Maniple ، وينفرد بلبسها أصحاب الرتب الكهنوتية بعد الشمامسة أو ما هم دونهم من الكهنوت[٣].

أما ملابس الرهبان فى الأديرة المصرية، فكانت عبارة عن ثوب قصــير مــن الكتان بدون أكمام بحيث تصل إلى أسفل المرفقين، وكان الراهــب يغطــى كتفــه ورقبته بفراء مدبوغ مصنوع من جلد الغنم أو الماعز[٤].

أما الرداء الخارجى للراهب فيسمى اسكيم الرهبان[٥]، وهو رداء قصــير مــن الكتان تمر فوقه خيوط صوفية مجدولة تنزل من أعلى العنق وتتدلى علــى جــانبى الرقبة، وتصل إلى الكتفين، وتخيط بأسفل الإبطين بحيث يعقــد طرفاهــا وتــترك الأيدي طليقة، ويتصل بالاسكيم قلنسوة أو غطاء للرأس من الوبر، رســمت عليــه بعض الصلبان.

وأخيرا يشد الراهب وسطه بمنطق من الجلد[٦]، كما كان الراهب يمسك بيــده عكازا ولا يرتدى الألوان المصبوغة.

وكان الرهبان وقت القداس يحرم عليهم تغطية رؤسهم أو لبــس الصنــادل أو ارتداء السراويل التى تغطى القميص فتصل إلى الأرض، ومن الواضح أن الرهبــان

---

1 - Ibid: Op Cit., PP. 99, 100.

٢ - البدرشيل وهو ما يوضع حول العنق، وهو خاص بالشمامسة ويلبسه كبارهم على الجهة اليسرى تحت الابط اليسرى الى الكتف اليمنى وطرفاه متدليان الواحد من الأمام والأخر مــن الخلــف، وصغــارهم يلبسونه على شكل صليب من خلف، انظر: اللالئ النفسية، ص٢٥٤؛ رؤوف حبيب: مرجــع ســابق، ص١٢٣.

3 - Butler: Op. Cit., P. 98.

٤ - ساويرس: سير الأباء، م٢، جـ١، ص٦؛ حكيم امين: دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية، القاهرة ١٩٦٣م، ص١٤٤.

٥ - الاسكيم كلمة مشتقة من اللفظ اليونانى اسخيما ومعناه رداء الرهبان المتقدمين فى الفضيلة. انظر: حكيم أمين: دراسات فى تاريخ الرهبانية، ص١٤٤؛ رؤوف حبيب: دليل المتحف القبطى، ص١٢٣.

٦ - القمص يوحنا: اللالئ النفسية، ص ص٢٤٦-٢٤٩؛ حكيم أمين: دراسات فى تــاريخ الرهبانيــة ص ص١٤٤، ١٤٦؛ ويذكر ابن عبد الحكم عن ملابس رهبان الإسكندرية "وكان لباسهم فيها السواد والحمرة فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام" ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٤٢.

كانوا لا يبدون أى اهتمام بملابسهم، ولذلك كانت بسيطة ورخيصة إذ لا يعنون بحياكتها[١].

ويذكر المقريزى أن الراهب أنطونيوس المصرى، هو أول من ابتدأ بلبس الصوف[٢].

الطعام والشراب :

كان للجماعات المسيحية فى مصر طابعها المميز، وهو الحرص الشديد على العادات والتقاليد، وخاصة فيما يتعلق بالدين، وما فرضته شرائعهم، ولذا فإن المصريين المسيحيين اقبلوا على الصيام، وخاصة فى مواسم الصيام الأربعة الرئيسية، وأولها الصوم الكبير، ويسمى أيضا صوم الأربعين المقدس[٣]، ويكون هذا الصيام فى الأيام الخمس والخمسين السابقة لعيد الفصح، والصوم عندهم هو الامتناع طيلة أيام الصيام عن أكل اللحوم والأسماك والبيض والألبان ومنتجاتها، بينما يجوز لهم تنازل الخضروات والفواكه والبقول المعدة بالزيت[٤].

وكان لدى المسيحيين عادة متأصلة وهى الذهاب إلى الكنيسة من غير تناول أى طعام على الإطلاق، إذ يتناولون وجبة المحبة بعد الصلاة، والانتهاء من القداس، وتتناوب العائلات كل بدورها فى إعداد لهذه الوجبة، وتقديمها للكنيسة[٥].

ويستعمل الزيت عادة فى الطعام، ولذلك قام الأب يوحنا فى عهد عبد العزيز بن مروان ببناء بيعة الشهيد مارى مرقس، وبنى لها طاحونة كعك ومعصرة زيت حار، وهو يستخدم كثيرا عند صومهم[٦].

---

١ – حكيم أمين: مرجع سابق. ص١٤٦.

٢ – المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٨٨.

٣ – أبى الفدا: المختصر. جـ١، ص٩١؛ ابن الوردى: تتمة المختصر. ص١٢٨؛ وقد سمى بصوم الاربعين لأن مدة هذا الصيام ينقصر عددها إلى أربعين يوما فقط، ذلك إذا استخرجنا من المدة السابقة (٥٥ يوما) أيام الآحاد والسبوت من كل أسبوع والتى يجوز للقبط الصيام فيها، انظر:

Autefage: Les Captes. Lyon. 1885. P. 29-30.

4 - Ibid: PP. 29-30.

ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ٢، ص٢٦٠.

٥ – ايريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة القبطية، جـ٢، ص ص٥٠٤، ٥٠٥.

٦ – ساويرس: سير الأباء، م١، جـ١، ص١٢٦.

وكان الراهب يعيش حياة قاسية صارمة يقتات البقول كالفول والعدس إلى جانب الأسماك، ولا يمكنه تناول شئ من اللحوم فى طعامه إلا فى أيام الأعياد(١).

وعند تقديم القربان يستخدمون الخبز من الدقيق، ويكون هذا الخبز عادة غير مختمر وبدون ملح، وخاليا من المواد الدهنية أيضا، ومختوما بختم باللغة القبطية فيه شكر لله(٢).

أما الخمر اللازم للقربان، وهو من ضروريات القداس، فيصنع من عصير العنب أو الزبيب المجفف المنقوع فى الماء لبعض الوقت، وكانت الخمور تعد بكميات كبيرة تكفى السنة كلها، توزع على مختلف الكنائس فى جميع أنحاء مصر(٣)، وفى بعض الأحيان تصدر تعليمات من قبل الإدارة الإسلامية فى مصر بمنع صنع النبيذ فى جميع أنحاء البلاد المصرية، وخاصة الفسطاط، وحذر من بيع وشراء الخمور، إلا أنه مع حرص الأقباط على تقديم القربان، عمدوا إلى عيدان النرجون، فكانوا ينقعونها فى الماء، ثم يعصرونها، ويكون هذا العصير عوضا عن الخمور المصنوعة من العنب والزبيب(٤).

وكانت تستخدم فى أثناء القداس عدة أوان هى الكأس والصينية والقبة والملعقة والعلبة، وتسمى أيضا كرسى الكأس والحصيرة أو الطبق وتكون دائرية الشكل يتوسطها صليب كبير إلى جانب الصلبان الصغيرة فى الجوانب، وتعمل عادة من الحرير(٥).

ويذكر أيضا أن هذه الأوانى المستخدمة فى القداس كانت فى الغالب مصنوعة من الذهب والفضة، ولكنها فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى، استبدلت بالأوانى الزجاجية والخشبية بعد ذلك(٦).

---

1 - Autefage: Les Coptes. P. 33.

٢ – ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ٣، ص١٦٩؛ بتشر: تاريخ الأمة القبطية، جـ٣، ص٤٤.

3 - Butler: Op. Cit.. P. 281.

القميص يوحنا: اللآلئ النفسية، جـ١، ص٢٦٢.

٤ – ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ٢، ص٥.

5 - Butler: Op. Cit.. PP. 37-56.

6 - Butler: Op. Cit.. PP. 38.

بتشر: تاريخ الأمة القبطية، جـ٢، ص١٧٦.

ومن الأطعمة التى تصنع خصيصا فى الأعياد والمناسبات- عند خميس العهد- العدس المطبوخ (المقشور)، يقول النويرى: "يسمون هذا الخميس خميس العدس، وهم يطبخون فيه العدس المقشور على ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز، ومنها خميس البيض أيضا[١]". وكانوا يذبحون الذبائح عند الاختفال بعيد القديس ميخائيل، واستمر ذلك طوال عصر الولاة[٢].

وارتبطت بعض الأطعمة والحلوى بعيد الفيروز حتى أصبحت من ضروريات ذلك اليوم، وربما نشأت بسببها المشاكل داخل البيوت، ومن هذه الأطعمة والحلوى الزلابية والهريسة، كما جرت العادة بأكل بعض الفواكه فى ذلك اليوم مثل البطيخ والخوخ والبلح"... وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن[٣]".

وفى عيد الغطاس يصنعون العصيدة التى شاركهم فيها العرب المسلمون ويزعمون أن من يأكلها يتقى البرد طوال العام[٤].

المسكن :

وضحت الوثائق البردية مدى تمتع المسيحيين فى مصر بحرية الامتلاك للمنازل وتبادلها، وخاصة أن هذا التبادل كان يتم بين العرب المسلمين، وبين أهل الذمة فى مصر، أى أن المسيحيين قد اندمجوا مع العرب الفاتحين، فلم يكونوا مغلقين على أنفسهم بعيدين عن هذا المجتمع الجديد[٥].

فقد أشار المقريزى إلى هذه الظاهرة من إقامة النصارى فى عدة أماكن بالفسطاط أثناء الفتح العربى، كما أشرنا من قبل[٦]، وانتشرت دور المسيحيين بين دور المسلمين، فلم يكن هناك ما يميزها فى البداية عن دور العرب.

---

١ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٧؛ ويقول عنه المقريزى: "(خميس العهد) ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ويتهادون فيه، انظر: الخطط، جـ١، ص٤٩٥؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ٢، ص٢٠٨.

٢ – أبو صالح الأرمنى: تاريخه، ص١١٦؛ المقريزى: القول الابريزى، ص٢٧.

٣ – ابن الحاج: المدخل إلى الشرع الشريف، جـ٢، ط القاهرة ١٣٤٨هـ، ص٤٩.

٤ – المصدر نفسه، والجزء ، ص ص٥٨، ٥٩.

٥ – انظر: وثيقة غير منشورة- متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، رقم ٩٨١٧، وثيقة غير منشورة- متحف الفن الإسلامى، برقم ٩٨١٨.

٦ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٨٦.

ويؤيد هذا القول أن العرب تركوا الحرية التامة فى إقامة المسيحيين المصريين بين دور المسلمين، حتى عند إنشاء المدن الجديدة، فيتحدث مؤرخ الكنيسة المصرية ساويرس بأن عبد العزيز مروان عند تشيده لمدينة حلوان، أمر الأب أسحق ببناء بيعة فى حلوان "لأن فى ذلك الموضع كان يمضى إلى الأمير عبد العزيز، وكان قد أمر اراخنة الصعيد، وسائر الكور أن يبنى كل واحد منهم لنفسه مسكنا بحلوان المدينة[١].

لكن موقف الإدارة الإسلامية تجاه أهل الذمة تغير منذ عهد الخليفة المتوكل على الله العباسى ٢٣٥هـ/٨٤٩م، فقد أمر "بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب[٢]"، وذلك تفريقا بين منازلهم، ومنازل المسلمين.

كذلك فرض على أهل الذمة فى بناء دورهم بأن "لا يعلوا على المسلمين فى البناء ولا يساووهم، بل يكونون أدون منهم[٣]".

وقد خصصت فى الكنائس أماكن للسيدات، وذلك عندما تشتد عليهم الأوامر من قبل الخلافة الإسلامية، ولذا جعلوا هناك ممرات مؤدية إلى المنازل مباشرة حرصا على سلامة السيدات، وكان هناك أشخاص مخصصين للحراسة، فإذا ما رأوا الجند أتين، أعطوا الإشارة فتنسحب السيدات فى سكون إلى الممرات المؤدية إلى بيوتهن فى أمان[٤].

ولكن يعتقد أن هذه الإجراءات كانت وقتية، ولم تدم طويلا، ودليلنا على ذلك الوثائق البردية التى تؤيد حرية أهل الذمة فى الملكية والبيع لمنازلهم دون تدخل من قبل الإدارة فى مصر، فقد استمرت هذه الظاهرة كما تشير الأوراق البردية[٥] حتى بعد عصر الولاة.

---

١ – ساويرس: سير الأباء، جـ١، ص١٢٨.

٢ – ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٥، ص٢٣٥، المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤؛ القول الابريزى، ص٤٨؛ أدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ٢، ص٦٥.

٣ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص٣٧٩؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٩٦.

٤ – ايريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة، جـ٢، ص٥٠٦.

٥ – جروهمان: أوراق البردى، جـ١، طراز رقم ١٨٩٩، ص ص١٥٣، ١٥٤.

ففى العقد المؤرخ فى شهر المحرم سنة ٣٤١هـ/٢٨ يونية سنة ٩٥٢م، جاء فيه: "هذا ما أشترى يحنس بن شنود بن بطاقس من مقطلنى أبنت شنودة بن أيوب، وهما جميعا من سكان ططون من كورة الفيوم[١]"، وكثير من أوراق البردى تشير إلى حرية القبط فى التصرف فى منازلهم، وتوضح مدى العلاقة بينهم وبين المسلمين[٢]. ونستنتج من هذه الوثائق أن منازل النصارى فى مصر كانت تنتقل فى حرية تامة إلى أيدى المسلمين.

المآتم:

لقد جاورت مقابر المسلمين قبور النصارى منذ الفتح، بعد أن أقطع عمرو للمقوقس قطعة نحو بركة الحبش، كى تكون جبانة لدفن موتى النصارى[٣].

ويتحدث مؤرخ الكنيسة القبطية فى مصر ابن المقفع عن عادات دفن النصارى طبقا لطقوسهم، ففى أثناء أحداث فتح الإسكندرية وعودة الأب بنيامين، وجدوا رأس القديس مارى مرقس، فأوصى الأب بنيامين ببناء بيعة القديس مارى مرقس بالإسكندرية: "وعاد الأب البطرك إلى المدينة، والرأس فى حضنه يحملها، والكهنة قدامه بالقراءة والتسبيح، كما يشاكل استقبال تلك الرأس الشريفة الجليلة، وصنع تابوتا من خشب الساج، وقفلا عليه وجعل الرأس فيه[٤]".

نستنتج من هذا أن مؤرخي الكنيسة لم يتعرضوا فى كتاباتهم إلا عن سير القديسين والشهداء، فالمراسيم الجنائزية فى الأحوال المادية ليس من اليسير أن نجدها فى كتاباتهم.

وهناك رواية أخرى لمؤرخ الكنيسة المصرية، عن مشاركة البطرك اغريغوريس القبط فى أحزانهم، وخاصة جنائز الأساقفة، فلما توفى أنبا سنهوب

---

١ - نلاحظ أن يحنس بن شنودة بن بطاقس هو المشترى فى عقدى البيع رقم ٥٨، ٥٩، واسم جدة فى العقد رقم ١٩٠٢ (تاريخ. مجموعة دار الكتب المصرية بطاقس، وقد ورد اسم مدينة ططون الواقعة جنوب الفيوم كثيرا فى أوراق البردى، انظر: جروهمان: مرجع سابق، جـ١، ص١٥٤.

٢ - جروهمان: أوراق البردى. جـ١، طراز رقم ١٩٠١، ص١٦٣.

٣ - يقول المقريزى عن إعطاء المقوقس: "فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى" الخطط، جـ١، ص١٢٤، جـ٢، ص٤٩٢، ويذكر آدم متز: "وكان موتى المسلمين، وأهل الذمة يدفنون كل على حدة" انظر: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٩٢.

٤ - ساويرس: سير الاباء البطاركة، جـ١، ص١٠٩؛ مراد كامل: حضارة مصر، ص١٧٧.

أسقف مصر، حضر هذا البطرك الأرمنى لتجنيزه والصلاة عليه، وسار فى جنازته بصحبة القبط والأساقفة والكهنة[١].

وقد كان من عادات المسيحيين في مصر أن يجعلوا جسد المتوفى ملفوفا بكفن مسجى فى داخل تابوت خشبى[٢].

هذا ولم تشر المصادر الإسلامية إلى مدافن أهل الذمة، إلا حين إصدار بعض المراسيم الخاصة بشأنهم، وذلك عندما أمر المتوكل على الله فى سنة خمس وثلاثين ومائتين، أهل الذمة، "بتسوية قبورهم مع الأرض[٣]" وهذا حتى لا تكون المقابر مزارات تعبد من دون الله.

اليهود :

فيما يتعلق باليهود فإن تاريخهم خلال تلك الفترة يحيط به الغموض الشديد، وترجع أقدم الوثائق التى تشير إلى يهود الفسطاط إلى عام ١٣٣هـ/٧٥٠م[٤].

وإذا كان آدم متز أشار إلى أعداد اليهود فى مصر بذكره أن العاصمة بها سبعة آلاف، وبالإسكندرية ثلاثة آلاف، وبمدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف، وستمائة فى المدن التجارية بالصعيد[٥]"، فإننا نعتمد على نص ابن عبد الحكم حيث كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب عند فتحه للإسكندرية يقول: "أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية[٦]" وفى موضع أخر قال: "ترحل من الإسكندرية فى الليلة التى دخلها عمرو بن العاص، وفى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو سبعون ألف يهودى[٧]"، وجعل عمرو بن العاص من بين شروط العهد الذى منحه لسكان مدينة الإسكندرية شرطا يتضمن

---

١ – ابن المقفع: سير الأباء، م٢، جـ٣، ص٢١٩.

٢ – ابن المقفع: سير الأباء، جـ٢، م٢، ص٧٧.

٣ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٤.

4 - Mann (J): The Jews in Egypt and Palestine Under the Fatimid Caliphs. Vol. 1. Oxford 1920. P. 13.

٥ – ادم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص ص٨٣، ٨٤.

٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٨٢.

٧ – المصدر نفسه، والصفحة.

السماح لليهود بالبقاء فى الإسكندرية مقابل دفع الجزية للمسلمين والالتزام بما شوط عليهم(١).

نستنتج من هذا أن أعدادهم فى مصر كانت قليلة عقب الفتح، وتركزوا فى مدينة الإسكندرية بصفة خاصة، وممن وجد فى المدن الأخرى فمن المحتمل أنهم ممن رحلوا عقب الفتح العربى.

وتشير وثائق الجنيزة(٢) التى وصلت إلينا من الفسطاط، والإسكندرية والمحلة، ومن أماكن أخرى فى مصر، أن بيوت اليهود كانت متاخمة لبيوت المسلمين وبيوت المسيحيين، فلم يكن هناك جيتو(٣)، ولكن على العكس من ذلك، كانت هناك فرص كثيرة للاختلاط اليومى، بالإضافة إلى هذا لم يكن هناك جيتو حرفى(٤).

---

1 - Chronique de Jean, P. 455.

٢ - كلمة جنيزة Geniza "كلمة عبرية - مثل الكلمة العربية جنازة - مشتقة من الكلمة الفارسية جنك بمعنى (خزانة)، وفى العصور الوسطى أطلقت كلمة جنيزة على تلك الحجرة التى كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وإيصالات، حتى لا تدنس كلمة (الله) التى قد تكون مكتوبة فى هذه الوثائق.

وأطلق الباحثون مصطلح وثائق الجنيزة القاهرية The Cairo Geniza Documents على مجموعة الوثائق التى عثر عليها فى حجرة مظلمة فى سينا جوج (معبد اليهود) بالفسطاط على مقربة من القاهرة، وكذلك على مجموعة وثائق عثر عليها فى مقبرة البساتين.

وترجع معظم وثائق الجنيزة من الناحية التاريخية إلى العصرين الفاطمى (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) والأيوبى (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م).

Goitein, S. D., "L' Etat actuel de la recherché sur les documents de la Geniza du Caire" Revue des Etudes Juives, Troisieme serie, I (CXVIII) (1959-1960), PP. 9-27; id., "The Cairo Geniza as a source for the history of muslim Civilisation" in Studia Islamica, III (1955), PP. 75-91.

حسنين ربيع: مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ط الرياض ١٩٧٩م، جـ٢، ص١٣٢،

جوايتاين: دراسات فى التاريخ الإسلامى، تعريب عطية القوصى، الكويت، ١٩٨٠، ص١٥١، ١٦١.

٣ - أن فكرة "جيتو" وهى تجمعات اليهود فى حى يجمعهم ترجع إلى العصر البطلمى والرومانى وهى أشبه بالمستوطنات الحالية.

انظر: إبراهيم نصحى: مصر فى عصر البطالمة، جـ٢، ط الرابعة، الأنجلو ١٩٧٦م، ص١٤٩-١٦٦، مصطفى كمال: اليهود فى عصرى البطالمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨، ص٩٧ وما بعدها.

٤ - جوايتاين: مرجع سابق ،١٦١.

ولم يكن اليهود منبوذين فى الدولة الإسلامية مثلما كان حالهم فى مجتمع أوربا العصور الوسطى يسكنون فى أحياء خاصة بهم مغلقة عليهم (عرفت بالجيتو[١]) بل كانوا يسكنون مع المسلمين أن شاءوا ذلك، فلم تكن فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لغير المسلمين لا يتعدونها.

وقد تمتع اليهود فى مصر بثراء كبير، ولا أدل على هذا من أنه فى عصر الدولة الطولونية ، حينما الزم الأمير أحمد بن طولون بطرك القبط انبا خايال (أو ميخائيل) بدفع غرامة مالية قدرها عشرين ألف دينار، ولم يكن لديه من الأموال ما يمكنه من دفع هذه الغرامة، مما أضطره إلى بيع بعض الكنائس القبطية فى مصر، وأيضا بعض أملاك الكنائس الأخرى، وقد اشترى اليهود منه كل ما أراد بيعه فى ذلك الوقت[٢]، ومن المحتمل أن تلك الكنائس تحولت إلى معابد يهودية.

أما عن ملابس اليهود، فشأنهم شأن بقية أهل الذمة – تنفيذ ما شرط عليهم عن الفتح، فإذا خالفوا كان يتم تنبيههم إلى تلك الشروط[٣].

وقد أشار ستيلمان Stillman أن المرأة اليهودية كانت تلبس نفس أردية المسلمة، وتضع على وجهها نفس حجابها، حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله[٤].

وزواج اليهود لا يصح الا بولى، وخطبة، وثلاثة شهود، ومهر مائتى درهم للبكر، ومائه للثيب، فإن كان أقل من ذلك لم يجز[٥]، ويحضر عند عقد النكاح كأس من خمر ودستة من ريحان، فيأخذ الحاخام الكأس ويباركها، ويخطب خطبة النكاح، ثم يعطيه للزوج، ويقول: قد تزوجت فلانه بهذه الفضة أو بهذا الذهب، وهو خاتم فى يده، وبهذا الكأس من الخمر وبمهر كذا، درهم، ويشرب منها جرعة ثم ينزلون إلى منزل العروس، ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والريحان، والكأس من يد عريسها، فإذا أخذت وشربت منها جرعة يعقد النكاح[٦].

---

١ – سيدة كاشف: مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين، القاهرة ١٩٦٠م، ص٢١٤، عبد المنعم ماجد: الحاكم بامر الله، القاهرة ١٩٥٩، ص١٠١.

2 - Mann: The Jews. T. 1. P. 14.

٣ – انظر: الكندى: الولاة، ص٢٩٠؛

Chronique de Jean. P. 455.

4 - Yedida K. Stillman: The importance of the Cairo Geniza international Journal of the Middle East studies. Cambridge University October 1976. No. 4. P. 582.

٥ – المقدسي: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٣٩.

٦ – المقدسي: البدء والتاريخ، جـ٤، ص ص٣٩، ٤٠.

هذا وكان الجمع بين الأختين فى الزواج عند اليهود مباحا زمن يعقوب إلا أنــه أصبح من المحظورات بعد ذلك[١].

ولدينا أقدم عقد زواج فى مصر، وهو عبارة عن وثيقة عبرية لعقد بيــن فتــى يهودى يدعى بل بن هانتير، وفتاة يهودية تدعى أستر ابنة أحد الحاخامات وتشــتمل الوثيقة على أدعيات وتمنيات بالحظ السعيد لهما[٢].

كما تحوى هذه الوثيقة معلومات تاريخية، إذ تبدأ بالتقويم اليهودى الــذى يبــدأ من خلق العالم يوم الجمعة الموافق ٣ من شهر سيفان ٥٤٦٠، والتاريخ الثانى يبــدأ من خراب بيت المقدس، وهو سنة ١٦٣٢، وأهمية هذه الوثيقة كمــا يتضــح مــن نصوصها هو التزام العريس بنفقات عروسه من قيمة المهر، وأن الزوجة بمقتضــى هذا العقد صارت ملكا له بعد تحرير العقد[٣].

ويذكر جوايتاين أن الطبقة المتوسطة من المجتمــع اليــهودى كــانت تنــادى بالزواج من واحدة، ولم يعثر إلا على حالة زواج واحدة فقط لرجــل تــزوج مــن امرأتين، وكانت فى مدينة بلبيس، ووجد فى العقد من الاتفاق المبرم على أن تعتنــى الزوجة الثانية بابنة الزوجة الأولى، وكان واضحا أن الزوجة الأولى كانت مختلــة العقل أو مريضة أو فى حالة لا تسمح لها بتربية ابنتها[٤].

وكان طبيعيا أن يشتمل عقد الزواج على شرط ألا يتخذ الزوج زوجة أخــرى، وألا تكون له محظية، كما رأينا فى الوثائق البردية العربية أن من حق الزوجة فــى بعض الأحيان أن تطرد الزوجة الثانية التى يتزوجها زوجــها أن لــم تكــن علــى هواها[٥].

---

١ - ابى الفدا: المختصر، ص٨٧.

٢ - وثيقة عبرية غير منشورة - متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، تحــت رقــم ٢٦٥٣٩، انظــر: ملحــق الدراسة، شكل (٢).

٣ - وثائق متحف الفن الإسلامى، رقم ٢٦٥٣٩.

٤ - هنا أيضا حالة أو أثنين للزواج المعروف بزواج ذوات الرحم، حيث يلزم الرجل، حتــى ولــو كــان متزوجا على أن يتزوج أرملة أخية الذى مات دون أن ينجب، والحقيقة أن مثل هذا الزواج كان نادرا، ويظهر لنا أن المجتمع اليهودى كان فى ذلك الوقت حازما فى مسألة تعدد الزوجات والأزواج، انظــر: جوايتاين: مرجع سابق، ص ص٢٠٤، ٢٠٥.

٥ - جوايتاين: مرجع سابق، ص ص٢٠٤، ٢٠٥.

وفى عقود زواج الجنيزة كان للزوجة فى الغالب الحق فى اختيار سكن الزوجية، ولم يكن للزوج حق السفر دون موافقة زوجته ورضاها. ووفقا لنصوص التلمود اليهودى، فإن الزوجة كانت لا تستطيع أن تتصرف فى ممتلكاتها الخاصة طالما كان زوجها على قيد الحياة، وفى أوراق الجنيزة نرى نساء يتصرفن بحرية فى ممتلكاتهن فى وقت يكون فيه الزوج مسافرا، وأحيانا نرى الزوج يمنح زوجته حق التصرف حتى فى ممتلكاته الخاصة[١].

وقد وجدنا فى قسائم زواج كثيرة من أوراق الجنيزة عصاه صغيرة يؤخذ بواسطتها "الكحل" للعين تثبت أنها جزء منفصل من أجزاء جهاز العروسة، لأنها كانت تصنع فى العادة من مادة غالية الثمن البللور أو الذهب أو الفضة[٢].

١ - المرجع نفسه، ص٢٠٥.

٢ - المرجع نفسه، ص١٦٥.

الفصل السابع
الحياة الاجتماعية العامة
فى مصر عصر الولاة

- الأعياد والمواسم عند المسلمين.
- الأعياد والمواسم عند أهل الذمة.
- المواكب العامة والاحتفالات.
- وسائل التسلية.

الفصل السابع
الحياة الاجتماعية العامة

الأعياد والمواسم عند المسلمين :

عنى المسلمون فى مصر بالاحتفالات بعيدين هما، عيد الفطر، وعيد الأضحى[1]، وقد شرع العيدان فى العام الثانى من الهجرة[2]، الا أن المصادر لم تذكر شيئا عن الاحتفالات بهما بشيء من مظاهر الأبهة فى مصر قبل عهد العباسيين الذين اهتموا إلى جانب الاحتفال بهذين العيدين بالاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف، بعد أن كان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى[3].

وكان الاحتفال بشهر رمضان يبدأ باستطلاع رؤية الهلال، والاحتفال بظهوره يحتل جانبا هاما من الاحتفالات الإسلامية، فكان أول قاضى بمصر خرج لرؤية الهلال عبد الله بن لهيعة فى بداية سنة خمس وخمسين ومائة[4]، فى خلافة أبى جعفر المنصور أى أنه كان هناك فتوى حول بداية شهر رمضان، ولابد من التصديق من قبل القاضى وشهود العيان عليها.

وقد وجد فى مصر ما يعرف "بالمسحراتى"، فى ولاية عنبسة بن اسحاق سنة

---

١ - السبب فى اتخاذهما، ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنه قدم المدينة، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله قد بدلكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى. فاول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة اثنتين من الهجرة، وفيها كان عيد الأضحى. انظر: النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٨٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص ص٤١٦، ٤١٧.

٢ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤١٧.

٣ - ادم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢١٨.

٤ - الكندى: الولاة، ص٣٧٠، القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١ن ص٤١٨؛ ويذكر ابن اياس "انه فى سنة ثمان وستين من الهجرة، توفى القاضى غوث، قاضى مصر وهو اول قاضى ركب مع الشهور لرؤية هلال شهر رمضان. وسمع البينة. وثبت عليه" وهذا يسبق ابن لهيعة أنظر: ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٥.

٢٣٨هـ/٨٥٢م إذ "كان يتوجه ماشيا إلى المسجد الجامع من مسكنه بالمعسكر بدار الأمارة. وكان ينادى فى شهر رمضان السحور[١]".

وقد اهتم أمراء الدولة الطولونية بالاشتراك فى الاحتفال بعيد الفطر، وعيد الأضحى بتلاوة القرآن والتسبيح، وإقامة الولائم.

وفى عهد الإخشيديين كانت الحكومة تشترك فى الاحتفال بعيد الفطر فيقيم الجيش عرضا كبيرا حيث "يجلس الأمير فى منظره على باب دار الإمارة، ويمر الجند أمامه فى كامل زيهم وعدتهم، ثم يتبعه حرسه الخاص، ثم ينصب السماط لأفراد الشعب، فيأكلون ويحملون ما يريدون من ألوان الطعام[٢].

وكانت العامة تستعد للاحتفال بهذا العيد منذ أواخر شهر رمضان بشراء ما يحتاجون إليه من ثياب وطعام، وكان كافور فى عيد الأضحى يسلم أحد رجاله، ويدعى أبا بكر المحلى فى كل عيد أضحى عادة "بغلا محملا ذهبا وورقا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى المنامة وما بينهما[٣]، ويصف أبو بكر ذلك بقوله: "كان يمشى معى صاحب الشرطة، ونقيب يعرف المنازل، وأطوف من بعد العشاء الأخير إلى آخر الليل، حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت أسمه الجريدة، فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة، وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدى يهنئك ويقول لك: أصرف هذا فى منفعتك[٤].

ويذكر الكندى "أنه بعد صلاة العصر من يوم عرفة اعتاد الناس الجلوس فى المسجد زمن عبد العزيز بن مروان[٥].

أما الاحتفال برأس السنة الهجرية، فلم يكن عيدا ذا صفة شعبية عامة بل ظل عيدا فى قصر الخلافة، ودار الأمارة فى الفسطاط، وأن اعتاد الناس أن يهادوا بعضهم بعضا فيه[٦].

---

١ – ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٩٤.

٢ – ابن سعيد: المغرب، ص١٦.

٣ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٤، ص ص١٠٣، ١٠٤.

٤ – ابن سعيد: المغرب، ص٣٤.

٥ – الكندى: الولاة، ص٥٠.

٦ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٤٩٠.

ومن الاحتفالات الدينية التى شهدتها مصر الخروج لتأدية مناسك الحج، حيث كان يصاحبها كسوة الكعبة[١]، إذا كان ينادى بديار مصر فى رجب، والمسافة التى يقطعها حجيج المسافرين فى البر تستغرق أربعين يوما[٢].

وقد كان العرب يجلون الكعبة فى الجاهلية والإسلام، إذ كانوا يكسونها فى العصريين، وكانت تكسى فى الجاهلية الانطاع ثم كساها النبى الثياب اليمانية وكساها عمر بن الخطاب القباطى أى القماش المصنوع بأيدى الأقباط[٣]، إذ كان يكتب فيها إلى والى مصر بأن تحاك له.

كانت كسوة الكعبة تصنع فى دور الطراز بالمدن المصرية، وخاصة تنيس وشطا وتونة ودمياط، وهناك نصوص كثيرة مكتوبة ومسجلة على كسوة الكعبة[٤].

وكانت الأحداث السياسية تؤثر على خروج حجاج مصر من أجل تأدية مناسكهم، إذ يذكر أنه فى ولاية يزيد بن حاتم على مصر من قبل الخليفة أبو جعفر المنصور سنة أربع وأربعين ومائه "منع أهل مصر من الحج بسبب خروج العلويين، فلما قتل إبراهيم بن عبد الله بن حسن أذن لهم بالحج"[٥].

تلك هى أهم مظاهر الاحتفالات الدينية التى شهدها المجتمع المصرى الإسلامى والتى كان يشارك فيها أحيانا مسيحيو مصر كما سيأتى ذكره عند الحديث عن المواكب العامة والاحتفالات.

الأعياد والمواسم والاحتفالات عند أهل الذمة :

اشترك هذا النسيج الاجتماعى فى مصر فى مظاهر اجتماعية عامة أخذوا يحتفلون بها جميعا، ومنها الإعياد الدينية، فنلاحظ أن المصريين – مسلمين ومسيحيين – كانوا يحتفلون بالأعياد الإسلامية والمسيحية على السواء ولعل ذلك يرجع إلى أن الكثير من المصريين المسلمين كانوا من أصل قبطى.

---

١ – المقريزى: الذهب المسبوك، ط القاهرة ١٩٥٩م، ص٤٣.

٢ – المصدر السابق، ص١١.

٣ – المصدر نفسه، ص٤٣.

٤ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٢، ٢٩٣، ٣٦٥؛ محمد عبد العزيز مرزوق: الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية، ص١٦، ٥٢، ٥٣، ٦١.

٥ – ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ص٢٩٣، ٢٩٤.

ويحتفل المسيحيون المصريون بأعياد دينية وقومية، إذ يحتفلون بأربعة عشر عيدا دينيا، منها سبعة تسمى (الأعياد الكبار[١]) وسبعة تسمى (الأعياد الصغار[٢]) إلى جانب الأعياد الوطنية، وعيد النيروز، والاحتفال بوفاء النيل[٣].

أما الأعياد الكبار فهى: "عيد البشارة" أى بشارة غبريال (جبريل عليه السلام) للسيدة العذراء بمولد المسيح عليه السلام، وكان موعد هذا العيد فى التاسع والعشرين من برمهات سنويا[٤].

وعيد الزيتونة (أو الشعانين، ومعناها التسبيح[٥])، ويحتفل به المسيحيون فى ذكرى دخول المسيح إلى القدس، ثم دخوله الهيكل راكبا اليعفور (الحمار)، والناس بين يديه يسبحون، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وفى ذلك اليوم يخرج الناس بسعف النخيل من الكنائس، يذهبون إلى الأماكن الخلوية والمتنزهات خصوصا ضاحية المطرية، حيث بئر البلسم التى يعتقد المسيحيون أن مريم العذراء غسلت فيه ثياب المسيح[٦]، وكان البعض يدورون بالزيتونة فى الأديرة والطواحين والأفران[٧]".

ويشير المقريزى أنه يجرى بكنيسة ميخائيل بمدينة أخميم، وكنيسة سوتيراى المخلص من العذاب "إذا عملوا عيد الزيتونة المعروف بعيد الشعانين، أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأناجيل، والشموع المشعلة، ويقفوا على باب القاضى، ثم أبواب الأعياد من المسلمين فيبخروا ويقرأوا فصلا من الأنجيل، ويطرحوا له طرحا، يعنى يمدحونه[٨].

---

١ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٥.

٢ – المصدر نفسه، جـ٢، ص٤٢٨.

٣ – الواقدى: فتوح الشام، جـ١، ص٣٧.

٤ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٥؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٦٤.

٥ – ابى الفدا: المختصر، ص٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٥؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٩٥؛ وأيضا جـ١، ص٢٦٤؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، ص١٢٨.

٦ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٥؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٦٤.

٧ – ادم متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٠٧.

٨ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ص٥١٢، ٥١٣؛ وأيضا: القول الابريزى، ص٢٧.

أما عيد الفصح، فهو بمثابة العيد الكبير لدى المسيحيين وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر، ويزعم النصارى أن المسيح عليه السلام قام بعد صلبه، ودخل على تلاميذه وسلم عليهم، وأكل معهم وكلمهم وأوصاهم وأقام في الأرض أربعين يوما ثم صعد إلى السماء[١].

ومن الأعياد الكبار أيضا، خميس الأربعين[٢]، إذ يقول التراث الديني المسيحي أن السيد المسيح بعد أربعين يوما من القيام خرج ومعه تلاميذه، حيث باركهم وصعد على السماء، وذلك عند إكماله ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ورجع التلاميذ إلى بيت المقدس بعدما وعدهم باشتهار أمرهم.

أما عيد الخميس الذى كان يسمى أيضا "عيد العنصرة"، وكان الاحتفال به في السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من الصعود حسب اعتقادهم، ويعتقد المسيحيون أنه في هذا اليوم حلت روح القدس في حواريين السيد المسيح، بعد ما تجلى لهم في شبه السنة من نار، وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع اللغات، وذهب كل منهم إلى البلد التي يعرف لغتها يدعو الناس إلى دين المسيح[٣].

كذلك من الأعياد الكبار عيد الميلاد في التاسع والعشرين من كيهك، وفي هذا العيد كان النصارى يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينوها، ويلعبون بالمشاعل، كما تباع الشموع المزدانة بالإصباغ، والتماثيل البديعة[٤].

---

١ – النويري: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩١؛ أبي الفدا: المختصر، ص٩١؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٥؛ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٩٥، جـ١، ص٢٦٤؛ وأيضا: القول الابريزي، ص١٩-٢١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ص١٢٨.

٢ – النويري: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩١؛ أبي الفدا: المختصر، ص٩١؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٦؛ المقريزي: الخطط جـ٢، ص٤٩٥؛ وأيضا، جـ١، س٢٦٤؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ص١٢٩.

٣ – النويري: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩١؛ أبي الفدا: المختصر، ص٩١؛ القلقشندي: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٦؛ المقريزي: الخطط جـ٢، ص٤٩٥؛ وأيضا جـ١، ص٢٦٥.

٤ ١ – النويري: نهاية الارب، جـ١، ص١٩١؛ أبي الفداء: المختصر، ص٩٢، القلقشندي: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٦؛ المقريزي: الخطط جـ١؛ ص٢٦٣، ٢٦٥، جـ٢ن ص٤٩٥؛ وأيضا: الابريزى، ص ص٣١، ٣٢؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ص١٢٩.

وآخر الأعياد الكبار "عيد الغطاس، ويسمى أيضا عيد المعمودية، ويحتفل به في ١١ من شهر طوبة، وهو أحياء ذكرى تعميد يوحنا المعمدان المسيح، وبمعنى أخر غسله فى مياه بحيرة الأردن، إذ حينما خرج من الماء اتصل به روح القدس، واعتاد القبط فى هذا اليوم النزول فى الماء رغم برودة الجو فى هذا الشهر[١].

يقول المسعودى فى ليلة الغطاس: "ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من كانون الثانى، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس فى مصر والأخشيد محمد بن طفج فى داره – المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل، والنيل مطيف بها، وقد أمر، فأسرج من جانب الجزيرة، وجانب الفسطاط ألف مشعل، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئات الألوف من الناس من المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق، ومنهم فى الدور الدانية، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المأكل والمشارب والملابس والات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا، ولا تغلق بها الدروب، ويغطس أكثرها فى النيل، ويزعمون أنه أمان من المرض ومبرئ للداء[٢]".

وكانت الأعياد الصغار سبعة أيضا أولها "عيد الختان" الذى كان يحل فى سادس بئونة فى ذكرى ختان المسيح، وجدير بالذكر أن الأقباط – دون غيرهم – كانوا يختتون أولادهم فى ذلك اليوم تبركا به[٣].

وفى ثامن أمشير كان النصارى يحتفلون "بعيد الأربعين" احتفالا بذكرى مباركة الكاهن سمعان للسيد المسيح فى الهيكل بعد أربعين يوما من مولده[٤].

---

١ – النويرى: نهاية الارب، ص١٩٢؛ القلقشندى يذكر أن المصريين يقولون: "غطستم صيفتم ونورزتم مشتيتم" انظر: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٦؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٦٥، ٤٩٤؛ جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص٢٣.

٢ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص ص٣٧٩، ٣٨٠؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٦؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٩٤، وأيضا: جـ١، ص٢٦٥؛ متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢١٢؛ مراد كامل: حضارة مصر فى العصر القبطى، ص١٨٧.

٣ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، ص٤٢٧؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٦٦؛ بطرس الجميل: السنكسار، جـ١، ص٢٤٠.

٤ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٧؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٦٦.

وكان ثالث الأعياد الصغار "خميس العهد" "خميس العدس" وهو قبل الفصح بثلاثة أيام، وفى هذا اليوم يغسل البطريرك أرجل الحاضرين من النصارى، ذكرى غسل المسيح لارجل تلاميذه ليعلمهم التواضع، وفى هذا العيد كان النصارى يطبخون العدس المصفى، والسمك والبيض الملون ويهدونه إلى المسلمين، وكان هذا العيد احتفالا كبيرا يشارك فيه المسلمون[١].

وكان من عادة أهل الإسكندرية فى هذا العيد أن يخرجوا إلى المنارة بمأكلهم، فمنهم من يصلى، ومنهم من يلهو ولا يزالون هناك إلى نصف النهار[٢].

وفى "سبت النور[٣]" الذى كان يحل قبل الفصح بيوم، يعتقد النصارى أن النور يظهر فى هذا اليوم على مقبرة السيد المسيح بالقدس، فتوقد منه كل مصابيح كنيسة القيامة، ومن عادة النصارى أنهم يجمعون فى أمسية ذلك العيد أوراق الشجر من الريحان وغيره ويبيتونه فى أناء بالماء، ويغتسلون به فى اليوم التالى، لأن هذا – فى ظنهم – يقيهم شر المرض والكسل، والعين والسحر، وما إلى ذلك، كما كانوا يكتحلون فيه بالكحل الأسود الذى اعتقدوا أنه يزيد فى قوة الأبصار، وكانوا يظنون أن شرب الدواء فى هذا اليوم أكثر فائدة منه فى أى يوم آخر، كما أن البعض منهم – ممن يعانى من مرض جلدى – كانوا يذهبون إلى شاطئ النهر حيث تتعرى النسوة والرجال تماما ويدهنون أجسادهم بالكبريت، ويعرضونها للشمس معظم ساعات النهار، وعند الغروب يستحم الجميع فى مياه النهر[٤]".

وخامس هذه الأعياد هو "حد الحدود" الذى يحل موعده فى أول أحد بعد الفطر، وفى هذا العيد كانت تنشط المعاملات الدنيوية لدى المسيحيين ويجددون فيه أثاث البيوت[٥].

---

١ – النويرى: نهاية الارب، جـ١، ص ص١٩٢، ١٩٣؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٧؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٦٦.

٢ – متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٧٩.

٣ – يشير ابن المقفع إلى احتفال قبط مصر بسبت النور فى عهد الوالى عبد العزيز بن مروان، حيث تزين الكنائس والأديرة، انظر: ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ٢، ص١٤٣؛ ابن سعيد الانطاكى، ص١٩٤.

٤ – النويرى: نهاية الارب، جـ١، ص١٩٣؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص ص٤٢٧، ٤٢٨؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٦٦.

٥ – النويرى: نهاية الارب، جـ١، ص١٩٣؛ أبى الفدا: المختصر، ص٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٨؛ المقريزى، جـ١، ص٢٦٦، ابن الوردى: تتمة المختصر، ص١٢٩.

والعيد السادس "عيد التجلى" الذى كان يحل فى الثالث عشر من مسرى، وتروى القصص الدينية المسيحية أن المسيح تجلى فيه لتلاميذه بعد أن رفع فى هذا اليوم، فتمنوا عليه أن يحضر لهم "ايليا وموسى" فأحضرهما بمصلى بيت المقدس ثم صعد إلى السماء وهما معه[١].

وفى سابع عشر من شهر توت، كان يحل "عيد الصليب" وهو سابع الأعياد الصغار، احتفالا بذكرى ظهور صليب الصلبوت، وكان لهذا العيد احتفالات كبيرة فى مصر، حيث يخرج القبط فى أعداد كبيرة إلى ظاهر الفسطاط، للهو والشراب، وغير ذلك[٢].

وكان للنصارى مواسم وأعياد أخرى غير تلك الأعياد الشرعية "... لكنها عندهم من المواسم العادية..." وقد أحصى القلقشندى من هذه الأعياد والمواسم مائه وثمانية وسبعين عيدا وموسما موزعة على شهور السنة القبطية[٣]، وقد انفرد الأقباط ببعض الأعياد التى ارتبطت بالنيل، مما يشير إلى أصلها التاريخى المرتبط بقدماء المصريين، ومن أشهر تلك الأعياد" عيد الشهيد" فى ثامن بشنس سنويا، "عيد النيروز" الذى كان بداية السنة القبطية فى أول توت[٤].

وعيد النيروز من الأعياد الوطنية التى شارك فيها المسلمون إخوانهم المسيحيين وهو أول السنة القبطية بمصر[٥] "وفيه تشعل النيران وترش المياه".

ومن عادة القبط فى الاحتفال به أن ينتخبوا رجلا يسمونه أمير النيروز فيطلى وجهه بالدقيق أو بالجير، ويركب فى الشوارع على "حمار" وعليه ثوب أحمر أو

---

١ – النويرى: نهاية الارب، جـ١، ص١٩٣؛ أبى الفدا: المختصر، ص٩١؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٨؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٦٦.

٢ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٣؛ أبى الفدا: المختصر، ص٩٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٨؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٦٦، وأيضا جـ٢، ص٤٨٩؛ وابن الوردى: تتمة المختصر، ص١٢٩، ١٣٠.

٣ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٠–٤٣٥.

٤ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٢٩؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٦٧.

٥ – انظر الأصل التاريخى لعيد النيروز النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٨٥، ١٨٦؛ البيرونى: الآثار الباقية، ط سخاو، ص ص٢١٦، ٢١٧؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٦٧، ٢٦٩؛ السنكسار، جـ١، ص٩.

أصفر ويضع لحية مستعارة، وعلى رأسه "طرطور" طويل، ويجعلون حوله الجريد الأخضر. وشماريخ البلح "ويمسك بيده دفترا، ويطوف ذلك الموكب الغريب في شوارع العاصمة وأزقتها يطرق الأبواب، ويدخل الأسواق، ويمر على الدكاكين لتحصيل بعض النقود من الناس على شكل إتاوة، ومن امتنع عن ذلك آذوه بالكلام الفاحش وصب الماء عليه، وكان من يغلق بابه يتعرض لما هو أكثر من ذلك(١).

كذلك كان العامة يقفون في الطرقات يتراجمون بالبيض ويتضاربون بأنطاع الجلود، ويتراشون بالماء، فلا يجسر أحد على الخروج من بيته بل أن بعض الأعيان كانوا يفعلون ذلك في منازلهم أو بساتينهم.

ويذكر القلقشندي(٢)، أنهم "يظهرون فيه من الفرح والسرور، وإيقاد النيران، وصب الأمواه أضعاف ما يفعله الفرس، ويشاركهم فيه العوام من المسلمين، وربما حملهم ترك الاحتشام على أن يتجرءوا على الرجل المطاع، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم ويمنعونهم من ذلك، لمنعوا الطريق من السالك وهم مع ذلك من ظفروا به لا يتركونه إلا بما يرضيهم(٣).

وفي ولاية أبي القاسم بن الإخشيد أمر بمنع صب الماء، وفي سنة ٣٣٥-٣٦٣هـ/ ٩٤٦-٩٧٣م أمر بأبطال هذا العيد، ولكن لم يحدث شئ من ذلك، إذ احتفل به في العام التالي بصورة أكبر(٤).

كذلك كان من الأعياد الدينية التي اتخذت شكلا وطنيا في آن واحد "عيد الشهيد(٥)"، وكان يقام سنويا في ثامن بشنسر من شهور القبط، ويعد الاحتفال به مهرجانا كبيرا على ساحل شبرا، والسبب في إقامته ما كان الأقباط يزعمونه في أن النهر لم يكن ليزيد الا بعد غسل أصبع أحد القديسين في مائه، وكان هذا الإصبع يحفظ في تابوت بكنيسة في شبرا، وقيل أنه أصبح أحد أسلافهم من

١ - المقريزي: الخطط، جـ١، ص٤٩٣؛ البيروني: الآثار الباقية، ص ص٢١٦، ٢١٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ص ص٨٧، ٨٨.

٢ - القلقشندي: صبح الاعشى، جـ٢، ص ص٤٢٩-٤٣٠.

٣ - المصدر نفسه، والجزء، والصفحات.

٤ - الكندي: الولاة، ص٢٩٤.

٥ - المقريزي: الخطط جـ١، ص ص٦٨، ٦٩؛ العمري: مسالك الإبصار، جـ١، ص٣٦١؛ أبو صالح الأرمني، ص١١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص٢٠٢.

الشهداء، وفى هذا العيد يتوافد الأقباط من شتى أنحاء البلاد، كما يخرج أهل مصر على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم إلى شبرا لحضور هذا المهرجان الضخم حيث تنصب الخيام بأعداد هائلة على ساحل النيل، وفوق الجزر، ويجتمع الفرسان بخيولهم يرقصون بها على إيقاعات الطبول، وأنغام الزمور، وتجتمع المغانى من العربان وغيرهم من كل أنحاء البلاد "ولا يبقى مغنى ولا مغنتية، ولا رب ملعوب، ولا بغى ولا مخنث ولا باض ولا خليع ولا متفرج، ولا فاسق إلا ويخرج لهذا العيد..."، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق، وتثور فتن وتقتل أناس" وكان فلاحو شبرا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمر فى ذلك العيد للوفاء بما عليهم من الخراج(١).

وعيد وفاء النيل من الأعياد الوطنية التى شهدتها مصر الإسلامية، وقد شارك فيه جميع عناصر المجتمع منذ الفتح العربى(٢).

وكان بلوغ النيل ستة عشر ذراعا بشيرا بوفاء النيل(٣)، وإيذانا ببدء ذلك المهرجان القومى الضخم احتفالا بهذه المناسبة، التى شارك الجميع فى أحيائها باعتبارها عيدا وطنيا يهتم الجميع به، وكانت تحيط باحتفالات وفاء النيل كل

---

١ - المقريزى: الخطط جـ١، ص ص٦٨، ٦٩؛ جاستون فييت: القاهرة، ص١٨٥.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ص١٥٠، ١٥١؛ ابن الفقية: مختصر كتاب البلدان، ص٦٥؛ الواقدى: فتح الشام، جـ١، ص٣٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١٩، ص٣٢١؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ١، ص٣٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١١١؛ عبد المنعم ماجد: النيل فى رسوم الدولة الفاطمية فى مصر، بحث منشور فى ندوة حوض النيل، يناير ١٩٨٧م ص٢.

٣ - يشير ابن عبد الحكم إلى ذلك بقوله: "فلما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤونه من أشهر العجم، فقالوا له أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها، فقال لهم وما ذاك، قالوا: أنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكربين أبويها فارضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل فقال لهم عمرو أن هذا لا يكون فى الإسلام"، وكتب عمرو إلى الخليفة عمر، يطلعه حقيقة الموقف، فأرسل إليه بطاقة وأمره بالقائها فى النيل، وقد جاء فى هذه البطاقة: "من عبد الله عمر، أمير المؤمنين إلى قبيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجرى، وأن كان الله الواحد القهار الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك". انظر: ابن عبد الحكم فتوح مصر، ص ص١٥٠، ١٥١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١٩، ص٣٢١؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ١، ص٣٦؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١١١.

مظاهر الفخامة والعظمة التى ميزت فترة عصر الولاة[١]، فإذا أتم النهر الستة عشر ذراعا يعلق على الشباك الكبير فى الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء، وتكون هذه الليلة من الليالى العظيمة بمصر يوقد فيها الأهالى القناديل والشموع، ويتحول ليل مصر إلى نور من كثرة الأضواء، ويحضر مقرئو القرآن الكريم، يبيتون بدار المقياس، ويتناوبون القراءة طوال الليل، كما يحضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجودا فى دار المقياس طوال الليل[٢].

كما كان المسلمون يشتركون مع القبط فى صلاة تعرف بصلاة الاستسقاء إذا ما نقص النيل فى موعد الفيضان فيخرج الناس حفاة، وعلى رؤوسهم المصاحف واليهود وعلى رؤوسهم التوراة، والنصارى وعلى رؤوسهم الأناجيل، ويخرج الأطفال من المكاتب، وعلى رؤوسهم الألواح[٣].

يذكر ساويرس[٤] "أن المسلمين والقبط صلوا من أجل النيل عندما نقصت مياهه فى ولاية أبى عون على مصر (١٣٢هـ-١٣٦هـ/ ٧٤٩-٧٥٣م) وكذلك خرج المسلمون مع القبط للاستسقاء فى ولاية حفص بن الوليد الثانية حيث اشتد القحط بمصر فخرج حفص مع الناس للاستسقاء ودعا الله وصلى[٥]".

ومن الأعياد التى شارك فيها المسلمون الأقباط عيد القديسة بربارة فى ليلة اليوم الرابع من شهر كانون، وفيه يجتمع جميع القبط فى مصر فى كنيسة القديسة بربارة، وكثيرا ما يشاركهم المسلمون فى الاحتفال بهذا العيد لمشاهدة ما يقوم به القبط على سبيل الترفية عن أنفسهم، وكان من عادة القبط أن يقدموا إلى هذه الكنيسة فى السر التماسا للبركة، ويدهنون أجسادهم من زيت القناديل، كما كان كثير من القبط يسمون بناتهم على اسمها[٦].

---

١ - ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص ص١١٤، ١١٥.

٢ - النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٢٦٤؛ ابن دقماق: الانتصار، جـ٤، ص ص١١٤، ١١٥.

٣ - ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ص٦٥، ٦٦؛ المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ص٢٠٦، ٢٠٧؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ١، ص ص٣٥، ٣٦.

٤ - ساويرس: سير الأباء، م١، جـ٢، ص٢٠٨.

٥ - ابن تغرى بردى: النجوم، جـ١، ص٢٩١.

6 - George Salamon: Un texte Arabe Incdit pour servir a L'histoire des christiens d' Egypte P. 18.

كذلك شارك المسلمون قبط مصر فى عيد الخروج إلى سجن يوسف بالجيزة، وقد جرت عادة العامة فى هذا اليوم من كل سنة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن بأسواق البلد مع الطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم.

هكذا تمتع القبط فى مصر بالحرية التامة فى الاحتفال بأعيادهم الدينية، وقد شاركهم المسلمون احتفالاتهم[١].

أما الطائفة الأخرى من أهل الذمة فى مصر وهم اليهود، فقد قسمت المصادر العربية أعيادهم إلى قسمين:

الأعياد الشرعية[٢]، وعددها خمسة، وهى ما نطقت به التوارة، وأول هذه الأعياد الشرعية:

"عيد رأس السنة" وأسمه العبرى (رأس هيشا)، وبالعبرية الحديثة (روش هشانا[٣]) وهو بمثابة عيد الأضحى عندهم، ويحل موعده فى أول شهر تشرى أحد شهور اليهود[٤]، فى ذكرى افتداء الله لإسماعيل بعد أن كاد إبراهيم عليه السلام أن يذبحه، تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى، ويعتبر هذا العيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود لخلاصهم من فرعون، وقد اسماه المقريزى عيد البشارة (أى البشارة بالعتق والحرية[٥]).

وهناك بعض الاختلافات فى مظاهر الاحتفال بها العيد لدى كل من القرائيين والربانيين، إذ كان الربانون ينفخون الأبواق أثناء الصلاة فى معابدهم، اعتمادا على تفسيرهم لبعض النصوص الواردة بشأن هذا العيد، بينما اكتفى القراءون بالصلاة والتهليل حمدا وشكرا لله لأنه يوم عتق رقاب لديهم[٦].

---

١ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص٣٣٤، ٣٣٥.

٢ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٣٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٥؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٦؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧١.

٣ - المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٣٧؛ حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص٢٠١.

٤ - يعتبر شهر "تشرى" سابع شهور السنة من الوجهة الشرعية، رغم أن المتعارف عليه بين اليهود أنه أول شهور السنة العبرية، والسبب فى هذا التحوير أن خروج بنى إسرائيل من مصر كان فى شهر نيسان الذى أمروا فيه بعيد الفصح، ومن ثم يعتبر شهر نيسان بداية العام شرعا. عن التقويم العبرى وشهور اليهود. انظر: المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧١، ٤٧٣؛ مراد فرج: القراءون والربانون، القاهرة ١٩١٨م، ص١٢٤-١٢٥؛ حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص١٩٤، ١٩٨.

٥ - المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧١.

٦ - مراد فرج: القراءون والربانون، ص ص١٢٤، ١٢٥.

والعيد الثانى "عيد صوماريا[١]" أو "الكبود" وهو يوم الغفران أو الكنارة عند اليهود، كما أنه الصوم الكبير لديهم، وعقوبة من لا يصومه فى شريعتهم القتل، وبينما جعل الربانون مدته خمسا وعشرين ساعة، تبدأ قبل غروب شمس التاسع من تشرى وتنتهى بعد مضى ساعة من غروبها فى اليوم التالى[٢]، فإن القرائين جعلوا ذلك الصيام أربعا وعشرين ساعة تبدأ من غروب شمس تاسع شهر تشرى، وتنتهى بغروبها فى اليوم التالى، وقد تشدد السامرة فى صيام ذلك اليوم، حتى أنهم لم يستثنوا منه الأطفال الرضع[٣]، وقد عرف هذا العيد أيضا باسم "العاشور"[٤].

أما "عيد المظلة[٥]" أو عيد "الظلل" فكان الاحتفال به فى الخامس عشر من شهرى تشرى، وهو سبعة أيام يعيدون فى أولها، وفى اليوم الثامن عيد الاعتكاف عند الربانيين، وفى هذا العيد كان اليهود يجلسون تحت ظلال "سعف النخل الأخضر، وأغصان الزيتون، وغيرها من الأشجار التى لا يتناثر ورقها على الأرض، تذكارا للغمام الذى أظلم به الله تعالى فى التيه، وأنفرد القراءون بصوم الرابع والعشرين من هذا الشهر، وهو "صوم جدليا" الذى جعله الربانيون فى ثالثه، وفى رأى البعض أن هذا العيد يرجع إلى أصول زراعية ورعوية اعتمادا على أن من أسماء هذا العيد العبرية اسم "حج ها أسيف" أى "عيد التخزين[٦]".

---

١ – المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٣٧؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٦؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧٩.

٢ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٥؛ أبى الفدا: المختصر، جـ١، ص٨٨ وما بعدها؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٦؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٧٢؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ١، ص١٢؛ مراد فرج: القراءون والربانون، ص ص١٧، ١٨.

٣ – المرجع نفسه، ص١٨.

٤ – حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص ص٢٠٢، ٢٠٣.

٥ – المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٣٧: النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص ص١٩٥، ١٩٦؛ أبى الفدا: المختصر، ص٨٩؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٦؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧٩؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، ص ص١٢٥، ١٢٦؛ عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية، ص٩٨.

٦ – حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص ص٢٠٣، ٢٠٤.

والعيد الرابع هو عيد الفطير[١]، وقد سمى أيضا "عيد الفصح، في خامس عشر من شهر نيسان اليهودى، وقد اختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال به فهى سبعة عند القرائين، ثمانية عند الربانيين، وستة فقط لدى السامرة[٢]" وفى أثناء هذه الأيام ينظف اليهود بيوتهم من خبز الخمير ولا يأكلون سوى الفطير احتفالا بذكرى نجاتهم من فرعون وخروجهم إلى الصحراء يأكلون الخبز الفطير، ويحيون حياة البداوة، وبالنسبة للربانيين فإن هذا العيد لا يصح أبدا أن يبدأ يوم الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة، وهو ما لم يتقيد به القراءون، ويعتبر هذا العيد أيضا من أعياد التضحية، ومواسم الحج لدى اليهود، وبينما يحج القراءون والربانون إلى بيت المقدس، ويضحون على الصخرة المقدسة[٣].

ويحج السامرة إلى جبل جرزيم بنواحي نابلس، ويضحون على صخرته.

وأما خامس أعيادهم الشرعية فهو "عيد الأسابيع" أو "عيد العنصرة" أو "عيد الخطاب[٤]"، وهى عندهم الأسابيع التى أنزل الله تعالى فيها على بنى إسرائيل الفرائض متضمنة الوصايا العشر المنسوبة إلى نبى الله موسى عليه السلام، ويحل موعد الاحتفال به فى السادس من شهر سيوان، أحد شهورهم فى ذكرى مخاطبة الله لشيوخ بنى إسرائيل مع موسى على جبل طور سيناء على ما يزعمون، وفى هذا العيد كان اليهود يصنعون القطائف التى يتفننون فى عملها ويأكلونها تذكرا للمن، ولهذا العيد اسم عبرى هو "عشرتا" بمعنى الاجتماع، وقد تقيد الربانون فقط بهذا العيد الذى لا يجب عندهم أيام الثلاثاء والخميس والسبت، بينما لم يتقيد القراءون بذلك فى احتفالاتهم بهذا العيد.

---

١ – اكتسب هذا العيد على مر العصور عدة أسماء لكل منها معناه ومغزاه، وقد أسماه "سعديا الفيومى" فى ترجمته العربية باسم الفسح أى الفرج بعد الضيق، ومن أسمائه "الفطير" و"عيد الربيع" انظر: حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى، ص٢١٨-٢٢٠.

٢ – المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٣٧، للنويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص ص ١٩٥، ١٩٦؛ أبى الفدا: المختصر، ص٨٨؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٧، المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٧٩.

٣ – المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٧٨.

٤ – المقدسى: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٣٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٦؛ أبى الفدا: المختصر، ص٨٨؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٧؛ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٤٧٩؛ ابن الوردى تتمة المختصر، ص١٢٥.

وكانت لليهود أعياد محدثة بخلاف أعيادهم الشرعية أشهرها "عيد الفوز"[١] "وعيد الحنكة".

أما عبد الفوز[٢]: "وهو بالعبرية البوريم"، فقد كان موعده السنوى فى ثالث عشر آزار يبدأ بصوم يسمى بصيام استيرويستم، حتى خامس عشر آزار حيث يتم احتفال صاخب، ومظاهر للهو والخلاعة حتى أطلعت عليه المصادر العربية اسم "المساخر" أو "عيد المسخرة".

فقد كان اليهود يبالغون فى إظهار السرور أثناء احتفالهم بهذا العيد، وفى مصر كانوا يصنعون هيكلا من الورق المملوء بالنخالة رمزا لـهيمون أو "هامان" يعبثون به فى مهرجان يضم سائر اليهود ثم يحرقونه فى النهاية، وفى هذا العيد يتبادل اليهود الهدايا والهبات[٣].

وثانى هذه الأعياد المستحدثة "عيد الحنكة"[٤] أو "الحانوكة[٥]" وترجع مناسبة هذا العيد إلى سنة ١٦٥ق.م حين كانت بلاد الشام تحت الحكم البطلمى، وفى عصر الولاة كان اليهود يوقدون المصابيح على أبواب دورهم وفقا لعد تصاعدى، ففى الليلة الأولى يوقدون قنديلا واحدا، وفى الليلة الثانية أثنين، وهكذا حتى تتم ثمانية قناديل فى اليوم الثامن، وقد شاهد القلقشندى (سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م) أحد احتفالاتهم بهذا العيد[٦].

المواكب العامة والاحتفالات :

وإلى جانب أعياد المسلمين، وأهل الذمة مناسبات أخرى تحتفل بها الحكومة والناس معا، وتحاط بمظاهر العظمة، كالاحتفال برؤية هلال رمضان الذى يصفه

---

١ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص ص١٩٦، ١٩٧؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٧، ٤٣٩؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٧٩.

٢ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٦؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٧.

٣ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص ص٤٣٧، ٤٣٨.

٤ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٧؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٧٩؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، ص١٢٥.

٥ – تطور معنى لفظ حانوكة وأصبح يعنى "التدشين" ويتم الاحتفال به حاليا بإيقاد الشموع الكثيرة، والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل. انظر: حسن ظاظا: مرجع سابق، ص٢٠٥-٢٠٧.

٦ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص١٩٧؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٢، ص٤٣٨، ٤٣٩؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٧٩؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، ص١٢٥.

الكندى بقوله: "خرج عبد الله بن لهيعة فى نفر من أهل المسجد يعرفوا بالصلاح فطلبوا الهلال، فكانوا يطلبونه بالجيزة، فهو أول القضاة بمصر حضر فى طلب الهلال، ثم تعدوا الجسر فى زمن هاشم بن أبى بكر البكرى، وطلب الهلال فى جنان ابن أبى حبش، ثم كانت القضاة على ذلك حتى كان ابن أبى الليث فى طلبه فى أصل المقطم[١]".

هذا وقد ظلت مظاهر الفخامة والأبهة تحيط بالاحتفالات الخاصة بوفاء النيل، وكسر الخليج من سائر عناصر المجتمع المصرى، وطوال عصر الولاة كان الناس يخرجون فى مواكبهم للنزهة والاحتفال بفتح الخليج[٢].

كما كانت الحكومة فى العصر الإخشيدى تشارك فى الاحتفال بفتح الخليج[٣]، وكان الإخشيد يخرج فى موكب رائع ليلة التاسع والعشرين من رمضان ليحضر الختم، والدعاء فى جامع عمرو[٤].

كما كان الإخشيد يخرج فى موكب عظيم للعرض ليلة عيد الفطر، وقد ذكر ابن سعيد ما نصه: "[٥] ولما كان آخر شهر رمضان ركب الإخشيد، فحضر ختم الجامع وصلى وأوتر، وهو فى وجوه عبيده فى دراعة بياض، ومن بين يديه مائة فراش بمائة شمعة، ثم أصبح الناس للعرض، وجلس فى المنظرة التى على باب دار الأمارة، ومرت العساكر، فلما انفض العساكر ركب غلمانه فى أحسن زى لى العشاء".

تلك هى أهم مظاهر الاحتفالات لدى العامة ومواكب الولاة التى تظهر بصورة جلية منذ عهد الولاة الطولونيين الذين أخذوا يحيطون أنفسهم بكل مظاهر الفخامة والعظمة.

---

١ – الكندى: الولاة والقضاة، ص٣٧٠.

٢ – هذا الخليج الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، من بحر فسطاط مصر والحقة بالقلزم بشاطئ البحر الملح "انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٦٢–١٦٥؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٢٦٤؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٣، ص٢٩٨؛ وأيضا جـ٥، ص٣٨٧؛ المقريزى: الخطط جـ٢، ص١٤٣؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص١١٢؛ قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى، ص٤٣.

٣ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٤٩٣.

٤ – ابن سعيد: المغرب، ص٣٥.

٥ – ابن سعيد: المغرب، ص١٢.

وسائل التسلية :

اختلفت وسائل التسلية فى المجتمع المصرى زمن الولاه، وأن شاركت فيها كل عناصر المجتمع نذكر منها:

القيان والمغنون:[١]

كان بعض القوم يقبلون فى مجالسهم الخاصة، ومآدبهم على سماع المغنين، ولكن يبدو أن أهل الورع، والتقوى من الفقهاء والعلماء كانوا لا يقبلون على هذا النوع من المجالس[٢].

كذلك شارك البعض من الولاة الأمويين فى مجالس اللهو، فمما يذكر عن عهد قرة بن شريك فى سنة تسعين هجرية/ سبعمائة وتسعة ميلادية أنه "كان الناس يصلون الجمعة فى قيسارية العسل، حتى فرغ قرة من بنائه، وكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا بالخمور، والزمور، والطبول، فيشرب الخمر... ويقول لنا الليل ولهم النهار[٣]".

وقد ذكر أبو المحاسن أنه فى السنة الثالثة من ولاية قرة بن شريك توفى بمصر "طويس المغنى صاحب الألحان، وهو أول من غنى بالألحان فى الإسلام[٤]" وهذا ان دل على شئ" فإنما يدل على ازدهار فن الغناء بمصر.

وقد حارب بعض الولاة انتشار حانات الخمور، ففى أيام يزيد بن حاتم، أرسل فى استدعاء بعض أصحابه، فإذا هم سكارى فقال لهم: "ان نضوحكم الليلة لكثير" وخشى الوالى على بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المسلمين فأمر بمنع الملاهى والخمور فى أيامه[٥].

أما القيان والمغنون، فقد ذكر الكندى أن القاضى العمرى "كان يشدو بأطراف الغناء على مغانى أهل المدينة ويبرز كثيرا فى مجالسه، ولا يتحاشى أن يقول هذا

---

١ - الغناء.. هذه الصناعة هى تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، انظر ابن خلدون: المقدمة، جـ١، ص٧٥٨.

٢ - الثعالبى: يتيمة الدهر، جـ١، ص٣١٤؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٤، ص ص١٣٦، ١٣٧؛ ابن قيم الجوزية: حكم الإسلام فى الغناء، القاهرة ط٢، ١٩٧٩، ص٧-١٤از

٣ - ابن تغرى بردى: النجوم، جـ١، ص ص٢١٧، ٢١٨.

٤ - المصدر نفسه، جـ١، ص٢٢٥.

٥ - الكندى: الولاة، ص١١٣، ١٣١.

غنى به ابن سريج وهذا جيد غناء العريض، ولم يكن بمصر مسمعة الا ركب إليها وسمع غناءها[١]".

وقد هجاه خصومه لذلك، وأخذوا عليه باعتباره قاضيا كلفة بالغناء وإعجابه بسماع العود والمزمار، وشرب الخمر، فى حين أن خلفاء العباسيين فى بغداد كانوا يلهون، ويمجنون، ويظهرون اللهو والمجون، ويشاركهم فى هذه الحياة الشعراء والندماء[٢].

وخلال عصر الطولونيين والإخشيديين سجل الشعراء كثيرا من ألوان اللهو، والمجون الذى شهدته تلك الفترة، فإذا كانت جماعة أبى نواس قد أخذت شهرتها فى بغداد، فقد ظهرت فى مصر جماعات من هذا النوع، ساعد على وجودها بذخ الأمراء، وإسرافهم، وأخذهم بحياة النعيم، وشرب الخمر، والإسراف فيها، وسماع الغناء، يقول المقريزى:[٣] "كان أحمد بن طولون، قد اتخذ حجرة بقرية فيها رجال سماهم بالمكبرين عدتهم أثناء عشر رجلا يبيت منهم فى كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل نوبا يكبرون، ويسبحون ويحمدون ويهللون، ويقرؤن القرآن تطريبا بألحان ويتوسلون بقصائدهم، ويؤذنون أوقات الأذان" فلما ولى خمارويه أقرهم على حالهم وأجراهم على رسمهم، وكان يجلس للشرب مع خطاياه فى الليل وقيناته تغنيه، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح فى يده، وضعه بالأرض وأرتلت مغنياته وذكر الله معهم[٤].

هذا فضلا عن أن أحمد بن طولون كان يخرج مبكرا كل يوم لسماع قراءة الأئمة فى المحراب، وكان يشرب الخمر، ويسمع الغناء، وكان المغنى الخاص لابن طولون[٥] "يسمى كثيرا".

كما كثرت مجالس الغناء فى عهد أولاد أحمد بن طولون، حيث كانت تقام الحفلات، وتجتمع الجوارى، وتنثر الدنانير الذهبية على المغنيات[٦].

---

١ – الكندى: الولاة، ص٣٣٩.

٢ – ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: جـ٢، ق٣، ص٢٦٠.

٣ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٣١٧.

٤ – المصدر نفسه، جـ١، ص٣١٧.

٥ – ابن الداية: سيرة ابن طولون، ص٨٠.

٦ – ابن سعيد: المغرب، ص١٧٩؛ المقريزى: الخطط جـ١، ص٣٣١.

وقد بلغ من مظاهر الابهة فى البلاط الطولونى أنه فى عهد خمارويه "عمل داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول فى أحسن نقش، واظرف تفصيل، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا فى حيطانه بارزه من خشب معمول على صور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بأحسن تصوير، وأبهج تزويق، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر، وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنع وهى مسمرة فى الحيطان، ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة[١]".

وهذا يبين مدى اهتمام الطولونيين بالغناء، والموسيقى وولعهم بالمغنيات، وتصويرهم فى أحسن صورة.

كما يذكر ابن سعيد: "أن محمد الماذرائى الذى تولى الوزارة فى عهد الإخشيد، أقام مأدبة جمع فيها المغنيين من الرجال والنساء[٢]".

كذلك عرف المجتمع المصرى لعبة الشطرنج، فأول من أدخلها فى مصر عمرو بن العاص، وهى مأخوذة أصلا من بلاد العجم[٣]، وكان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان فى العصر الأموى، قد اتخذ بيتا فجعل فيه شطرنجات، ونردات، ودفاتر فيها من كل علم، وجعل فى الجدار أوتارا فمن جاء علق ثيابه على متد منها ثم جر دفترا فقرأه أو بعض ما يلعب به فلعب به، وهذه صورة لنادى يشمل فيه أدوات التسلية بجانب القراءة[٤].

وكان سباق الخيل فى هذا العصر من أحب ألوان التسلية، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سابق بالأقدام، وثبت عنه أنه سابق بين الإبل، وثبت عنه أنه سابق بين الخيل، وثبت عنه أنه حضر نضال السهام[٥].

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص٣١٦-٣١٧.

٢ – ابن سعيد: المغرب، ص٢٩.

٣ – ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٠٩؛ يذكر ابن تغرى بردى عن أول من اقترح لعبة الشطرنج صحبة بن زاهر؛ انظر: النجوم، جـ١، ص٢٢٧.

٤ – أحمد أمين: فجر الإسلام، جـ١، ص١٦٨.

٥ – ابن الجوزية: الفروسية، ط القاهرة، ١٩٤١م، ص٢-٤.

وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة على ألا يكون وسيلة للحصول على المال، لما فيه من تهيئة الناس لركوب الخيل عند الحرب[١].

ومما يذكر عن عمرو بن العاص أنه كان من فرسان قريش، وأبطالهم فى الجاهلية، محبا لركوب الخيل[٢].

وعند أواخر القرن الثانى الهجرى شهدت مصر سباقا بين فرسى قبيلة مواد - الزعفران - وفرس قبيلة يحصب - الجناح - الا أن السباق انتهى كما هى عادة العرب بنشوب الصراع بين القبيلتين. مما يبين أهمية السباق عند العرب زمن الولاة[٣].

وقد استمرت عادة سباق الخيل، وازدهرت فى بعض الأوقات، ولكن لما كانت سببا فى نشوب المنازعات، قام الولاة بمنعها كما حدث فى ولاية يزيد بن عبد الله على مصر سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م "ثم بدا له تعطيل الرهان الذى كان لسباق الخيل بمصر، رباع الخيل التى كانت تتخذ للسباق بمصر[٤].

وعاد سباق الخيل مرة أخرى سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م، واستمر فى العهد الطولونى[٥]، وازدهر فى عهد خمارويه الذى اعتنى بتربية الدواب، ومن بينهما خيل السباق، وكانت أيام السباقات من المناسبات التى يفرح بها الناس "ويجلس الناس لرؤية ذلك كما يجلسون فى الأعياد[٦]"، وازداد الاهتمام بالسباق فى عهد الإخشيديين[٧] وبلغ من شدة حب خمارويه للجياد من الخيل جعل لها أنسابا مثبوتة فى الدواوين كأنساب الناس[٨].

وكان الصيد من الرياضات المحببة إلى وجوه القوم فى عهد الطولونيين إذ يقول ابن تغرى بردى عن أحمد بن طولون: "ولما كان فى بعض الأيام ركب يوما

١ - انظر الرهان على الخيل ابن الجوزية: الفروسية، ص٥، ٦.

٢ - ابن تغرى بردى: النجوم، جـ١، ص٧٢.

٣ - الكندى: الولاة، ص٤٠٢.

٤ - الكندى: الولاة، ص٢٠٢، ٢٠٣؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٢، ص٣٠٩.

٥ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص٣١٣، ٣١٤.

٦ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٥٨، ٦٠.

٧ - الكندى: الولاة، ص ص٤٠٢، ٤٠٣.

٨ - ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٦٩.

ليتصيد بمصر[١]".

وقد أولع خمارويه بالصيد ولعا شديدا، فكان يخرج في وجهات الأهـــرام، ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده في صحبة رجال عليهم اللبود، فيدخلـــون فـــي الغابـــة، ويتناولون الأسد بأيديهم وهو سليم، ثم يضعونه في قفص من خشب محكم الصنعـــة يسعه وهو قائم، فإذا عاد خمارويه من صيده حمل بين يديه القفص الذي فيه الســـبع واجتمعت العامة لمشاهدته[٢].

كذلك كان من وسائل التسلية في مصر اللعب بالصوالجة وهي "ضرب الكـــرة من فوق ظهور الخيل، والإجادة فيها أن يضرب اللاعب الكرة ضربا متصـــلا وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل ليتها في رفق وألا يستعين بســـوط وألا يؤثر في الأرض بالصولجان، أو يكسره أو يعقد قوائم دابته، وأن يراعي عـــدم إيذاء من يجري معه في ميدان اللعب، وأن يحسن الكف للدابة في شـــدة جريانـــه، وأن يتجنب طرد النظارة، والجالسين على حيطان الميدان، ولذلـــك كـــان عـــرض الميدان ستين ذراعا حتى يتسع للجري والمشاهدين[٣].

وقد اهتم ابن طولون بهذه اللعبة فجعل في قصره ميدانا فسيحا خصصه لـــهذه الرياضة، كما عني بحلبات السباق، فخصص مكانا لعرض الخيل ســـماه المنظـــر، وصف ابن قتيبة هذا العرض بقوله: "أنه من عجائب الدنيا الأربعـــة وهـــي: هـــذا العرض ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد[٤]".

كذلك اهتم المصريون بعادة الخروج إلى المتنزهات التي تباينت في حدائقها إذ يذكر جاستون فييت أنه كان للفسطاط بساتين نضرة ومتنزهات على مر الأيام خضرة[٥].

وكان من عادة المصريين التنزه أحيانا عند الأديرة، يشير المقريزي إلى "ديـــر يوحنا على شاطئ بركة الحبش، وهو قريب من النيل، وإلى جانبه بساتين، ويقـــرب الدير بئر، تعرف ببئر مماتي، عليها جميزة كبيرة يجتمع الناس إليـــها، ويشـــربون

---

١ - ابن تغري بردي: النجوم، جـ٣، ص ص٧، ٨.

٢ - المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١٨.

٣ - المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١٥؛ ابن قتية: عيون الأخبار، ط دار الكتـب ١٩٣٠، ص ص١٦٦، ١٦٧؛ متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢٠٢، ١٩٠.

٤ - المقريزي: الخطط، جـ١، ص ص٣١٨، ٣١٩؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص١٦٦، ١٦٧.

٥ - جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص ص٦٤، ٦٥.

تحتها، وهذا الموضع من مغانى اللعب، ومواطن القصف والطرب، وهو نزه في أيام النيل، وزيادة البحر، وامتلاء البركة، حسن المنظر فى أيام الزرع، لا يكاد حينئذ يخلو من المتنزهين أو المتطربين وقد ذكرت الشعراء حسنه وطيبه[١]".

وقد حرص الولاة فى مصر على غرس البساتين في قصورهم، فعندما أقام عبد العزيز ابن مروان فى مدينته الجديدة حلوان "استحسن موضعها فبنى بها دورا وقصورا واستوطنها وزرع بها بساتين، وغرس كروما ونخلا[٢]".

كذلك في العصر العباسي أهتم الولاة، وحرصوا على التمتع بجمال الطبيعة المصرية ومتنزهاتها، يدل عليه ذلك قول عيسى بن منصور الذى ولى مصر من قبل المأمون العباسى[٣] عندما توجه إلى بركة الحبش على سبيل التنزه، إذ وقف عند الرصد، وقال لمن حوله: "انى أرى عجبا، قالوا: وما هو؟ قال: أرى ميدان أزهار، وحيطان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكن، وجبانة أموات، ونهر جارى، وربيع من نبات أخضر، ومراعى ماشية، ومرابط خيل، وساحل بحر، ومقانص وحش، ومصائد سمك، وملاح سفينة، وحادى ابل، ومغائر ورمال، وسهل وجبل وأهرام وقرى، فهذه سبع عشرة متنزها فى أقل من ميل فى ميل[٤]".

وفى صعيد مصر تحدث الادفوى عن محاسن إقليم قوص الذى كان يعد من المتنزهات الجميلة، إذ يخرج الناس على ضفاف نهر النيل ليستمتعوا بالجلوس بين الماء والخضر[٥].

وكان عبد العزيز بن مروان إذا انتقل إلى الصعيد ، يكثر الخروج إلى بلدة تسمى أسكر[٦] إذ يطب له المقام بها للنزهة والتمتع بجمالها، حتى وافته المنية في هذه البلدة.

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٥٠٣.

٢ – ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٩٣.

٣ – النويرى: نهاية الأرب، جـ١، ص٣٥٧.

٤ – ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ص١٤٧، ١٤٨.

٥ – الادفوى: الطالع السعيد، جـ١، ص٢٤.

٦ – أسكر بالفتح ثم السكون، وفتح الكاف، وراء قرية مشهورة نحو صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط يومان من كورة الاطفيحية. أنظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص١٨٢.
عند موت عبد العزيز بن مروان رثاه أحد الشعراء بقولة:
أصبن يوم الصعيد من سكر مصيبة ليس لى بها قبل

الباب الثانى

أثر التطور الاجتماعى فى مصر فى عصر الولاة فى سودان وادى النيل

الفصل الأول

التأثير المصرى فى سودان وادى النيل فى النواحى السياسية والعسكرية

- الصلات السياسية والعسكرية ببلاد النوبة.
- الرسائل المتبادلة بين ولاة مصر وحكام النوبة.
- الصلات السياسية والعسكرية ببلاد البجة.
- موقف ولاة مصر من الكنيستين القبطية والنوبية.

الفصل الأول

التأثير المصرى فى سودان وادى النيل

فى النواحى السياسية والعسكرية

الصلات السياسية والعسكرية ببلاد النوبة:

من الطبيعي أن نجد بلاد النوبة قد تأثرت بما يحدث في مصر من تطورات وأحداث سياسية، وإذ تعتبر النوبة امتداد طبيعي لمصر، وحد بينهما نهر النيل، ولذا فكل حدث في مصر، كان له صداه في بلاد النوبة، ومن ثم صار أمرا طبيعيا أن نتناول بالدراسة التأثير المصرى فى النوبة في الجانبين السياسي والعسكرى خلال عصر الولاة.

والنوبة، طائفة من طوائف السودان، ينسبها المؤرخون إلى نوبى بن قفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح[١]، فيقول ياقوت: أنهم ولد نوبة بن كوش بن كنعان بن حام[٢] ويزعمون أنهم من نسل حمير[٣].

وتقع بلاد النوبة إلى الجنوب من مصر، وكانت تضم المناطق الممتدة على طول جانبى النيل فيما بين الشلال الأول عند أسوان شمالا، إلى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق، أى إلى الخرطوم الحالية جنوبا[٤].

---

١ – الدمشقي: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ط سانت بطرسبرج ١٨٦٦، ص ٢٨٦، محمد عبدالعال أحمد: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، بحث منشور بكلية آداب الاسكندرية، المجلد ٣٣، ١٩٨٤–١٩٨٥، ص ٢٦٥.

٢ – ابن خلدون : العبر، جـ٢، ق ١، ص٢١.

٣ – يقول ياقوت: "وملكوهم يزعمون أنهم من حمير، ولقب ملكهم كابيل، وكتابته الى عمالة وغيرهم: من كابيل ملك مقرى ونوبه" أنظر معجم البلدن، ص٣٦٢، وربما كان أصل كلمة كابيل من قيل، وهو لقب أطلق على بعض أمراء اليمن، انظر: القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م، ص٢٤، المسعودى: مروج الذهب، جـ١ ص٤٢٢، ٤٣٧، ٤٣٨، القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١ ص٣٦٨، ابن الوردى: تتمته المختصر، ص ص١٣٤، ١٣٥، ويقول دى فيار: "وليس بمستبعد أن الاسرة المالكة النوبية ترجع فى أصلها الى جنوبى الجزيرة العربية، إذ عبر الحميريون البحر الاحمر، واستقروا فى السودان حيث نقلوا أسماء أجدادهم مثل كوه، دارو، سبأ.

Devillard. Ugo, M. De: Storia Della Nubia Cristiana, P. 171, Mac Michael, H. A.: OP. Cit., P. 168.

٤ – المقريزى: الخطط، جـ١ ص١٩١، ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص٣٩، محمد عبدالعال: نفس المرجع والصفحة، انظر: الخريطة شكل (٧، ٨).

وتضم هذه المنطقة ثلاثة أقاليم رئيسية مختلفة، تتصل فيما بينها من الشمال إلى الجنوب على النحو التالي:

- إقليم النوبة السفلى (الشمالية)، ويشمل المنطقة الواقعة بين الشلال الأول شمالا، إلى وادى حلفا جنوبا، والنهر فيه صالح للملاحة لاستقامة مجراه، وانعدام العوائق فيه[١].
- إقليم النوبة الوسطى، ويحتل منطقة الوسط فيما بين وادى حلفا شمالا إلى دنقلة جنوبا، وهى منطقة صخرية وعرة، والنهر هناك غير صالح للملاحة فى معظم أجزائه، لكثرة الجنادل والصخور التى تعترض مجراه الضيق، أما الوادى فمرتفع عن مستوى النهر، ولذلك أعاق إمكانية تسرب المياه إلى معظم الاراضى الواقعة على جانبى المجرى، بالإضافة إلى انعدام الأمطار فى تلك المنطقة، مما جعلها صحراء جرداء ، باستثناء ذلك الشريط الضيق القريب من مجرى النيل[٢].
- إقليم النوبة العليا (الجنوبية) ويقع فى أقصى الجنوب، ويمتد فيما وراء دنقلة حتى التقاء النيلين الأبيض بالأزرق جنوبا، والنهر فى تلك المنطقة معتدل المجرى، متسع الوادى ، صالح للملاحة، تغمر المياه معظمه أيام الفيضان، ويعد هذا الإقليم من أخصب المناطق[٣].

---

١ - محمد عوض محمد: السودان الشمالى، سكانه وقبائله، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م، ص٢٨٥، محمد عبد العال أحمد: نفس المرجع والصفحة. أنظر: الخريطة شكل (٨).

٢ - محمد عوض محمد: الشعوب والسلاسلات الأفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥، ص٢٨٥، انظر: الخريطة شكل (٨).

٣ - محمد عوض محمد: نهر النيل، الطبعة الأولى، ص١٢٢ وما بعدها، محمد عبد العال أحمد: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٦٦، هناك اختلاف بين لفظى النوبة والنوبا، فلفظ النوبة يكون أشمل من لفظ النوبا، فهو يطلق على المنطقة الممتدة فيما بين أسوان شمالا، ومرتفعات الحبشة جنوبا على خط يوازى موقع الخرطوم، وبين البحر الأحمر شرقا، والصحراء الغربية غربا، أما لفظ النوبا فيطلق على منطقة محدودة فى إقليم كردفان، فهى جزء من أقاليم النوبة بمعناها الواسع. حيث توجد جبال فى جنوب إقليم كردفان تعرف بجبال النوبا، والسكان الذين ينتسبون الى النوبة يعرفون بالنوبيين (جمع نوبى) بينما سكان النوبا يعرفون بالنوباويين (جمع نوباوى) انظر: محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص ص٢٨٨، ٢٨٩؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، الانجلو ١٩٦٠، ص ص٢٠، ٢١، وأيضا المكتبة السودانية، ط جامعة القاهرة بالخرطوم، ١٩٧٢، حاشية (٢) ص٣، بوركهات: رحلات بوركهات فى بلاد النوبة والسودان، ترجمه فؤاد اندراوس القاهرة ١٩٥٩، ص٢٤١.

انقسمت بلاد النوبة قبيل فتح مصر إلى مملكتين : مملكة النوبة السفلى أو مملكة مقرة فى الشمال(١)، وعاصمتها دنقلة، ومملكة النوبة العليا، أو مملكة علوة(٢). فى الجنوب وعاصمتها سوبا(٣)، وتتألف كل من هاتين المملكتين من عدة ممالك صغيرة، على رأس كل منها: حاكم أو ملك صغير ، يسمى بنائب الملك الكبير(٤).

ولاشك أن هذا الاندماج بين مملكتى نباتا ومقرة المتجاورتين فى مملكة واحدة على الرغم من الاختلاف المذهبى بينهما(٥)، يدل على عدم تأثير المسيحية

---

١ – نتجت مملكة مقرة من اتحاد مملكتين مسيحيتن هما مملكة مقرة ومملكة نوباد يا، اللتين قامتا على انقاض مملكة مروى النوبية القديمة التى انهارت عام ٣٥٠م على يد عيزانا ملك اكسوم، وقد تم هذا الاتحاد بين المملكتين قبيل ظهور الاسلام، أو بعده بقليل اى فيما بين عامى ٥٨٠، ٦٥٢ م، محمد بن عمر الواقدى: فتوح مصر والإسكندرية، ط ليدن ١٩٢٥م، ص٣، مصطفى محمد مسعد: الاسلام والنوبة ، ص ٦٢.

Mustafa. M. Musa'ad: The Down fal of the Christian Nubian kingdoms. S. N R. Vol. 40. 1959. P. 124. Kirwan. L.P.. The International Position of the Sudan in the Roman and Nedieval Times. S. N. R. Vol Xi. 1959. P. 31.

٢ – مملكة النوبة العليا عرفها مؤرخو العرب باسم علوة، بينما عرفها مؤرخو الإغريق باسم "Alodiae" الوديا، وهى تمتد جنوبى مقرة حتى بلدة القطنية على النيل الأبيض، وعاصمتها سوبا، وتشمل هذه المملكة بعض جهات الاتبرا، والنيل الازرق حتى حدود الحبشة، وبعض جهات كردفان، ودارفور غربا، انظر: مصطفى محمد سعد: المكتبة السودانية، حاشية (٢)، ص٣؛

Kirwan, L.P: Notes on the topography of the Christin Nubian Kingdoms, J. E. A. XXI, 1934. P: 57.

٣ – سوبة: أو سوبا: هى عاصمة مملكة علوة المسيحية، وتقع على الضفة اليمنى للنيل الأزرق غير بعيدة عن نقطة التقائة بالنيل الأبيض. ويقال انها أنشئت على ايدى جنود أبسماتيك الفارين الى السودان فى أواخر القرن السادس ق.م. وورد ذكر سوبا لأول مرة فى لوحة تنسب الى أحد ملوك مروى سنة ٣٢٨ق.م. بمناسبة ذكرى جلوس الآلة أمون على عرش البلاد. وجد فى هذه اللوحة أقاليم البلاد ومن بينهما إقليم علوة وعاصمتها سوبا، وفى عهد مملكة مروى، احتلت مدينة سوبا المركز التجارى الثانى بعد مدينة مروى العاصمة، وهناك من يحاول الربط بين سوبا وسبأ على أساس انهما من عمل السبئيين وحرف أسمها من سبأ إلى سوبا ، انظر:

Budge. E. G. W : The Egyptian Sudan. its History and Monuments. London 1907. II. PP. 98. 151. 304.:

عبد المجيد عابدين: "ميلاد سوبا" مجلة الجمعية التاريخية السودانية، المجلد الأول. الجزء الثانى.

٤ – أبو صالح الأرمنى يفرق بين هؤلاء الملوك، وملك مقرة فأطلق على الأخير لقب الملك الكبير، أما هؤلاء الملوك، الذين تحت طاعته فهم أشبة بالمكوك (جمع مك) الذين تولوا حكم الأقاليم. انظر: ابو صالح الأرمنى: تاريخه، ١٢٥.

٥ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٢، القزوينى: أثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٩.، المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٢٧، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١ ص٣٠٧، ٣٠٨.

على أهل النوبة، إذا أنه يمثل تفوقا للمذهب اليعقوبى فيها، بسبب تلاشى المذهب الملكانى، شيئا فشيئا، وخاصة بعد الفتح الإسلامى لمصر، وزاول النفوذ البيزنطى تبعا لذلك[١].

وقد قسمت هذه المملكة إداريا إلى ثلاثة عشر اقليما ويلقب حاكم كل منها بالملك[٢]، ويخضع هؤلاء الحكام أو ملوك الأقاليم لكبير الملوك في دنقلة، ومن القابة ملك النوبة أو ملك الملوك، وعرفة العرب باسم عظيم النوبة[٣]، وحكمة نافذ فى رعيته ويده مطلقة فيهم، ومن حقه أن يسترق من شاء منهم، وله ان يتصرف فى أموالهم[٤].

ويعتبر حاكم إقليم مريس- المجاور لحدود مصر- من أهم ولاة الأقاليم، وكان يعرف بصاحب الجبل[٥]، ويقع عليه عبأ حماية الحدود الشمالية، والدفاع عنها ضد أى غزو خارجى[٦].

ويلاحظ ان مملكة علوة، كانت أغنى من مملكة مقرة، من حيث اتساع أراضيها وخصوبة تربتها، وكثرة أمطارها، فضلا عن كثرة فروع النيل وتشعبه بها، بالإضافة إلى مبانيها العظيمة الشيقة وبساتينها المترامية الأطراف ، وكذلك كنائسها المليئة بالذهب، وجيشها العظيم، أضف إلى ذلك كله، وجود مناجم الذهب وأعداد ضخمة من السانمة[٧]. يقول أحمد بن سليم الاسوانى: " ومتملك علوة أكثر

---

١ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٧٤.

٢ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٧٥.

٣ - المقريزى: نفس الجزء والصفحة.

٤ - القزوينى: المصدر السابق، ص٢٥ مكى شبيكة: السودان عبر القرون، بيروت ١٩٦٤، ص ٢٧، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٧٥.

٥ - هو حاكم إقليم مريس الممتد من الشلال الأول إلى الشلال الثانى، وعرف أحيانا باسم صاحب مريس، اعظم ولايات مملكة النوبة السفلى، اتخذ مدينة نجراش أو بجراش "فرس الحالية" مقرا لحكمه، وله شارات خاصة انفرد بها وهى لبس العمامة ذات القرنين والسوار الذهب، وله سلطات مطلقة لا تقل عن سلطة الملك الكبير فى دنقله وذلك لاتصال ولايته بأرض الإسلام فى مصر، فكان مكلفا بالدفاع عن الحدود الشمالية للمملكة، وعدم السماح بالمرور لاى شخص كان جنوبا عن حدود ولايته الا بتصريح منه. انظر المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٠، حسن محمود: نفس المرجع، ص٢٨٠، ٢٨١، ٣٠٨.

٦ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية، ص٢٧٥.

٧ - المقريزى: الخطط، جـ١ ص١٩٢، ١٩٣، بن عبد السلام (شهاب الدين أحمد بن محمد): الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، رقم ٤٢٩، ورقة ١٠أ.

مالا من متملك المقرة، وأعظم جيشاً، وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى، وبلد أخصب وأوسع[١]".

وكان الشعب النوبى ، فى تلك الحقبة من الزمن يدين بالمسيحية على المذهب اليعقوبى، يقول المسعودى "ولليعاقبة كرسيان لاثالث لهما: احدهما بإنطاكية، والأخر بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كروها وما يليها من ارض النوبة والاحابش رأى اليعقوبية[٢]". وقد أصبحت بلاد النوبة معقل المسيحية، خاصة بعد انتشار الاسلام فى مصر، وصار لكنيسة دنقلة التى عرفت بكنيسة اسوسى، شأن عظيم فى أفريقيا[٣]، وبالتالى أصبحت بلاد النوبة هى الواسطة والصلة الروحية بين الكنيسة القبطية فى مصر وكنيسة الحبشة.

واهتمت كل من مملكتى النوبة المسيحيتين (مقرة ، وعلوة) بالحدود الشمالية، دون الجنوبية، فبينما نجد مملكة مقرة، تهتم بولاية مريس، وهى الأرض المتصلة بمصر الإسلامية، وتجعل لحاكمها، الذى أطلق عليه مؤرخو العرب اسم صاحب الجبل سلطات واسعة لكونة حارسا للحدود الشمالية[٤]، ونجد مملكة علوة توجه اهتمامها أيضا بحدودها الشمالية، التى كانت تعرف بالأبواب، وهى الأرض المتصلة بمملكة مقرة، وتطلق لصاحبها سلطات مطلقة أيضا، شأنه فى ذلك شأن صاحب الجبل: فإقليم الجبل بمثابة خط الدفاع الأول لمملكة مقرة من الشمال ، بينما إقليم الأبواب[٥]، بمثابة خط الدفاع الأول بالنسبة لمملكة علوة من الشمال أيضا. يقول احمد بن سليم الاسوانى عن ولاية مريس:" ولهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة، يعرف بصاحب الجبل، وهو من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام[٦]. اما عن الأبواب فيقول أيضا:" وأول بلاد علوة قرى فى الشرق على

١ - المقريزى: الخطط جـ١ ص١٩٣.

٢ - المسعودى: التنبية والإشراف، ص١٥١.

٣ - أنظر : حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، ص٣٠.

٤ - المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ص٨٧.

٥ - عرف صاحب الأبواب، لدى بعض المؤرخين العرب المسلمين باسم الرحراح أو الوحواح، انظر: المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ص ٨٥-٨٧، امتداد الإسلام والعروبة إلى وادى النيل الأوسط (مملكة علوه) المجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن ١٩٥٩، ص٨٧.

٦ - المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩٢.

شاطىء النيل، تعرف بالأبواب ، ولهذة الناحية وال من قبل صاحب علـوة يعـرف بالرحراح[١]".

هكذا نظمت مملكة مقرة خط دفاعها الأول ونقصد هنا ولايـة الجبـل، وذلـك خشية تعرضها لهجمات من ناحية الحدود الشمالية من مصر.

أما العلاقات بين الجزيرة العربية وبلاد النوبة، فهى تدخل فى إطار العلاقـات العربية الأفريقية، فقد ارتبطت المناطق الواقعة على شاطىء البحر الأحمر بعلاقـات قديمة، ولم يكن هذا البحر حائلا أمام الاتصال بين جزيرة العرب وساحل أفريقيـة الشرقى، فكان عرب جنوب الجزيرة على درجة كبيرة من الخبرة البحرية، بحكـم نشأتهم فى الموانى الممتدة على طول سواحل تلك البلاد، وتحكمهم فى طرق تجـارة الشرق، ومساهمتهم فى حركة التبادل التجارى بين الشـرق والغـرب منـذ أقـدم العصور وعرفت سفن الممالك القديمة كسبأ وحمير وحضرمـوت طريقـها عـبر البحر الأحمر إلى الساحل الافريقى، حاملة السـلع المحليـة وغيرهـا مـن سـلع المشرق لمبادلتها بانواع التجـارة الأفريقيـة كالعـاج والرقيـق وزيـت النخيـل وغيرها[٢].

ويشير بعض المؤرخين إلى حملات عسكرية قام بها الحمـيريون فـى وادى النيل الأوسط، وشمال أفريقيا، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت فـى بلاد النوبة وأرض البجة، وشـمال أفريقيـا[٣]. واسـتقر أيضـا الحـدارب وهـم الحضارمة- أى سكان حضرموت- بين البجة فى القـرن السـادس الميـلادى[٤]، وتمكن هؤلاء الحضارمة من خلال زواجهم ببنات زعماء البجة ونظـام الأمومـة فى وراثة العرش من تولى زعامة قبائل البجة، واكتسب الحضارمة بوجودهم فـى

١ - المصدر نفسه، والجزء، والصفحة.

٢ - محمد عبد العال: نفس المرجع ص٢٧٦، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقيـة، ط الثالثة ١٩٨٤م، ص٢٦، محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الأفريقيـة، ص٤٥، ٥٧، ٥٨، محمـد عوض محمد: السودان الشمالى، ص٢٣-٣٥.

MacMichael, H. A: A history of the Arabs in the Sudan. I PP. 3-4.

٣ - ابن خلدون: العبر، جـ١، ص١٧٦، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٠٧، ١٠٨، محمد عبـد العال: نفس المرجع، ص٢٧٧.

MacMichael. : OP. Cit. PP. 7-8.

٤ – عبد المجيد عابدين: نظرات عامة فى تاريخ تعريب السودان، الخرطوم ١٩٥٩، ص٤٨.

هذه المنطقة الشخصية البجاوية، وتعلموا لغتها وعاداتها واعتنقوا الدين المسيحى أيضا[١].

وشهدت بلاد النوبة بعد ظهور الإسلام زيادة كبيرة في عدد القبائل العربية التى هاجرت إليها، واستخراج المعادن واستطاعت فى هدوء أن تنشر الإسلام والثقافة العربية[٢].

ومن المعروف أن العرب استخدموا المسالك الأفريقية المقابلة، ثم أضافوا إليها– بعد فتح مصر– أكثر من مسلك تجاه الغرب والجنوب، فبعد أن تدفقت جموع العرب إلى مصر، اندفعت إلى المناطق التى تم فتحها[٣]، وكان الموقف انذاك يتطلب العمل على تأمين ما تم من فتوحات، وخاصة بعد انسحاب البيزنطيين إلى مصر، باعتبارها الملجأ الطبيعى بعد فقد الشام[٤].

وكان على المسلمين فى نفس الوقت أن يستثمروا انتصاراتهم، بتعقب الفارين والوصول بالفتوحات غربا إلى مصر، ولذلك سارع عمرو بن العاص بجيشة إليها، ويشير الواقدى إلى استنجاد المقوقس بملك النوبة[٥]، الا أن الملك المذكور لم يتمكن من إرسال المطلوب لوقع خلاف بينه وبين ملك البجاه، وقيل بل توجه كل من ملكى النوبة والبجة على رأس جيش كبير للمشاركة فى فك الحصار الاسلامى عن البهنسا[٦].

---

١ – بوركهات: رحلاته، ص ص٢٤٨،٢٤٩،
Paul, A . : The Hadareb, A study in Arab-Beja relationships. S N R. XL. P. 75.

٢ – ولهذا لم يكن غريبا أن نلاحظ في تقسيم اركل لتاريخ السودان أن منذ أقدم العصور حتى سنة ١٨٢١م أن ينتقل بعد حديثه عن سقوط مروى الى الحديث عن مجيء الإسلام من سنة ٦٠٠ الى سنة ١٥٠٠.
C. F: Arkell, A.J.: Ahistory of the Sudan from the earliest times to1821. Lonon. 1955.

3 - El Mahadi Mandour: A Short history of the Sudan Oxford Nniversity Press. London. 1965, P. 31.

٤ – الواقدى: فتوح مصر والإسكندرية، ص٥٧، ٦٠.

٥ – الواقدى: فتوح مصر والإسكندرية، ص٥٧، محمد عبد العال: نفس المرجع ص ٢٧٨، ٢٧٩، فيما يتعلق بموضوع طلب المساعدة من ملك النوبة وملك البجاه، فليس لدينا سوى الرواية التى أوردها الواقدى، وهناك من الشواهد ما يدل على أن لهذه الرواية أساسا تاريخيا، فقد ورد فى كتاب Budge.E.A.W: The Egyptian Sudan, II. P. 1480, نقلا عن وثائق البهنسا Oxyrhinchus أن جيشا كبيرا من البجه والنوبة– بقيادة ماكسوح ملك البجه، وغاليق ملك النوبة– قدم الى المساعدة إلى الحملة النوبية البجاوية المشتركة، وعدد الفيلة بها، فان كثرة الشواهد التاريخية لاتدع مجالا للشك بشأن ما ورد فى هذه الرواية.

6 - Budge: The Egyptian Sudan. Vol. II, P. 1840,
مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، (حاشية ١) ص٤.

فلما تم فتح مصر، نصت معاهدة الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس فيما يلى يتعلق بالمصريين، بألا "يساكنهم النوبة" ونصت فى نفس الوقت على أن من يدخل فى الصلح من "الروم والنوبة فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى وأختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، او يخرج من سلطاننا .. وعلى النوبة الذين استجابوا، أن يعينوا بكذا وكذا رأسا، وكذا وكذا فرسا، على الا يغزو أو يمنعوا من تجارة صادرة أو واردة[١]".

وهكذا أجرى المسلمون من دخل فى صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر، من تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم، إلا من اختار الذهاب منهم، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه[٢]، كما تعهد المسلمون بحماية مصر وأهلها من الاغارات، ومنها اغارات أهل النوبة[٣]، ذلك أن النوبيين كانوا ينظرون إلى مصر - ذات الخيرات على أنها غنيمة لهم، مثلما كانت لإبائهم وأجداهم من قبل، ولذلك لم يكن فى الامكان أن يتوقف النوبيون عن الإغارة على مناطق مصر الجنوبية[٤]، ولهذا كان العمل من أجل فتح تلك البلاد لوقف الاغارات، وتأمين الحدود، وتيسير وصول الدعوة الإسلامية إليها، وضمان انتظام الحركة التجارية الصادرة من مصر والوردة عبر أراضى النوبة، حيث كانت السفن تحمل المقادير الكبيرة من الذهب والعاج وغيرهما عبر تلك الاراضى[٥].

ونتيجة للاغارات التى شنها النوبيون على صعيد مصر، وما ترتب على ذلك من تأثر الحركة التجارية، أن أستاذن عمرو بن العاص من الخليفة عمرو بن

---

١ - ابن كثير: البداية والنهاية، ط السعداة، جـ٧، ص٩٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢٤، ٢٥، القلقشندى: صبح الاعشى جـ١٣، ص٣٢٤، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص١٩٩-٢٠٠، ابن خلدون: العبرة، ق ٥، ٢، ص٩٧١، الشاطر بصيلي: معالم تاريخ سودان وادى النيل، ط الأولى القاهرة، ١٩٥٥م، ص٤١، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق، ص٢٧٩.

2 - Chronique de Jean, PP. 446- 447.

الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ص١٩٩-٢٠٠، ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص٣٩٦، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق، ص٢٧٩-٢٨٠.

٣ - بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٩، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق، ص٢٨٠.

٤ - بتلر: المرجع نفسه: ص٢١٦، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١١١.

٥ - أبى الفدا: المختصر، ص٩٦، بتلر: مرجع سابق، ص٨٣.

الخطاب لتوجيه الحملات إلى بلاد النوبه لوقف الاعتدات النوبية وتـــأمين الحـــدود وفتح الطرق التجارية النهرية والبرية عبر تلك البلاد، والدعوة إلى الإسلام[١].

قال البلاذرى: "لما فتح المسلمون مصر، بعث عمرو بن العاص إلى القـــرى التى حولها الخيل ليطأهم، فبعث عقبه بن نافع الفهرى، وكان نـــافع أخـــا العـــاص لأمه- فدخلت خيولهم أرض النوبة، كما تدخل صوائف الـــروم، فلقـــى المســـلمون بالنوبة قتالا شديدا، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جـــرح عامتـــهم، فـــأنصرفوا بجراحات كثيرة، وحدق مفقودة، فسموا رماه الحدق[٢].

وقال ابن عبد الحكم: "وبعث عمرو بن العاص نافع بن عبدالقيس الفهرى، وكان نافع أخا العاص ابن وائل لأمه- فدخلت خيولهم أرض النوبة، صوائف كصوائـــف الروم، فلم يزل الأمر على ذلك، حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر[٣]".

وقال المسعودى: " وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لما افتتح عمـــرو بن العاص مصر، كتب إليه بمحاربته النوبة، فغزاهم المسلمون فوجدوهـــم يرمـــون بالحدق، وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم حتى صرف عن مصر[٤]".

وذكر ابن الأثير فى حوداث سنة ٢٠هـــ، أنه "لما فتحت مصر غزوا النوبـــة، فرجع المسلمون بالجراحات، وذهاب الحدق لجودة رميهم، فسموهم رماه الحدق[٥]".

وقال القلقشندى: "فلما فتح عمرو بن العاص مصر غزاهم[٦]" وذكـــر الطـــبرى فى حوادث سنة ٢٠ هـــ ، : أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا نوبة مصر، فقفـــل المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق من جودة الرمى، فسموا رماه الحدق[٧].

---

١ - المسعودى: مروج الذهب، جـــ١، ص٤٤١، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٠، مكى شـــبيكه: السودان عبر القرون، ص٢٩، الشاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وادى النيل، ص٤٢.

٢ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـــ١، ص٢٣٨، ابن خردانية: المسالك والممالك، ط ليدن، ١٩٦٧، ص٨٣، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨١.

٣ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٦٩، ١٧٠. محمد عبدالعال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٨١، ٢٨٢.

٤ - المسعودى: مروج الذهب، جـــ١، ص٤٤١، الحميرى: الروض المعطار، بيروت ١٩٧٥، ص٢٣٧.

٥ - ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، جـــ٢، ص٣٩٧، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٢.

٦ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـــ٥، ص٢٧٦، محمد عبد العال: نفس المرجع السابق ص ٢٨٢.

٧ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـــ٣، ص٢٠٥، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ٢٨١.

أما المقريزى، فيقول أن " " أول ما تقرر هذا البقط فى إمارة عمرو بن العاص، لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين، وقيل سنة إحدى وعشرين، فى عشرين آلفا، فمكث بها زمانا، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه(١)".

وبعد استعراض تلك النصوص الخاصة بحملة النوبة الأولى، يتضح أنها لاتعطى تصورا كاملا عنها، فقد أغفلت كل ما يتعلق بإعداد الحملة وحجمها، وخط سيرها، وما إذا كانت برية ونهرية ، أم برية فقط، ومدى توغلها فى عمق البلاد، وموقع المعركة، كما اختلف المصادر حول تحديد شخصية قائد الحملة، وخلصت بعض المصادر بين هذه الحملة وبين حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م(٢). إذ جعل المقريزى تقرير البقط فى الحملة الأولى، أى فى ولاية عمرو بن العاص، وفى خلافة عمر بن الخطاب(٣).

وعلى ضوء طبيعية المرحلة وسياسة الفاتحين خلالها، وحجم القوة العسكرية في مصر وقتذاك، وضرورة المحافظة عليها، وعدم إضعافها بتشتيتها فى جبهات متعددة، فانه يمكن القول بأن المحاولات الأولى لفتح النوبة، وبعد ان استهدفت تحقيق الهدف الأساسى من الفتوحات، من إتاحة الفرصة لتعامل الإسلام مباشرة مع شعوب تلك المناطق، ووصول الدعوة إليهم ، إلا أن ذلك كان مرتبطا بمدى ما يمكن إعداده من قوة قادرة على الفتح واستكماله(٤).

فقد كان على القوات الإسلامية فى مصر تثبيت الوجود الإسلامى فيها، إذ لم تكن هذه الحملات العربية الأولى تريد زحفا جادا نحو البلاد النوبية، فعمرو بن العاص لم يكن يطمع فى أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية، او تعقب بعض الفارين من الجنود أو القواد البيزنطيين، ولعلها كانت حملة استكشاف تريد ان تستطلع الأحوال فى أقصى الصعيد(٥).

---

١ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠.

٢ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٨٢.

٣ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠.

٤ - محمد عبدالعال: نفس المرجع، ص٢٨٣، انظر: الخريطة (ملحق الدراسة) شكل (١)، (٢).

٥ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١ ص٣٠٩، عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، جـ١، ص٢٢٩، انظر الخريطة شكل (١).

ويذكر المقريزى[١] أن جيش المسلمين لبلاد النوبة بلغ عشرين ألف مقاتل وهذا العدد مبالغ فيه للأسباب التالية:

- أن جيش المسلمين فى الفتح لمصر بلغ أربعة آلاف مقاتل فى البداية، ثم وصل المدد فيما بعد، فوصل إلى اثنى عشر ألفا[٢].
- تموين وتغذية عشرين ألف جندى فى ذلك الوقت، وفى هذه المنطقة البعيدة أمر عسير.
- لا يعقل الا يستطيع هذا العدد الانتصار نهائيا على النوبة، وينتهى الأمر بمجرد عقد صلح، لم يذكر فيه المنتصر، ولم يتحدد فيد قدر المال الذى يدفع له[٣].
- كل هذا ينفى ما ذكره المقريزى من أن الحملة الأولى على النوبة كانت تتكون من عشرين ألفا، وإنما كانت تتكون من عدد محدود من الفرسان[٤].

ويؤيد ذلك ما ذكرته المصادر من ان أولى الحملات التى قادها عمرو بن العاص لفتح برقة، وهى فى حدود الفترة التى وجهت فيها حملة النوبة الأولى، كانت من الفرسان[٥]، وهذا يعنى أنها كانت قليلة العدد رغم احتمالات المخاطر من جهة البيزنطيين فى الجهة الغربية[٦].

وعلى ذلك، فان تلك الحملة وغيرها فى كل من الجهتين لم تكن كافية بحيث يمكن تامين ما تحققة من فتوحات، وضمان استمرار تبعية ما تفتحة بترتيب الحاميات الكافية الدائمة فيها، إذ أن صغر حجم الحملات حتم عودتها إلى قواعدها بعد كل حملة بمجرد القيام بها بما أعدت له، ودون ترك حاميات فى المناطق التى تم فتحها، مما يدل على أن الحملات الأولى لم تكن سوى حملات استطلاعية محدودة العدد، تتكون كل منها من مجموعة قليلة من الفرسان[٧].

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠.

٢ – ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٥٦، الكندى: الولاة، ص٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٥، ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٩٥.

٣ – شوقى الجمل: تاريخ سودان وادى النيل، ط الأنجلو ١٩٦٩، ص٢٣١.

٤ – البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨، محمد عبد العال: نفس المرجع ص٢٨٣.

٥ – ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٧٠، ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار المغرب، طبعه برفنسال، ص٨.

٦ – محمد عبد العال: مرجع سابق، ص٢٨٣–٢٨٤.

٧ – محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٨٤.

وإذا كانت المصادر لم تنص على خط سير الحملة، وبيان مدى توغلها، أو تحديد موقع المعركة، فانه يمكن القول بان الحملة كانت برية لكونها من الفرسان، وأنها استهدفت المواقع القريبة من حدود مصر الجنوبية فيما يلى أسوان وما حولها، حيث كانت الاغارات النوبية تنطلق منها. وعلى ذلك لم تكن المعركة تبعد كثيرا من حدود مصر[١]. يؤيد ذلك ما ذكره الطبرى[٢]، من أن الغزوة كانت لنوبة مصر، أى منطقة النوبية القريبة من مصر، مما سهل للحملة مهمة الانسحاب والعودة بعد أن أصيب بعض أفرادها بجراحات وحدق مفقوءة، لتضع بين يدى عمرو بن العاص تقريرا عن صورة الموقف، وأسباب إخفاق الغزوة التى ترجع إلى قلة عدد الفرسان، مع كثرة عدد النوبيين وشدة مقاومتهم ، ومهارتهم فى الرمى بالسهام[٣].

لم تكن المعركة معركة التحام بين القوتين، ليظهر المسلمون براعتهم فى القتال بالسيوف، ولكن لعدم خبرة النوبيين بالفروسية، عملوا على ان تكون المعركة بالأسلوب الذى يجيدونه مما جعل من التعذر أن تكون المعركة معركة فروسية بالسيف، فظهرت براعة النوبيين فى الرمى بالسهام، وقدرتهم على إصابة الهدف، إذ كانوا يصوبون سهامهم إلى عيون مقاتلى المسلمين فيصبونها فى دقة تامة[٤].

ويمدنا البلاذرى برواية أسندها إلى من رواها عن واحد ممن شارك فى تلك المعركة[٥]، قال: "شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قوما أحد فى حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمى منك؟ فربما عبث الفتى منا فقال: فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمى بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شيء. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين، فعدت مائه وخمسون عينا مفقوءة. فقلنا، ما لهؤلاء خير من الصلح،

---

١ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٤.

٢ – الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص٢٠٥.

٣ – البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٥.

٤ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٥.

٥ – البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨.

أن سلبهم لقليل، وان نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يكالبهم حتى نزع[١]".

أما ما ذكرة المقريزى من ان تقرير البقط على النوبة كان نتيجة لتلك الحملة[٢]، فان المصادر الأقدم لم تتحدث عن ذلك، وكلها تشير إلى اضطرار الحملة إلى الانسحاب والعودة لشدة مقاومة النوبيين[٣]، وهو موقف لا يمكن القول بأنه من الممكن أن يتقرر البقط نتيجة له، اللهم إذ كان المقصود ما ورد عن النوبيين فى معاهدة الصلح التى عقدها عمرو بن العاص مع المقوقس عند فتح مصر، إلا ان المقريزى ينص على ان تقرير البقط كان نتيجة للحملة الأولى على بلاد النوبة[٤].

ومن ناحية أخرى فان استمرار عمرو بن العاص فى إرسال فرسان المسلمين إلى النوبة صوائف كصوائف الروم[٥]، ورفضه مصالحة النوبيين إلى أن صرف عن مصر، فان فى ذلك دليل على استمرار الغزوات، على هيئة صوائف طيلة ولاية عمرو بن العاص إلى أن كانت حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م[٦].

وقد تضاربت المصادر حول شخصية قائد هذه الحملة، وأشارت الى ثلاث شخصيات: عبدالله بن أبى السرح[٧]، أو عقبة بن نافع[٨]، أو والده نافع بن عبدالقيس الفهرى[٩].

---

١ - المصدر نفسه، الجزء، ص ص٢٣٨، ٢٣٩.

٢ - الخطط، ج ١، ص ٢٠٠، حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، ص١٣٩.

٣ - فتوح البلدان: جـ١، ص٢٣٨، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٢، ص٣٩٧، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١ ص٣٠٧، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٦.

٤ - الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣ ص١٩٩-٢٠٠، ابن كثير البداية والنهاية، جـ٧، ص٩٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢٤، ٢٥، القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ص٣٢٤، ابن خلدون: العبر، ق٥، م٢، ص٩٧١، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٦.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٧٠، ١٨٨، ١٨٩، البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، ١٨٩، البلاذرى: نفس المصدر، ص٢٣٩، المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤١، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٦.

٧ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٠٠، عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ١٩٥٣، ص٣٥.

٨ - البلاذرى: نفس المصدر، جـ١، ص٢٣٨، قدامه: الخراج، ص٣٥٢.

٩ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٦٩، ١٧٠.

ففيما يتعلق بعبد الله بن سعد الذى ذكر المقريزى انه قاد الحملة، فمن الثابت انه خلط بين هذه الحملة وبين حملة عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ. وإذا ثبت اشتراك عبدالله بن سعد فى حملة النوبة الأولى فمن المرجح أنه كان واحدا من أفرادها وليس قائدا لها[١].

أما عقبة بن نافع ، فقد أشارت المصادر الى انه قاد حملات أخرى منذ بداية المحاولات الأولى لفتح المغرب سنة ٢٢هـ/٦٤٣م[٢].

ولما كانت المصادر قد حددت فى نفس الوقت مولد عقبة فى السنة العاشرة للهجرة، أى قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعام تقريبا[٣]، فانه يكون فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره أثناء حملة النوبة الأولى على أكثر تقدير، اى أنه لم يكن فى سن تسمح له بإسناد قياد الحملة إليه، وخاصة أنها كانت موجهة لمناطق تكاد تكون مسالكها وطبيعتها مجهولة بالنسبة للعرب وان اقتصرت مهمتها خلال تلك المرحلة على الاستطلاع، إلا أن ذلك لا يمنع من مصاحبة عقبة لابيه الذى كان قائدا للحملة[٤]، وهذا ما ذكرة ابن عبد الحكم[٥]، اذ نص صراحة على ان الحملة كانت بقيادة نافع بن عبد القيس[٦]، وقد نسبت المصادر ذلك إلى عقبة، لما اشتهر بعد ذلك باعتباره من كبار قادة الفتوحات فى بلاد المغرب، فخلطت المصادر ونسبت قيادة تلك الحملة وغيرها من الحملات العسكرية إليه[٧].

أما عن حملة عبدالله ابن سعد على النوبة، فتجمع المصادر على أنها كانت سنة ٣١هـ/٦٥٢م[٨]. إلا أن بعضها لم يشر إلى الحملة الأولى، وأعتبر ان حملة

---

١ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٨٧.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٩٤، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٧.

٣ - ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص١٩، محمد عبد العال، نفس المرجع، ص٢٨٧.

٤ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٧-٢٨٨.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٦٩، ١٧٠.

٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٦٩، ١٧٠.

٧ - محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٨٨.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، ١٨٩، ياقوت: معجم البلدان، مادة د مقلة، ابن ايبك الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ، جـ٨، ص٢٠١، المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤١، المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٨.

عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ، هى أولى الحملات التى وجهها المسلمون التى بلاد النوبة، قال ابن أبيك أن "أول ما غزيت النوبة سنة إحدى وثلاثين للهجرة النبوية[١]".

ولا شك أنه فيما سبق توضيحه ما يكفي لتأكيد أن حملة ابن سعد لم تكن أولى الحملات على النوبة، وأن بداية محاولات فتحها كانت سنة ٢٠، أو ٢١هـ/٦٤١ أو ٦٤٢م، أى بعد فتح مصر مباشرة[٢].

ونظرا لأن المصادر لم تشر الى حملات أخرى بين الحملة الأولى وحملة ابن سعد، أى لفترة تزيد عن عشر سنوات، فقد تبادر إلى الأذهان أن الحملات توقفت خلال تلك الفترة[٣]. وقد يؤيد ذلك ما ذكره القلقشندى – نقلا عن الروض المعطار – من ان عمرو بن العاص– رضى الله عنه– قصد قتال النوبة ، فرأهم يرمون الحدق بالنبل، فكف عنهم، وقرر عليهم إتاوة من الرقيق فى كل سنة[٤]".

ولا شك أن رواية القلقشندى فيها خلط بين الحملة الأولى والثانية على سبيل أن جعل الحملة الأولى بقيادة عمرو بن العاص، وان من نتائجها تقرير اتاوه سنوية من الرقيق تقدمها النوبة، الأمر الذى يجعل من الحكمة عدم الأخذ بها، اللهم اذا كان المقصود حملة عبدالله بن سعد التى لم تكن فى عهد عمرو[٥].

ومما يزيد الشك فى رواية القلقشندى ، ما أورده فى صفحة سابقة، جاعلا الحملة بقيادة عمرو بن العاص أيضا، إذا ذكر لما فتح عمرو بن العاص مصر قام بغزو النوبة، وأورد القلقشندى نصا نقلة عن الروض المعطار جاء فيه، "فرآهم يرمون الحدق بالنبل، فكف عنهم ، وقرر عليهم اتاوة فى كل سنة[٦] "وبمقارنة ما ذكره صاحب الروض المعطار يتضح اختلاف ما أورده القلقشندى حيث ذكر الحميرى "ولما افتتحت مصر أمر عمر رضى الله عنه أن تغزى النوبة، فوجدهم

---

١ – كنز الدرر: جـ٨، ص٢٠١، ٢٠٢، ياقوت: معجم البلدان، مادتى د مقلة والنوبة، الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٦٩.

٢ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٩.

٣ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٩.

٤ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٥، ص٢٧٨.

٥ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٨٩.

٦ – صبح الاعشى: جـ٥، ص٢٧٦، محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٩٠.

المسلمون يرمون الحدق، فذهبوا إلى المصالحة، فأبى عمرو بن العاص رضى الله عنه من مصالحتهم حتى صرف عن مصر ووليها عبدالله بن سعد بن أبى سرح سنة إحدى وثلاثين[١]".

وهكذا يتضح أن صاحب الروض المعطار لم ينص على توقف الحملات أو المصالحة أو التوصل إلى تقرير شىء على النوبة فى عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر[٢]، ففى رواية البلاذرى بسنده عن شيخ من حميرة، ما يدل على استمرار الحملات، إذا قال الشيخ: شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب[٣]".

كما تشير نصوص أخرى إلى عدم مصالحة عمرو بن العاص للنوبة، وأن كتائب الفرسان استمرت فى الوصل الى النوبة بعد الحملة الأولى، صوائف كصوائف الروم، "ولم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو بن العاص عن مصر، وأمر عبد الله بن سعد، فصالحهم[٤]".

وهكذا يتأكد أن حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م، لم تكن أولى الحملات التى وجهها العرب إلى النوبة، وأن الحملة الأولى كانت سنة ٢٠ أو ٢١هـ/٦٤١-٦٤٢م، وأن كتائب فرسان المسلمين لم تتوقف عن الوصول إليها، وأنها استمرت حتى بعد عزل عمرو وولاية ابن سعد، الذى بدأت ولايته على مصر سنة ٢٥هـ/٦٤٦م[٥].

كانت هذه الحملات الاستطلاعية سرايا للاستكشاف تخرج بناء على أوامر من الخليفة طبقا لسياسة مرسومة مثلما حدث من استئذان عمرو بن العاص الخليفة فى

---

١ – الحميرى: الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مادة د مقلة، ص٢٣٧، محمد عبد العال: نفس المرجع ص٢٩٠.

٢ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٠.

٣ – البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٠-٢٩١.

٤ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٦٩، ١٧٠؛ البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨؛ المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤١؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٥٢؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩١.

٥ – بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: جـ١، حوادث سنة ٢٥هـ وجعلها ابن الأثير سنة ٢٦ هـ. انظر: الكامل فى التاريخ، حوداث سنة ٢٦هـ؛ محمد عبد العال، نفس المرجع، ص٢٩١.

إعداد الحملات[١] على مصر والنوبة[٢] وبلاد المغرب[٣].

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان، استقرت الفتوحات الإسلامية ، وزاد عدد المسلمين بإقبال أهالى البلدان على اعتناق الاسلام، وبالنسبة لبلاد النوبة فيبدو ان السرايا الاستطلاعية أدت مهمتها، وتوفرت المعلومات عن تلك البقاع، ولكن كثرت الاغارات النوبية على صعيد مصر، وقام النوبيون خلالها بالسلب والنهب والتخريب[٤]، توفرت الأسباب الموجهة لإعداد حملة كبيرة لوضع حد لتلك الأعمال[٥].

ففى سنة ٣١هـ/٦٥٢م توجه عبدالله بن سعد على رأس حملة احكم أعدادها إذ كانت تتكون من خمسة آلاف فارس[٦]، مزودين بالمؤن والسلاح والآت الحصار واتخذ طريقه عبر أراضى النوبة متوغلا إلى مدينة دنقلة عاصمة مملكة النوبة الشمالية مقرة[٧].

ولتلافى الوقوع فى مرمى سهام النوبيين، قام عبدالله بن سعد بفرض الحصار على العاصمة النوبية، واستخدم المنجنيق فى قصفها، فخربت قذائفه كثيرا من الدور، ومنها كنيسة المدينة، وعندئذ فوجيء ملك النوبة قليد ورث بهذا الأسلوب الحربى الذى لم تعهده النوبة من قبل[٨]، وأسقط فى يده واضطر اى الإسراع فى طلب الصلح حتى لاتوخذ بلاده عنوه[٩].

ويشير المقريزى الى طلب الصلح بعد أن عجزت مقدرتهم الحربية بقوله: "وطلب ملكهم واسمه قليدورث الصلح، وخرج إلى عبدالله، وأبدى ضعفا

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٥٦، ٥٧، ٥٨، حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية، جـ١، ص٨٦.

٢ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤١.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٩٤، ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص٨.

٤ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١١.

٥ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٢.

٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨.

٧ – الذهبى: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦ تاريخ، جـ٢٩، ص١٢٨. عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، جـ١، ص٢٣٠، انظر: الخريطة بملحق الدراسة شكل رقم (٢).

٨ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٠٠، محمد عبد العال: مرجع سابق، ص٢٩٣.

9 - MacMichael. H. A.: *Op. Cit.*, *P.* 157.

ومسكنه وتواضعا فتلقاه عبدالله ورفعه وقربه، ثم قرر الصلح معه على ثلثمائة وستين رأسا فى كل سنة، ووعده عبدالله بحبوب يهديها إليه لما شكا له قله الطعام ببلده[١]".

قال ابن عبدالحكم ومن نقل عنه، " أنه أصيبت يومئذ عين معوية بن حديج وأبى شمر ابرهه (الصباح) وحيويل بن ناشرة، فيومئذ سموا رماة الحدق فهادنهم عبدالله بن سعد اذ لم يطقهم، غير ان إصابة عيون المقاتلين، وتسمية النوبيين برماة الحدق، إنما كان فى الحملة الأولى، حيث فوجىء المسلمون وقتذاك ببراعة النوبيين المتناهية فى إصابة الهدف بالسهام من بعيد، لذلك لم يتمكن المسلمون أنذاك من الالتحام بهم لملقاتلهم بالسيوف[٢].

أما فى هذه المعركة ، فان الحصار الذى فرضة المسلمون على العاصمة، واستخدام المنجنيق فى ضربها، فوت الفرصة على النوبيين فى استخدام السهام، لبعد المسلمين عن مرماهم، ولهذا عجزوا عن مدافعة المسلمين، وأيقنوا بالهلاك، وخرج ملكهم خاضعا طالبا الصلح، وهو أمر لايحدث إذا كان النوبيون قد تمكنوا من استخدام سهامهم فى هذه الحملة[٣]، يؤيد ذلك ما ذكره كل من البلاذرى، وابن خرداذبة والطبرى والمسعودى وابن الأثير، من ان إصابة عيون المقاتلين كانت فى الحملة الأولى ولم يشر أى من هؤلاء إلى تكرار ذلك فى حملة عبدالله بن سعد المشار إليها[٤].

وهكذا تحقق النصر للمسلمين فى هذه المعركة، بعد ان ضعفت عزائم النوبيين وعجزوا عن الدفاع عن مدينتهم، ولهذا أسرع ملكهم إلى طلب الصلح قبل ان تفتح مدينته عنوة، أما استجابة ابن سعد له، فتنفيذ قول الله سبحانه وتعالى: "وإن جَنَحُوا للسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ[٥]".

---

١ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠؛ محمد عبد العال: مرجع سابق، ص٢١٣.

٢ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٥٢؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٣-٢٩٤.

٣ - محمد عبد العال: مرجع سابق، ص٢٩٤.

٤ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨. ٢٣٩، المسالك والممالك، ص٩٢، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٢٠٥، مروج الذهب، جـ١، ص٤٤١، الكامل فى التاريخ، جـ٢، ص٣٩٧.

٥ - سورة الأنفال، أيه ٨.

قال البلاذرى: ان النوبيين سألوا ابن سعد "الصلح والموادعة فأجابهم[١]" وقال: "حدثنا عبدالله بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب، قال: ليس بيننا، وبين الأساود عهد ولا ميثاق أنما هى هدنة بيننا وبينهم[٢]، على أن نعطيهم شيئا من قمح وعدس ويعطونا رقيقا فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم[٣].

وقال ابن عبد الحكم ومن نقل عنه: "وليس بينهم وبين أهل مصر عهد ولا ميثاق انما هى هدنة أمان بعضنا من بعض[٤]" على أن "لانقاتلهم ولا يقاتلونا، وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما[٥]".

أما عن نص كتاب عبدالله بن سعد لملك النوبة ، فقد أورد ابن عبدالحكم بعضا منه، قال: ويقال فيما ذكر بعض المشائخ المتقدمين أنه نظر فى بعض الدواوين بالفسطاط وقرأه قبل أن ينحزق، فإذا هو يحفظ منه، أنا عاهدناكم وعاقدناكم ان توفونا فى كل سنة ثلثمائة رأس وستين رأسا، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم، على أنكم أن قتلم من المسلمين قتيلا فقد برئت منكم الهدنة، وعلى أن اويتم للمسلمين عبدا فقد برئت منكم الهدنة وعليكم رد أباق[٦] المسلمين ومن لجأ إليكم من أهل الذمة"[٧].

أما النص الكامل لكتاب عبدالله بن سعد، فقد أورد المقريزى فى خططه وأن كان قد أغفل ذكر مصدره، ونصه بعد البسملة كالآتى: "عهد من الامير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة، ان عبد الله بن سعد

---

١ - فتوح البلدان: جـ١، ص٢٣٨، وانظر ياقوت: معجم البلدان، مادة د مقلة، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٥.

٢ - الأساود: ذكر ابن عبد الحكم "ثم غزا عبدالله بن سعد الاساود وهم النوبة" فتوح مصر، ص١٨٨، وانظر محمد عبد العال: ص٢٩٥.

٣ - فتوح البلدان: جـ١، ص٢٣٩.

٤ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، ياقوت: معجم البلدان، مادة دمقلة.

٥ - البلاذرى: المصدر نفسه، والصفحة، وانظر: ابن عبد الحكم: نفس المصدر، والصفحة، ابن الأثير: نفس المصدر، جـ٢، ص٢٩٧، قدامة بن جعفر الخراج، ص٣٥٢.

٦ - أبق: خارج على القانون- هارب.

٧ - فتوح مصر، ص٢٥٤. محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٥-٢٩٦.

جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلكم مجتازين غير مقيمين فيه. وعليكم حفظ من نزل ببلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره الى ان ينصرف عنه[١]. وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليا، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته. وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولاعجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان، وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فان أنتم أويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا أو تعرضتم للمسجد الذى أبتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم او منعتم شئيا من الثلثمائه رأس والستين رأسا، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وانتم على سواء، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم ، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك[٢]".

كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين[٣]".

ويتضح من النص الكامل للكتاب الحقائق التالية[٤]:

---

١ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٠٠.

C.F: MacMichael H. A: Op. Cit. PP., 157-158:

محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٦، ٢٩٧.

٢ – المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٠٠.

٣ – ابن الأثير: نفس المصدر، نفس الصفحة، وان اختلف "وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من الولاة والأمراء.

٤ – محمد عبد العال: النوبة والمحاولات الإسلامية لفتحها، ص٢٩٨، ٢٩٩.

- أمان لمملكة النوبة الشمالية (مقرة) ، هدنة بين المسلمين وبين تلك المملكة فقط إلى حد أرض علوة (المملكة الجنوبية) أى انه لم يتضمن مملكة علوة.
- ضمان لحرية دخول المسلمين والنوبيين كل إلى بلد الآخر غير مقيمين وأن يحفظ النوبيون من يصل إلى بلادهم من مسلم أو معاهد حتى يخرج.
- عدم إيواء مسلم محارب للمسلمين، أو الفارين من عبيد المسلمين.
- القيام بحفظ المسجد الذى أقامة المسلمون بدنقله، والتعهد بنظافته وإنارته وعدم التعرض بسوء لمن يقصده مصليا كان أو مجاورا.
- عدم التزام المسلمين بحماية النوبيين، أو تقديم آية مساعدة لهم ضد أعدائهم.
- التعهد بتسليم ٣٦٠ رأسا من الرقيق سنويا.
- يلتزم المسلمون بعدم محاربة النوبيين ما داموا ملتزمين بالوفاء بما ورد بشأنهم فى الكتاب المذكور.

ولا شك ان ما قرره عبد الله بن سعد يتفق مع طبيعة بلاد النوبة ، ويؤدى فى نفس الوقت إلى تحقيق الأهداف الأساسية للفتوحات من حيث اتصال الدعاة بأهل البلاد، والتمهيد لنشر الإسلام، بالإضافة إلى وقف الاغارات النوبية على صعيد مصر، وتأمين حدود مصر الجنوبية، وتنشيط الحركة التجارية[١].

أما النص المتعلق بالرقيق، فمن المحتمل أن يكون القصد منه التأكد من استمرار النوبيين تنفيذ بقية ما نص عليه عهد الأمان، والوفاء بما تعهدوا به ، خاصة وأن المصادر لم تشر إلى قيام المسلمين بترتيب نائب أو حاميات إسلامية فى النوبة[٢].

ومما يذكر أن هذا الرقيق الذى نص عليه، هو وحدة الذى اصطلح عليه بالبقط[٣] دون بقية ما نص عليه العهد، وربما كانت لفظة (البقط) مصرية قديمة

---

١ – حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص٣١٠؛ محمد عبد العال: مرجع سابق، ص٢٩٨، الشاطر بصيلى: مرجع سابق، ص٤٢، رولاند أوليفر: موجز تاريخ أفريقية، ترجمة دولت صادق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥، ص٧٨،

MacMichael, H. A.: Op. Cit., PP. 158- 159.

٢ – محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٨، ٢٩٩.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٩، البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٩؛ المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤١، ٤٤٢؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٥٢.

بمعنى عبد (باك) وأطلقتها المصادر العربية على ما تقدمه النوبة من رقيق[١].

وإذا أخذنا برأى المقريزى من أنها كلمة عربية تعنى فرقة من الشىء أو قطعة منه، وهى هنا بمعنى "بعض ما فى أيدى النوبة[٢]".

فالبقط أذن "ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم " طبقا لما قرر[٣].

وقد جعل ابن خلدون البقط جزية[٤]، وقال غيرة بأنه ليس بجزية[٥]، ولا خراج[٦]، وقيل بل هو هدية[٧] أو عطاء يقدمه النوبيون ويؤدى المسلمون فى مقابلة طعاما[٨]. غير ان نص العهد الذى أورده المقريزى لم يقرر فيه شرط عن التزام المسلمين بتقديم شىء من غلال أو خلافه، غير أن هدية الغلال، أنما كانت بعد ان قرر ابن سعد الصلح مع ملك النوبة، على نحو ما ورد فى الكتاب. فلما شكا الملك قلة الطعام ببلده، وعده ابن سعد بحبوب يهديها إليه، وبعث له ما وعده به من حبوب قمحا وشعيرا وعدسا وثيابا وخيلا، قال المقريزى: " ثم تطاول الرسم على ذلك، فصار رسما يأخذونه عند دفع البقط فى كل سنة[٩]".

---

١ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٩، وهناك رأى بأن البقط ما كان يؤخذ فى كل عام فى قرية القصر على بعد خمسة أميال جنوبى مدينة اسوان، ولفظ البقط حسب اجتهاد بعض الباحثين لفظ مشتق من احد أصليين: الأول لاتينى الاصل وهو Pactum ومعناه الاتفاق أو الموادعة، والثانى مصرى قديم وهو باق ومعناه الضريبة التى تدفع عينا. انظر

Trimingham. J.S. Islam in the Sudan Oxford University, 1949, P. 62. Macmichael. H. A. Op Cit. P. 158;

وانظر كذلك: بيكر: مادة (بقط) بدائرة المعارف الإسلامية. مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، حاشية رقم (٢٢) ص١١٢؛ عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، جـ١، ص٢٣٠، الشاطر بصيلى: مرجع سابق، ص٤٢.

٢ - الخطط، جـ١، ص١٩٩، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٩.

٣ - الخطط، جـ١ ص١٩٩، ٢٠٠.

٤ - تاريخ ابن خلدون: جـ٥، ص٩٢١، بيكر: مادة (بقط) دائرة المعارف الإسلامية.

٥ - البلاذرى: فتوح البلدان: جـ١، ص٢٣٨.

٦ - ابن خرداذبة: المسالك، ص٩٢.

٧ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨، ابن خرداذبة: نفس المصدر والصفحة، ابن الأثير، نفس المصدر، نفس الصفحة.

٨ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، ١٨٩؛ البلاذرى: نفس المصدر، ص٢٣٨، ٢٣٩، ابن خرداذبة: نفس المصدر والصفحة، ياقوت: مادة دمقلة.

٩ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠؛ قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٣٥٢؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٢٩٩، ٣٠٠.

ولم يتوقف المسلمون عن إرسال هديتهم طالما استمر النوبيون فى المحافظة على تنفيذ ما التزموا به فى ذلك البقط[١].

ورغم تحديد كتاب ابن سعد للبقط بثلاثمائة وستين رأسا[٢]، الا أن بعض الروايات ذكرت أرقاما تختلف عن ذلك[٣]، ففى رواية البلاذرى بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب، قال: أنهم ثلاثمائة رأس فقط[٤]، وقيل بل صالحهم على أربعمائة رأس[٥]، لوالى مصر منها أربعين[٦].

أما المسعودى ، فقد جعلهم ثلاثمائة وخمس وستين رأسا، أى بزيادة خمسة، وقال: "وأراه رسما على عدد أيام السنة[٧]"، وأن هذا ما يخص بين مال المسلمين، تنفيذ شروط الهدنة. وزاد على ذلك عددا أخر خارج عن الشرط عبارة عن أربعين رأسا لأمير مصر، وعشرين لنائبه فى أسوان وخمسة للقاضى الذى يحضر مع أمير أسوان لاستلام البقط ، واثنى عشر رأسا لاثنى عشر شاهدا عدولا يحضرون الاستلام. قال المسعودى: "وهذا على حسب ماجرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة[٨]".

وكان يتم تسليم البقط فى موضع يعرف بالقصر على بعد أميال جنوبى أسوان[٩] وقد حدد العهد وصف ونوعية ما تقدمه النوبة من رقيق، إذ يجب أن يكون من أوسط رقيقهم، غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز، ولا طفل لم يبلغ الحلم[١٠]".

---

١ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٣٠٠.

٢ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٠٠.

٣ - محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٣٠١.

٤ - البلاذرى: نفس المصدر، ص٢٣٨، ٢٣٩.

٥ - ياقوت: معجم البلدان، مادة نوبة.

٦ - ابن عبدالحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، ١٨٩.

٧ - مروج الذهب، جـ١ ص٤٤١.

٨ - مروج الذهب، جـ١، ص٤٤١؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٣٠١.

٩ - مروج الذهب، جـ١ ص٤٤٢، المقريزى، الخطط، جـ١، ص٢٠١؛
Macmichal. H.A.: Op. Cit., P. 158.

١٠- المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠؛ محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٣٠٢.

قال ابن عبد الحكم: "فزعم بعض المشائخ أن منها سبعة عشر مرضعا[١]" والرقيق أو البقط الذى تقدمة النوبة، هو "مما يأخذون من رقيق أعدائهم[٢]" مما يسببه ملكهم" المجاور للمسلمين من غيرهم من بلاد النوبة[٣]".
قال البلاذرى: "فإذا لم يجدوا منه شيئا، عادوا على أولادهم، فأعطوا منهم فيه بهذه العدة[٤]".

وقال ابن عبدالحكم: "قال ابن لهيعة: ولا بأس ان يشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم[٥]".

وهكذا وضع عبدالله بن سعد الأسس للعلاقات المختلفة بين المسلمين والنوبة، ومن ثم تنظيم تلك العلاقات بطريقة تضمن تحقيق الاتصال السلمى بين البلدين، وتأمين الحدود، ووقف الاغارات، مما كان له أكبر الأثر فى تسهيل وصول الدعوة وانتشار الاسلام فى بلاد النوبة سلميا، وما البقط إلا دليل على استمرار وفاء النوبيين، بما تعهدوا به[٦].

ويرى الدكتور حسن محمود أن هذا العهد قد جعل النوبيين والمسلمين على قدم المساواة فلا غالب هناك ولا مغلوب، وهى ليست معاهدة تبعية، بدليل ما يدفعة المسلمون من أشياء مساوية تقريبا لما يدفعة النوبيون وقد تزيد، وأنها مصالح مشتركة، تأمين للنواحى الاقتصادية والتجارية والدينية ، وتشجيع للتبادل التجارى ، وتنظيم طبيعى للعلاقات وإقرار السلام على الحدود المشتركة[٧].

---

١ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٩، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٣٠٢.

٢ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٩.

٣ - المسعودى: مروج الذهب، نفس الصفحة.

٤ - فتوح البلدان: نفس الصفحة، محمد عبد العال: نفس المرجع، ص٣٠٢.

٥ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، وانظر كذلك حول حكم الشرع الإسلامى نحو حسن معاملة الرقيق: السمرقندى: كتاب العتاق، ص٣٨٠-٤٢٩؛ الكندى، الولاة، جـ١، ص٣١٧، ٣١٨؛ البلاذرى: انساب الإشراف، جـ١، ص ١٧٨، ١٧٩؛ على عبد الواحد وافى: حقوق الإنسان فى الإسلام، ط ٥ سنة ١٩٧٩، ص٢٠٠-٢١٣، آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٢٣٨، ٢٣، أحمد أمين: فجر الإسلام، جـ١، ص٨٨، ٨٩؛ محمد عبد العال، مرجع سابق، ص٣٠٢، ٣٠٣.

٦ - محمد عبد العال، نفس المرجع، ص٣٠٣.

٧ - حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، جـ١، ص٣١١.

MacMichael. H. A.: Op Cit., P. 158.

مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١١٣.

وقد جعلت معاهدة البقط النوبيين فى نظر العرب "مصالحين[١]" وهو ماعرفه الفقهاء باسم "أهل العهد[٢]، ولذا فأنها تفسر بأنها حسن جوار، وسلامة الحدود، وحرية التجارة بين البلدين، ثم أنها تخول للمسلمين الحصول على سواعد النوبيين القوية لخدمة الدولة الإسلامية ، بالإضافة إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية نشرا سلميا[٣].

ومما ساعد على ذلك، ان معاهدة البقط خلت من التعصب الجنسى أو الدينى، ولذا بقيت أطول مدة يمكن أن تبقى معاهدة بين دولتين ، فضلا عن حسن العلاقات الودية والسلمية بصفة عامة[٤].

وظلت معاهدة البقط، أكثر من ستة قرون ونصف[٥]، أساسا للعلاقات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية وغيرها، سارت على ضوئها كل الحكومات الإسلامية التى تعاقبت على مصر، فقد كانت استهلالا لامتداد الإسلام والثقافة العربية إلى تلك البلاد، أما بتشجيع حكام مصر الإسلامية، أو هجرة العرب المرحلية إليها لأغراض شتى منها التجارة والمراعى أو الابتعاد عن السلطة المركزية وغيرها[٦].

وإذا ما أخذنا فى الاعتبار العلاقات الحربية بين البلدين فى فترة عصر الولاة، فسوف نلاحظ تكرار الغارات النوبية على مصر، بين الفينة والفينة، فضلا عن

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠١.

٢ – الماوردى: الأحكام السلطانية، ص ١٤٦؛ عبد المنعم ماجد: الدولة العربية، جـ١، ص٢٣٠، ٢٣١ وأيضا ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص٢٣٢.

٣ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠١، وعن آثار هذه المعاهدة ، انظر مصطفى مسعد، معاهدة البقط نمط فريد فى مجال العلاقات الدولية فى الإسلام (بحث فى كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية) جامعة الإمام محمد بن سعود- العدد الخامس ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص ص٤٧١-٥٨٥؛

Yusuf fadl Hassan: The Arabs and the Sudan. University of Khartoum press, 1973 P. 20.

4 - Hamilton J. A. De. C.: The Anglo. Egyptian Sudan from within, London. 1935. P. 52

٥ – ظلت معاهدة البقط قائمة ٦٨٦ عاما هجريا تقريبا أو ٦٦٥ عاما ميلاديا تقريبا، أى منذ عقدها عام ٣١هـ/٦٥٢م إلى سقوط مملكة النوبة الشمالية (مقرة) فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. انظر: ابن خلدون: العبر، القسم الأول، المجلد الخامس، ص٩٢٢؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٥ ، ص٢٧٦؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٦٦، ١٦٧، مكى شبيكة: السودان، ص٣٠.

٦ – حسن محمود: مرجع سابق، جـ١، ص٣١١؛ مصطفى مسعد: معاهدة البقط، ص٤٨٢، الإسلام والنوبة، ص ١١٥.

امتناعهم عن دفع البقط المقرر، مما كان يستدعى أن يرسل ولاة مصر الإسلامية حملات تأديبية لهؤلاء المغيرين، وإرغامهم على دفع البقط[١]، ويشير المقريزى إلى فترة عدم الانتظام فى أداء ما تقرر بقوله: ولم يزل النوبة يؤدون البقط فى كل سنة، ويدفع إليهم ما تقدم ذكرة إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم بالله أبى إسحاق بن الرشيد (٢١٨هـ-٢٢٩هـ/٨٣٣-٨٤٣م) وكبير النوبة يؤمئذ زكريا بن يحنس وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم ويمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكريا على أبية بذلة الطاعة لغيرة واستعجزة فيما يدفع فقال: له أبوه فماء تشاء قال عصيانهم ومحاربتهم[٢]".

وامتنع النوبيون فعلا عن إرسال البقط، واجه النوبيون خلالها ضغطا حربيا متواليا من ولاة الصعيد الأقصى، غير أن زكريا بن يوحنس (يوحنا) رأى أن يوفد ابنه جورج إلى بلاط الخليفة فى بغداد ليعاين بنفسه قوة المسلمين ومدى استعداد النوبة لمقاومتهم، حتى يحاربهم على خبرة، أو يحاول كسب ود المسلمين وعطفهم[٣]. فشخص جورج إلى بغداد، وأتاحت له هذه الرحلة فرصة التعرف على مدى قوة المسلمين فبهرته كثرة الجيوش وعظم العمارة، وأدرك الا طاقة له بمخالفتهم، لاسيما وأن المعتصم أحسن وفادته وأكرمه، وتم الاتفاق على أن يدفع بقط سنة كل ثلاث سنين على إلا ينقص المسلمون من هبتهم من الثياب والحبوب[٤]. ولبى الخليفه طلب ولى عهد النوبة بالإفراج عن المسجونين النوبيين، ولم يجبه إلى إزالة "المسلحة" التى أقامها المسلمون بمدينة الأقصر[٥].

وظل النوبيون ينقضون معاهدة البقط حتى بعد انتهاء فترة عصر الولاة، إذ انه

---

١ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٥، ص٢٧٦؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٢١.
Trimingham. J. S.: Islam in the Sudan. P. 63.

٢ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠١، قدامة بن جعفر: الخراج، ص٣٥٢.

٣ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠١.

٤ - ليس من المعروف تماما تاريخ هذا الاتفاق، ولكن المقريزى ذكر أنه كان فى عهد المعتصم (٨٣٣-٨٤٣م) وورد أيضا فى كتاب "تاريخ بطاركة الكنيسة المسيحية لساويرس بن المقفع فى حديثه عن حياة البطريرك يوساب (٨٣١-٨٥٠م) أنظر: ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ١، ص٢٧٣، ٢٧٤.
MacMichael. H. A.. A Hist of the Arabs in the Sudan. P. 164.

٥ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠١.

فى عصر الإخشيديين، شعروا بضعف الحكومة، وأغــاروا علــى حــدود مصــر الجنوبية، وتوغلوا فى صعيدها، ويظل الأمــر كذلــك حتــى تنبــه ولاة الأمــور وصدوهم، وأعادوهم إلى حيث جاؤوا[1].

ففى عام ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م أغار ملك النوبة على الواحات المصرية حيث قتــل وسبى كثيرا من أهلها، وأحرق مدنا وخرب أخرى[2]، وفى عام ٣٣٤هــ/ ٩٥٥م، أغار هذا الملك أيضا على ثغر أسوان، حيث فعل ما فعل بأهل الواحات المصريــة، ونهبها نهبا، وعاث بها فسادا حتى خرج اليه محمد بن عبدالله الخازن[3]، من قبــل أنوجور بن محمد بن طفج الإخشيد ورده عن المدينة ، وأسر الكثير من النوبيين بـل طاردهم وسار فى أعقابهم، حتى فتح مدينتهم وحصنهم الحصيــن ابريــم[4]، ومــن هناك عاد بكثير من رؤوس قتلاهم، فضلا عن كثير من الأسرى[5].

يتضح أن العلاقة بين مصر وبلاد النوبة كانت مقياسا إلى حد كبير لقوة مصـر السياسية والعسكرية أو ضعفها طوال فترة عصر الولاة.

الرسائل المتبادلة بين ولاة مصر وحكام النوبة:

حددت معاهدة البقط نوعية العلاقة السلمية التى ربطت بيــن مصــر والنوبــة لفترة طويلة، إذ أن كل طرف كان يتعامل مع الآخر على حسب الموقف السياســى ومدى قوة مصر بصفة خاصة، فأنه من الطبيعى أن يختل هذا التوازن فى طبيعــة العلاقات عند تغير السلطة فى مصر، فعند انتقــال الخلافــة إلــى بنــى العبــاس اضطربت العلاقة السلمية بين مصر والنوبة ، وبذلك تملصت عن كل ما يربطــها بمتقضى الهدنة الموقعة بينهما من دفع البقط، وذلك لمدة خمسة عشر عاما، يتضــح

1 - MacMichael, H. A:, A Hist of the Arabs in the Sudan, P. 164.

٢ - المقريزى: الخطط جـ١، ص٢٣٦، سيدة كاشف: مصر فى العصر الأخشيديين ص ٣٧٦.

3 - MacMichael, H. A:, A Hist of the Arabs in the Sudan, P. 164.

٤ - ابريم مدينة نوبية، تقع فى اقليم مريس، بالنوبة السفلى على بعد ٢٧٧ك م تقريبا جنوبا من أسوان على النيل، حيث قلعه ابريم المشهورة والتى ذاع صيتها فى مختلف العصــور التاريخيــة مــن فرعونيــة ورومانية وإسلامية، فكل من استطاع السيطرة على اقليم مريس، اتخذ من قلعة ابريم حصنا لحامياتــه. أنظر: المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩٠، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص٢٧، ٨٧، بوركهات: رحلاته، ص٢٩.

٥ - المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩٨.

MacMichael. H. A:, A Op. Cit. P. 169.

هذا بصورة جلية فى هذا الخطاب المرسل من الوالى العباسى على مصر – موسى بن كعب بن عيينه من قبل أبو جعفر المنصور ١٤١هـ/٧٥٨م[١] – إلى ملك النوبة والمقرة[٢]، بخصوص العلاقات المصرية النوبية.

وترجع أهمية هذه الوثيقة أنها تلقى الأضواء على مسألة العلاقات المصرية النوبية المضطربة، فهى تشير إلى ما يلى:

- أشار الوالى العباسى فى مصر الى أهم بنود معاهدة البقط، والتى كانت سارية وبشكل واضح وقوى قبل عام ١٤١هـ/٧٥٨م.
- عدم الانتظام فى أداء التعامل بين البلدين[٣]، مع الالتزام المصرى بحفظ الممتلكات والأرواح من الأشخاص النوبيين[٤].

---

١ – الكندى: الولاة، ص١٠٧.

٢ – تم العثور على هذه البردية ضمن أربع برديات تم الكشف عنها فى حفريات قصر ابريم ١٩٧٢م، وترجع تلك البرديات الى القرن الثامن الميلادى، وتم إيداع تلك البرديات فى المتحف الإسلامى تحت رقم (٢٥٤٨٠) وكانت أكبر بردية عرضها ٣,٥سم، ومصنوعة من اثنى عشرة قطعة ملتصقة فى بعضها بحيث وصل طولها ٢٦٤,٥سم، وهو خطاب بالعربية يتكون من تسعة وستين سطرا، أنظر: ملحق الدراسة، نص البردية شكل (١) ص٣٥٨.

والثلاث البرديات الأخرى باللغة القبطية، تعكس محالاوت النوبة لصياغة الرد، وإلقاء المسئولية بالنسبة لشكوى والى مصر.

وقد تم ترجمة عربية للوثيقة مع بعض الصور ، وتم نشرها بواسطة:

Professor. J. Martin in the Journal of Egyptian Archeology in 1975 (Vol. 61. PP. 241-245).

ولم ينشر حتى الآن نصوص الوثائق القبطية بالطريقة المثلى، فهى توضح نوعية العلاقة بين مصر والنوبة، منذ دخول المسلمين إلى مصر فى سنة ٦٣٩–٦٤١م. انظر: بردية منشورة. تحت رقم ٢٥٤٨٠، متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، انظر ملحق الدراسة شكل (١) ص٣٥٧.

C.F: Martin Stydia Arabica of Islamica, American University of Beirut. 1981. PP. 209-229.

وقام الباحث بإعادة تصحيح ما جاء فى الوثيقة:

- جاء فى السطر الخامس: أما بعد قد عرفت" وهى" أما بعد فقد عرفت".
- وجاء فى السطر الخامس عشر: "ولا يمنع من حقة" وهى "ولا يمتنع من حقة".
- وجاء فى السطر العشرين: "اليكم من ارقانيا ولايا من فيكم" وهى "اليكم من ارقائنا ولايا من منكم".
- وجاء فى السطر الاثنين والخمسون: "من ارقا أهل الإسلام" وهى "من ارقا أهل الإسلام".
- وجاء فى السطر الخمسة والستون: "ذلك ولا تؤخره وان أنت لم تمتثل" وهى "ذلك ولا تؤخره وان أنت لم تعجل".

٣ – انظر: نص البردية: السطر رقم (٧: ١١، ١٦، ٦٣).

٤ – انظر : نص الوثيقة : السطر (٦: ١٢).

- حرية وأمن التجار النوبيين فى الانتقال خلال وداخل مصر[١].
- لابد من التزام النوبة بما صولحوا عليه من أداء معاهدة البقط[٢]، وإرجاع العبيد الفارين[٣].
- المرور والانتقال الآمن للتجار المصريين فى النوبة[٤].
- اعتراض وتهديد من جانب والى مصر فى حالة فشل ملك النوبة فى أداء ما عليهم[٥].

يتضح من هذا الخطاب الذى يرجع إلى بداية العصر العباسى، تأكيد لمعاهدة البقط، التى وضع أساسها عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى عهد عثمان بن عفان فى سنة ٣١هـ/٦٥٢م[٦].

ولا شك أن الامتناع عن إرسال البقط هو ما يبعث على اختلال هذه العلاقة وخصوصا، وان فترة الانتقال من العصر الاموى إلى العباسى قد سقط منها بقط سنين، وهذا ما أكدته هذه الوثيقة[٧].

الصلات السياسية والعسكرية ببلاد البجة (البجاء) :

لم يكن انتشار القبائل العربية جنوبى مصر ليشمل النوبة فقط، بل أرض البجة كذلك[٨]، التى حددها المؤرخون العرب تحديدا واضحا، فقد ذكر الادريسى:

---

١ – انظر: نص الوثيقة: السطر (١٢: ١٧).
٢ – انظر: نص الوثيقة: السطر (١٨، ١٩، ٥٣، ٥٦، ٥٨).
٣ – انظر: نص الوثيقة: السطر (١٩: ٢٠).
٤ – انظر: نص الوثيقة: السطر (٢٠).
٥ – انظر: وثيقة منشورة: متحف الفن الإسلامى تحت رقم ٢٥٤٨٠؛
Martin Op. Cit., pp. 241- 245.
٦ – البلاذرى: فتوح البدلان، جـ١، ص٢٣٨.
٧ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠١.
٨ – البجه أو البجاء: يرى البعض أنها سلالة من السلاسلات الحامية، ولقد أثبت سليجمان من خلال دراسته الانثروبومترية ارتباطهم بالمصريين القدماء ، شأنهم فى ذلك شأن النوبيين. أنظر: سليجمان: السلاسلات فى أفريقيا، ترجمة يوسف خليل، مكتبة العالم العربى ١٩٥٩، ص٧٨، محمد عوض: الشعوب والسلاسلات الأفريقية، ص٢٤٦، ٢٤٧، وأيضا: السودان الشمالى، ص٢٢، مصطفى مسعد: البجة والعرب فى العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادى والعشرين، جـ٢، ديسمبر ١٩٥٩م ص ص١، ٢.
F. Paul. A: A history of the Bija Tribes of the Sudan The Cambridg University 1971, pp. 20- 57.

"أنها تجاور أرض الحبشة من جهة الشمال، وهى بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد[١]".

أما المسعودى فقد أشار اليها بقوله "أما البجة فأنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر، وتشحبوا فرقا[٢]".

كذلك حدد المقريزى موقفهم بقوله: "أول بلد البجه من قرية تعرف بالخربة معدن الزمرد فى صحراء قوص.... وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشة وهم فى بطن هذه الجزيرة أعنى جزيرة مصر إلى سيف البحر الملح مما يلى جزائر سواكن وباضع ودهلك[٣]".

وقال القلقشندى: وموطنهم فى جنوبى مصر مما يلى الشرق، فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل على القرب من الديار المصرية[٤].

هكذا عرف المؤرخون المسلمون القبائل التى كانت تسكن الصحراء الشرقية جنوبى مصر، باسم البجة أو البجاه[٥]، وتمتد بلاد البجاه جنوب أسوان والى الشوق من بلاد النوبة، وتمتد جنوبا إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة، ومن البحر الأحمر فى الشرق إلى النيل ونهر اتبرا فى الغرب[٦].

أما عن نسبهم فقد اعتبرهم كثير من كتاب ومؤرخى العصور الوسطى، جنسا من النوبة، أو فرعا أخر من النوبيين[٧]، لكن البجة بحكم بيئتهم وانقطاعهم عن

---

١ – الادريسى: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ط ليدن ١٨٦٤، ص٢٦.

٢ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٣٨.

٣ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٤، هذا وقد حددها ليو الأفريقى بعيدا عن ساحل البحر الأحمر. أنظر: الخريطة شكل (٩).

٤ – القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٥، ص٢٧٣، ٢٧٤، ابن الفقية، مختصر كتاب البلدان، ص٧٨، ابن الوردى: تتمة المختصر، ص١٢٥، ابن الفدا: المختصر، ص٩٦.

٥ – ورد هذا الاسم عند الواقدى: مرة باسم البجة ويطلق على الوطن، ومرة أخرى باسم البجاد ويطلق على نوع السكان: فتوح مصر والإسكندرية، جـ٢٧، ص٥٦، وقد ذكرها القلقشندى: "بلاد البجا" صبح الاعشى، جـ٥، ص٢٧٣. المقريزى، الاسم المتداول اليوم للبجة هو بكسر الباء: الخطط، جـ١، ص١٩٤، محمد عوض: السودان الشمالى، ص٢٢، مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص١.

٦ – محمد عوض: السودان الشمالى، ص٢٣، انظر: الخريطة شكل (١٠).

٧ – بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، نسخة مصورة جامعة القاهرة، رقم (٢٤٠٢٧) ج ٤، ورقة ١٨١ أ، الدمشقى: نخبة الدهر، ص ٢٦٩، ابن جبير: تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار، ليدن ١٩٠٧، ص ٦٩.

طرق المهاجرة، أصفى بشرة من النوبة[1]، على حين أن بقية البجه من الهدندوة وبنى عامر والامرار والبشارية، تسربت إليهم دماء عربية، نتيجة التزاوج والاختلاط بالعناصر العربية، التى دخلت بلادهم من الشمال، عن طريق مصر، مما كان أثره الواضح فى تعديل صفاتهم الجثمانية، مع تمسكهم بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم التبداوية[2]، وعلى هذا يرى بول أن البجة شعب حامى سامى ينقسم إلى مجموعتين أحداهما جنوبية حافظت على صفاء جوهرها الحامى، لقلة اختلاطها بالعناصر السامية، ولكنها أخذت من الساميين لغتهم، ويمثل هؤلاء معظم بنى عامر، وثانيهما شمالية، وهى أقل صفاء، لاختلاطها بالعرب، غير أنها تبدو فى مظهرها أكثر تمسكا بالعادات والتقاليد ويمثلهم البجة[3].

ويقسمهم المؤرخون إلى عدة قبائل مثل الحدارب[4]، والزنافج وغير ذلك من القبائل[5].

وتقع فى أوطان البجة أهم الموانى الأفريقية على البحر الأحمر مثل عيذاب وسواكن ودهلك وباضع[6]. كما تقع فى أوطانهم معظم المعادن أيضا[7]، ولكنهم لم يحرصوا على الاستفادة بها بدليل عدم اهتمامهم بها، إذ يقول ابن سليم الاسوانى "والبجة لا تتعرض لعمل شئ من هذه المعادن[8].

وتختلف مظاهر التضاريس فى بلاد البجة من مكان لآخر[9]، حيث تتخللها سلاسل جبلية ممتدة من الجنوب إلى الشمال موازية وملاصقة أحيانا للبحر الأحمر،

---

١ – محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص٢٢.

2 - C.F: Paul. A.: Op. Cit , PP. 23-25.

3 - Ibid: Op. Cit.

٤ – الحداربة أو الحضارمة (نسبة لحضرموت موطنهم الأصلى فى جنوب الجزيرة العربية، حيث ينسبون إلى ذلك الوطن. انظر: بوركهارت: رحلاته، ص٢٤٨؛

Paul. A.. Op. Cit. P. 64.

٥ – الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٣٧؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٥؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٥، ص٢٧٤.

٦ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٤؛ الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٣٧.

٧ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤٧؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٥؛ القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٥، ص٢٧٤؛ ابى الفدا: المختصر، ص٩٦.

٨ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٤، ١٩٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١ ص٦٩.

٩ – محمد عوض: السودان الشمالى، ص ص٢٣، ٢٤؛ وأيضا: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص٢٤٧.

ولا تترك بينها وبين البحر سوى شريط ساحلى ضيق على طول امتدادها، وهذا الشريط الساحلى يضيق كلما اتجه جنوبا، أى أنه فى الأجزاء المتصلة بمصر أوسع من الأجزاء الجنوبية، وتتباين ارتفاعات هذه الجبال، وقد تتخلل هذه السلاسل الجبلية بعض الوديان الخصبة، مثل وادى العلاقى فى الشمال، وخور بركة فى الجنوب، فضلا عن بعض الوديان الأخرى المتناثرة على طول الصحراء[١].

واختلاف التضاريس من أكبر العوامل التى أثرت فى حياة البجة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهم أهل بادية، غير مستقرين، تنتشر بينهم روح القبلية ويعتمدون فى حياتهم على الرعى[٢].

والبجاه شعب ذونزعة حربية، فهم لا يقلون عن سكان المنطقة النيلية (منطقة النيل النوبى) فى المهارة الحربية، وأن كانوا أقل منهم قوة، ويتسابقون بالخيل ويقاتلون عليها، كما أنهم يجيدون القتال على الإبل التى يدربونها على فن القتال، حتى أن راكب الجمل، إذا أطلق الحربة ووقعت على الأرض، طار إليها بصاحبه ليلتقطها. وكانوا يستخدمون نوعا من الحراب، تسمى السباعية[٣].

ويذكر اليعقوبى، ستة ممالك لهؤلاء البجه، على رأس كل منها ملك، ويبدو أنها زعامات قبلية[٤] بدليل ما ورد عند كثير من المؤرخين[٥] بأنهم أصحاب أخبيه وشعر، وأنهم أهل بادية، غير مستقرين يتبعون الكلا حيثما كان الرعى[٦].

إن تاريخ قبائل البجاه فى العصر الإسلامى - وخاصة منذ الفتح العربى لمصر - يكتنفه الغموض، فأول أشارة وردت عند الواقدى الذى يذكر أنه لما

---

١ - مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص٢٢١؛ محمود محمد على الحويرى: أسوان فى العصور الوسطى، رسالة ماجستير جامعة القاهرة، ص٤٠.

٢ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٠٥-١٠٧.

٣ - سميت بالحراب السباعية، نسبة إلى أن طول الحربة فيها يبلغ ثلاثة أذرع، واليد الخشبية أربعة أذرع. وكانت تقوم بصناعتها النساء دون الرجال، وفى مكان منعزل لا يختلط بهن من الرجال إلا المشترون منهن. انظر: المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٤.

٤ - اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى ص١٩٢؛

Paul. A.: Op. Cit. P. 69.

٥ - انظر ما يلى عن البجه فى الهجرة العربية نحو أرض المعدن، ص٣١٩.

٦ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٤.

حاصر عمرو بن العاص مدينة بلبيس، وكانت بها أرمانوسة ابنة المقوقس، الحاكم البيزنطى فى مصر، أشار ذوو الرأى فى مصر وقتذاك على المقوقس أن يرسل نجدة بيزنطية إلى مدينة بلبيس لإنقاذ ابنته، ثم يطلب مساعدة ملك البجاه وملك النوبة وملك البرابر لحرب العرب وطردهم من مصر[١].

وقد لاحظ ابن حوقل أن: "انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء البجة والزنج، مهملون فى هذه الخصال، ولاحظ لهم فى شئ من ذلك، فيستحقوا أفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك[٢]".

ويبدو عدم اهتمام الفاتحين بهذه القبائل أول الأمر، من عدم ورود نص عنها فى عهد الصلح الذى عقده عبد الله بن سعد للنوبيين ٣١هـ/٦٥٢م وربما كان مرجع ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم إذ قال: "فتجمع له فى انصرافه على شاطئ النيل البجه. فسأل عنهم فأخبر بمكانهم فهان عليه أمرهم فنفذ وتركهم، ولم يكن لهم عقد ولا صلح، وأول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب[٣] "وربما استقر فى نفوس العرب، فى المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامى، من أن ديار البجة ليست بدار حرب[٤] شأنها فى ذلك شأن بلاد الحبشة المتاخمة لبلادهم من ناحية الجنوب، لأن الحبشة أوت الطليعة الأولى من المسلمين الذين هاجروا اليها زمن الرسول صلى الله عليه وسلم[٥].

على أن عدم الاكتراث بهؤلاء القوم، لم يكن فى مصلحة العرب، فبعد فترة من الزمن لم تتجاوز ثلاثة وسبعين عاما، وجد هؤلاء القوم فى انفسهم من الكفاءة ما دفعهم إلى القيام بغارة على مصر عام ١٠٧هـ/٧٢٥م.

وعندئذ تنبه العرب فى مصر إلى خطورتهم، فأرسلوا حملة بقيادة عبد الله بن الحبحاب السلولى، الذى عقد معهم أول معاهدة ظلت قائمة زهاء قرن من الزمان[٦].

---

١ – الواقدى: فتوح مصر والإسكندرية، ص٢٧.

٢ – ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص٩.

٣ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٩.

٤ – ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٦.

٥ – مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص٢٤.

٦ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٩؛

MacMichael. H.A.: Op. Cit., PP. 164-165.

وقد نصت هذه المعاهدة، على أن تدفع البجة للعرب ثلاثمائة من الإبل البكر كل عام، وإذا ما نزلوا ريف مصر، أن ينزلزا تجارا غير مقيمين، وإلا يقتلوا مسلما ولا ذميا ممن نزل بلادهم، وألا يأووا عبيد المسلمين، وأن يردوا من يقع فى أيديهم من هؤلاء العبيد، وعلى أن يبقى وكيلهم بريف مصر رهينة فى أيدى المسلمين[١].

غير أنه لم يكد يمضى قرن على هذه المعاهدة حتى عاد البجة إلى شن الاغارات من جديد على أسوان، وكثر إيذاؤهم للمسلمين عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م، فرفع ولاة الأمور فى أسوان خبرهم إلى المأمون العباسى، فجرد عليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم، الذى عقد مع كبيرهم كنون بن عبد العزيز، معاهدة تختلف كثيرا فى نصوصها عن معاهدة البقط التى عقدت مع النوبة[٢].

ووجه الخلاف بين المعاهدتين واضح، فقد تسيد العرب على البجة بمقتضى معاهدة بن الجهم – كنون، بعكس النوبيين الذين طلبوا تأمينهم بهذا العهد، وأصبح من أسس العلاقات بين المسلمين والنوبيين[٣].

أكدت معاهدة ابن الجبهم مع كنون بن عبد العزيز ضعف البجة بدليل انها تضمنت شروطا قاسية بالنسبة للبجه، من أهمها:

- أن تكون بلاد البجة من حد أسوان إلى حد ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة، وأن كنون بن عبد العزيز، وأهل بلده عبيد لأمير المؤمنين على أن يبقى كنون ملكا عليهم[٤].
- أن يؤدى ملك البجة الخراج كل عام مائه من الإبل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال.
- أن يحترم البجة الإسلام ولا يذكروه بسوء، وألا يقتلوا مسلما أو ذميا حرا أو عبدا فى أرض البجة أو فى مصر أو النوبة، وألا يعينوا أحدا على المسلمين.

---

١ – ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٩؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٥، ١٩٦.

٢ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص ١٩٥، ١٩٦؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١١٦؛ وأيضا: البجة والعرب، ص٢٤، ٢٥؛

C.F.: Budge. E.A.W.: A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. I, P. 104.

3 - Hamilton. J.A. De. C.: Op. Cit. P. 52.

٤ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٥.

- إذا دخل أحد من المسلمين فى بلادهم للتجارة أو الإقامة، أو مجتازا للحج، فهو آمن لأحز حدهم.
- إذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين، أو تجارا لا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى.
- ألا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون.
- وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صداقات من أسلم من البجة(١).

يتضح من هذا أن شروط هذا العقد اختلفت كثيرا عن عقد عبد الله بن سعد مع ملك النوبة، وموضع الأهمية هنا أن بلاد البجة حتى "مصوع" أضحت جزءا من الدولة الإسلامية، ويطبق عليها شروط البلاد التى تفتح عنوة، بدليل فرض الخواج، ثم أن شرط عدم التعرض للمسلمين بأذى سواء فى بلاد البجة أو النوبة، فضلا عن شرط حفظ المساجد القائمة فعلا فى بلاد البجة، وجمع صدقات من أسلم من البجة وخاصة أن اسم كنون بن عبد العزيز دليل قوى على دخوله فى الإسلام، وانتشار الإسلام فى تلك الجهات وإقامة بعض المسلمين بها(٢).

وهذه المعاهدة لم تضع حدا لفتن البجة، فقد أجبروا على توقيعها، ولذا لم تكن تمضى بضع سنوات، حتى امتنعوا عن دفع التزاماتهم من الخراج كما جاء فى نص المعاهدة(٣)، وقاموا بثورة عارمة، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين العاملين بأرض المعدن، ولم يكتفوا بذلك، بل أغاروا على صعيد مصر كعادتهم، فأعد عنبسة بن اسحاق الضبى وإلى مصر من قبل الخليفة العباسى المتوكل(٤) (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) حملة بقيادة محمد بن عبد الله القمى عام ٢٤١هـ/٨٥٤م، وسار إليهم فى سبعة آلاف مقاتل، وهناك فى أرض المعدن انضم إليهم العرب من

---

١ - انظر: المقريزى: الخطط، جـ١: ص١٩٥؛ حسن إبراهيم: انتشار الإسلام، ص٩٧؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١١٧؛

MacMichael. H.A.: Op. Cit. PP. 163-164.

٢ - مكى شبيكة: السودان عبر القرون، ص٣٠، ٣١؛ مصطفى سعد: الإسلام والنوبة، ص١١٧.

٣ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٦.

٤ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٩، ٢٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٩٧؛ قدامة بن جعفر: الخواج، ص٣٥٣.

ربيعة ومضر واليمن، كما وافته المراكب بالمؤن عن طريق البحر الأحمر من ساحل القلزم إلى ساحل عيذاب(١).

ويشير ابن تغرى بردى إلى مدى الاستعدادات العسكرية لدى الطرفين فيقول: "وحل محمد من مدينة قوص مقتحما تلك البرارى الموحشة، وقد تكامل معه من العسكر سبعة الاف مقاتل غير الأتباع، وسار حتى تعدى حفائر الزمرد، وأوغل فى بلاد القوم حتى قارب مدينة دنقلة، وشاع خبر قدومه إلى أقصى بلاد السودان، فنهض ملكهم، وكان يقال له على بابا إلى محاربة العسكر الواصل مع محمد المذكور، ومعه من تلك الطوائف أمم لا تحصى، غير أنهم عراة بغير ثياب، وأكثر سلاحهم الحراب والمزاريق(٢)". وأمام القوة العربية الزاحفة على أرض البجة والتى تسلحت بكل فنون الحرب من استخدام الفرسان والعدد وآلات الحرب، حاول خلالها ملك البجة أن يستخدم الخديعة بدلا من الهجوم المباشر(٣).

ويشير ابن تعرى بردى إلى أسلوب المراوغة من قبل البجة بقوله: "فعندما قاربوا العساكر الإسلامية وشاهدوا ما هم عليه من التجمل والخيول والعدد، وآلات الحرب، فلم يقدروا على محاربتهم، عزموا على مطاولتهم حتى تفنى أزوادهم، وتضعف خيولهم ويتمكنوا منهم كيفما أرادوا... فلما نظر محمد إلى السودان التى أقبلت عليه، انتزع جميع ما كان فى رقاب جمال عساكره من الأجراس، فعلقها فى أعناق خيوله، وأمر أصحابه بتحريك الطبول، وبنفير الأبواق ساعة الحملة(٤)"، فلما سمعت ابل البجة أصوات هذه الأجراس، فرت من أمام المسلمين، فانهزم البجة، وطلب ملكهم الصلح، فقبل القمى ذلك بشرط أن يطأ هذا الملك بساط الخليفة العباسى فى سامرا، وتم له ما أراد، فقد أرسل الملك البجاوى ابنه نائبا عنه، كما قرر القمى عليه الخراج الأجل مع العاجل، وأن يعمل المسلمون بالمعادن كما كان من قبل(٥).

---

١ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٩؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٩٧، ٢٩٨.

٢ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٩٧، ٢٩٨.

٣ - البلاذرى: مصدر سابق، ص٢٤٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٢، ص٢٩٧، ٢٩٨.

٤ - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٩٨، ٢٩٩.

٥ - البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٤٠؛ قدامة: الخراج، ص٣٥٣؛ عبد الله حسين: السودان، القاهرة ١٩٣٥، جـ١، ص٦٩، مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٢٢، ١٢٣.

ولم تكن حملة القمى هى آخر حملات مصر الإسلامية إلى تلك البلاد، بل هناك حملة أعدت فى عصر الطولونيين (٢٥٤هـ-٢٩٢هـ/ ٨٦٨-٩٠٥م) بقيادة أبى عبد الرحمن بن عبد الحميد العمرى[١] فى عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م. ففى هذا العام، قام البجة بغارة مفاجئة على مصر، وباغتوا المسلمين، وهم يؤدون صلاة العيد، فقتل منهم الكثير، ونهبوهم ثم عادوا إلى بلادهم[٢].

ويبدو من رواية المقريزى[٣] أن هدف الحملة لم يكن مجرد تأديب البجة والرد على إغارتهم كما يقول ابن خلدون، أو تأديب النوبيين كما يزعم ماكمايكل[٤]، بل كان هدفها الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب فى أرض البجة، والبحث عن مهاجر جديدة تتسع لهم بعد أن ضاقت بهم مصر[٥].

تقدم العمرى جنوبا سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م متجاوزا العلاقى إلى إقليم شنقير، واهتدى إلى مواقع جديدة للتبر تعرف بالشلة قرب شنقير[٦]، وتكمن من الحصول على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لحياة مستقرة فى هذا الإقليم[٧]، بعد تغلبه على قوات جورج الأول ملك النوبة[٨].

---

١ - سمى بالعمرى نسبة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث يقال أنه من نسله، ولد بالمدينة المنورة، وجاء إلى الفسطاط حيث عمل بتدريس الحديث، ثم انتقل إلى القيروان، حيث وصلته أبناء مناجم النوبة الغنية فحضر مسرعا إلى مصر، واتجه إلى وادى العلاقى، حيث تحول من فقيه إلى تاجر مغامر، واجتمع إليه عدد كبير من العرب، فقويت شوكته، فصال وجال فى أوطان البجة والنوبة، واتجهت إليه أنظار العرب وبذلك يكون العمرى رائدا من رواد الثقافة العربية الإسلامية فى تلك البلاد. انظر: المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٦؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص٣٥٥.

٢ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٦.

٣ - المقريزى: المقفى فى تاريخ وتراجم أهل مصر، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ، ورقات ١٦٤ب، ١٦٥أ.

4 - MacMichael, H.A.: Op. Cit. P. 166.

٥ - وفى موضع آخر يقول ماكمايكل أن هدفهم البحث عن المعادن والتخلص من الضرائب الثقيلة التى فرضت عليهم.

MacMichael, H.A.: Op. Cit. PP. 166-167.

٦ - منطقة شنقير هى منطقة أبو حمد وهى المنطقة التى تقع بين بربر ومروى الجديدة؛ انظر الخريطة شكل (١٠).

Crawford, O.G.S.: Fung Kingdom of Sennar P. 26.

٧ - المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩١.

٨ - المقريزى: المقفى، ورقة ١٦٤ب، ١٦٥أ؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٢٥.

واتسعت أعمال العمرى، وامتد نفوذه شرقا حتى عيذاب، وشمالا إلى أسوان فكثرت بهم العمارة فى البجة حتى صارت الرواجل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب[١].

ويبدو أن العمرى كان يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية فى هذه المنطقة، بدليل أن ابن طولون شك فى نوايا العمرى، وخشى ازدياد نفوذه فى هذه البلاد فيطمع فى مصر، فأرسل ابن طولون جيشا لمحاربة العمرى بقيادة صباح بن حركام البابكى[٢]. غير أن العمرى تغلب عليه وهزمه، ولم يكتف بهذا بل تقدم بجيوشه شمالا حتى أدفو سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م، لكنه أثر العودة إلى المناجم، وهناك خرجت عليه قبيلة ربيعة، ونشبت الحرب بينهما، وبين قوات العمرى التى ظلت على ولائها له، وتمكن العمرى من هزيمتها، غير أن العمرى ما لبث أن قتل على يد أحد أفراد قبيلة مضر[٣].

هكذا كانت الحملات العربية المتكررة على أوطان البجة والنوبة، فاتحة عهد جديد لانتشار الإسلام فى تلك البلاد من الظهير المصرى، وخاصة أن العرب المسلمين قد وضعوا الأصول الأولى للعلاقات مع بلاد النوبة وذلك بداية من معاهدة البقط التى ظلت سارية لمدة ستة قرون، ثم اتفاقية ابن الجهم مع كنون بن عبد العزيز وأخيرا حملة العمرى التى كانت بمثابة فتح أبواب النوبة، وأرض البجة على مصراعيها أمام القبائل العربية الضاربة فى مصر لتتخذ سبيل النوبة مخرجا مما كانت تلاقيه من صعوبات فى مصر، بعد أن أصبح ولاتها الأتراك منذ العصر الطولونى، إذ لم يكد تمضى سنوات قليلة حتى وفدت جماعات عربية معظمها من قبيلتى ربيعة وجهينة إلى أرض المعدن لتنضم إلى ما سبقتها من القبائل العربية فى أعقاب كل حملة من الحملات، ووضعت نواة أول أمارة عربية إسلامية بزعامة ربيعة، عرفت فيما بعد باسم أمارة بنى كنز بعد انتقال مركزها إلى أسوان فى العصر الفاطمى، وهى ما فشل فيه العمرى من قبل[٤].

---

١ - المقريزى: المقفى، المجلد الرابع، ص١٦٧أ.

٢ - المقريزى: المقفى، المجلد الرابع، ص١٦٦ب،

MacMichael. H.A.: Op. Cit PP. 166-167.

٣ - المقريزى: المصدر نفسه، ص١٦٨أ.

٤ - المقريزى: البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، ص ص٤٥، ٥٦، وأيضا: الخطط، جـ١، ص١٩٨؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص٣١٦-٣١٨؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ص١١٩، ١٢٠، ١٣٥.

موقف ولاة مصر من الكنيستين القبطية والنوبية :

ورد فى عهد عبد الله بن سعد للنوبيين نص بأن يحافظ النوبيون على المسجد الذىبناه المسلمون فى دنقلة، وألا يؤذوا مسلما ولا معاهدا، وغير ذلك مما جاء بهذه المعاهدة[١]. فالنص كما ورد عند المقريزى: "وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو يطرقه من مسلم أو معاهدة حتى يخرج عنكم.... وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا ولا تعرضوا لمسلم قصده أو جاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته[٢]".

هذا النص ضمن للمسلمين حقوقهم كاملة فى بلاد النوبة، لكن هل كان هناك ما يقابل هذا النص مما يكفل للمسيحيين فى مصر من حقوق مقابل ما ناله المسلمون بأرض النوبة؟

فقد صمتت المصادر عن ذكر نص يقابل النص الذى يضمن للمسلمين حقوقهم ببلاد النوبة، فإذا ما سلمنا بعدم ورود نص بهذا الشأن فى معاهدة البقط، قد يكون هذا لأن المسلمين فى بلاد النوبة كانوا أقلية مطلقة عند قيام هذه المعاهدة، بينما المسيحيون الأغلبية الغالبة سواء فى مصر أو بلاد النوبة، وفى رأى الدكتور حسن محمود أن المصادر التاريخية ربما أغفلت نصا يقابل النص المذكور، لأن معاهدة البقط كانت معاهدة أخذ وعطاء، أى مصالح مشتركة أو متبادلة، وليست معاهدة فرضها غالب على مغلوب[٣]، وهذا رأى سليم، لأنه لا يمكن للنوبيين أن يقتنعوا بهذا النص الذى جاء لصالح المسلمين بلا مقابل، وقد كانوا أندادا للمسلمين عند قيام هذه المعاهدة[٤]، ولا ندرى عما إذا كانت المصادر المعاصرة لهذه الاتفاقية قد أغفلت هذا النص عن عمد أم عن سهو.

---

١ - انظر ما سبق ذكره عن معاهدة البقط ص٢٨٩، هامش (٥).

٢ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص٣٠٢.

٣ - حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص ص٣١٠، ٣١١.

٤ - عرفوا النوبيين باسم رماة الحدق "انظر: البلاذرى: فتوح البلدان، جـ١، ص٢٣٨؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص٢٥.

وكيفما كان الأمر، فقد أرتبطت الكنيسة فى مصر بكنيسة النوبة خاصة أنهم كانوا على المذهب اليعقوبى[١]، مذهب الكنيسة القبطية[٢]، يقول المسعودى: "ولليعاقبة كرسيان لا ثالث لهما: أحدهما بأنطاكية والآخر بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها وما يليها من أرض النوبة والأحابش رأى اليعقوبية[٣]".

وقد اعطى عقد معاهدة البقط بين مصر والنوبة فرصة لازدياد نفوذ الكنيسة القبطية في بلاد النوبة والحبشة، بحيث أصبحت هى المسيطرة عليها بلا منافس، ومما ساعد على ذلك أيضا زوال النفوذ البيزنطى من مصر عقب فتح مصر[٤].

ويشير أبو صالح الأرمنى إلى أن ملوك النوبة والحبشة تحت طاعة البطريوك القبطى فى مصر "وملك النوبة له النوبة وأعمالها وأرض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها.... وهى كرسى مارى مرقس الانجيلى ومنه يقسم لهم[٥]". كل هذا جعل بلاد النوبة من الناحية الروحية تتجه إلى الكنيسة القبطية بالإسكندرية التى كانت تتولى تعيين الأساقفة فى الكنيسة النوبية[٦].

ويقول القلقشندى أن: "كرسى الإسكندرية يعد مصيره إلى اليعاقبة قد تبع البطرك القائم به على مذهب اليعاقبة الحبشة والنوبة وسائر متنصرة السودان.... ولولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعمد معمودى الا باتصال من البطريرك، وأن كرسى البطريرك كنيسة الإسكندرية[٧]". كل هذا

---

١ - نسبة إلى يعقوب البراذعى "Jacob Baradeus" الذى سمى هكذا لأنه كان يرتدى البراذع، والثياب البالية المخرقة، وهو قس من أهل نصيبين، انظر: القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١٣، ط القاهرة ١٩٦٣، ص ص٢٧٨، ٢٧٩، ويقول المقريزى: "وقيل بل كان يعقوب كثير العبادة والزهد، يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعى من اجل ذلك، وأنه كان يطوف البلاد، ويرد الناس الى مقالة ديسقورس فنسب من أتبع رأيه إليه، وسموا يعقوبية "انظر: المقريزى: الخطط جـ٢، ص٤٩٠.

٢ - حول انتشار المسيحية في بلاد النوبة انظر: مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص٤٣-١٠٥؛ محمد عوض: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص٢٥٨.

٣ - المسعودى: التنبيه والإشراف، ص١٥١؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية العربية، ص٤٧.

٤ - عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، الأنجلو ١٩٦٨م ص٢٣٢؛ وأيضا: الدولة العربية، جـ١، ص٢٣١.

٥ - أبو صالح الارمنى: تاريخه، ص١٢٥، ١٣٤؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، حاشية ص١٣٦.

٦ - المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩١.

٧ - القلقشندى: صبح الاعشى، جـ٥، ص٣٠٨.

يوضح حرية ممارسة شعائر العقيدة، وفى هذا دليل على أنه لم يكن هناك ضغطا للتحول للإسلام.

أن الكنيسة النوبية لم تنجب علماء متخصصين فى اللاهوت أو الفلسفة الدينية المسيحية، بعكس الحال فى الكنيسة المصرية، فظل الجهاز الكنسى ببلاد النوبة والحبشة بيد رجال دين مصريين، معينين من قبل الكنيسة القبطية، بينما اقتصر تعيين العنصر الوطنى فى المناصب الدينية قليلة الأهمية. وتحدد مستقبل الكنيسة النوبية بنوع العلاقات بين الكنيستين القبطية والنوبية، غير أن هذه العلاقات لم تلبث أن خضعت لعوامل سياسية، فكثيرا ما كان مركز الكنيسة النوبية يتأثر تبعا لتدخل السلطات الحاكمة فى مصر فى شئون الكنيسة المصرية[1].

ومن الواضح كذلك أن اعتناق النوبيين للمسيحية كان صوريا، وأقتصر أثرها على المدن والقرى الكبيرة، وظلت الغالبية العظمى من النوبيين يمارسون عاداتهم الوثنية القديمة، بدليل ما لاحظه ابن سليم من أن بعض سكان النوبة يعرفون الله ولكنهم يشركون معه بعض مظاهر الطبيعة كالنجوم والكواكب والأشجار، ويعتقدون فى السحر[2]. ويؤيد هذا وجود بعض التقاليد الموروثة عن العهد الوثنى[3].

وعلى الرغم من اعتناق النوبيين للمسيحية لم يكن نابعا عن فهم عميق لها، وعلى الرغم من عدم ظهور علماء متخصصين فى الدين منهم، فإن الكنيسة النوبية - كما يبدو - تمتعت بسلطة كبيرة فى البلاد نبعت من ارتباطها الوثيق بسلطات الدولة، فقد أسند إلى حكام الأقاليم القيام بوظائف كهنوتية إلى جانب أعمالهم الإدارية، كذلك تشير النقوش إلى قيام الأساقفة ورجال الدين من القسس والشمامسة والمرتلين بمهام إدارية مدنية[4].

هذا وكانت بلاد النوبة تضم ثلاثة عشر أسقفية تابعة للكنيسة القبطية فى مصر، وكانت مدينة ساى بالنوبة السفلى عند الشلال الثانى، مقرا لإحدى هذه

---

١ - مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٠٠.

٢ - المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٣.

٣ - نادية بدوى: الزينة الشخصية عند العبابدة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٥، ص٩.

4 - Monneret De Villard: Storia Della Nubia Cristiana Roma, 1938, P. 167.

نقلا عن مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة ص٩٣.

الأسقفيات، وقد أشار إلى ذلك مؤرخ النوبة أحمد بن سليم الأسوانى الذى زار بلاد النوبة فى مستهل العصر الفاطمى[١] بقوله "ومن هذه المسلحة قرية تعرف بساى[٢] جنادل أيضا "وهى أحد كراسيهم، ولهم فيها أسقف وفيها بربا[٣]".

هذا وبلغ عدد الأسقفيات بالنوبة السفلى وحدها سبعة أسقفيات، بينما بلغ عددها بالنوبة العليا ستة أسقفيات، وهذه الأسقفيات بالنوبة السفلى هى: قورته Korta[٤]، ابريم Ibrim[٥] ، بجراس Bujras[٦]، دنقلة Dangola[٧]، ساى

---

١ - المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩١.

٢ - ساى أوصاى قرية نوبية فى نهاية إقليم مريس من الجنوب، قرب وادى حلفا الحالية، ومازالت هذه القرية تعرف بهذا الاسم، وهى التى كانت تعرف باسم المقص أو المقس الأعلى طوال العصور الوسطى، انظر: المقريزى: الخطط، جـ١، ص ص١٩٠، ١٩١؛ أبا صالح الأرمنى: تاريخه، ص١٢٠.

٣ - بربا: تعنى معبد أو آثار قديمة فى اللغة المريسية، انظر: مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص٩٥ حاشية رقم (١)، وص١٤٦ حاشية رقم (١)، ومازال النوبيون يعرفون الآثار القديمة باسم البربا. ومن المعلوم أنه عند ما انتشرت المسيحية فى مصر وبلاد النوبة، تحولت كثير من المعابد الفرعونية إلى كنائس، بعد تغطية الصور الفرعونية بالجص، انظر: مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص ص٦٧، ٦٨.

٤ - مازالت قرية قورتة النوبية (١١٥ك م جنوبا من أسوان) تحمل اسمها القديم إلى اليوم، وتعتبر هذه القرية من أكبر القرى النوبية مساحة وسكانا، ولهذا قسمت من الناحية المساحية إلى ثلاثة قرى هى: قورته أولى، قورته ثانية، قورته ثالثة، انظر: وزارة الشئون الاجتماعية: بلاد النوبة حاضرها ومستقبلها، ص٢٨؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

٥ - ابريم: من القلاع النوبية الحصينة فى إقليم مريس (٢٢٧ ك م من أسوان جنوبا) وبها معبد فرعونى عظيم، وينسب إليها لقمان الحكيم، وذو النون المصرى طبقا لما ورد عند ابن سليم الأسوانى، وكانت كنيستها تحمل اسم السيدة العذراء مريم، تعلوها قبة عظيمة، تحمل صليبا عظيما، انظر: المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩٠؛ أبا صالح الأرمنى: تاريخه، ص١٢١؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

٦ - بجراس: وتعرف حاليا باسم فرس على الضفة الغربية للنيل، وعلى الحدود المصرية النوبية وكانت عاصمة مملكة نوباديا التى كانت تشمل إقليم مريس قبل اتحادها مع مملكة مقره المسيحية وظلت تحتفظ بأهميتها حتى بعد أن تم الاتحاد المشار إليه، حيث ظلت مقر الحاكم بإقليم مريس (صاحب الجبل) إلى جانب ابريم فى الشمال. ويبدو أن كنيستها كانت فوق سفح جبل عال أطلق عليه مؤرخو العرب اسم جبل زيدان على الضفة الغربية للنيل، انظر: المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٠ ، أبا صالح الأرمنى: تاريخه، ص١٢١؛ مصطفى مسعد: المكتبة السودانية، ص٩٢ حاشية رقم (٣).

٧ - دنقلة: هى عاصمة مملكة النوبة السفلى، ومازالت تحمل نفس الاسم، وتقع على النيل فى الطرف الغربى، وكانت كنيستها هى الكنيسة الرئيسية (تسمى كنيسة أسوس) انظر: النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٩، مخطوط دار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة، جـ٢٩ ورقة ٢٧٤، ٢٧٤ب، المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثالث، ص٧٥٢؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

Sai[١]، تيرموس أوديرموس Termus[٢]، سينكور Scienkur[٣].

أما أسقفيات النوبة العليا فهى: بورا Bora، جاجارا Gagara، مارتن Martin، أروديساس Arodias، بنازا Banaza، منكسا Menkesa ومازالت بقايا هذه الأسقفيات إلى اليوم[٤].

ويشير أبو صالح الأرمنى إلى عدد الكنائس فى مدينة علوة بقوله "مدينة علوة بها جيش ومملكة عظيمة جدا، وأعمال متسعة، وبها أربعمائة كنيسة[٥]".

كما يشير إلى العدد بالتحديد فى دنقلة بقوله: "مدينة دنقلة بها سرير الملك وهى مدينة عظيمة على شاطئ بحر النيل المبارك، وبها كنائس كثيرة وأدار كبار وشوارع متسعة[٦]" هذا بخلاف الكنائس والأديرة والبيع التى كانت كثيرة الانتشار فى مختلف أنحاء بلاد النوبة.

ويتضح من قول أبى صالح أن الطقوس الدينية بالكنائس كانت تؤدى باللغة اليونانية، غير أنه فى خلال القرن الثامن الميلادى أخذ النوبيون يترجمون الطقوس الدينية عن اليونانية إلى اللغة النوبية[٧]، فوجود اللغة اليونانية فى النوبة كان أمرا طبيعيا لصلة هذه البلاد بالبزنطيين ومن قبلهم البطالمة والرومان، ولا شك أن انتشارها زاد مع التبشير بالمذهب الملكانى فى مقرة[٨]، وربما أبقت الكنسية المونوفيزيتية فى أول عهدها على هذه اللغة فى الطقوس كما كان الحال فى مصر

---

١ – ساى. سبق التعريف بها فى ص٣١٣ حاشية ٢.

٢ – ديرموس مازالت تحمل اسمها القديم، وتقع على الضفة الشرقية من النيل فيما بين قريتى امير كتاب وكلابشة (٥٥ ك م جنوبا من أسوان) انظر: أبا صالح الأرمنى: تاريخه، ص١٢٥؛ بوركهارت: رحلاته، ص١٠.

3 - MacMichael, H.A.: A history of the Arabs in the Sudan Vol. I. P. 77.

٤ – الشاطر بصيلى عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر للميلاد، القاهرة ١٩٧٢، ص١٢٠.

٥ – أبو صالح الأرمنى: تاريخه، ص١٢٠.

٦ – المصدر السابق، ص ص١٢١، ١٤٣؛ انظر: الخريطة شكل (١٠).

٧ – نفس المصدر، ص١٢٥ "وقد اسهم وخلواتهم روميا"؛ الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٦٩، ان استعمال اللغة اليونانية فى الطقوس الدينية ببلاد النوبة دليل على دخول المسيحية إلى هذه البلاد قبل أن تترجم الطقوس الدينية من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية فى مصر.

C.F: Budge, E.A.W: A history of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia. Vol. I. P. 117.

Budge, E.W.: The Egyptian Sudan, Its history and Monuments, 1907, P. 301.

8 - Jakobielski, S.,: Some remarks on Faras inscriptions, Nubische Kunst, 1970, P. 32

فى القرن الأول[1]، ثم كان استخدام هذه الكنيسة للغة القبطية بعد ذلك، ويدل على ذلك أن أجزاء من أنجيل مخطوط باللهجة الصعيدية[2] عثر عليه فى أرضية الرواق الأوسط والبلاطة الشمالية بكنيسة عبد الله نرقى، ويرجح أن هذه الأجزاء من القرن التاسع أو العاشر الميلاديين[3].

وكانت اللغة القبطية لغة اللاجئين إلى النوبة من مصر فررا من الاضطهاد الدينى قبل الفتح الإسلامى، ومع انتشارها عن طريق القوافل التجارية وارتباط كنيسة النوبة بكنيسة الإسكندرية أصبحت لغة رسمية إلى جانب اللغة اليونانية.

وكان استخدامها فى الوثائق الرسمية والدينية استخداما صحيحا دون أخطاء لغوية أو إملائية، ولعل ذلك يرجع إلى اختيار كاتب لديه المقدرة على كتابتها بصورة صحيحة، وإلى الحرص على تعليمها فى الآديرة، كما تشير النقوش القبطية المدرسية على جدران كنيسة فرس[4].

ورغم شيوع هاتين اللغتين فإن اللغة النوبية القديمة كانت لغة الحديث بين عامة النوبيين، ويرجع أقدم نموذج منها إلى سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م فى وادى السبوع، ويحتوى على صلوات لأحد قساوسة فرس ويدعى بطرس[5].

كما عثر على شاهد قبر دونت نقوشه بهذه اللغة فى كنيسة الأعمدة الجرانيتية بدنقلة العجوز مؤرخ سنة ٧٩٧م، وتضم هذه اللغة كلمات قبطية ويونانية وحروفا من اللغتين تؤكد استخدامها فى الكتابات الكنسية، وفى ترجمة أجزاء من القداس، وفى الحديث عن بعض المعجزات التى تنسب إلى القديس مينا[6] وتؤكد إشارة أبى

---

1 - Codallah. F.F.: The Egyptian Contribution to Nubian Christianity, S N R XL, 1959. P 42.

٢ – اللهجة الصعدية : وهى من الكلمة العربية "صعيد" ومعناها أعلى الأرض أى الوجه القبلى، وهى لهجة طيبة وفيما بعد أصبحت لهجة آداب الوجه القبلى، وكانت تسمى سابقا الطيبية، وكانت اللهجة الصعيدية لهجات عديدة اندمجت فى بعضها كالبحيرية. انظر : مراد كامل: القبط فى ركب الحضارة، ص ص ٤٢، ٤٣.

٣ – كشفت حفائر جمعية التنقيب عن الآثار المصرية فى قصر أبريم عن أجزاء من أنجيل يونانى للقديس مرقس يرجع فى الغالب إلى عصر جستنيان؛

Moorsel. Paul Van. and Others: The Central Church of Abdallah Nirqi. Leiden, 1975. PP. 20-21.

4 - Jakobielski, Bishopric, PP. 58, 132-134.

5 - C. F: Criffith, F. Li.: Oxford Excavations in Nubia. LAAA XIII, 1926, P. 53.

6 - Budge, W. text relating to saint Mena of Egypt and Canens of Nicaea in a Nubian dielect with Facsimile, London, 1909.

المكارم إلى أن الملك سلمون خط كتابا بالقلم النوبى مما يؤكد شيوع استخدام هـذه اللغة فى تدوين المخطوطات[١].

وفيما يتعلق باستخدام هذه اللغة فى الطقوس الدينية بعلوة، فإن الشواهد الأثرية الدالة على ذلك نادر، غير أن ابن سليم[٢] يذكر أن أهل علوة ترجموا الطقوس الدينية إلى اللغة النوبية، وفى نفس الوقت الذى توجد فيه إشارات أخرى إلى استخدام اللغة اليونانية لهذا الغرض[٣].

أما عن علاقة الكنيسة النوبية بالكنيسة المصرية، وموقف ولاة مصر منهما، فلا شك أن هذه العلاقة كانت طيبة بفضل هيمنة الكنيسة المصرية وإرسال الأساقفة إلى بلاد النوبة، فنشأت علاقة طيبة بين ملوك النوبة المسيحيين وبطاركة الكنيسة المرقسية[٤]. واختلفت طبيعة هذه العلاقات من حين إلى آخر تبعا لما تقتضيه مصالح الطرفين، مثل ذلك أن البطريرك اسحق تدخل حوالى سنة ٧١هـ/٦٩٠م لفض نزاع نشب بين ملك النوبة وملك الحبشة، غير أن وساطته لم يقدر لها النجاح[٥].

ثم ان خلافا نشب بين الملك زكريا ملك النوبة والأسقف قيرياقوص، وطلب الملك عزله، ولما لم يسفر التحقيق عن أدانة الأسقف، طلب البطريرك إلى الأسقف أن يقيم فى إحدى الأديرة، وعين من يقوم بعمله[٦].

وتتحدث المصادر القبطية عن حملة قام بها قيرياقوص ملك النوبة، سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م على مصر لإرغام واليها على إطلاق سراح البطريرك ميخائيل[٧]. وتفسر هذه الحملة من وجهة النظر النوبية - أن صحت - أن البطريرك بات متمتعا بحماية ملوك النوبة، لكن يبدو أن الملك النوبى أنتهز فرصة

---

١ - أبو المكارم: كنائس وأديرة مصر المنسوب لأبنى صالح الأرمنى، اكسفورد ١٨٩٥، ص١٢٤-١٢٥.

٢ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٣.

٣ - مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص٩٦.

٤ - المرجع نفسه، ص ص٩٢، ٩٣؛ مكى شبيكة: السودان عبر القرون، ص ص٢٦، ٢٧.

٥ - ابن المقفع: سير الأباء، م١، جـ٢، ص١٣١.

6 - De Villard.: Op. Cit., PP. 96-97.

٧ - اختلفت المصادر القبطية حول تاريخ هذه الحملة واسم والى مصر أنذاك. انظر: أبو المكارم: كنائس وأديرة مصر، ص١٢٢-١٢٣.

ثورات الأقباط فى إقليم الحوف بسبب نوع الصور المقدسة من الكنـائس، وفداحـة الضرائب، وقام بحملته على مصر[١].

ولما توترت العلاقات بين زكريا بن يحنس (يوحنا) ملك النوبة ووالى مصـر بسبب امتناع زكريا عن إرسال البقط، تدخل البطريرك يوساب لحسم هذا الخـلاف وأرسل إلى زكريا ينصحه بالوفاء بالتزاماته، واستجابة لهذه النصيحة، وبعث الملـك النوبى أبنه جورج إلى بلاط الخليفة المعتصم ببغداد[٢]، وفى طريق عودتـه نـزل بقصر البطريرك بعد أن نصب فيه مذبحا وسمح الوالي بدق الناقوس مـن سـطح القصر بالجيزة.

هكذا اتجهت بلاد النوبة (مقرة وعلوة) فى زعامتها الروحيـة إلـى الكنيسـة المصرية، ونشأت بينهما علاقات طيبة مصدرها حاجة الكنيسة النوبية إلى أسـاقفة، وبسبب هذه الصفة الدينية لملوك النوبة فقد نشأت بينهم وبيـن بطاركـة الكنيسـة المصرية علاقات ودية، اختلفت طبيعتها من حين إلى آخر تبعا لما تقتضيه مصـالح الطرفين غير أن موضع الأهمية هنا هو موقف ولاة مصر من الكنيستين من حريـة العقيدة وممارسة الشعائر الدينية دون ضغط أو تسلط.

---

1 - Jakobielski, *Biskopric*, *PP.* 52-67.

٢ – ابن المقفع: سير الآباء، م١، جـ٢، ص٢٨٣، ٢٨٣.

الفصل الثانى
التأثير الثقافى والاجتماعى المصرى
فى سودان وأدى النيل

- هجرات القبائل العربية وأثرها فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى سودان وأدى النيل.
- الهجرة العربية وأثرها على العادات والتقاليد بسودان وأدى النيل.
  - الزواج.
  - الختان.
  - المسميات
  - المأكل والمشرب.
  - الملبس.
  - المسكن.

الفصل الثانى
التأثير الثقافى والاجتماعى المصرى
فى سودان وادى النيل

هجرة القبائل العربية، وأثرها فى نشر الإسلام، والثقافة العربية فى سودان وادى النيل:

أصبحت مصر منذ الفتح العربى، مبهطا للقبائل العربية المهاجرة من الجزيرة العربية. وقد وفدت إليها هذه القبائل جماعات تلو الجماعات، ومنها إلى صعيد مصر، وبلاد النوبة الشمالية وشمال سودان وأدى النيل حيث تشابهت البيئة إلى حد كبير ببيئة الجزيرة العربية، وموطنهم الأصلى[١].

ولعل فلول الأمويين الذين فروا من مذابح العباسيين عقب سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ/٧٤٨م، هم الرواد الأول من العرب الذين هاجروا إلى بلاد النوبة[٢].

ولكن هذا التيار المهاجر المنصرف صوب الجنوب بدأ يزداد عمقا وشدة بعد أن أصبحت أحوال مصر خاصة والعالم الإسلامى عامة لا تشجع العرب على الإقامة إنما تدفعهم صوب الجنوب دفعا، فقد أسقط العرب من العطاء[٣]، وبدأت الدولة الإسلامية تقصيهم من الجيش مستعينة بعناصر أخرى من الفرس أو الترك أو العبيد السودانيين فى العهدين الطولونى والاخشيدى[٤]. حيث نظر إلى العرب

---

١ – حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص٣١٥، ٣١٦،

El Mahadi Mandour: Op. Cit. P. 27.

٢ – المسعودى: التنبيه والإشراف: جـ١، ص٢٨٥؛ ابن وصيف شاد: جواهر البحور ووقائع الدهر – مخطوطة بمعهد المخطوطات، ميكروفيلم، ص ص٢٢ب، ٢٣أ؛ ابن الجوزى: تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش، ص١٢٨–١٣٣؛ القزوينى: آثار البلاد، ص٢٥؛ ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٣١، ١٣٢؛ الشاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وادى النيل، ص٤٨، ٤٩؛ حسن ابراهيم: انتشار الإسلام، ص١٤٤،

MacMichael. H. A.: Op. Cit. P. 161.

٣ – الكندى: الولاة، ص١٩٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٢، ص٢٢٢، ٢٢٣، المقريزى: الخطط جـ١، ص٩٤.

٤ – حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١١٦.

منذ ذلك الوقت، كنعصر غير مرغوب فيه، وخاصة وأن هذه الأسرة الحاكمة، أسرة تركية فرضت نفسها على العرب، بل أطلقت على العرب اسم عناصر الشغب[١].

ولم ينقطع تيار الهجرة العربية إلى مصر طوال فترة عصر الولاة، بل استمر حتى العصر الفاطمى، حتى أصبحت أرض مصر مكتظة بجميع فروع القبائل العربية من ربيعة وفزارة، وقيس وكنانة وهوازن وهلال[٢].

وكل هذه الفروع من الفروع الشمالية، أما فروع الجنوب فمنها جهينة وطئ وبلى وغيرهم[٣].

على أية حال استغرقت هجرة القبائل العربية واستقرارها فى مختلف أنحاء مصر، وقتا غير قصير، حيث استمرت حتى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى[٤]، ولكن الظروف التى كانت تطرأ على مصر فى مختلف العصور الإسلامية، كانت تدفع هذه القبائل إلى أن تهاجر من مصر ثانيا إلى جهات متعددة منها، سواء فى حواف الدلتا أو أعالى الصعيد، وكان الإقليم الأخير هو الجو المناسب لهذه القبائل العربية، والبعد عن الحكومة المركزية بالفسطاط، فأصبح المهجر التقليدى المناسب لهم[٥]، ولذا فقد ضم هذا الإقليم بين ثناياه الكثير من هذه القبائل، منها قبيلة ربيعة التى امتدت بطون منها إلى بلاد النوبة الشمالية، وشرقا إلى أرض البجة، حيث أسسوا بوادى العلاقى أول أمارة عربية إسلامية زمن الفاطميين، وقد كانت هذه الهجرات العربية من وسائل الدعوة غير المباشرة لنشر الإسلام[٦].

وكان العامل الاقتصادى فى البحث عن موارد الرزق من العوامل التى شجعت العرب على الهجرة عبر نهر النيل والبحر الأحمر إلى هذه البلاد، يقول

---

١ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٩٤؛ مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٣٨.

٢ – انظر القسم الأول، هجرات القبائل العربية إلى مصر،

٣ – حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية، جـ١، ص١٠٩-١١١.

٤ – المرجع نفسه، ص١٠٩-١١١.

٥ – المرجع نفسه، والجزء، ص٣١٧-٣١٨؛ مصطفى مسعد المكتبة السودانية، ص٤١ حاشية (٢)؛ Hamilton J. A. C.: The Anglo. Egyptian Sudan.

٦ – المقريزى: البيان والاعراب، ص٤٤؛ عبد المجيد عابدين: دراسات سودانية مجموعة مقالات فى الأدب والتاريخ، ص٤.

المقريزى: "أن البجة كثيرا ما كانت تشن الغارات على القرى الشرقية وأوديتها حتى أخربوها، فقامت ربيعة بصدهم، ثم تزوجوا منهم، واستولوا على معدن الذهب بالعلاقى، فكثرة أموالهم، واتسعوا فى أحوالهم[١]".

وكان لإلزام هذه القبائل بدفع الخراج عن الأرض فى العصر العباسى، والتشدد فى جمعه - أكبر الأثر فى ثورة هذه القبائل فى عهد الخليفة المهدى، وخلافة هارون الرشيد والمأمون[٢]، ولم تفلح ثورة هذه القبائل، ومن هنا كانت هجرتها بحثا عن موارد أخرى للرزق، فاتجهت إلى الصعيد والصحراء الشرقية[٣] حتى إذا جاء عهد الخليفة المعتصم بالله، ومع ازدياد النفوذ التركى، وسيطرة الأتراك على الحكم والجيش فى مصر، احترف العرب الزراعة والتجارة، وهاجرت قبائل كثيرة منهم إلى الجهات الشمالية من بلاد النوبة وإلى أوطان البجة[٤].

ويلاحظ أن عهد عبد الله بن سعد لم يكن حائلا لوجود الاتصال، بل وضع أساسا لذلك، بحرية دخول المصريين إلى النوبة وبالعكس، ولم يكن الاهتمام باستقرار كل من الجانبين فى بلد الآخر، وإنما بما يضمن انتشار الإسلام وتنشيط التجارة[٥].

بل يمكن أن نستشف فيما ورد فى هذا العقد أيضا ما يشير إلى وجود المسلمين فى دنقلة، مع مجئ عبد الله بن سعد إليها، ويبرز ذلك فيما جاء عن وجوب حفظ النوبة للمسجد الذى بناه بمدينتهم، وأن عليهم كنسه وإسراجه[٦].

وتشير المصادر إلى اتخاذ القبائل العربية أوطانا دائمة لها فى الإقليم بين أسوان ووادى حلفا، وهو الإقليم الذى اتخذ اسم مريس[٧]. وتمكن المسلمون من

١ - المقريزى: البيان والأعراب، ص٤٤؛ وأيضا الخطط جـ١، ص١٩٥.
٢ - الكندى: الولاة، ص١٩٣، ١٩٤؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٢، ص١٩٣، ١٩٤.
٣ - سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٢٦-٢٢٧.
٤ - عطية القوصى: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٨١، ص٢٠.
٥ - المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠.
٦ - ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٨، ١٨٩؛ المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٠٠.
٧ - أهم مدن إقليم مريس هى القصر (٥ ك م من أسوان جنوبا، وهى أول الإقليم من الشمال، وتالميس (كلابشة) (٥٥ ك م) ودرمس وتافه وهما تابعتان لقرية كلابشة حاليا، والدواوالدر (٢١٠ ك م) وابريم (٢٦٠ ك م) ونجراش (فرس حاليا) (٣٥٠ ك م) والمقس الأعلى وهى أخر مدن الإقليم من الجنوب أى فى نهاية الجندل الثانى، وتعرف اليوم بساى انظر:
Arkell, A. J. A history of the Sudan from the Earliest times to 1821, P. 190,
وزارة الشئون الاجتماعية. بلاد النوبة حاضرها ومستقبلها، ص٢٨.

التدفق عن طريقه إلى باقى أنحاء النوبة، ونشر الإسلام، واللغة العربية فيها، وهذا ما أشار إليه المسعودى حين قال: "ان لمن بأسوان ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة، وأنهم قاموا بشرائها فى العصرين الأموى والعباسي من رعاياه، ولهذا أرسل هذا الملك، وفدا إلى المأمون حين قدم إلى مصر يسأله الفصل فى الأمر، حيث أن الأرض أرضه والقوم فيها عبيده لا أملاك لهم، ومن ثم لا حق لهم فى بيعها إلى العرب، وحين علم أهل أسوان ان الأرض ستنزع من أيديهم احتالوا على ذلك بن جعلوا أهل النوبة يقرون بعدم عبوديتهم لملكهم، وبذلك توارث المسلمون هذه الأرض[١]".

كان رفض شكوى الملك النوبى (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) إيذانا بسيطرة العرب[٢]، على تلك المنطقة، والتى صارت مركزا للمؤثرات العربية الإسلامية تنطلق منها إلى أعماق بلاد النوبة، وحين زارهم أحمد بن سليم الاسوانى أثناء بعثته إلى بلاد النوبة، وجد هؤلاء العرب يتصرفون فى إقليم مريس - خاصة الجزء الشمالى منه - تصرف أصحاب البلاد، حيث قال: "وهى الناحية التى يتصرف فيها المسلمون، ولهم فيها قرب أملاك[٣]"، كذلك يصفهم ابن سليم بأنهم مقيمون ولا يفصح أحدهم بالعربية[٤]، وقد يكون المقصود بذلم المولدين.

وتؤكد الاكتشافات الأثرية ما ورد فى المصادر التاريخية عن انتشار المسلمين فى البلاد، ففى بعض جزر كلابشة عثرت بعثة معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو والمعهد السويسرى بمصر - خلال أعمالها سنة ١٩٦١ فى المنطقة بين بيت الوالى وخور دهميت على عملات إسلامية برونزية[٥].

وتشير الجبانات الإسلامية وشواهد القبور بها إلى استخدام أراضى الدفن المسيحية لدفن المسلمين[٦]، وهى الجبانات الإسلامية تلك التى أشار إليها أرثر

---

١ - المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤٣؛ ارنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص١٣٠، ١٣١.

٢ - المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص٤٤٣.

٣ - المقريزى: الخطط جـ١، ص١٩٠.

٤ - المصدر نفسه، والجزء ، ص١٩٠.

5 - Keith seele, From khor Dehmit to Beit El-Wali, Fouilles en Nubie, P. 48,
Gerhard Haeny, Tafa, Kalabsha, Wadi El Sebu, Rock inscriptions and semna south, Actes du 11 Symposium, P. 34.

6 - Save. Soder berg. T., Christian Nubia. Nubische Kunst, P. 230.

ويجال جنوبى عنيبة بحوالى سبعة كيلومترات[١]، وكذلك ما عثر عليه فى جبل عدة من مقابر إسلامية تميزت بقبابها المشيدة بالآجر[٢] وهى من طراز وجد أيضا فى أنحاء مختلفة بالنوبة الشمالية وتشبه ما يوجد فى جبانة أسوان[٣].

وفى دنقلة العجوز عثرت البعثة البولندية أيضا على جبانة إسلامية بها مقابر من أنواع مختلفة منها قبور تميزت بمصاطب مسطحة ترتفع من عشرين إلى ثلاثين سنتيمترا ومغطاة بجص أبيض أو محاطة بالأجر، وعثر على الآلاف من مقابر هذا النوع، ومنها مقابر غطيت بأقبية من الطوب اللبن[٤]، وأخرى غطيت بقباب، وعلى الرغم من قيمة هذه المقابر الإسلامية من الناحية المعمارية والفنية الا أنها تدل على تعريب سودان وأدى النيل.

وتؤكد شواهد القبور العربية التى عثر عليها فى أنحاء مختلفة من النوبة على زيادة عدد المسلمين، واعتناق النوبيين للإسلام فى فترات تسبق سقوط الممالك المسيحية، ومثال ذلك شواهد القبور التى عثر عليها فى تافة والمؤرخة فى سنة ٢١٧هـ (٨٣٢م)، وكلابشة ٣١٧هـ (٩٢٩م)، وقرطاسى ٣٢٢هـ (٩٣٣م)، والدوسنة ٤١٨هـ (١٠٢٧م)، ويلاحظ فى بعض شواهد القبور القبطية استخدام التقويميين القبطى والهجرى[٥].

وتدل بعض شواهد القبور العربية، التى استخدمت كمواد للبناء فى بعض العمائر المسيحية المتأخرة على إقامة المسلمين فى مواقع استخدمها المسيحيون بعد القرن الحادى عشر لإقامتهم، وفى هذه الشواهد ما تم اكتشافه فى جبل عدة، حيث عثر على شاهدى قبر يرجعان إلى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى[٦]. وما كشفت عنه البعثة الإسكندنافية فى إحدى الجزر شرقى النيل فى المنطقة الواقعة بين

1 - Weigall, A, A report on the Antiquities of lower Nubia, P 123.

2 - Mostapha El. Emir, Fouilles de L'universite d'Alexandrie a Gebel Adda (1959): Fauilles on Nubie I, P. 38.

٣ – فريد شافعى: العمارة العربية فى مصر الإسلامية، عصر الولاة، المجلد الأول، القاهرة ١٩٧٠، ص٥٦٥، ٥٦٧.

٤ – محمد غيطاس: أضواء جديدة على تاريخ النوبة، ١٩٨٧، ص١٠٩.

٥- انظر الخريطة شكل (١١)؛

Monneret de Villard. Storia, P. 118.

6 - Adams, W. Y.: Sudan Antiquites service Excavations in Nubia. Fourth season 1962-63. Kush XII. 1964, P 326.

فرس وجماعي، حيث عثر على شاهدى قبر أحدهما لاسحاق بن أحمد الذى توفى في سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م والآخر لمحمودة بنت محمود بن يوسف التى توفيت فى سنة ٣٠١هـ/٩١٣م(١).

وفى جزيرة مينارتى التى كانت تقع على بعد ١٠ كم جنوب وأدى حلفا عثر أدمز على مجموعة من شواهد القبور، من بينها اثنان باللغة العربية لأختين، والشاهدان بخط كوفى مورق توريقا بسيطا، وأحدهما لفاطمة ابنة إبراهيم بن اسحق ابن عيسى التى توفيت يوم الأحد فى أول جمادى الثانى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة للهجرة أى ما يوافق سنة ١٠٦١م(٢)، والآخر مؤرخ بسنة خمس وخمسين وأربعمائة للهجرة أى ما يوافق سنة ١٠٦٣م، وقد استخدم الشاهدان أيضا كمادة للبناء فى بعض العمائر المسحية بالجزيرة(٣).

ونلاحظ هناك أن أغلب ما عثر عليه من شواهد يرجع إلى نهاية عصر الولاة، أى الفترة الواقعة بين القرن الثالث والخامس الهجريين/ القرن التاسع، والحادى عشر الميلاديين.

ويرى بلوس Bloss أنه بعد الفتح العربى لمصر هاجرت جماعات عربية على طول الساحل الأفريقى للبحر الأحمر، واستقرت فى أرض البجة واختلطت بهم، وتزوجت من بناتهم على الرغم من أن موجة الفتوح الإسلامية كانت لا تزال على شدتها على طول ساحل البحر المتوسط(٤).

وفى رواية لابن حوقل أن جماعات من عرب الحوف وخاصة من قيس عيلان قامت بهجوم على البجة لتعديهم على أهل مدينة قفط قبل أن تغزوهم قوات ابن الجهم بحوالى ثلاثين سنة، ولا يبعد أن يكون هؤلاء استقروا فى العلاقى حيث توجد آثارهم، ويضيف ابن حوقل إلى أن بعض الذين اشتركوا فى حملة ابن الجهم ضد البجة آثروا البقاء فى العلاقى حيث بهرتهم معادن الذهب، ثم لحقت بهم – فى نفس الوقت – جماعات من أهل اليمامة، بسبب ضغط جماعات عربية أخرى(٥).

نقلا عن

1 - Save – Soderberg T, Op. Cit, P. 238.
2 - Adams, W. Y.: Kush XII, P. 236
3 - Adams. W. Y.: Op. Cit, PP. 162-173.
4 - Bloss, J. F. E.: The story of suakin, SNR. XIX, II, 1936. P. 278.

٥ – ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٣.

ولم يكد يمضي أكثر من ست سنوات على حملة ابن الجهم على البجة حتى وفدت جماعات من ربيعة وجهينة سنة ٢٣٨هـ (٨٣٧م) إلى العلاقى بعد أن وصلتها أنباء المعادن التي تحويها تربة هذا الوادي[١].

ومما لا شك فيه أن الجماعات الإسلامية المختلفة ممن اختلطوا مع البجة قد تعلموا اللغة البجاوية، ليسهل عليهم التعامل مع البجاويين والتأثير فيهم، والدليل على ذلك أن زكريا ابن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن إسماعيل القرشي قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية[٢].

ازداد اقبال العرب على أرض البجة (المعادن) وغيرها منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٨هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م)، لأن الخليفة استكثر من الجند الأتراك وأثبتهم في الديوان، وأمر واليه في مصر كيدر بن نصر الصفدي باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم[٣]، وأدى هذا إلى ما يلي:

- انتشارهم في جميع أنحاء مصر، والاعتماد في طلب الرزق على أنفسهم، فيعملون بالزراعة وغيرها، وهذا يؤدي إلى الاختلاط وصبغ الحياة العامة بالصبغة الإسلامية.

- كان لهذا الضغط السياسي والاقتصادي أسوا الأثر في نفوس العرب[٤] وبدات جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة، ولم يكن أمامهم إلا الانسياب جنوبا وغربا بعيدا عن ضغط الأتراك في مصر، وحانت لهم هذه الفرصة عقب تأسيس الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م[٥]، حينما أعلن عن إعداد حملة حربية إلى بلاد النوبة وأرض البجة بقيادة أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري، فاشترك فيها كثير من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة[٦].

---

1 - MacMichael, H. A: Op. Cit, P. 163

٢ – المقريزي: الخطط، جـ١، ص١٩٦.

٣ – المقريزي، نفس الجزء ص٩٤.

٤ – انظر ثورات العرب ابن تغري بردي: النجوم، جـ٢، ص٢٢٢، ٢٢٣؛
Lane- Paul: Op. Cit. PP. 42-43.

٥ – يقول المقريزي: "فانقرضت دولة العرب في مصر وصار جندها العجم الموالي من عهد المعتصم إلى أن ولي الأمير أبو العباس أحمد بن طولون فاستكثر من العبيد" المقريزي: الخطط جـ١، ص٩٤.

6 - MacMichael, H. A.: A hist of the Arabs in the Sudan I. P 166.
El Mahadi Mandour: OP. Cit, P. 31.

مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص٣٥.

لقد استقر كثير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم حول أسوان غير أن الشقاق ما لبث أن دب فى صفوفهم وبدأ صراع عنيف بين هؤلاء جميعا بعد موت العمرى على امتلاك المعادن بالعلاقى، وتمكن فخذ من ربيعة أن يخرج من خالفه من العرب بعد أن استمال إليه البجة، "وتصاهروا إلى رؤساء البجة وبذلك كف ضرهم عن المسلمين[١]".

ويشير اليعقوبى وهو المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث ٢٥٨هـ/٨٧١م إلى أثر هذه الجماعات الإسلامية المختلفة. وهم كثيرون كما قال بأرض البجة[٢]، والمسعودى الذى زار مصر حوالى ٣٣٣هـ/ (٩٤٠م) أى بعد حملة العمرى بحوالى سبعين سنة فقط، يتحدث عن الأثر الواضح لهذه الجماعات العربية الإسلامية فى نشر الثقافة الإسلامية فى إقليم البجة وبلاد النوبة كذلك[٣]، ويبدو من رواية المسعودى أن الإسلام ظهر وانتشر بعد أن سكنت جماعة من المسلمين أرض البجة وممن سكن مناجم الذهب والعلاقى وعيذاب عرب ربيعة الذين اختلطوا بالبجة وتزوجوا من بناتهم، فاشتد ساعد البجة على من ناوأهم من النوبيين وغيرهم، كما اشتد ساعد ربيعة بالبجة على من خالفها من العرب، وتحالفت ربيعة مع البجة، وكان أميرهم زمن المسعودى أبا مروان بشر ابن اسحق بن ربيعة، الذى بلغ عدد جيشه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها من العرب وثلاثين ألف حراب على الإبل من الحدارية، وهم المسلمون من سائر البجة[٤].

والراجح أن جماعة من عرب ربيعة نجحوا فى وضع أساس أول أمارة عربية إسلامية بالعلاقى بعد أن استمالوا إليهم البجة وجماعات عربية من قبيلتى مضر وتميم فخضع لهم الجميع، يقول المقريزى: "واستولوا على معدن الذهب بالعلاقى، فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختلطوا قرية

١- المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٩٦-١٩٧.

٢- ذكر اليعقوبى مواضع كثيرة بأرض البجة، ليس من اليسير تحقيقها، غير أن موضع الأهمية فيما ذكره هو إشارته إلى جماعات عربية إسلامية كثيرة فى مواضع مختلفة بأرض البجة انظر: كتاب البلدان، ص٣٣٤-٣٣٥.

٣ – المسعودى: مروج الذهب، جـ١، ص١٩١؛

Paul, A.: A hist of the Beja Tribes P. 64.

4 - Ibid : Op. Cit. P. 64.

تعرف بالنماس وحفروا فيها آبارا[١]" ويتحدث المسعودى عن وصول الإسلام جنوبا حتى جزيرة سواكن حيث تسكن جماعة من البجة اعتنقت الإسلام تعرف باسم الخاسة[٢].

هكذا كان التسرب العربى الإسلامى المتجه من مصر إلى السودان وأدى النيل، دوافع ثلاثة:

أولا: ضغط من جانب حكام مصر.

ثانيا: البحث من الكلأ فى إقليم النوبة الشاسعة.

ثالثا: التجارة، وخاصة تجارة الذهب التى ذاعت شهرتها فى أرض البجة، بالإضافة إلى تجارة الرقيق، وقد سارت هذه العوامل الثلاث جنبا إلى جنب، وكانت من أكبر العوامل التى أدت إلى نشر الإسلام والثقافة العربية فى ربوع تلك البلاد بطريق غير مباشر[٣].

ومن العوامل التى ساعدت على نشر الثقافة العربية القادمة من مصر الجاليات النوبية التى أقامت بمصر، فمنذ أن فقد العرب امتيازاتهم بدأ الولاة فى مصر يستخدمون عناصر غير عربية فى الجيش، وكان ابن طولون أول من استخدم السودانيين فى الجيش الطولونى، وبلغت عدتهم حوالى أربعين ألف سودانى[٤]، وبلغ من كثرة عددهم أن عين حاجبا خاصا لصرف جرياتهم، لكن كيف حصل ابن طولون على هؤلاء النوبيين للعمل فى جيشه، يقول المقريزى: أنه حصل عليهم بطريق الشراء[٥] ولو صح هذا فإن بلاد النوبة تعرضت لحملات عنيفة من جانب تجار الرقيق.

---

١ – المقريزى: البيان والأعراب، ص٤٨.

٢ – نقل المقريزى: هذا النص عن المسعودى؛ الخطط جـ١، ص١٩٧.

٣ – بوركهارت: رحلاته، ص١١٧؛ محمد عوض محمد: السودان الشمالى ص١٢؛ محمد عمر بشير: تدفق الهجرات العربية للسودان، مجلة الدراسات السودانية، العدد الأول، مجلد ٤؛ ص٥؛ محمد غلاب: تطور الجنس البشرى، ص٢٨٧، ٢٨٨.

٤ – يقول المقريزى: "... ثم قطعت القطائع وسميت كل قطية باسم من يسكنها فكانت للنوبة قطعية مفردة تعرف بهم" انظر الخطط ص٩٤، ص٣١٥.

٥ – المصدر نفسه، ص٣١٥؛ مكى شبيكة: مرجع سابق ٣٩.

معنى هذا أنه من بين عوامل اضمحلال ممالك النوبة ما يمكن أن نسميه بتبادل فى الجماعات والثقافات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية[١] فخرجت من النوبة جماعات نوبية التحقت بجيش مصر، ولفظت مصر بعض عناصر الشغب فيها – فى نظر ولاتها الأتراك وهم جميعا من العرب المسلمين فانسابوا إلى النوبة، ثم أخذ هؤلاء يؤثرون تأثيرا بشريا وثقافيا فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة، على حين أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر لابد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام، بدليل ما تردد عند أهل مصر إذ ذاك من شكواهم عن ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند السودانيين[٢].

ولم تتوقف عملية جلب النوبيين للخدمة فى الجيش المصرى بعد وفاة ابن طولون، بل استمرت فى جيش الاخشيديين وخاصة فى عهد كافور النوبى[٣].

هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر شاركت مشاركة إيجابية فى الحياة الإسلامية فى مصر، إذ تشير المصادر الإسلامية إلى بعض شخصيات نوبية اشتغلت بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد بن أبى حبيب، أو ممن سلك طريق التصوف مثل ذى النون المصرى النوبى الأصل، وتحية النوبية.

أما يزيد بن أبى حبيب، فأبوه حبيب، وأسمه سويد، وكان ممن سبى وأسرهم العرب فى حملتهم الثانية على النوبة سنة ٣١هـ/٦٥٢م ونشأ ابنه يزيد نشأة عربية إسلامية، وقد أفادت يزيد صلته بعدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم، حتى أصبح محدثا ومؤرخا وفقيها[٤].

أما أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصرى فأصله من النوبة ونشأ فى مصر فى القرن الثانى للهجرة، وقد تلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس حين خرج إلى الحجاز حاجا[٥].

---

١ – لم يكن التبادل هنا عملية مقصودة مرتبة، بل هو محض الصدفة، ثم أن الأثر الإسلامى كان هو الغالب على هذا التبادل، سواء فى النوبة ذاتها أو مصر، ولم يتأثر المسلمون بالنوبيين إلا قليلا. انظر مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٢٨.

٢ – المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٢٠؛ ويقول المقريزى "وشكا أهل مصر إلى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه، فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر".

٣ – المصدر نفسه، ص٩٤.

٤ – انظر: ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص١٨٤.

٥ – ابن خلكان: وفيات الاعيان، جـ١، ص٣١٥، ٣١٦.

ولما عاد ذو النون إلى مصر مال إلى حياة الزهد والتصوف، وقد أشبع فى نفسه هذه النزعة عن طريق الرحلة إلى المناطق النائية فى صحارى الشام والعراق والمغرب وأوطان البجة، ولذا فهو بحق رائد التصوف فى مصر والنوبة[١].

ويبدو اعتناق مسيحى النوبة للإسلام فيما ذكره ابن الجوزى عن صوفية عاشت فى مصر فى القرن الرابع للهجرة، تدعى[٢] "تحية النوبية" قال: "روى أبو عبد الرحمن محمد بن السلمى قال: سمعت الماليتى[٣] الصوفى يقول: دخلت على تحية زائرا، فسمعتها من داخل البيت وهى تناجى وتقول فى مناجاتها: يامن يحبنى وأحبه، فدخلت إليها، وسلمت عليها وقلت: ياتحية هبى أنك تحبين الله تعالى، فمن أين تعلمين أنه يحبك؟ فقالت: نعم أنى كنت فى بلد النوبة، وأبواى كانا نصرانيين، وكانت أمى تحملنى إلى الكنيسة وتجئ بى عند الصليب وتقول: قبلى الصليب، فإذا هممت بذلك أرى كفا تخرج فترد وجهى حتى لا أقبله، فعلمت أن عنايته بى قديمة[٤]".

وليس من المستبعد أن يكون للعناصر النوبية التى ذكرناها أثر واضح فى نشر الإسلام بين أهليهم فى بلاد النوبة ذاتها.

الهجرات العربية وأثرها فى العادات والتقاليد :

كانت الدعوة إلى الإسلام هى الدافع الأساسى لاتصال المسلمين وانتشارهم بين شعوب المناطق التى افتتحوها، وقد أدى ذلك بالإضافة إلى انتشار الإسلام بين تلك الشعوب إلى نشر لغة هذا الدين، واكتساب الأهالى لكثير من العادات والتقاليد الإسلامية، وفيما يتعلق ببلاد النوبة، فقد وضع عبد الله بن سعد أسس العلاقات مع بلاد النوبة ومنها تنظيم العلاقات التجارية، وحرية الاتصال بتلك البلاد، كما وضع

---

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٣١٥، ٣١٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٣٢٠، ٣٢١؛ ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص٢٢٨؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص١٥٣؛ ابن الوردى: تتمة المختصر ص١٣٥.

٢ - ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص٢٥٩.

٣ - هو احمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن حفص أبو سعيد الانصارى الماليتى الهروى حافظ كبير متصوفات (٤١٢-١٠٢١) انظر: ابن الجوزى: تنوير الغبش، حاشية ص٢٥٩.

٤ - المصدر نفسه، ص٢٥٩.

عبد الله بن الجهم مع البجة معاهدة على غرار معاهدة البقط، لذا فقد توافد العرب على سودان وأدى النيل، واختلطوا بأهالى البلاد الأصليين عن طريق المصاهرة، خاصة وأن تجار الرقيق كانوا قد وصلوا إلى أقاصى بلاد النوبة، وأصبحت سوبا - عاصمة مملكة علوة - أكبر سوق لتجارة الرقيق، ولا شك أن النوبيين المستضعفين كانوا يلقون ببناتهم للقبائل العربية المستقرة هناك للزواج منهن، وذلك بقصد حمايتهم من هؤلاء التجار، وقد عجز ملوكهم عن حمايتهم، فضلا عن موقف الإسلام من الرق[١].

الزواج:

يتحدث الإدريسى عن محاسن النوبيات فيذكرهم بقوله: "وفى نسائهم جمال فائق، وهن مختتنات ولهن أعراق طيبة[٢]". كما يشير الإدريسى فى موضع آخر بقوله: "وجميع بلاد أرض النوبة فى نسائهم الجمال وكمال المحاسن، وشفاههم رقاق وأفواههم صغار ومباسمهم بيض، وشعورهن مسبطة[٣]"، ويبدو أن تربية الفتيات النوبيات بمصر، كانت تضفى عليهن شيئا من الصفات الحسنة، فيقول الإدريسى: "وكانت الجارية مع تمام محاسنها وبديع جمالها، إذا تكلمت أسحرت سامعيها لعذوبة ألفاظها، وحلاوة منطقها، لأنها ربيت بمصر، فكانت تامة الصفات..[٤] وقد أدت هذه الصفات الطيبة للنوبيات إلى تهافت الأمراء بمصر على اقتنائهن والتسرى بهن.

ويقول الادريسى: "ولهذا الخلال فيمن يرغب ملوك أرض مصر فيهن، فيتنافسون فى أثمانهن، ويتخذن أمهات أولاد، لطيب متعتهن ونفاسه حسنهن..[٥]".

---

١ - يحرم الإسلام استرقاق المسلم، كما أنه يساوى بين العبد ومولاه فى المأكل والمشرب والملبس، وفى معظم الحقوق المدنية. إلى جانب ذلك فإن الإسلام أوصى بعتق العبد، فهذا قول الله تعالى: " ومَا أَدْرَاكَ مَا العقبةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ..." سورة البلد الآيات ١٢، ١٣، ١٤ وانظر شوقى عطا الله الجمل: تاريخ سودان وادى النيل، جـ١، ص٢٢٧.

٢ - الادريسى: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ص١٣.

٣ - الادريسى: المصدر السابق، ص١٣.

٤ - الادريسى، ص١٤.

٥ - المصدر نفسه، ص١٣.

أما عن البجاه فيصف ابن سليم الاسواني تحولهم عن عاداتهم الوثنية(١). نتيجة الاختلاط والانصهار مع العناصر العربية الوافدة، وخاصة بعد أن هادنهم عبدالله بن الحبحاب السلولي، إذ كثر المسلمون في هذه المناطق، وخاصة مناطق المناجم، واختلطوا بالسكان وتزوجوا منهم وأسلم كثير من البجاه(٢).

ويبدو من رواية ابن سليم الاسواني، أن عرب ربيعة قد لجأوا إلى وسائل مختلفة للتقرب من الحدارية، منها أنهم تحايلوا على كهانهم للدعوة بطاعة ربيعة والانضواء تحت لوائها، لتتخذ منهم أعوانا ضد منافسيها من العرب للانفراد بحكم هذه البلاد ومما دعم هذه الصلة وقواها مصاهرة زعماء عرب ربيعة لرؤساء البجة(٣).

ولابد أن العرب أدركوا قيمة حق الوراثة عن طريق الأم، أي نظام الأمومة في وراثة الملك، فتزوج رؤساء العرب من بنات رؤساء البجة لينال أبناء أولئك الرؤساء من العرب حقا مشروعا في السيطرة على قبائل البجة حسبما يقتضيه نظام الأمومة(٤).

واحتفظ البجاه في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ببعض المظاهر الفرعونية رغم انتشار الاسلام فيما بينهم، فيذكر ابن سليم الاسواني بأن إسلامهم كان ضعيفا(٥).

---

١ – انظر عاداتهم الوثنية: المقدسي: البدء والتاريخ، جـ٤، ص٦٩، ٧٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٩٧، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ١ ص١٣٥.

٢ – المسعودي: مروج الذهب، جـ١، ص٤٣٨، المقريزي: الخطط، جـ١ ص ص١٩٤، ١٩٥، مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص٣٨،

El Mahadi Mandour: A short History of the sudan , P. 32

٣ – المقريزي: الخطط، جـ١، ص١٩٦-١٩٧.

٤ – المقريزي: الخطط، جـ١، ص١٩٦-١٩٧.

Paul, A.: The Hadareb, A study in Arab-Beja relationships, SNR,XI P. 75.

٥ – أثبتت الزميلة نادية بدوي من واقع الدراسة الميدانية لرسالة الماجستير من التقاليد المتبعة في الزواج عند هذه القبائل، ان ترفع خيشة العريس وبناتها بعد غروب الشمس، كما ان العروس والعريس لا يروا الشمس بعد زفافهم لمدة أربعين يوما، وهذا التقليد يرجع الى وقت ان كانت عبادة اله الشمس منتشرة بين قبائل البجة، وذلك حتى القرن السادس الميلادي، والهدف من ذلك حماية العروسين من اله الشمس، وبمعنى آخر هو نوع من الاحترام والتقديس لاله الشمس، ولايسمح اتيان العمل الجنسي في وجود اله الشمس. ناديه بدوي: الزينة عند العبابدة، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الافريقية، ص٩٦، ٩٧، أحمد بدوي : في موكب الشمس، جـ١، ط لجنة التأليف والنشر، ط ٢، ١٩٥٥، ص ص١٥٧-١٦٠، مصطفى مسعد، الاسلام والنوبة، ص٣٨.

ويبدو أن هذه القبائل العربية التى دخلت بلاد النوبة وأرض البجة خشـيت أن ينقرض نسلها، أو يذوبو بين الاهالى الأصليين، نتيجة اختلاطها معهم بـلا تحفـظ، فاستحدثت عادة فريدة من نوعها، لم يتبع مثلها العرب فى أى مكان نزلوا بـه، الا وهى عادة التشليخ فى الخدين[١]، وقدا اقتبست كل القبائل العربية التى توغلت إلـى اعالى النوبة هذه العادة من بعضها، فأصبحت من السمات المميزة لكل قبيلـة مـن القبائل العربية التى توغلت فى أعماق بلاد النوبة[٢].

ويبدو أن هذه العادة كانت منتشرة بين القبائل العربية، وأخذتها عنـها القبـائل العربية بعد اختلاط العنصرين بالتزاوج، فقد اتخذت كل قبيلة من القبـائل العربيـة هناك علامات خاصة أو سمة خاصة فى وجه أبنائها بقصد تمييزهم بسهولة من بين القبائل[٣].

أما عن عادة الختان فهى معروفة عند قبائل البجة[٤]، وأن كانت ترجـع إلـى أصل مصرى قديم، وليس للعرب فضل فى ذلك، ومما يذكر كذلـك أن النوبيـون يمارسون الختان للأولاد والختان الفرعونى للبنات[٥].

أما المسميات العربية، فان ابن سليم الاسوانى أشار فى صدد حديثة عن النوبـة أن المنطقة من أسوان حتى الشلال الثانى هى الجهة التى يتصرف فيها المسـلمون ولهم فيها أملاك[٦]. وأيدت الأبحاث الأثرية فى منطقة مريس وجود جاليات عربيـة إسلامية كما أشرنا من قبل، ذلك أنه عثر فى غير قليل من الاماكن بأرض مريـس على كثير من المسميات العربية، ويرجع تاريخ أقدمها الى القرن الثالث الهجرى/التاسـع الميلادى. وتـدل كذلك شواهد القبـور المكتوبة بالخط العربى، وتحمـل أسـماء

---

١ – أنظر عادة التشليخ عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ص١٦٩، ١٧٠.

٢ – محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص٢٨٨.

٣ – عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ١٦٩.

٤ – انظر المقريزى: الخطط ، جـ١، ص١٩٥، محمد بن عمر التونسى، تشحيذ الاذهـان بسـيرة بـلاد العرب والسودان، القاهرة ١٩٦٥، ص ص٢٢٤، ٢٢٥ محمد عوض محمد: الشـعوب والسلاسـلات الافريقية ص٢٦٦.

٥ – ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٧٧، الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٦٩.

٦ – المقريزى، الخطط، جـ١، ص١٩٠.

عربية[١] في كل من تافه (٢١٧هـ/٨٣٢م) وفي كلابشـــة (٣١٧هـــ/٩٢٩م) علـــى استخدام المسميات العربية، وتداولها في ارض مريس([٢]) هذه الجاليات العربية المقيمـــة هناك كثيرة التنقل بين منطقة مريس، وأرض البجة، لذا انتقلت بينهما المؤثرات العربيـــة بسهولة ويسر، اذ وجدت كتابات عربية بالخط الكوفي على جدران قلعتين بالقرب مـــن منجم للذهب في هذه المنطقة (دير يهيب)، ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى القرن العاشـــر الميلادي (٣٧٢هـ -٣٧٣هـ/٩٨٢-٩٨٣م) فضلا عن كتابات أخرى فـــي نـــيزازي جنوب دير يهيب، ويرجع تاريخها إلى هذا العهد كذلك[٣].

هكذا أدى اختلاط هذه الجماعات العربية المهاجرة إلى تأثر العناصر النوبيـــة والبجاوية بالدماء العربية التي كانت تتجدد باستمرار طوال عصر الولاة.

المأكل والمشرب :

لاشك ان العرب المسلمين قد تبادلوا المنتجات الغذائية مع مصر بحكم الجـــوار اذ يقول المقريزي عن مدينة أسوان الواقعة في أرض مصر، الوفيرة في منتجاتـــها "وأسوان في أخر بلاد الصعيد، وهي ثغر من ثغور الإقليم، يفصـــل بيـــن النوبـــة وأرض مصر، وكانت كثرة الحنطة، وغيرها من الحبوب والفواكه، والخضـــروات والبقول، كما كانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم، ولحمايتها هناك غاية فـــي الطيب والسمن، وكانت أسعارها أبدا رخيصة وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة[٤].

ويشير المسعودي إلى النشاط المتبادل بين مصر والنوبة بمنتجاتـــها الغذائيـــة بقوله: "وفي مدينة بلاق[٥] خلق كثير من الناس ونخل كثير في كلا الشطين، وهـــذه

---

١ – انظر شكل رقم (١١)؛

Devillard: Op. Cit P. 118.

ومصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٣٠.

2 - Denillard · op. cit P. 118.

٣ – مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص١٣٠، ١٣١.

٤ – المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٧.

٥ – بلاق: هي جزيرة فيلة الحالية واسمها الفرعوني بيلاك : واطلق عليها مؤرخـــو الاغريـــق فيلـــى أو فيلاك، أما اسمها القبطي فهو بيلاخ، وتحرف هذا الاسم في العصر الاسلامي الى بلاق وهذه الجزيـــرة الان تقع فيما بين خزان أسوان والسد العالي. أنظر المقريزي، الخطط، جـــ١، ص ص١٩٠، ١٩٩، مصطفى مسعد، الاسلام، ص١٠٣.

المدينة تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان[١]".

هذا واشتهرت بلاد النوبة لدى المؤرخين المسلمين، بأنها تحوى الكثير من مختلف أنواع الحيوانات والطيور التى يستطاب لحمها فى المأكل[٢]، كما ان ابن سليم الاسوانى يشير إلى أنواع عديدة من الحيوانات والطيور النوبية المستخدمة فى الطعام[٣]".

ولما كانت العلاقات بين مصر والنوبة قد تحددت بمقتضى معاهدة البقط وبما نصت فيها من تبادل السلع الغذائية، فقد كان على مصر الإسلامية، ان توجه اهتمامها للاستفادة من هذه الحيوانات والطيور النوبية على اختلاف أنواعها خاصة طوال عصر الولاة[٤].

وكانت بلاد البجة التى تنتسب إليها الإبل البجاوية[٥] بصفة خاصة مستودعا كبيرا للابل، وخاصة فى قرية بخته[٦] التى تنتسب إليها الجمال البختية وهى أحسن أنواع الجمال.

وأشار أحمد بن سليم الاسوانى أثناء رحلته فى بلاد النوبة فيقول: "والمواشى من البقر والغنم والضأن غاية فى الكثرة عندهم[٧]". ثم أشار الادريسى من بعده إلى وجود الأغنام والماعز والحملان والبقر بكثرة فى بلاد النوبة، ويذكر أنها أساسيات التبادل السلعى بين مصر والنوبة[٨] خاصة أن الأطباء فى ذلك العصر كانوا يوصفون لحم الضأن النوبى للمرضى فى مصر، ضمن وسائل العلاج[٩].

---

١ – المسعودى: مروج الذهب: ج ١، ص ٤٤٢، وأيضا ج ١، ص ٤٣٦، ٤٣٧.

٢ – ابن الفقية: مختصر كتاب البلدان، ص ٧٧.

٣ – المقريزى: الخطط، ج ١، ص ١٩٤، ١٩٥، بوركهات: رحلاته ، ص ١٢٠.

٤ – ظلت بلاد النوبة تشتهر بكثرة الابل منذ العصور الوسطى الى العصر الحديث ، أنظر بوركهات: رحلاته الى النوبة والسودان، ص ١٢٠.

٥ – المقريرزى: الخطط ، ج ١ ص ١٩٤.

٦ – بختى نوع من الجمال تنتسب الى قرية بخته، من قرى قبائل البجة بالصحراء الشرقية، وقد اشتهرت هذه القرية، بانتاج نوع من الجمال الجيدة تعرف بالجمال البخيته، امتازت بالسرعة والصبر يقول عنها الادريسى" وليس يوجد على وجه الارض جمال احن منها، ولا أصبر على السير ولا اسرع خطا وهى بديار مصر معروفة بذلك، أنظر: الادريسى، صفة المغرب وارض السودان ومصر ، ص ٢٧.

٧ – المقريزى: الخطط، ج ١، ص ص ١٩٢، ١٩٣.

٨ – الادريسى: المصدر السابق ، ص ٢١.

٩ – الادفوى: الطالع السعيد، ص ٢٨.

ويشير الادريسى إلى طبيعية المأكل والمشرب عند القبائل النوبية بقوله: "وشربهم من الآبار وأكلهم من الذرة ولحوم الجمال المقددة والحوت المصيد، والألبان عندهم كثيرة[١]".

كذلك اشتهرت بلاد النوبة، خاصة إقليم مريس بالأسماك[٢]، ويبدو ان اتساع نهر النيل النوبى، فضلا عن كثرة المساقط المائية فيه، ساعد على وجود الأسماك بكثرة، فترك أبناء النوبة الزراعة وعملوا فى صيد السمك، وجعله غذاء رئيسيا لهم[٣].

وقد اهتم حكام مصر منذ عصر الولاة بالثروة السمكية فى بلاد النوبة، حتى وجد ما يعرف بديوان المصايد للاستفادة من الثروة السمكية عموما[٤].

ويشر الادريسى إلى طعام مدينة دنقلة فى غربى النيل : يقول "وفيه شرب أهلها، وأهلها سودان لكنهم أحسن السودان وجوها وأجملهم شكلا، وطعامهم الشعير والذرة، والتمر يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم، وشرابهم المرز المتخذ من الذرة واللحوم التى يستعملونها لحوم الإبل طرية ومقددة ومطحونة ويطبخونها بألبان النوق، وأما السمك فكثير عندهم جدا[٥]".

وقد لاحظ بوركهارت وهو فى طريقة إلى دنقلة أن طعام الخبز من القمح دليل على الرفاهية والثراء العريض، وطعام العامة من الذرة[٦] وهو فى غاية الخشونة، ويصنع بغير ملح ويخبزونه على الصلح كبدو جزيرة العرب[٧].

وقد حازت بلاد النوبة شهرة كبيرة فى التمر وإنتاجه، فقد كانت أول إشارة لنخيل النوبة فى العصر الإسلامى ما وردت عند اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)

---

١ – الادريسى: صفة المغرب، ص ١٢، القلقشندى: صبح الاعشى ج ٥، ، ص٢٧٥.

٢ – الادريسى: صفة المغرب، ص ١٩، ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٢ ، ص ٢٩٧، بوركهات ، رحلاته، ص ص ٢٢،٢٣.

٣ – المقريزى: الخطط ج ١، ص ١٩١،

Trimingham, J.S. : Op. Cit. P. 8.

٤ – المقريزى: الخطط ج ١، ص ص ١٠٦، ١٠٧.

٥ – الادريسى: صفة المغرب، ص ١٩، القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٥. ٢٧٦.

٦ – بوركهارت: رحلاته: ، ص ٩.

٧ – المرجع نفسه، ص ١٢٤.

حين قال: "وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع[١]".

ثم تلاه المسعودى (ت٣٤٦هـ/٩٥٦م) الذى أشار أيضا إلى كثرة النخيل هنـاك وأجرى مقارنة بين تربة النوبة وتربة البصرة والكوفة من حيث ملاءمتها لإنبـات النخل فيه فيشيد بالتربة النوبية ويقول أن النواة عندما تودع فى الأرض فتنبت نخلة، ويؤكل من ثمرها بعد عامين اثنين فقط، بينما أرض البصرة والكوفة لا تلائم انبـات النوى[٢].

إشارة أحمد بن سليم الاسوانى الى وفرة النخل فى تلك البلاد، أثناء رحلته فـى بلاد النوبة ، تدل على صدارة بلاد النوبة فى إنتاج التمر، فيذكر أن هناك أنواع مـن التمر النوبى لا نظير له فى أى مكان فى العالم[٣]، ويبدو أنه ظل يشـاهد اخـراج النخيل على ضفتى النيل طوال رحلته على النيل، فأعجب بها، وأكثر من وصفها.

والتمر النوبى لم يكن له نظير من حيث الكم والكيف، وكثرة تنوعه إلى حد انه أصبح دعامة للاقتصاد النوبى، وأصبح غذاء النوبيين الرئيسى، إلى جانب الشـعير والذرة([٤])، ويشير المقريزى إلى ان هذا التمر كان يحمل الى مصر بقوله: وان مـا يحمل ما بها من التمر والقطن والحقول الجارى بها من قديم الزمان[٥]".

الملابـس :

لاحظ المؤرخون والرحالة الذين زاروا منطقة النوبة وأرض البجة أن ملابسهم بسيطة فى شكلها، ويرجع هذا ربما لطبيعة الأحوال المناخية فيذكر الدمشـقى: "أن للنوبة صنفان: أحدهما يقال لهم: علوا، وملكهم يسكن مدينة تسمى كوسـة والأخـر

---

١ – اشتهرت بلاد النوبة بانتاج أفخر أنواع التمر، فيذكر الحموى فى معجـم البلـدان ، ج ١، ص ٢١٩ الفارق الكبير بين تمر النوبة وتمر العراق الذى كان يليه فى الجودة، ويذكر الادفوى: الطالع السـعيد: ص ٢٨، المقريزى، الخطط ج ١، ص ١٩٩، ان الخليفة العباسى هارون الرشيد عندما طلب تمرا من تمر النوبة جمعت له تمرة واحدة من كل صنف وبذلك جمعت له ويبه، مما يدل على كثرة تنوع التمـو النوبى، اليعقوبى: تاريخ ج ١، ص ١٩١.

٢ – المسعودى: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٤٢، ٤٤٣.

٣ – المقريزى: الخطط ج ١، ص ص ١٩٠، ١٩٢، ١٩٥.

٤ – القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٥، ص ٢٧٥.

٥ – المقريزى: الخطط ج ٢، ص ٢٠١.

يسمى: مقرا "وملكهم يسكن دنقلة. لا يلبسون المخيط" بـل يتحشـون بثيـاب مـن الصوف يقال لها: الدكاديك[١].

كذلك يشير إلى البجة بقوله: "وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط، ولا يسـكنون المدن[٢]".

ويشير القزوينى إلى ملابس النوبة بقوله: "ومن عاداتهم تعظيم الملك الذى اسمه كابيل... ولبسه الثياب الرفيعة من الصوف والخز والديباج[٣]".

وفى موضع أخر يشير إلى دنقلة" وأهلها عراة[٤] مؤتزرون بـالجلود، والنمـر عندهم كثيرة، يلبسون جلودها[٥]".

أما الادريسى فيشير إلى مدينة بلاق أحدى المدن النوبية، اذ يرتدى أهلها الأزر والمازر[٦].

أما المقريزى فيشير إلى الاختلاط بين البجة والعرب، وما ينتج عن ذلك مـن انتقال المؤثرات العربية من الأزياء بقوله: وقيل البجة قبيلة من الحبـش أصحـاب أخبية من شعر وألوانهم أشد سوادا من الحبش يتزينون بزى العرب[٧]".

فمما لاشك فيه أن القبائل العربية المهاجرة إلى سودان وادى النيل نقلت معـها أسلوب العرب فى الملبس ، فهناك لبـاس عربـى قـح، كـان يلبسـة النوبيـون المستعربون، وهذا اللباس عبارة عن سروال[٨]، جلدى مشقق إلى سـيور، وبـدون ساقين ولا حجزه، وكان هذا اللباس أكثر شيوعا بين الفتيات[٩].

---

١ – الدمشقي: نخبة الدهر ، ص ٢٨٦.

٢ – المصدر نفسة، ص ٢٦٩.

٣ – القزوينى: اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٢٥.

٤ – لم يسمع ان النوبيين انهم عراة ، وربما ينصرف هذا الوصف على بعض القبائل التـى تعيـش فـى الأقاليم النائية فى الجنوب أو فى الغرب، وتخضع لملك النوبة فى علوة انظر: مصطفى مسعد: المكتبة السودانية حاشية (٣) ص ١٩٤.

٥ – القزوينى: آثار البلاد، ص ٣٩.

٦ – الادريسى: صفة المغرب، ص٢٠.

٧ – المقريزى: الخطط، ج ١، ص ١٩٧.

٨ – ظل هذا اللباس مستخدما فى بلاد النوبة المختلفة الى عصر قريب ان لم يكن موجودا الى اليوم فـى بعض بوادى النوبة.

٩ – عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٦٨.

وثمة نوع من الملابس العربية تتميز بها نساء النوبة المستعربة وهذا اللباس عبارة عن ثوب ابيض تلتف به النساء ، ويعرف عند الكنوز بالنوبة السفلى باسم الشقة، بينما يعرف عند قبائل الجعليين والشايقية ومن جاورهم بالنوبة العليا باسم التوب، ولايزل هذا اللباس مستخدما إلى اليوم.

هذا وقد عرفت المرأة البجاوية عادة التنزين بالحلى[١]، ومن استخدام القرط والسوار، والعقد، والخلخال وحلي الأنف المنتشرة بين الرجال والنساء، وأن أصبحت بعد ذلك قاصرة على النساء[٢].

والتزين بالذهب لعب دورا بارزا فى علاقات مصر والنوبة منذ العصر الفرعوني القديم، وقد استخدم الذهب فى الحلى بمصر منذ عصر الأسرة الأولى[٣]، وكذلك استخدمت الفضة للتزين[٤].

المسكن :

يصف ابن سليم الاسوانى أثناء رحلته إلى بلاد النوبة حال الأبنية والمسكن الذى كان بسيطا نظرا لحالتهم الاجتماعية التى تعتمد على حرية التنقل فيقول "... وقرى متصلة وعمارة حسنة بأبرجه حمام[٥] ... نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والاديار[٦].

كانت جميع مساكنهم عبارة عن أخصاص، وكذلك قصور ملوكهم[٧]، وقد تطورت نتيجة لوصول القبائل واستقراها بأن أصبحت تبنى من الطين، وأعمدة رفيعة[٨] وان كانت لم يرق شكلها لليو الافريقى الذى وصفها بأن " كل بيوتها قبيحة[٩]".

---

١ – على زين العابدين: المصاغ الشعبى فى مصر، اقاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص ٧، سعد الخادم، الفن الشعبى والمعتقدات الشعبية، النهضة المصرية ، ص ١٦.

٢ – على زين العابدين: مرجع سابق، ص ١٦١، ١٧٩، ١٨٦.

٣ – عبدالرحمن زكى: الحلى فى التاريخ والفن والارشاد ١٩٦٥، ص١٠.

٤ – على زين العابدين: فن صناعة الحلى، ص ٢٨١، نادية بدوى: الزينة، ص ١٧٢.

٥ – المقريزى: الخطط ج ١، ص ١٩١،

٦ – المصدر نفسه، والجزء والصفحة.

٧ – يقول القزوينى: دنقلة مدينة عظيمة ببلاد النوبة، ممتدة على ساحل النيل.. وبيوتهم أخصاص كلها، وكذلك قصور ملكهم " أنظر القزوينى: آثار النوبة، ص ٣٩، النويرى: نهاية الارب، ج ١، ص٢٦٢.

٨ – ليو الافريقى: وصف افريقيا ، ص ٥٥٧.

٩ – المصدر نفسه، والصفحة.

وقال بوركهات أثناء رحلته عبر بلاد النوبة : "ويبنى النوبيون اليوم أكواخهم الحجرية... على سفوح الجبال.... أما فى البقاع التى ينبسط فيها السهل فأنهم يبنون مساكنهم من اللبن ويقيمونها وسط السهل[١]" وهذه المبانى تتألف من بنائين مستديرين منفصلين أحدهما للرجال والأخر للحريم ، وبيوت اللبن منخفضة، والسقف من سيقان الذرة[٢].

ومع ذلك، فقد ظلت بعض المناطق مثل إقليم المحس اذ تصنع الأكواخ فيه من الحصر المجدولة من سعف النخل، والمشدودة إلى أعمدة عالية ترتفع أطرافها فوق السقف.

نستنتج من هذا أن المسكن النوبى كان بسيط فى بنائه ثم تطور من كونه على شكل اخصاص إلى البناء بالحجارة أو الطوب اللبن طبقا لطبيعة كل منطقة، كما أن المسكن بشكله القديم لايزال قائما فى بعض المناطق[٣].

ومما لاشك فيه أن الجماعات العربية من بلى وجهينة وهوازن الذين عرفوا بالحلانقة استقرت على أرض البجة، منذ القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى[٤]، ثم جاءتها جماعات من الأمويين ليستقر بعضهم فى ميناء باضع (جزيرة الريح[٥]).

---

١ - بوركهارت: رحلاته، ص ٩٩.

٢ - بوركهارت: رحلاته، ص ١٢٢، محمد عوض: الشعوب والسلاسلات الافريقية ص ٢٦٥.

٣ - نادية بدوى: الزينة ، ص ٩٦، ص ٩٧.

٤ - المسعودى: مروج الذهب، ج ١، ص ٤٣٨.

٥ - ابن الجوزى: تنوير الغبش، ص ١٢٧- ١٣٢،

ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١ ، ق١ ، ص ١٣١.

الخاتمة

الخاتمـة

لم تضع النظرية السياسية للدولة الإسلامية عقبات أمام رعاياهـا مـن غـير المسلمين فى مصر ، بل أتاحت لهم قدرا كبيرا من الحرية داخل إطار هذه الدولـة، وعند التطبيق أبان الفتح نجح عمرو بن العاص فى كسب الجزء الأكبر من القبـط إلى جانبه، كما نجح فى تحييد اليهود، وانتهج سياسـة ظلـت قائمـة فـى مصـر الإسلامية تعتمد على عدد من المبادئ المتعلقة بحرية العقيدة داخل إطار المجتمـع المصرى، والتزام الدولة بحماية الرهبان ورجال الدين الذميين، كمـا يتضـح مـن الوثائق الخاصة بعصر الولاة، وجاء هذا تأكيد على حرص العرب المسلمين علـى الالتزام بروح الإسلام السمحة وتقرير العدالة تجاه أهل الذمة عمـلا بمـا تفرضـه الشريعة الإسلامية، وهكذا التقت النظرية مع التطبيق العملى على أمر سواء.

وقد أصبح أهل الذمة المتمرسون فى شئون الإدارة والمال عنصـرا لا غنـى عنه فى تصريف أمور الدولة، ورغم إبعادهم عن وظائفهم أثنـاء فـترات الشـدة والاضطرابات فأنهم كانوا ما يلبثون أن يعودا لممارسة دورهم فى الـهيكل الإدارى والمالى طوال عصر الولاة.

وقد استفاد أهل الذمة من مقررات الشريعة الإسلامية وتسامح الدولة الإسلامية، وأقراها مبدأ حرية العقيدة، وضمان الحريات الاجتماعية بشكل عـام، كمـا أنـهم شاركوا فى كافة مجالات النشاط فى الدولة، ووصل بعضهم إلى أرفـع المنـاصب لسماحة الإسلام فى مصر.

وكان طبيعيا ان نجد سودان وادى النيل قد تأثر بما يحدث فـى مصـر مـن تطورات وأحداث سياسية طوال عصر الولاة حتى انه بتمام الفتح نصـت معـاهدة الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس فيما يتعلق بالمصريين بالا "يساكنهم النوبـة" ونصت فى نفس الوقت على أن من يدخل فى الصلح من "الروم والنوبة فله مثل مـا لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه".

وهكذا أجرى المسلمون على من دخـل فى صلحهم من الروم والنوبة ما جرى على أهل مصر، من تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم الا من اختـار الذهاب منهم، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

وجاء اهتمام ولاة مصر بالنوبة من أجل تأمين حدود مصر الجنوبية وتيسير وصول الدعوة الإسلامية إليها، وضمان انتظام الحركة التجارية الصادرة من مصر والواردة عبر أراضى النوبة.

ويمكن القول بأن المحالاوت الأولى لفتح النوبة وان استهدفت تحقيق الهدف الأساسي من الفتوحات من أتاحه الفرصة لتعامل الإسلام مباشرة مع شعوب تلك المناطق ووصول الدعوة إليهم، ألا ان ذلك كان مرتبطا بمدى ما يمكن إعداده من قوة قادرة على الفتح واستكماله، إذ لم تكن هذه الحملات العربية الأولى تريد زحفا جادا نحو البلاد النوبية، فعمرو بن العاص لم يكن يطمع فى أكثر من تامين حدود مصر الجنوبية ، أو تعقب الفارين من الجنود او القواد البيزنطيين ولعل أولاها كانت حملة استكشاف تريد أن تستطلع الأحوال فى أقصى الصعيد.

واستمر ولاة مصر فى سياستهم من إرسال الحملات العسكرية إلى النوبة حتى عهد عبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة ٣١هـ/٦٥٢م الذى عقد معهم اتفاقا لاشك أنه كان يتفق مع طبيعة بلاد النوبة ويؤدى فى نفس الوقت إلى تحقيق الأهداف الأساسية للفتوحات من حيث اتصال الدعاة بأهل هذه البلاد، والتمهيد لنشر الإسلام، بالإضافة إلى وقف الاغارات النوبية على صعيد مصر، وتأمين حدودها، وتنشيط الحركة التجارية، وما البقط إلا دليل على استمرار وفاء النوبيين بما تعهدوا به.

وقد جعلت معاهدة البقط النوبيين فى نظر العرب "مصالحين" وهو ما عرفة الفقهاء باسم "أهل العهد" ولذا فأنها تفسر بأنها حسن جوار، وسلامة الحدود، وحرية التجارة بين البلدين، ثم أنها تخول للمسلمين الحصول على سواعد النوبيين القوية لخدمة الدولة الإسلامية، بالإضافة إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية نشرا سليما فيما بينهم.

ومما ساعد على ذلك، أن معاهدة البقط خلت من التعصب الجنسى أو الدينى ولذا بقيت أطول مدة يمكن أن تبقى معاهدة بين دولتين، فضلا عن حسن العلاقات الودية والسليمة بصفة عامة.

وظلت معاهدة البقط اكثر من ستة قرون ونصف القرن أساسا للعلاقات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية وغيرها، وسارت على ضوئها كل الحكومات الإسلامية التى تعاقبت على مصر فصارت من ثم محددا للعلاقات بين مصر والنوبة.

وإذا كانت معاهدة البقط قد حددت نوعية العلاقة السلمية التي ربطت بين مصر والنوبة لفترة طويلة، الا أن كل طرف كان يتعامل مع الأخر حسب الموقف السياسي، فطالما كانت مصر قوية نفذت النوبة المعاهدة، ومن الطبيعي أن يختل هذا الوضع عند تغير السلطة في مصر، فعند انتقال الخلافة إلى بني العباس اضطربت العلاقة السلمية بين مصر والنوبة، التي تملصت من التزامها بدفع البقط، لمدة خمسة عشر عاما، على نحو ما يتضح من البردية العربية التي تتضمن خطابا مرسلا من الوالي العباسي على مصر موسى بن كعب ١٤١هـ/٧٥٨م إلى ملك النوبة والمقرة، بخصوص العلاقات المصرية النوبية، والجديد في هذه الوثيقة البالغة الأهمية أنها تلقي الأضواء على العلاقات المصرية النوبية المضطربة في بداية العصر العباسي الأول، وأنها جاءت تأكيدا لمعاهدة البقط، التي وضع أساسها عبد الله ابن سعد بن أبي سرح في عهد عثمان بن عفان في سنة ٣١هـ/٦٥٢م.

ولاشك أن الامتناع عن إرسال البقط هو ما كان يبعث على اختلال هذه العلاقة وخصوصا أن فترة الانتقال من العصر الأموي إلى العصر العباسي قد سقط منها بقط سنين، وهذا ما أكدته هذه الوثيقة البردية.

ويدخل ضمن سودان وادي النيل البجة، فلم يكن هناك اهتمام من الفاتحين بهذه القبائل أول الأمر، بدليل عدم ورود إشارة إليهم في عهد الصلح الذي عقده عبد الله بن سعد للنوبيين ٣١هـ/٦٥٢م وأول من صالحهم عبيد الله بن الحبحاب، وربما استقر في نفوس العرب، في المرحلة الأولى من مراحل التوسع الإسلامي أن ديار البجة ليست بدار حرب،شأنها في ذلك شأن بلاد الحبشة، وقد ظلت معاهدة عبد الله بن الحبحاب معمولا بها زهاء قرن من الزمان.

وعقد عبد الله بن الجهم في سنة ٣٢٣هـ/٨٤٦م معاهدة مع كنوب بن عبد العزيز ملك البجا تختلف كثيرا في نصوصها عن معاهدة البقط التي عقدت مع النوبة، وموضع الأهمية هنا أن بلاد البجة حتى مصوع أضحت جزءا من الدولة الإسلامية. ويطبق عليها شروط البلاد التي تفتح عنوة ، بدليل فرض الخراج.

هكذا كانت الحملات العربية المتكررة على أوطان البجة والنوبة، فاتحة عهد جديد لانتشار الإسلام في تلك البلاد من الظهير المصري، وأخيرا حملة العمري التي كانت بمثابة فتح أبواب النوبة، وأرض البجة على مصراعيها أمام القبائل

العربية الضاربة فى مصر لتتخذ سبيل النوبة مخرجا مما كانت تلاقيه من صعوبات فى مصر.

وأخيرا يأتى موقف ولاة مصر من الكنيستين القبطة والنوبية، فلا شك أن هذه العلاقة كانت طيبة بفضل هيمنة الكنيسة المصرية، فقد كانت النوبة تدخل ضمن زعامتها الروحية، فقد نشأت بينهم وبين بطاركة الكنيسة المصرية علاقات ودية، اختلف طبيعتها من حين إلى آخر تبعا لما تقتضيه مصالح الطرفين، غير أن موضع الأهمية هنا هو موقف ولاة مصر من الكنيستين وإقرارهم حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية دون ضغط أو تسلط عليهما.

وكانت هجرات القبائل العربية من أهم عوامل التطور الاجتماعى فى كل من مصر وسودان وادى النيل، ومعروف أن الفتح العربى لمصر ساعد على هجرة كثير من القبائل العربية الى مصر، فمنها من جاء ممثلا فى جيش الفتح، ومنها من جاء بصحبة الولاة العرب الذين كانت تعينهم الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الأموية، ثم هناك قبائل قدمت لتلحق ببطونها التى هاجرت إلى مصر واستقرت بها.

ومنذ القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى بدأت الخلافة تستخدم هجرة القبائل العربية إلى مصر لخدمة أغراضها الاقتصادية وتمثل هذا فى نقل قبيلة قيس سنة ١٠٩هـ/٧٢٨م الى دلتا مصر، ومهدت لهم السبل للعمل فى الزراعة.

ولما كانت القبائل اليمنية أكثر عددا من القيسية فى مصر، فقد ركزت الخلافة العباسية على نقل قبائل عدنانية مثل قبيلة ربيعة لتحد من قوة القبائل اليمنية، كذلك استخدمت هذه القبائل فى استخراج المعادن من مناجم أقصى جنوب مصر، والوقوف على وجه غارات النوبة والبجة المتكررة على مصر هذا علاوة على تأمين تجارة البحر الأحمر.

وكانت قبيلة قيس فى شرق الدلتا (الحوف) من أقوى القبائل حتى عرفت المنطقة التى نزلت بها باسم "بلاد قيس" وكثيرا ما وحدت الظروف الاقتصادية بين القيسية واليمنية فثاروا معاضد الوالى وفى بعض الأحيان انضم الأقباط إليهم مما يدل على زيادة الاختلاط بين العرب والأقباط ووحدة مصالحهم.

أما الإسكندرية فقد كانت الغلبة فيها للقبائل اليمينة حتى كانت لخم، وجذام، ومدلج، وتجيب، من أظهر القبائل وأقواها والى جانبها وجدت بعض بطون

المعافر، ولقد انتشرت هذه القبائل نحو الغرب، وتمركز بعضها فى المنطقة الواقعة بين الإسكندرية وبرقة.

أما عن الصعيد الأعلى فقد استقرت فيه من القبائل العربية بنى أمية وخاصة أثناء هروب مروان بن محمد، حتى أنه مع مطلع القرن الثالث الهجرى كان كثير من بنى أمية قد تمركزوا فى الصعيد.

كذلك استقرت عدة قبائل فى الصعيد الأوسط ثم اتجهت إلى الصعيد الأعلى ومنها قبيلة همدان، كما حظى الصعيد الأعلى بهجرات عربية كان على رأسها قبائل بلى التى كانت تؤلف ثلث المجموعة القضاعية الساكنة فى بلاد الشام.

أما قريش فيذكر المقريزى أنها نزلت بكثرة فى أسوان منذ العهد الأموى، وملك أبناؤها الضياع فى بلاد النوبة. كذلك وفدت قبائل عربية إلى الصعيد الأقصى منهم بنو هلال وبنو سليم، أما جهينة فقد اشتركت فى الفتح العربى بأعداد قليلة إلا أنها فى القرن الثالث الهجرى غزت بلاد البجة، وامتدت نفوذها الى بلاد النوبة وأرض سودان وادى النيل لتسهم فى نشر الإسلام.

احتفظ العرب فى مصر بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان كما دلت على ذلك شواهد القبور، ولكن فى القرن الثالث الهجرى نجد ان اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتسب إليه المتوفى، فيكتب الادفوى، أو الكوفى أو المصرى.

وكانت هجرات القبائل تضم الموالى الذين قدموا مع جيش عمرو بن العاص واستقروا بين خطط الفسطاط، بجانب الروم الذين افرد لهم خطة فى الفسطاط وهم من الذين فضلوا البقاء فى مصر، وأغلب الظن أن وجودهم بين خطط المسلمين يرجع إلى أنهم اعتنقوا الإسلام، ثم توافد على مصر الشاميون والاندلسيون وهم من التجار المسلمين، وأيضا وجد فى مصر العنصر النوبى والحبشى كما دلت أوراق البردى على ذلك.

وقد كان لقرار الخليفة المعتصم العباسى فى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م والخاص بإسقاط العطاء عن القبائل العربية أثر كبير فى حياتها، فقد دفعها للبحث عن مصدر للعيش، فانتشرت القبائل فى الريف وخالطت المصريين وشاركتهم أعمالهم، ومن ثم بدأت حركة الاندماج بين العرب والمصريين ، والتى كان لها أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية والإسلام.

ولقد أثبتت الدراسة أن التسرب العربى الإسلامى المتجه من مصر إلى سودان وادى النيل، دوافع ثلاث:

- ضغط من جانب حكام مصر.
- البحث عن الكلأ فى أقاليم النوبة الشاسعة.
- التجارة، وخاصة تجارة الذهب التى ذاعت شهرتها فى أرض البجة، وكانت هذه العوامل هى التى أدت إلى نشر الإسلام والثقافة العربية فى سودان وادى النيل.
- أما عن انتشار الإسلام، وفيما يتعلق بمصر فقد تضمنت معاهدة عمرو بن العاص مع المصريين ما نصه: "التعهد بتحقيق الأمان للمصريين على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم..

وقد اتسم الإسلام بالبساطة وعدم التعقيد، ولم يجعل للكهنوت سلطانا على المسلم، بل جعله متصلا بالله دون واسطة، واتسمت سيرة الفاتحين بالعدالة والرأفة والتسامح على خلاف ما شهده مسيحيو مصر فى أيام الحكم البيزنطى.

وتتابعت موجات الداخلين فى الإسلام من المسيحيين المصريين، وشهد النصف الأول من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى انتشارا واسعا للإسلام فى مصر، حتى إذا كانت إمارة أحمد بن طولون على مصر فى سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م، كان أكثر من مسيحى قد تحولوا إلى الإسلام، وصار المسلمون الأغلبية العظمى بين السكان وصار أهل الذمة أقلية قليلة، ومن ثم أخذت الصبغة الإسلامية تشكل المجتمع المصرى، وتطبعه بطابعها فى العادات والتقاليد وفى الحياة الاجتماعية بصفة عامة، وأكبر دليل على زيادة عدد المسلمين وتناقص عدد الذميين آنذاك، تضاؤل حصيلة الجزية، فلم تعد بابا أساسيا من أبواب الدخل فى مصر، منذ العصر الطولونى، إلى جانب اختفاء ثورات القبط التى كانت من مميزات عصر الولاة الأمويين والعباسيين.

وقد أتاحت عملية استضافة السكان القبط للمسلمين طبقا للشروط التى أقروا بها منذ البداية، وكذا ما كان من خروج العرب الى الريف للارتباع مما أتاح فرصا للاحتكاك والاختلاط بين الجانبين وقيام الدعاة بدورهم فى بث الدعوة ونشر الإسلام بين الأهالى.

على أن أهم عوامل تعريب وانتشار الإسلام هو توافد القبائل العربية واستقرارهم فى كثير من المدن والقرى واختلاطهم بالأقباط اختلاطا كبيرا، مما أدى إلى انتشار الإسلام واللغة العربية بين الأهالى وبالتالى تعريب البلاد.

وانتشار الإسلام فى سودان وادى النيل يرجع إلى هذا التيار المهاجر المنصرف صوب الجنوب، إذ بدأ يزداد عمقا وشدة بعد أن أصبحت أحوال مصر خاصة والعالم الإسلامي عامة لا تشجع العرب على الإقامة إنما تدفعهم صوب الجنوب دفعا.

ومن العوامل التى ساعدت على نشر الثقافة العربية القادمة من مصر الجاليات النوبية التى أقامت بمصر، معنى هذا أنه من بين عوامل اضمحلال ممالك النوبة ما يمكن أن نسميه بتبادل فى الجماعات والثقافات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية، فخرجت من النوبة جماعات نوبية التحقت بجيش مصر، ولفظت مصر بعض عناصر الشغب فيها، فى نظر ولاتها الأتراك؟، وهم جميعا من العرب المسلمين فانسابوا إلى النوبة، ثم اخذ هؤلاء يؤثرون تأثيرا بشريا وثقافيا فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة، على حين أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر لابد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام.

وتشير المصادر الإسلامية إلى بعض شخصيات نوبية اشتغلت بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد بن أبى حبيب أو ممن سلك طريق التصوف مثل ذى النون المصرى النوبى الأصل، وتحية النوبية، وليس من المستبعد أن يكون للعناصر النوبية التى ذكرناها اثر واضح فى نشر الإسلام بين أهليهم فى سودان وادى النيل.

لقد كان طبيعيا أن تنتشر لغة العرب بين المصريين وسودان وادى النيل وأن يتطور الأمر فتصبح اللغة العربية لغة رسمية ولغة حياة لتحل محل اللغات القديمة، وكان ذلك فى الواقع نتيجة لانتشار الإسلام بين شعبى وادى النيل.

والدليل على ان إرهاصات حركة التعريب بمصر قد بدأت منذ الفتح هو وجود برديتين عربيتين ترجعان إلى عام ٢٢هـ/٦٤٢م وتعتبر نموذجا حسنا لكتابات العربية المبكرة فهى تضم أغلب الحروف العربية بضروبها المختلفة.

على أن هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى ان حركة التعريب فى المجتمع المصرى لم تتعارض مع الاحتفاظ بالثقافات القديمة وبالأسماء القبطية.

وقد وصلت الينا أقدم وثيقة إسلامية متضمنة بعض أسماء من الصحابة الذين استقروا فى مصر، وهى وثيقة عبد الله بن لهيعة (٩٧-١٧٤هـ/٧١٥-٧٩٠م) وترجع أهمية هذه الوثيقة لأنها تحوى أسماء لأصحاب الرأى والحديث والثقافة التاريخية وغيرها فى الديار المصرية ابتداء من القرن الأول الهجرى إلى أوائل القرن الثالث الهجرى.

وفى هذه البردية نرى اسم الليث بن سعد (٩٤-١٧٥هـ/٧١٣-٧٩١م) وهو أمام الديار المصرية فى العلم والحديث.

كذلك تشير الوثيقة إلى عبد الله بن وهب (١٢٥-١٩٧هـ/٧٤٣-٨١٢م) ويرجع الفضل فى جمع التراث القديم المنسوب للصحابة والتابعين وتابعى التابعين إلى عبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك خاصة.

وازدهرت الحياة العلمية فى ظل المذاهب الإسلامية، وكان المذهبان المالكى والشافعى لهما السيادة فى مصر، ولم ينتشر المذهب الحنبلى فى مصر طوال عصر الولاة.

ومن الجوانب الفكرية التى شهدتها مصر ظهور علم التصوف على يد ذى النون المصرى، وهو أول من وضع الأسس الأولى للصوفية فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية.

كانت علوم اللسان العربى تنمو وتزدهر كلما تقدم انتشار اللغة العربية بمصر وظهر بالفسطاط من أبناء القبائل العربية التى استقرت بمصر شعراء صوروا بأشعارهم البيئة الاجتماعية.

وكانت المدرسة التاريخية حلقة متكاملة لتاريخ مصر الوطنى وكان التاريخ جانبا متمما للثقافة العربية الإسلامية وقد اتبعت الدراسات التاريخية المنهج العلمى العام، فنشأت الروايات التاريخية فى كنف الدراسات الدينية.

لقد أظهرت الثقافة العربية فى مصر تفوقها بهؤلاء العلماء الذين جعلوا من مصر الإسلامية منارا يهتدى إليه الكثير من العلماء الوافدين لكى تتوطن الثقافة العربية فى مصر، وتنتشر على نطاق أوسع بين أهل البلاد ومن ثم كان ظهور مدارس مصر الإسلامية، وتفوقها على جميع المدارس الإسلامية الأخرى.

وكان المسكن الإسلامى فى مصر فى الفترة التى تلت الفتح مباشرة يميل إلى البساطة وعدم الإسراف حتى ان دار عمرو نفسه وصفت بالدار الصغرى وكانت من الطوب اللبن.

إن المسلمين منذ أول العصر الإسلامى كانوا حريصين غاية الحرص على المحافظة على حرمات الناس داخل بيوتهم، وان المنازل لم تكن لها نوافذ أو شبابيك كبيرة تطل على الطرق والشوارع وذلك منذ بداية عصر الولاة.

كذلك كانت المنازل فى أول الأمر تتكون من طابق أرضى واحد، ثم أخذت تتعدد طوابقها فى نهاية عصر الولاة.

ومنذ بداية العصر الاموى (٣٨-١٣٢هـ/٦٥٨-٧٤٩م) نجد انه أصبح هناك ميل إلى الضخامة والفخامة وشيدت بعض الأبنية فى ذلك العصر بحيث بلغت من الكبر والزخرف حدا عظيما، بعد أن كان التقشف والاعتدال والبساطة سمة من سمات البناء بعد الفتح مباشرة، فنجد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد أضاف إلى الدار الصغرى السابقة التى بناها والده، أو بنى مكانها بمعنى أصح دارا كبيرة كانت تمتاز بالتأنق والاتساع فى أرجائها حتى سميت بالقصر.

أما بالنسبة لتصميم الدور والمنازل التى تعود إلى فترة عصر الولاة أنها كانت تبنى على نموذجين أساسين أحدهما شامى والآخر عراقى.

أما عن المسكن النوبى، كان بسيطا نظرا لحالتهم الاجتماعية، وكانت جميع مساكنهم عبارة عن أخصاص، وكذلك قصور ملوكهم، وقد تطورت نتيجة لوصول القبائل واستقراها بأن أصبحت تبنى من الطين، وبأعمدة رفيعة، وان كانت لم يسرق شكلها لليو الأفريقى الذى وصفها بأن "كل بيوتها قبيحة".

وقد تطور المسكن النوبى من البساطة فى البناء من كونه على شكل أخصاص إلى البناء بالحجارة أو الطوب اللبن طبقا لطبيعة كل منطقة، كما أن المسكن بشكله القديم كان لا يزال قائما فى بعض المناطق.

أما عن تطور الحياة الاجتماعية فى مصر بالنسبة للعرب المسلمين وخاصة فى تسجيل عقود الزواج منذ بداية القرن الأول الهجرى فان هناك بردية غير عربية ترجع إلى سنة ٩١هـ مدونة على ورق البردى تبدأ بالبسملة وهى مع غيرها من العقود تعطينا تصورا عن عدد الشهود على العقد وقيمة المهر، ويتضمن عدد غير قليل من عقود الزواج المدونة على ورق بردى بعض الشروط الخاصة لمصلحة الزوجة كأن تكون العصمة بيدها، وهو ما يعبر عنه الفقه بـ(تمليك المرأة أمرها)، كذلك حرية الزوجة فى التصرف فيما تملك وعدم تدخل الزوج فيما تتصرف فيه.

وعقود زواج الذميين سواء كانت مكتوبة باللغة المصرية أو بالإغريقية أو بالقبطية وحتى المكتوب منها بالعربية منذ دخول العرب فكلها تحمل طابعا واحدا ، ومن ذلك تضمنها لبعض الشروط وخاصة المالية.

أما تحول البجاة عن عاداتهم الوثنية فجاء نتيجة الاختلاط والانصهار مع العناصر العربية الوافدة ، وخاصة بعد أن هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولى، إذ كثر المسلمون فى كثير من المناطق، وخاصة مناطق المناجم، واختلطوا بالسكان وتزوجوا منهم وأسلم كثير من البجاه.

ونتيجة للصفات الطيبة للنوبيات تهافت أمراء مصر على اقتنائهن والتسرى بهن.

أما عن التسميات فى مصر الإسلامية، فواضح من دراسة الأوراق البردية أن الأسماء التى جاءت فى هذه الوثائق تشهد باحتفاظ اغلب المصريين بالأسماء القبطية أو بقايا المصرية القديمة أو بالأسماء المقتبسة من اليونانية والرومانية، بعكس شواهد القبور التى تغلب عليها الأسماء العربية ويعتقد أن السبب فى هذا أن الأوراق البردية التى وصلت إلينا ترجع إلى أماكن متفرقة فى الريف المصرى، ولاسيما مصر الوسطى والصعيد، أما شواهد القبور فمعظمها من جبانة الفسطاط والعسكر والقطائع حيث كان الأكثرية من العرب الوافدين على مصر او ممن تناسلوا عنهم.

كذلك دلت شواهد القبور فى سودان وادى النيل وخاصة منطقة مريس على كتابات مكتوبة بالخط العربى ، وتحمل أسماء عربية.

وقد استخدمت عادة الختان فى كل من مصر وسودان وادى النيل، وكان يقام لها الاحتفالات فى مصر ، وان كان النوبيون يمارسون الختان للأولاد والختان الفرعونى للبنات.

وقد أثبتت الدراسة أن العرب قد نقلوا معهم إلى مصر كثيرا من أنواع الملابس هذا بالإضافة إلى ما كانت تعرفه مصر من الثياب الملونة والعمائم والقلانس، وملابس النساء، اذ أشارت أوراق البردى إلى ذكر المناديل التنيسى، والجبب الخز الخضراء، هذا بالإضافة إلى ألبسة القدم وهى توضح ما بلغته مصر من تطور الملابس وصناعتها.

وقد لاحظ المؤرخون والرحالة الذين زاروا منطقة النوبة وأرض البجة أن ملابسهم بسيطة فى شكلها.

هذا وقد نقلت القبائل العربية المهاجرة إلى سودان وادى النيل أسلوبها فى الملبس، فهناك لباس عربى قح، كان يلبسه النوبيون المستعربون، وهذا اللباس

عبارة عن سروال جلدى مشقق إلى سيور ومن الملابس العربية فى النوبـــة والتـــى كانت ترتدية النساء ثياب بيضاء، إذا التأثير العربى فى النوبة واضح مـــن ناحيـــة الملبس.

كذلك تفنن العرب المسلمون فى المأكل والمشرب بنزولهم فى مصر، وتفـاعلوا مع العادات المصرية القديمة، بعد ما كان طعامهم الثريد، أخذوا يستطيبون الأطعمـة النباتية والحيوانية فى سائر أنحاء مصر.

وقد تبادل العرب المسلمين المنتجات الغذائية بين مصر وسودان وادى النيـــل وخاصة من التمر النوبى.

كما كان السكان جميعا فى مصر يشتركون فـــى مظـاهر اجتماعيـة عامـة يحبونها ويحتفلون بها وهى الأعياد والمواسم والاحتفالات، وقد أبقى المسلمون علـى احتفال القبط بأعيادهم الدينية، بل اشتركوا معهم فى الجانب الاجتماعى المسلى منـها كالاحتفال بعيد وفاء النيل وعيد الغطاس وغيرها.

كما كانت هناك إلى جانب اعياد القبط والمسلمين مناسبات أخرى تحتفل بـــها مصر، وتحاط بمظاهر الأبهة كالاحتفال برؤية هلال رمضان والاحتفال بفتح الخليج.

وأخيرا وسائل التسلية التى اشتركت فيها جميع عناصر المجتمـــع المصـــرى تنوعت بين متنزهات وسباق للخيل، وقيان ومغنون و مجالس للشعر.

وبعد فهذه صورة عن التطور الاجتماعى فى مصر الإسلامية وانعكاسه علـــى سودان وادى النيل فى فترة عصر الولاة.

ولعلي أكون قد وفقت فى إبرازها.

والله ولى التوفيق ،

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولا: الوثائــق :

أ - وثائق وبرديات غير منشورة (مرتبة حسب تاريخها):

١- عقد زواج إسلامي، مؤرخ في سنة ٩١هـ. متحف الفن الإســلامي بالقــاهرة، تحت رقم (٢٥٢٩٥) وهي ضمن مجموعة د. هنري أمين عوض.

٢- عقد شراء باسم عبيد الله بن بطرس الادفوي المشتري من النصر بن عبــد الله الزيات، مؤرخ ذي القعدة ٢٣٨هـ. متحف الفن الإســلامي بالقــاهرة، رقم (٩٨١٨).

٣- عقد شراء باسم علي بن عبد الله المشتري من ورثة بشنده بن عيسي الشــماس، مؤرخ شهر ربيع الأول ٢٤٦هـ. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقــم (٩٨١٧).

٤- عقد بيع عقار، مؤرخ في شهر صفر ٢٦٨هـ. متحف الفن الإســلامي بالقــاهرة، رقم (١٥٦٤٩).

٥- عقد زواج عبري بين شاب وفتاة يهودية. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقــم (٢٦٥٣٩).

ب- وثائق بردية منشورة:

٦- خطاب مرسل من والي مصر موسى بن كعب إلي .. صاحب مقرة ونوبة في سنة ١٤١هـ. متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، تحت رقم (٢٥٤٨٠) نشرها.

C.F: Martin.,: Studia Arabica of Islamica, American University of Beirut, 1981.

٧- عقد الزواج رقم ١٧٣٥/٤ تاريخ ، مجموعة دار الكتب المصرية.

٨- عقود رقم ١٢١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٧ . مجموعة دار الكتب المصرية.

٩- عقود بيــع أرقــام ١٧٩٢، ١٧٩٤، ١٧٩٦، ١٨٩٩، ١٩٠١، ١٩٠٣، ١٧٩٨، ١٧٩٧، مجموعة بردي دار الكتب المصرية بالقاهرة(١).

10- Balogh / Kahle.,: Two Coptic Documents Relating to Marriage, in Aegyptus, 1933, 1953.

11- L. Maceaull.,: Coptic Marriage Contract in, Actes du Xve Congres International de Papyrologic (Papyrologice Bruxellensia 17), 20 (Papyri inedits), 1979.

12- Carl Heinrich Becker.,: Papyri Schott - Reinhardt in der Universitats Pibliothek in Heidelberg. Heidelberg 1906, Arabische Papyri des Aphroditaf undea In: Zeitschrift fur Assyriologie, 1907.

13- David. Well.,: Le Djami (Ibn Wahb) Le Caire (Publications de L'Institut Francais d'Archeologie Orientale du Caire), 1939-1948.

14- Grohmann Adolf.,: Arabic Papyri in the Egyptian Library Vols. I (Cairo 1934), II (Cairo 1936), III (Cairo 1938), Vol. 4 (1962), Vol. 5 (1955), Vol. 6 (1974).

١٥- وقد نقلت إلى العربية بعنوان: "أوراق البردى العربية" الأجزاء ١-٦ جـ١ (١٩٣٤)، جـ٢ (١٩٣٦)، جـ٣ (١٩٣٨م)، جـ٤ (١٩٦٢م)، جـ٥ (١٩٦٨)، جـ٦ (١٩٧٤م)، طبعة دار الكتب المصرية.

16- Ra.if Georges Khaury.,: (I) Abd Allah Ibn Lahia Juge et grand maitre de L'Ecole Egyptienne. Avec edition de l'unique Rouleau de Papyrus Conserve a Heidelberg. Wiesbaden (Codices A,rabici Antiqui IV).

(II) (Wahb. B. Munabbih.

1: Der Heidelberger Papyrus Heid Arab 23" Leben und Werk des Dichters. Wiesbaden "Codices Arabici Antiqui " 1972.

(III) Al-Layth Ibn Saed (94/713-175/791), Grand Maitre et mecene de L'Egypte, Vu a. Travers quelques documents islamiques anciens. In Journal of' Near Eastern Studies. 1981, (Arabic and Islamic Studies in honor of' Nabia Abbott Part one).

١٧- وثائق دير سانت كاترين. رقم ٢٦٥ (وهي وثيقة بيع) "تاريخ الوثيقة ٨٩٥هـ" ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منقولة عن نسخة جامعة الإسكندرية.

ثانيا: المخطوطات :

١٨- ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) "كنز الدرر وجامع الغرر"، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ.

١٩- ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم ابن زولاق الليثى ت ٣٨٧هـ). "فضائل مصر وأخبارها وخواصها"، نسخة خطية بدار الكتب المصرية، برقم ٣٥٩١ تاريخ. منقولة عن نسخة خطية بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٦٩٩٣ تاريخ. "مختصر تاريخ مصر" ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٢٧١٧ تاريخ.

٢٠- ابن زين القاضى (أبو محمد عبد الله بن أحمد بن زين القاضى ق٩هـ). "شروط النصارى". مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٥٢ تاريخ.

٢١- ابن عبد السلام (شهاب الدين أحمد بن عبد السلام الشافعى ت٩٣١هـ/١٥٢٥م). "الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد" مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٩ تاريخ، ٦٦ جغرافيا.

٢٢- ابن النقاش (أبو أمامة محمد بن على. ت٧٧٣هـ). "المذمة فى استعمال أهل الذمة" مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٩٥٢ تاريخ.

٢٣- ابن وصيف (ابن وصيف شاه. ت٥٩٩هـ/١٢٠٣م). "جواهر البحور ووقائع الدهور" مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية- جامعة الدول العربية، ميكروفيلم رقم ٢٠٢ تاريخ.

٢٤- أبو الربيع (الأفضل أبو الربيع بن السيد أبو محمد بن الخليفة عمر عبد المؤمن بن على). "شيوخ ابن وهب وأخباره" ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٦٢١ تاريخ.

٢٥- بيبرس الدوادار (ركن الدين المنصورى المصرى. ت٧٢٥هـ/١٢٣٥م). "زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة" جـ٤ نسخة مصورة بجامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٧.

٢٦- الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله) "المقصد الرفيع المنشا الحاوى إلى صناعة الانشا" مخطوط مصور، جامعة القاهرة، رقم ٤٢٠٤٥.

٢٧- الذهبى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز. ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م). "تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام". مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٣٩٦ تاريخ.

٢٨- الكافيجى (الإمام محمد بن سليمان بن سعيد ابن مسعود الكافيجى الحنفى. ت٨٧٩هـ). مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٢٨ تاريخ.

٢٩- المقريزى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على المقريزى. ت٨٤٥هـ/ ١٤٤٥م). "المقفى فى تاريخ وتراجم أهل مصر والواردين عليها". مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم ٥٣٧٢ تاريخ. "السلوك لمعرفة دول الملوك" القسم الأول. مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٥٥.

ثالثا: المصادر المطبوعة:

٣٠ - "القرآن الكريم".

٣١- "الكتاب المقدس" (العهد القديم والعهد الجديد)

٣٢- ابن الاثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى. ت٦٣٠هـ) "الكامل فى التاريخ" الجزء الثانى، والخامس، القاهرة ١٣٤٩هـ. "أسد الغابة فى معرفة الصحابة" جـ٣، القاهرة ١٩٣٨م.

٣٣- ابن الاخوة (محمد بن أحمد القرشى. ت٧٢٩هـ/١٣٢٩م) "معالم القربة فى أحكام الحسبة" تحقيق محمد محمود شعبان، وآخرون: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

٣٤- ابن اسحق (محمد بن اسحق بن يسار بن جبار الأموى). "فتوح مصر وأعمالها" ط القاهرة ١٢٧٥هـ.

٣٥- ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد. ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م). "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" الجزء الأول- القسم الأول، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.

٣٦- ابن بطريق (أفيتشيوس المكنى سعيد بن بطريق. ت٣٢٨هـ) "التاريخ المجموع على التصديق والتحقيق". ط بيروت ١٩٠٩م.

٣٧- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى. ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م). "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" جـ١، ٢، ٣، ط الأولى، دار الكتب المصرية ١٩٢٩م.

٣٨- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى. ت٦١٤هـ/١٢١٧م) "رحلة ابن جبير" تحقيق حسين نصار، ط بيروت ١٩٦٤م. "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" ط ليدن ١٩٠٧م.

٣٩- ابن جماعة (بدر الدين بن إبراهيم ابن جماعة. ت٧٣٣هـ) "تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم" ط الهند ١٣٥٣هـ.

٤٠- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على الجوزى. ت٥٩٧هـ) "تلبيس ابليس" ط نهضة مصر، ١٩٢٨م. "أخبار الحمقى والمغفلين". بغداد، مطبعة البصرى ١٩٦٦م.

٤١- ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدرى الفاسى. ت٧٣٧هـ). "المدخل على الشرع الشريف" أربعة أجزاء، القاهرة ١٣٤٨هـ.

٤٢- ابن حجر العسقلانى (أحمد بن على. ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) "الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية فى مناقب سيدنا ومولانا الإمام الليث بن سعد". القاهرة، المطبعة الأميرية ١٣٠١هـ بولاق. "توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس" القاهرة بولاق ١٣٠١هـ. "تهذيب التهذيب" الهند ١٩٠٨م، ١٣٢٥هـ.

٤٣- ابن حوقل (أبو القاسم أحمد النصيبى ت٣٥٠هـ/٩٦١م) "كتاب صورة الأرض" القسم الأول الطبعة الثانية- ط ليدن عام ١٩٦٧م.

٤٤- ابن خرداذبه (أبو القاسم عبد الله بن عبد الملك المتوفى ٣٠٠هـ). "المسالك والممالك". ط ليدن ١٩٦٧م.

٤٥- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى. المتوفى ٨٠٨هـ/١٤٠٥هـ/١٤٠٦م) "المقدمة" القاهرة- المكتبة التجارية. "العبر وديوان المبتدأ والخبر" المجلد الأول ط الثالثة، المجلد الثانى، بيروت ١٩٦٦، ١٩٦٧م.

٤٦- ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم المتوفى ٦٨١هـ/١٢٨١م) "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان". حققه د.

إحسان عباس، المجلد الأول، بيروت لبنان ١٩٦٨م، المجلد الثانى، بيروت ١٩٦٩م، المجلد الثالث بيروت ١٩٧٠م المجلد الرابع بيروت ١٩٧٠م، المجلد الخامس بيروت ١٩٧٠م، المجلد السادس بيروت ١٩٧٠م، المجلد السابع بيروت ١٩٧٠م.

٤٧- ابن الدايه (أبو جعفر أحمد بن يوسف المتوفى ٣٣٠هـ/٩٤١م) "المكافأة" ط القاهرة ١٩٤١م. "سيرة ابن طولون" القاهرة ١٩٤١م.

٤٨- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أريدمر العلائى. ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) "الانتصار لواسطة عقد الامصار" جـ٤، جـ٥ ط الأميرية ١٣١٠هـ.

٤٩- ابن الراهب (أبو شاكر بطرس بن أبى الكرم المهذب) "تاريخ ابن الراهب" نشرة لويس شيخو. بيروت ١٩٠٣م.

٥٠- ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم. ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) "أخبار سيبويه المصرى" نشره محمد إبراهيم سعد وآخرون، ط الأولى، القاهرة، ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.

٥١- ابن الزيات (أبو عبد الله محمد ناصر الدين محمد بن عبد الله بن عمر. ت٨١٤هـ/١٤١١م). "الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى". القاهرة، المطبعة الأميرة بمصر ١٣٢٥هـ/١٩٥٧م.

٥٢- ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد- ت٢٣٠هـ/٨٤٥م) "الطبقات الكبرى" طبعة بيروت ١٩٠٨م.

٥٣- ابن سعيد الانطاكى (يحى الانطاكى ت٤٥٨هـ) "تاريخ أو (صلة تاريخ أو تيخا)" باريس ١٨٩٧م.

٥٤- ابن سعيد (على بن موسى المغربى (ت٦٧٣هـ/١٢٧٥م) "المغرب فى حلى المغرب" تحقيق زكى محمد حسن وآخرون، جـ١. كلية الآداب سنة ١٩٥٣م.

٥٥- ابن سلام (أبو عبيد القاسم ت٢٢٣هـ) "الأموال" القاهرة، بدون.

٥٦- ابن سيدة (أبو الحسن بن إسماعيل اللغوى الاندلسى ٤٥٨هـ) "المخصص" المكتب التجارى- بيروت بدون.

٥٧- ابن عابدين (محمد أمين الشهير بابن عابدين) "رسائل ابن عابدين" ط الاستانة ١٣٢٥هـ. الجزء الثانى.

٥٨- ابن عبد البر القرطبى (أبو عمر يوسف المتوفى ٤٦٣هـ) "الاستيعاب فى معرفة الأصحاب" تحقيق محمد البحراوى، مطبعة النهضة المصرية بالقاهرة الجزء الثالث، الثامن. "مختصر جامع بيان العلم وفضله" القاهرة، بدون.

٥٩ ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المتوفى ٢٥٧) "فتوح مصر وأخبارها" طبعة ليدن ١٩٢٠م.

٦٠- ابن عذارى (أبو العباسى أحمد المراكشى) "البيان المغرب فى أخبار المغرب" طبعة بروفنسال.

٦١- ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى) "تاريخ دمشق" ط روضة الشام ١٣٣٠ ، الجزء الأول.

٦٢- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد الصالحى ت١٠٨٩هـ/ ١٩٧٩م) "شذرات الذهب فى أخبار من ذهب" ٨ أجزاء - القاهرة ١٣٥٠-١٣٥١هـ.

٦٣- ابن العميد (المكين جرجس بن العميد بن أبى المكارم بن أبى الطيب ت٦٧٢هـ) "تاريخ المسلمين" ط ليدن ١٩٢٥م.

٦٤- ابن طلحه (أبو سالم محمد بن طلحة القرشى النصيبى الوزير ت سنة ٦٥٢هـ) "العقد الفريد للملك السعيد" ط القاهرة ١٣٠٦هـ.

٦٥- ابن ظهيرة (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين بن أبى بكر ت ٩٨٦هـ) "الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة" دار الكتب ١٩٦٩م.

٦٦- ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم ابن على بن محمد بن فرحون اليعمرى المدنى المالكى ت ٧٩٩هـ) "كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب" ط الأولى مصر ١٣٥١هـ.

٦٧- ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق الهمذانى ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) "مختصر كتاب البلدان" نشر دى غربة - مطبعة بريل ليدن ١٩٦٧م.

٦٨- ابن قتيبة (أبى محمد عبد الله بن مسلم المتوفى ٢١٣هـ/ ٨٢٨م أو ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) "المعارف" دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٦٠م "عيون الأخبار" القاهرة ١٩٢٥م، ١٩٣٠م الجزء الثانى.

٦٩- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر توفى سنة ٧٥١هـ) "أحكام أهل الذمة" نشره د. صبحى الصالح دمشق ١٩٦١م. "أعلام الموقعين عن رب العالمين" القاهرة ١٣٢٥هـ، الطبعة الثانية - مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥م. "فتاوى رسول الله" تحقيق مصطفى عاشور، ط القاهرة ١٩٨٠م. "حكم الإسلام فى الغناء" القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م "الفروسية" تحقيق عزت العطار، مؤسسة نشر الثقافة الإسلامية ط٢ الأنوار ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.

٧٠- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى المتوفى ٥٧٤هـ) "تفسير ابن كثير" ط بيروت ١٩٦٩م. "سيرة عمر بن عبد العزيز" القاهرة بدون "البداية والنهاية" جـ١٠، ط مصر ١٩٣٢م.

٧١- ابن ماجة (الحافظ أبو عبد الله القزوينى) "سنن ابن ماجة" (جزئين) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، ط بيروت ١٩٨٧م. الجزء الأول.

٧٢- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقى المصرى ت سنة ٧١١هـ) "أخبار أبى نواس" دار صادر بيوت بدون "لسان العوب" مطبعة الاستقامة. القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

٧٣- ابن نجيم (الشيخ زين الدين بن إبراهيم بن نجيم "الأشباه والنظائر على مذهب أبى حنيفة النعمان" القاهرة ١٢٩٨ هـ، الجزء الأول.

٧٤- ابن النديم (محمد بن اسحق - المتوفى ٣٨٣هـ) "الفهرست" القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى.

٧٥- ابن الوردى (زين الدين عمر. ت سنة ٧٥٠هـ) "تتمة المختصر فى أخبار البشر" إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدراوى المجلد الأول، دار المعرفة بيروت ١٩٧٠م.

٧٦- أبو الحسن على بن يوسف الحكيم "الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة" تحقيق د. حسين مؤنس، مدريد ١٩٦٠م.

٧٧- ابو صالح الارمنى (أبو المكارم جرجس بن مسعود ت أوائل القرن السابع الهجرى) "تاريخ كنائس وأديرة مصر" اكسفورد ١٨٩٥م.
٧٨- ابو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابى الفدا ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) "المختصر فى أخبار البشر" دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت بدون، المجلد الأول.
٧٩- أبو يوسف (صاحب أبى حنيفة ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) "كتاب الخراج" القاهرة ١٣٠٢هـ.
٨٠- الحافظ أبو نعيم (أحمد بن عبد الله الاصبهانى المتوفى ٤٣٠هـ) "حلية الأولياء وطبقات الاصفياء" ط الأولى القاهرة ١٣٥١-١٣٥٧هـ/ ١٩٣٢-١٩٣٨م.
٨١- الادريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس) "صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس" ط ليدن ١٨٦٤م.
٨٢- الادفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الادفوى ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م). "الطالع السعيد، الجامع لأسماء نجباء الصعيد" تحقيق سعد محمد حسن، ومراجعة د. طه الحاجرى الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة ١٩٦٦م.
٨٣- الاصفهانى (أبو الفرج - المتوفى سنة ٣٥٦هـ) "الاغانى" القاهرة (دار الكتب المصرية) (٢٢ جزءا) بدون.
٨٤- البخارى (محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٢٥٦هـ) "الجامع الصحيح" مطبعة دار الشعب ٩ أجزاء القاهرة ١٣٧٨. "فتوح البارى بشرح صحيح البخارى" ط الأولى - القاهرة ١٣٢٥هـ.
٨٥- البستانى "محيط المحيط" ط بيروت ١٨٦٩.
٨٦- البغدادى (عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف ت٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) "الأفادة والاعتبار فى الأمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. (القاهرة مطبعة المجلة الجديدة).
٨٧- البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحى بن جابر ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) "فتوح البلدان ط بيروت ١٩٧٨م، الجزء الأول. "أنساب الأشراف" الجزء

الأول، تحقيق د. محمد حميد الله معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م.
٨٨- البلوى (أحمد محمد عبد الله بن محمد المدينى ق الرابع الهجرى) "سيرة ابن طولون" تحقيق محمد كرد على، دمشق ١٩٤٠م.
٨٩- البيرونى (أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى ت ٤٤٠هـ) "الآثار الباقية عن القرون الخالية" ط سخاو.
٩٠- التونسى (محمد بن عمر التونسى ت ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م) "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" القاهرة ١٩٦٥م.
٩١- الثعالبى (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابورى المتوفى ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) "يتيمة الدهر" ٤ أجزاء - القاهرة ١٣٥٣هـ/١٩٤٧م. "اللطائف ومحاضرات الأوائل ومسامرات الأواخر" ط بولاق ١٨٨٣م.
٩٢- حاجى خليفة (المتوفى ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) "كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون" ٣ أجزاء. استنبول ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.
٩٣- الحميرى (محمد بن عبد المنعم) "الروض المعطار فى خبر الأقطار" تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥م.
٩٤- الدمشقى "محمد بن أبى طالب الانصارى ت ٧٢٧هـ/١٣٢٨م) "نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر" ط بطرسبرج ١٨٦٦م.
٩٥- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى ٧٤٨هـ/١٣٤٧م-١٣٤٨م) "تذكرة الحفاظ" ط حيدر آباد (الهند) ١٣٣٣هـ الجزء الأول. "سير أعلام النبلاء" القاهرة ١٩٦٢م الجزء الثالث. "العبر فى خبر من غبر" تحقيق فؤاد سيد، الكويت دائرة المطبوعات والنشر جـ١، ١٩٦٠م. "ميزان الاعتدال" القاهرة ١٣٢٥هـ. "تاريخ الإسلام" القاهرة ١٣٦٨ هـ، جزء أول.
٩٦- الزبيدى (أبو بكر بن الحسن) "طبقات النحويين واللغويين" القاهرة ١٩٥٤م.
٩٧- الزركلى (خير الدين الزركلى) "الإعلام" ط الثالثة، بيروت ١٩٦٩م.
٩٨- ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) "سير الآباء البطاركة" ط المعهد القبطى

جزء أول، م١ جـ١، م١ جـ٢ م٢ جـ١، م٢ جـ٢، م٢ جـ٣، م٣ جـ١، م٣ جـ٢ ط القاهرة ١٩٤٣، ١٩٤٨، ١٩٥٩، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

٩٩- السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) "طبقات الشافعية الكبرى" ٦ أجزاء القاهرة، المطبعة الحسينية ١٣٢٤هـ.

١٠٠- السخاوى (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢هـ) "التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة" تحقيق محمد حامد الفقى، القاهرة ١٩٥٧م، الجزء الثانى "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" القدس، مطبعة الترقى ١٣٤٩هـ.

١٠١- السلمى (أبو عبد الرحمن السلمى ت ٣٤٣ هـ) "طبقات الصوفية" ط الأولى، دار الكتاب العربى، مكتبة الخانجى بمصر ١٩٥٣م.

١٠٢- السمرقندى (علاء الدين السمرقندى ٥٣٩هـ) "تحفة الفقهاء" جـ٢، حققه محمد زكى عبد البر، ط الأولى، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

١٠٣- السمعانى (أبو سعيد عبد الكريم بن أبى بكر محمد المظفر المنصور بن محمد بن عبد الجبار التميمى ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) "كتاب الأنساب" ط ليدن سنة ١٩١٢م.

١٠٤- السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، المتوفى ٩١١هـ/١٥٠٥م) "طبقات الحفاظ" تحقيق على محمد عمر ط القاهرة ١٩٧٣م. "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" المطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٧هـ - جزءان. "تاريخ الخلفاء" القاهرة ١٩٦٩م، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد "الزهر فى علوم اللغة" جـ٢، القاهرة، بدون. "بغية الوعاه فى طبقات اللغويين والنحاه" القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

١٠٥- الشافعى (محمد بن إدريس الشافعى المتوفى ٢٠٤هـ بمصر) "الأم" الجزء الأول، ط بولاق ١٣٢١هـ.

١٠٦- الشعرانى (عبد الوهاب) "الطبقات الكبرى المسماه "بلواقح الأنوار فى طبقات الأخيار" القاهرة ١٢٩٦هـ.

١٠٧- الشوكانى (محمد بن على بن محمد) "فتوح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير" بيروت (خمس مجلدات) "نيل الاوطار من أحاديث سيد الأخيار" ط بيروت ١٩٧٣م، الجزء الخامس.
١٠٨- الشيرازى (أبو اسحق إبراهيم بن على المتوفى ٤٧٦هـ) "طبقات الفقهاء" بغداد، المكتبة العربية ١٣٥٦هـ.
١٠٩- الصابئ (أبو الحسين هلال) "رسوم دار الخلافة" عنى بتحقيقه والتعليق عليه ميخائيل عواد، مطبعة العانى بغداد ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
١١٠- الصنعانى (محمد بن إسماعيل) "سبل السلام" جـ٣، ط الرياض ١٩٧٧م.
١١١- طاش كبرى زاده (أحمد بن مصطفى) "مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم" ثلاث أجزاء، مراجعة وتحقيق كامل بكرى، عبد الوهاب أبو النور القاهرة دار الكتب الحديثة - مطبعة الاستقلال الكبرى.
١١٢- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) "تاريخ الأمم والملوك" الأجزاء ٢، ٣، ٧ القاهرة ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.
١١٣- عبد الله بن عبد الحكم (أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى ٢٠٤هـ) "سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك ابن انس برواية ابنه محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى ٢٦٨هـ" القاهرة ١٩٥٤م.
١١٤- العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله المتوفى ٧٤٢هـ) "مسالك الابصار فى ممالك الامصار" جـ١، جـ٢ القاهرة - دار الكتب المصرية ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م.
١١٥- عياض (القاضى عياض بن موسى بن عياض المالكى المتوفى ٥٤٤هـ) "ترتيب المدارك وتقريب المسالك" الجزء الأول، الثالث والرابع ط الرباط.
١١٦- الغزالى (الأمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى ٥٠٥هـ) "أحياء علوم الدين" جـ١، ٢، ٣، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٣٥٦هـ.
١١٧- الغزولى (علاء الدين) "مطالع البدور فى منازل السرور" ط الأولى مصر ١٢٥٩/١٣٠٠هـ.

١١٨- قدامة بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ت ٣٣٧هـ/٩٤٩م) "الخراج وصناعة الكتابة" العراق ١٩٨١م.
١١٩- القزوينى (زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) "آثار البلاد وأخبار العباد" بيروت ١٩٦٠م.
١٢٠- القفطى (جمال الدين على بن محمد بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب ت ٦٤٦هـ). "أخبار العلماء بأخبار الحكماء" بغداد مكتبة المثنى. "أنباء الرواه على أنباه النحاه" القاهرة مطبعة دار الكتب ١٩٥٠م.
١٢١- القلقشندى (الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى ت ٨٢٣هـ/١٤١٨م) "صبح الاعشى فى صناعة الانشا" ١٤ جزءا، القاهرة ١٩٦٣م "قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان" تحقيق إبراهيم الابيارى، ط الأولى ١٩٦٣م.
١٢٢- الكندى (أبو عمر محمد ابن يوسف الكندى المصرى ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) "كتاب الولاة والقضاة" ط بيروت ١٩٠٨م. "ولاة مصر" بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
١٢٣- ليو الأفريقى (الحسن بن محمد الوزان الزياتى ت ٩٤٤هـ) "وصف أفريقيا" ترجمة من الفرنسية للعربية د. عبد الرحمن حميده وراجعه د. على عبد الواحد، المملكة العربية السعودية، الرياض ١٣٩٩هـ.
١٢٤- مالك (الأمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر ت ١٧٩هـ) "الموطأ" تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار أحياء الكتب العربية ١٣٧٠هـ.
١٢٥- الماوردى (أبو حسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى) "الأحكام السلطانية" الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٧٣م.
١٢٦- المرتضى (أحمد بن يحى المرتضى المتوفى ٨٤٠هـ) "كتاب البحر الزخار الجامع علماء الامصار" تحقيق محمد بن يحى مهران، مكتبة الخانجى مصر ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م، الجزء الثانى.
١٢٧- المسعوى (أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ-٩٥٦م) "مروج الذهب ومعادن الجوهر" أربعة أجزاء. ط.بيروت ١٩٧٣م "التنبيه والإشراف" تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوى مكتبة الشرق الإسلامية مصر ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

١٢٨- المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى المعروف بالبشارى ت٣٨٨هـ/٩٩٧م) "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" نشر دى غوية طبعة ابريل، ليدن ١٩٦٧م.
١٢٩- المقدسى الحنبلى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح) "الآداب الشرعية والمنح المرعية" ط المعانى مصر ١٣٤٨هـ، الجزء الثانى.
١٣٠- المقدسى (مطهر بن طاهر المقدسى ت ٣٥٥هـ) "البدء والتاريخ" الجزء الرابع، مكتبة المثنى بغداد، مؤسسة الخانجى بمصر، طبع فى مدينة شالون بمطبعة باريس ١٩٠٧م.
١٣١- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المتوفى ٨٤٥هـ) "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" طبعة بيروت، جزءان. "البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب" تحقيق د. عبد المجيد عابدين - القاهرة ١٩٦١م. "النقود الإسلامية" ط النجف ١٩٦٧م. "القول الابريزى للعلامة المقريزى" طبع جمعية التوفيق مصر الفجالة ١٨٩٨م. "الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك" تحقيق د. جمال الدين الشيال. الناشر مكتبة الخانجى بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥م.
١٣١- ناصر خسرو (ناصر خسرو علوى الفارسى الأصل ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م) "سفرنامة" نقله للعربية د. يحى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م. الطبعة الأولى.
١٣٣- النووى (محى الدين شرف - المتوفى ٦٧٦هـ) "تهذيب الأسماء واللغات" القسم الأول، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة "مختصر كتاب رياض الصالحين"
مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة ١٩٨٦م،
١٣٤- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٨٣٣هـ) "نهاية الأرب فى فنون الأدب" الأجزاء ١-٢٧، ط دار الكتب بدون.
١٣٥- الهمذانى (بديع الزمان ت ٣٩٨هـ) "المقامات" شرح محمد عبده - المطبعة الكاثوليكية بيروت - لبنان.

١٣٦- الواقدى (محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م) "فتوح الشام" جزءان. المطبعـة العثمانية ١٣١٥هـ. "فتوح مصر والإسكندرية" ط ليدن ١٧٢٥م.
١٣٧- ياقوت الحمـوى (شـهاب الديـن أبـو عبـد الله الحمـوى الرومـى ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) "معجم البلدان" أربعة أجـزاء. ط بـيروت ١٩٥٥م.
"معجم الأدباء" عشرين جزء، القاهرة ١٩٣٨م.
١٣٨- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضـح ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) "تـاريخ اليعقوبى" ٢ جزء، ط ليدن ١٨٨٣، "البلدان" ليدن ١٨٩١م.
١٣٩- يوحنا النقيوسى (ت أواخر القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى "تاريخ".
140- La Chronique de Jean, éveque de Nikiou, Notice et extraits par M.H. Zatenberg. Pairs 1889.
141- La Chronique de Michel, Le Syrien, T. 2, Fasc 3, et T. 3, Fasc 1, Pairs, 1904.

رابعا: المراجع العربية الحديثة :

١٤٢- إبراهيم أحمد العدوى (دكتور) "التاريخ الإسلامى آفاقه السياسـية وأبعـاده الحضارية" مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٦م. "ابن عبد الحكـم رائد المؤرخين العرب" الأنجلو ١٩٦٣م.
١٤٣- إبراهيم نصحى (دكتور) "مصر فى عصر البطالمـة" جـ٢، ط الرابعـة الأنجلو ١٩٧٦م.
١٤٤- أحمد أمين "فجر الإسلام" جـ١، القاهرة ١٩٦٥.
١٤٥- أحمد بدوى (دكتور) "فى موكب الشمس" جزء أول، مطبعة لجنـة التـأليف والنشر، ط٢، ١٩٥٥م.
١٤٦- أحمد تيمور "نظرة تاريخية فـى حـدوث المذاهـب الأربعـة" ط القـاهرة ١٣٥١هـ.
١٤٧- أحمد شلبى (دكتور) "تاريخ التربية الإسلامية" بيروت ١٩٥٤م.
١٤٨- أحمد عبد الحميد الشامى (دكتور) "تاريخ العرب والإسلام الطبعـة الثانيـة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٢.
١٤٩- أحمد فهمى أبو سنة "العرف والعادة فى رأى الفقهاء" مصر ١٩٤٧م.

١٥٠- أحمد مختار عمر (دكتور) "تاريخ اللغة العربية في مصر" القاهرة ١٩٧٠م.
١٥١- أسد رستم (دكتور) "حرب فى الكنائس" بيروت ١٩٦٨م.
١٥٢- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) "تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى وحتى الفتح العثمانى" ط الأولى مصر، ١٩٦١م "تاريخ الدولة العربية" الإسكندرية ١٩٨٤م.
١٥٣- ايزيس حبيب المصرى "قصة الكنيسة القبطية " جـ٢، القاهرة ١٩٦٥م.
١٥٤- الشاطر بصيلى (دكتور) "معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى" القاهرة ١٩٥٥م "تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر للميلاد" القاهرة ١٩٧٢م.
١٥٥- البراموسى (الراهب) "حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك" الجزء الأول. القاهرة، بدون.
١٥٦- بطرس الجميل (الأنبا) "كتاب السنكسار" "الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين" جزءان وضعه: الأنباء بطرس الجميل- اسقف مليج،، والأنبا ميخائيل أسقف أتريب، والأنبا يوحنا أسقف البرلس وغيرهم. ط القاهرة ١٩٦٨.
١٥٧- تقارير: "تقرير مصلحة الآثار عن آثار بلاد النوبة المهددة بالغرق لمناسبة مشروع السد العالى" القاهرة ١٩٥٥م.
١٥٨- جمال الدين الشيال (دكتور) "تاريخ مصر الإسلامية" جـ١، ط دار المعارف ١٩٦٧م.
١٥٩- جرجى زيدان "تاريخ التمدن الإسلامى" جـ٣ القاهرة ١٩٣٥، جـ٤ القاهرة ١٩٠٨، جـ٥ القاهرة بدون "تاريخ آداب اللغة العربية" الأجزاء ١: ٣ القاهرة ١٩٣٧م.
١٦٠- جورجى صبحى "قواعد اللغة المصرية القبطية" ط المعهد العلمى الفرنسى، القاهرة ١٩٢٥م.
١٦١- حسن إبراهيم حسن (دكتور) "تاريخ الإسلام السياسى" الجزء الأول والثانى والثالث، ط القاهرة ١٩٣٥. "انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، ط الثالثة ١٩٨٤م.

١٦٢- حسن أحمد محمود (دكتور) "حضارة مصر الإسلامية "العصر الطولوني" ١٩٦٠م. "الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا" الجزء الأول مطبعة لجنة البيان العربى. دار النهضة العربية ١٩٦٣م. "العالم الإسلامى فى العصر العباسى طبعة أولى، دار الفكر القاهرة سنة ١٩٦٦م.
١٦٣- حسن رجب (دكتور) "البردى" دار المعارف القاهرة ١٩٨١م.
١٦٤- حسن ظاظا (دكتور) "الفكر الدينى الإسرائيلى "اطواره ومذاهبه القاهرة سنة ١٩٧١م.
١٦٥- حسن كمال (دكتور) "الطب المصرى القديم" الجزء ٣، ٤، المجلد الثانى ١٩٦٤م.
١٦٦- حسنين محمد ربيع (دكتور) "وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى" جـ٢، ط الرياض ١٩٧٩.
١٦٧- حسين مؤنس (دكتور) "أطلس تاريخ الإسلام" الزهراء للإعلام العرب القاهرة ١٩٨٧م.
١٦٨- حفنى ناصف "تاريخ الأدب العربى" جـ٢، مطبعة الجريدة بسراى البارودى بمصر، بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
١٦٩- حكيم أمين "دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية" القاهرة ١٩٦٣م.
١٧٠ - "دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول.
١٧١- رؤوف حبيب (دكتور) "دليل المتحف القبطى" القاهرة ١٩٦٦م.
١٧٢- راشد البراوى (دكتور) "حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين" القاهرة ١٩٤٨م.
١٧٣- رضا كحالة "معجم قبائل العرب" دمشق ١٩٤٩، ثلاث أجزاء.
١٧٤- زبيده عطا (دكتورة) "إقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى" الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.
١٧٥- زكى شنودة "موسوعة تاريخ الأقباط" الجزء الأول والجزء الثانى الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

١٧٦- زكى محمد حسن (دكتور) "مصر والحضارة الإسلامية" القاهرة ١٩٤٢م "الفن الإسلامى فى مصر" جـ١، القاهرة ١٩٣٥م.
١٧٧- زهدى يكن "الزواج ومقارنته بقوانين العالم" طبعة ثانية، منشورات المكتبة العصرية بيروت ١٩٥٢م.
١٧٨- سعاد ماهر (دكتورة) "البحرية فى مصر الإسلامية" دار الكتاب العربى ١٩٦٧م. "مخلفات الرسول فى المسجد الحسينى" دار مطابع الشعب، القاهرة ١٩٦٥م.
١٧٩- سعد الخادم "تاريخ الأزياء الشعبية فى مصر" دار المعارف ١٩٥٩م. "الفن الشعبى والمعتقدات الشعبية" النهضة المصرية ١٩٦٢م.
١٨٠- سعد زغلول (دكتور) "تاريخ الإسكندرية من الفتح الإسلامى إلى بداية العصر الفاطمى" من كتاب تاريخ الإسكندرية وحضارتها "منذ أقدم العصور" ١٩٦٣م.
١٨١- سليم حسن (دكتور) "مصر القديمة الجزء الثانى، ط دار الكتب ١٩٤٧م.
١٨٢- سيد أمير على "تاريخ العرب والتمدن الإسلامى القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨.
١٨٣- سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة) "مصر فى فجر الإسلام" دار الفكر العربى ١٩٤٧. "مصر فى عصر الولاة" القاهرة سلسلة الألف كتاب. "مصر فى عصر الإخشيديين" ط الثانية، القاهرة ١٩٧٠م. "مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين القاهرة ١٩٦٠م دراسات فى المجتمع المصرى الإسلامى قبل العصر الفاطمى" مستخرج من دراسات اثارية إسلامية، المجلد الثانى ١٩٨٠م. "عبد العزيز بن مروان القاهرة ١٩٦٧م. "الوليد بن عبد الملك" القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٢م.
١٨٤- شحاتة عيسى إبراهيم "القاهرة" الألف كتاب، دار الهلال.
١٨٥- شكرى فيصل "حركة الفتح الإسلامى فى القرون الأولى" بيروت ١٩٥٢م.
١٨٦- شوقى ضيف (دكتور) "المدارس النحوية" القاهرة ١٩٦٨م.
١٨٧- شوقى عطا الله الجمل (دكتور) "تاريخ سودان وادى النيل" الجزء الأول، ط الأنجلو ١٩٦٩م.

١٨٨- شيخو (لويس) "المخطوطات العربية لكتبة النصرانية" بيروت سنة ١٩٢٤م.
١٨٩- صفاء حافظ عبد الفتاح (دكتورة) "الموانى" والثغور المصريـة" دار الفكر العربى، الكويت ١٩٨٦م.
١٩٠- صلاح الدين المنجد (دكتور) "دراسات فى تاريخ الخط العربى منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموى" ط الأولى، بيروت ١٩٧٢م.
١٩١- ضياء الدين الريس (دكتور) "الخراج والنظم المالية" الطبعة الثانية الأنجلو ١٩٦١م.
١٩٢- عبد الحميد يونس "الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى" جامعة القاهرة ١٩٥٦م.
١٩٣- عبد الرحمن زكى(دكتور) "القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد حتى الجبرتى المؤرخ" الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦. الحلى فى التاريخ والفن والإرشاد" القاهرة ١٩٦٥م.
١٩٤- عبد السلام الترمانينى (دكتور) "الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام" دراسة مقارنة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكويت (عالم المعرفة) ١٩٨٤م.
١٩٥- عبد اللطيف أحمد على (دكتور) "مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية" دار النهضة العربية ١٩٦٥م.
١٩٦- عبد الله حسين (دكتور) "السودان" الجزء الأول، القاهرة ١٩٣٥.
١٩٧- عبد الله خورشيد (دكتور) "القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة" دار الكاتب العربى ١٩٦٧م.
١٩٨- عبد العزيز الدورى (دكتور) "تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى" بغداد ١٩٤٨.
١٩٩- عبد العزيز صالح (دكتور) "التربية والتعليم فى مصر القديمة" ط القاهرة ١٩٦٦م. "الشرق الأدنى القديم" جـ١، القاهرة ١٩٦٧م.
٢٠٠- عبد المجيد عابدين (دكتور) "البيان والأعراب للمقريزى" (تحقيق) عالم الكتب، القاهرة ١٩٦١م. "نظرية عامة فى تاريخ تعريب السودان" الخرطوم ١٩٥٩م. "تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها إلى

العصر الحديث" الطبعة الأولى أول يونيو ١٩٥٣م. "دراسات سودانية" مجموعة مقالات فى الأدب والتاريخ.

٢٠١- عبد المنعم ماجد (دكتور) "العصر العباسى الأول" (التاريخ السياسى) ط مكتبة الأنجلو ١٩٧٣، الجزء الأول. "تاريخ الدولة العربية" جـ١، ط الرابعة. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م. "مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى" ط الثالثة، الأنجلو المصرية ١٩٧١ "الحاكم بأمر الله" القاهرة ١٩٥٩. "ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر" مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨م.

٢٠٢- عطية القوصى (دكتور) "اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٧٨م.

٢٠٣- عطية القوصى (دكتور) "تاريخ دولة الكنوز الإسلامية" القاهرة ١٩٨١م.

٢٠٤- على حسنى الخربوطلى (دكتور) "الإسلام وأهل الذمة، القاهرة ١٩٦٩م. "الحضارة العربية والإسلامية" القاهرة ١٩٦٢م.

٢٠٥- على زين العابدين "المصاغ الشعبى فى مصر" القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

٢٠٦- على عبد الواحد وافى (دكتور) "الحقوق الإنسانية فى الإسلام" ط٥، القاهرة ١٩٧٩.

٢٠٧- فتحى عثمان (دكتور) "مع المسيح فى الأناجيل الأربعة" الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦م.

٢٠٨- فريد شافعى (دكتور) "العمارة العربية الإسلامية فى عصر الولاة" القاهرة ١٩٧٠م.

٢٠٩- فنسنك "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى" القاهرة ١٣٦٤هـ.

٢١٠- قاسم عبده قاسم (دكتور) "أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى دراسة وثائقية" دار المعارف ١٩٧٩م. "اليهود فى مصر من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى" دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٩٨٧م. "النيل والمجتمع المصرى" دار المعارف، ط الأولى ١٩٧٨م.

٢١١- كمال صالح البنا "قوانين الإجراءات فى مسائل الأحوال الشخصية" مصـر ١٩٥٨م.

٢١٢- محمد جمال الدين سرور (دكتور) "الحياة السياسـية فـى الدولـة العربيـة الإسلامية" القاهرة ١٩٧٩م.

٢١٣- محمد الخضرى "نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين" ط القاهرة ١٩٦٧م.

٢١٤- محمد رمزى "القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م".

القسم الأول: البلاد المندثرة، دار الكتب ١٩٥٣: ١٩٥٤م.

القسم الثانى: البلاد الحالية، دار الكتب ١٩٥٤: ١٩٥٥م. القسـم الثـانى، جـ٤، دار الكتب ١٩٦٣م.

٢١٥- محمد السفارينى الحنبلى "ثلاثيات مسند الأمام أحمد" ط الأولى ١٣٨٠هـ دمشق، الجزء الأول.

٢١٦- محمد السيد غلاب (دكتور) "تطـور الجنـس البشـرى" مكتبـة الأنجلـو المصرية، ط السادسة ١٩٨١م.

٢١٧- محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) "الفن الإسلامى - المنسوجات الأثريـة" بغداد ١٩٦٥م.

٢١٨- محمد عزة دروزه "عروبة مصر" بيروت ١٩٦٣م.

٢١٩- محمد عوض محمد (دكتور) "السودان الشمالى، سكانه وقبائله" لجنة التـأليف والترجمة. "الشعوب والسلالات الأفريقية" الـدار المصريـة للتـأليف والترجمة ١٩٦٥. "نهر النيل" الطبعة الأولى.

٢٢٠- محمد غيطاس (دكتور) "أضواء جديدة على تـاريخ النوبـة الإسـكندرية، ١٩٨٧م.

٢٢١- محمد كامل حسين "أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة" الناشر دار الفكـر العربى، بدون.

٢٢٢- محمد محمد أمين (دكتور) "تطور العلاقات العربية فى العصور الوسـطى" معهد الدراسات العربية ١٩٧٧م.

٢٢٣- محمد مصطفى الماحى (دكتور) "شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيـام الدولة الفاطمية الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

٢٢٤- محمود عكوش (دكتور) "مصر فى عهد الإسلام خواطر فى تاريخها ونبذ عن آثارها" القاهرة، ط دار الكتب المصرية ١٩٤١م.
٢٢٥- محمود مصطفى (دكتور) "الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى". دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م.
٢٢٦- مراد فرج "القراءون والربانون" القاهرة ١٩١٨م.
٢٢٧- مراد كامل (دكتور) "حضارة مصر فى العصر القبطى" القاهرة، بدون. "القبط فى ركب الحضارة العالمية" مطبوعات جمعية مار مينا العجايبى بالإسكندرية بدون.
٢٢٨- مصطفى طه بدر (دكتور) "مصر الإسلامية" الطبعة الثانية ١٩٥٩م الجزء الأول.
٢٢٩- مصطفى كمال عبد العليم (دكتور) "اليهود فى عصرى البطالمة والرومان" القاهرة ١٩٦٨م.
٢٣٠- مصطفى مسعد (دكتور) "الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى" بحوث فى تاريخ السودان وحضارته حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادى. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٠م. "المكتبة السودانية العربية" مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان فى العصور الوسطى. مكتبة الأنجلو المصرية، ط الأولى ١٩٧٢ مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم.
٢٣١- مكى شبيكة (دكتور) "السودان عبر القرون" دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٦٤م.
٢٣٢- منسى القمص الشماس "تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٢٤م.
٢٣٣- والفنسون اسرائيل (دكتور) "تاريخ اللغات السامية" الطبعة الأولى، مطبعة الاعتماد ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.
٢٣٤- وزارة الشئون الاجتماعية "النوبة حاضرها ومستقبلها" القاهرة ١٩٦٤م.
٢٣٥- وليم نظير (دكتور) "الثروة النباتية عند قدماء المصريين" الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
٢٣٦- يس عبد المسيح "اللهجات القبطية وآثارها الأدبية" بحث منشور فى كتاب صفحة من تاريخ القبط مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى بالإسكندرية ١٩٥٤م.

٢٣٧- يوحنا سلامة (القمص) "اللآلئ النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة" جـ١، ط٣، مصر ١٩٦٥م.

خامسا: المراجع الإفرنجية المترجمة إلى العربية :

٢٣٨- ارنولد (توماس) "الدعوة إلى الإسلام" تعريب: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠م.

٢٣٩- أوليفر (رولاند) "موجز تاريخ أفريقية" ترجمة دولت أحمد صادق. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م ص٧٨.

٢٤٠- ايتكنهاوزن (رتشارد) "فن التصوير عند العرب" ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتى، وزارة الإعلام- بغداد ١٩٧٣م.

٢٤١- بتشر (أ.د) "تاريخ الأمة القبطية وكنيستها" ثلاث أجزاء. ترجمة اسكندر تادرس، القاهرة ١٩٥٠م.

٢٤٢- بتلر (الفرد. ج) "فتوح العرب لمصر" تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٤٦م.

٢٤٣- بروكلمان (كارل) "تاريخ الأدب العربى". الأجزاء ١: ٤ تعريب د. عبد الحليم النجار وآخرون. القاهرة ١٩٦٢م.

٢٤٤- بوركهارت (جون لويس) "رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان" ترجمة فؤاد اندروس، حقق أعلامه الشاطر بصيلى نشر مطبعة المعرفة ١٩٥٩م.

٢٤٥- بينز (نورمان) "الإمبراطورية البيزنطية" ترجمة د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠م.

٢٤٦- (أ.س) "أهل الذمة فى الإسلام" تعريب دكتور حسن حبشى، دار المعارف ١٩٦٧م.

٢٤٧- جاستون فييت "القاهرة مدينة الفن والتجارة" تعريب الدكتور مصطفى العبادى- نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت- نيويورك ١٩٦٨م.

٢٤٨- جوايتاين (س.د) "دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية" تعريب وتحقيق د. عطية القوصى، الكويت ١٩٨٠م.
٢٤٩- دوزى (رينهارت) "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" ترجمة د. أكرم فاضل، بغداد ١٩٧١م.
٢٥٠- دىُ كاسترى "الإسلام خواطر وسوانح" ترجمة أحمد فتحي زغلول- القاهرة ١٣١٥هـ/١٨٩٨م.
٢٥١- دينيت (دانييل) "الجزية والإسلام" ترجمة د. فوزى فهمى فهيم، بيروت ١٩٦٠م.
٢٥٢- سليجمان "السلالات فى أفريقيا" ترجمة يوسف خليل، مكتبة العالم العربى ١٩٥٩م.
٢٥٣- على بهجت "حفريات الفسطاط" ألفه ونشره باللغة الفرنسية على بهجت، البيرجبرييل، نقله للعربية على بهجت، محمود عكوش، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٨م.
٢٥٤- لويس (ارشيبالد) "القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط" نقله للعربية أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م.
٢٥٥- متز (آدم) "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى" جزءان ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، القاهرة ١٩٤٧.
٢٥٦- موس (هـ) "ميلاد العصور الوسطى" ترجمة عبد العزيز توفيق، ط القاهرة ١٩٦٧م.
٢٥٧- نيكلسون (رينولد) "فى التصوف الإسلامى وتاريخه" تعريب د. أبو العلا عفيفى. القاهرة ١٩٤٧م-١٩٥٦م.
٢٥٨- هسى (ج م) "العالم البيزنطى" ترجمة د. رأفت عبد الحميد. الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧م.

سادسا: الدوريات والبحوث :

٢٥٩- احمد عبد الحميد الشامى (دكتور) "أوراق البردى العربى" مجلة المؤرخ العربى، العدد التاسع، بغداد، ص١٢٩.

٢٦٠- توفيق سلطان (دكتور) "التعريب فى العصرين الأموى والعباسى" الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الرابع والعشرون ١٩٧٧م.
٢٦١- جمال الدين الشيال (دكتور) "الفسطاط" كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد ١٢، سنة ١٩٥٨.
٢٦٢- جمال محرز (دكتور) "منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط" ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٦٩م، جـ١، ط دار الكتب ١٩٧٠م.
٢٦٣- سعاد ماهر (دكتورة) "محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى"، أشرف على أصدرها محمد توفيق عويضة، المجلد ٢١، العدد الأول ١٩٥٩م. مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة.
٢٦٤- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) "الإسلام والتعريب" مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر العدد الثانى، سنة ١٩٧٩م.
٢٦٥- سكانلون (جورج) "إعادة النظر فى المعالم الآثرية" بحث مقدم ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة. جـ١، مطبعة دار الكتاب ١٩٧٠م.
٢٦٦- سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة) "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية" مجلة كلية الآداب، المجلدان ٩، ١٠، ١٩٦٠م، ١٩٦٢م.
٢٦٧- شفيق علام (دكتور) "الزواج فى مصر القديمة" مجلة مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس ديسمبر ١٩٨١.
٢٦٨- عبد الرحمن زكى (دكتور) "خطط الفسطاط، فيما كتبه عبد الرحمن بن عبد الحكم "مقال بالمجلة التاريخية (دراسات عن ابن عبد الحكم، إعداد مجموعة من الأساتذة، المكتبة العربية، القاهرة ١٩٧٥م.
٢٦٩- عبد المجيد عابدين (دكتور) "سيلاد سوبا" مجلة الجمعية التاريخية السودانية، المجلد الأول، الجزء الثانى.
٢٧٠- عبد المنعم ماجد (دكتور) "علم البردى العربى لأول مرة" بحث منشور فى ندوة الدراسات البردية، جامعة عين شمس ١٩٨٢م. "النيل فى رسوم الدولة الفاطمية فى مصر" بحث منشور فى ندوة حوض النيل، يناير ١٩٨٧م.

٢٧١- محمد عبد العال أحمد (دكتور) "النوبة والمحالاوت الإسلامية لفتحها فيما بين عامى (٢٠-٣١هـ/ ٦٤١-٦٥٢م)" مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية. المجلد ٣٣، ١٩٨٤م، ١٩٨٥م. "الإسلام فى غرب القارة الأفريقية جذوره الأولى ووسائل انتشاره" معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٦م.

٢٧٢- محمد عمر بشير (دكتور) "تدفق الهجرات العربية للسودان" مجلة الدراسات السودانية، العدد الأول، مجلد السابع.

٢٧٣- مصطفى جواد "مجلة التراث الشعبى"، "أزياء العرب الشعبية"، العدد الثامن ١٩٦٢م.

٢٧٤- مصطفى العبادى (دكتور) "ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربى" المجلة التاريخية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.

٢٧٥- مصطفى مسعد (دكتور) "البجة والعرب فى العصور الوسطى" مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد الحادى والعشرين، جـ٢، ديسمبر ١٩٥٩م. "مملكة علوه" المجلة التاريخية المصرية، العدد الثامن ١٩٥٩م. "معاهدة البقط نمط فريد فى مجال العلاقات الدولية فى الإسلام"، بحوث فى مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية- جامعة الإمام محمد بن سعود- العدد الخامس ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

سابعا: الرسائل الجامعية:

٢٧٦- عبد الرحمن العبيد عبد الماجد "تنوير الغبش فى فضل السودان والحبش" تصنيف الشيخ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على الجوزى، تحقيق عبد الرحمن العبيد، إشراف أ.د. حسن أحمد محمود، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٢٧٧- عطية القوصى (دكتور) "بنو الكنز" رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٠م.

٢٧٨- محمد حمزة إسماعيل "قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك" رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٨٧م.

٢٧٩- محمد الصغير "البردى واللوتس فى الحضارة المصريـــة القديمـــة" رســـالة ماجستير، جامعة القاهرة.
٢٨٠- محمود الحسينى "التطور العمرانى لعواصـــم مصـــر الإســـلامية" رســـالة دكتوراة، جامعة القاهرة، كلية الآثار ١٩٨٧م.
٢٨١- محمود محمد على الحويرى "أسوان فى العصور الوسطى" رسالة ماجســتير جامعة القاهرة. ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.
٢٨٢- مصطفى عبد الله شيحه "الزخارف الإسلامية فى عمارة الكنـــائس الأثريـــة بمصر القديمة وما بها من التحف والآثار"، رســـالة ماجســتير، كليـــة الآداب، جامعة القاهرة.
٢٨٣- نادية بدوى "الزينة الشخصية عند العبابدة" رسالة ماجستير، جامعة القـــاهرة غير منشورة، معهد الدراسات الأفريقية ١٩٨٥م.

ثامنا: المراجع الإفرنجية :

284- Actes du 11 Symposium international sur la Nubie (Fevrier 1-3,1971). Organisé par L. Institut d'Egypté. Edité Par Labib, Le Caire 1981.
285- Adams, W.y.,: Sudan Antiquites Service Excavations in Nubia, Fourth Season 1962-63.
286- Arkell, A.J.,: A history of the Sudan from the earliest times to 1821. London 1955.
287- Anawati., (C),: Factors and effect of Arabization and Islamization in Medieval Egypt and Syria, Wiesbaden, 1975.
288- Autefage,: Les Coptes, Lyon, 1885.
289- Bell. H.I.,: The Byzantine Servile State in Egypt, "Journal of Egyptian Archaeology, 1917, 4".
290 - Bloss, J.F.E.: The Story of Suakin, S.N.R. XIX, Part 1, 1936.
291- Book. A.E.R.,: Byzantine Imperialism in Egypt, "The American historical Review, .34, 1928".
292- Budge. E.A.W.,:

- The Egyptian Sudan, its History and Monuments, London 1907.
- A history of Ethiopia, Nubia and A byssinia, Vol. 1, London, 1928.

293- Budge, W.,: Text relating to saintmena of Egypt and Canons of Nicaea in a Nubian dielect with Facsimile, London, 1909.

294- Buttler,:
- The Arab Conquest of Egypt, London 1902.
- Buttler: Ancient Coptic Churches, Oxford, 1884.

295- Crawford, O.G.S.,: The Fung Kingdom of Sennar Glauceseter, 1951.

296- Creed. J.M.,: Egypt and The Christian Church, Oxford, 1941.

297- Encyclopaedia of Islam. Art "Masdjid", Vol. 3;
- Encyclopaedia of' Islam, history of the town of Fustat. Vol. I.

298- Fischel, H.,: Jews in the Economic and Political life of Mediveal Islam, London 1937,

299- Fowler,: Christian Egypt, London, 1901.

300- Godallah. F.F.,: The Egyptian Contribution to Nubian Christianity, SNR., XL, 1959.

301- Goitein, S.D.,:
- Mediterranean Society A the jewish Communities of the Arab World as Portroyed in the documents of the Cairo Geniza, 3 Vols University of California Press 1967-1978.
- "Jewish Society and Istitation Under Islam", In: Jewish Society through the Ages, adited by H.H. Ben Sasson and S. Ettinger. New York 1973.
- Studies in Islamic history and Institutions, Leyden 1968.
- The Geniza Sources in. D. Goitein, Jewish Education in Muslim Cauntpies, Terysalem 1962.
- "L'Etat actuel de la recherche sur les documents de la Geniza du Caire" Revue des Etudes Juives, Troisiéme série, 1959-1960.

- "The Cairo Geniza as a source for the history of Muslim Civilisation" in Studia Islamica 1955.

302- Griffith, F.L.I.,: Oxford Excavations in Nubia, LAAAXIII, 1926.

303- Grohmann (A).,: The Problem of Dating Early Qurans Der Islam., Berlin 1958. Grohmann: From the World of Arabic Papyri, Al. Maaref Press. Cairo 1952.

304- Hamilton. J.A. De. C.,: The Anglo-Egyptian Sudan from Within, London 1935.

305- Hardy.,: Christian Egypt, Churches and People, New York, 1952.

306- Hassanein Rabie.,: The Financial System of Egypt, Cairo.

307- Hurart.,: Histoire des Arabes, Paris, 1912.

308- Ibraham S. Halkine.,: The Arab Jewish Litrature "The Jews" their history, Culture and Religion, Vol. 1.

309- Jackson. F.,: The history of the christian Church from the earliest Times to the death of St Leo the great A.D. 461, London 1909.

310- Jakobielski, S.,:

- Some remarks on Faras incripitons, Nubische Kunst, 1970.
- Faras 111, A history of the Bishopric of pachoras on the Basis of Coptic inscriptions, Warsrawa, 1972.

311- Yusuf Fadl Hassan.,: The Arabs and the Sudan. University of Khartoum Press 1973.

312- Khoury (R.G),: Asad. B. Musa (132-212/750-827): Kitabaz - Zuhd. Nouvelle édition revue, Corrigée et Augmentée de tous les Certificats de lecture d'aprés les deux Copies de Berlinet de Damas. Avec une étude sur l'auteur. Wiesbaden. (Codices Arabici Antiqui II) 1976.

313- Kirwan. L.P.,:

- The international position of sudan in roman and medieval times. S.N.R. Vol. XL, 1959.
- Notes on the topography of the Christian, Nubian Kingdoms, J.E.A XXI, 1955.

314- Lammens. M.H.,: Un Gouverneur Omaiyad e d' Egypte; "Qorra Ibn Sarik d' aprés les papyrus Arabes", Bulletin de l' institut Egyptien, Le Caire 1908.

315- Lane Poole (Stanley).,: History of Egypt in the Middle Ages, London 1901.

316- MacMichael.,: A history of the Arabs in the Sudan, Vol. 1, Gambridge 1922.

317- El Mahadi Mandour.,: A. short history of the Sudan, Oxford University Press, London, 1965.

318- Mann, J.,:

- The jewis in Egypt and palestine under the Fatimid Caliphs. 2 Vols. Oxford 1920,1969.
- Texts and studies in jewish history and literature, New York 1972.

319- Marcel.,: Egypt depuis la Conquete des Arabes jusque à la domination, Francais, Paris.

320- Martin.,:

- Studia Arabica of Islamica, American University of Beirut, 1981.
- The Journal of Egyptian Archeology in 1975, "Vol. 61".

321- Monneret de Villard,: Storia Della Nubia, Cristiana Roma, 1938.

322- Maspero. G. Wiet.,: Matérieaux Pour Servir à la géographie de L'Egypte. Le Caire 1919.

323- J. Maspero.,: Organisation militaire de L'Egypt Byzantine, Paris 1912.

324- Milne.,: A history of Egypt under Roman Rule, London, 1924.

325- Moorsel, *Paul* Van, and *Others*.,: The Central Church of Abdallah Nirqi, Leiden, 1975.

326- Mostapha El-Emir.,: Fauilles de L'.Université d'Alexandrie à *Gebel Adda (1959)*.

327- Mustafa M. Musad.,: The downfall of the christian Nubian Kingdoms, SNR. Vol. 40, 1959.

328- Paul, A.,:
- The Hadareb, A study in Arab-Beja relationships, S.N.R. XL, 1959.
- A history of the Bija tribes of the Sudan the Cambridg University 1971.

329- Salamon. M. George.,: Un texte Arabe inédit pour Servir à L'histoire des chréstiens d'Egypte, Le Caire, 1906.

330- Save-Soderberg, T.,: Christian Nubia - The Excavations Carried out by the Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Nubische Kunst, 1970.

331- Stephenson. C.,: Mediaeval history Europe from the second to the sixteenth Century, New York, 1962.

332- Thompson. J. Johnson. E.,: An introduction to Medieval Europe 300- 1500, New York, 1965.

333- Trimingham, J.S.,: Islam in the Sudan., Oxford University, 1949.

334- Villard, Ugo Monneret De.; Storia della Nubia Cristiana Roma, 1938.

335- Vosiliev. A.A.: history of the Byzantine Empire 324. 1453, Modison and Milwaukee, 1964.

336- Weigall, A.,: A Report on the Antiquities of lower Nubia (the first Cataract to the Sudan frontier) and their Condition in 1906-7-Oxford.

337- Wiet (Gaston).,: Catalogue Géneral du Musée Arabe du Caire. Stéle Funéraires. Tomes I.V. Le Caire; Wiet (G): L'.Egypte Musulmone (Précis de L'histoire d' Egypte T 11) Le Caire 1932.

338- Yedida K. Stillman.,: The importance of the Cairo Geniza international Journal of the Middle East Studies, Cambridge University 1976.

339- Le Synaxaire Arabe Jacobte, Rédaction Copte, texte Arabe, Vol. 1-3 Paris.

ABBREVIA TIONS

Actes du 11 Symposium: Actes du 11 Symposium international sur la Nubie (Fevrier 1-3, 1971), Le Caire 1981.

ASN: The Archaeologioal survey of Nubia.

Budge, Ethiopia, Vol. I: Budge, E.A.W., A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, Vol. 1, London 1928.

Jakobielski, Bishopric: Jakobielski, S., A history of the Bishopric of Pachoras on the basis of Coptic inscriptions. Warszawa, 1972.

JARCE: Journal of the American Research Centre in Egypt, Cairo.

JEA: Journal of Egyptian Archaeology, Oxford. - Kush: Kush, Journal of the Sudan Antiquities service, Khartoum.

LAAA: Annals of Archaeology and Anthropology, Liverpool.

Nubischekunst: Kunst and Geschichte Nubiens in Christicher Ziet. Reoklinghausen - 1970.

SNR: Sudan Notes and Records, Khartoum.

الملاحـــق

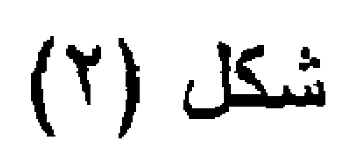
- الخرائط التوضيحية.
- الوثائق والأشكال التوضيحية.

عن حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام

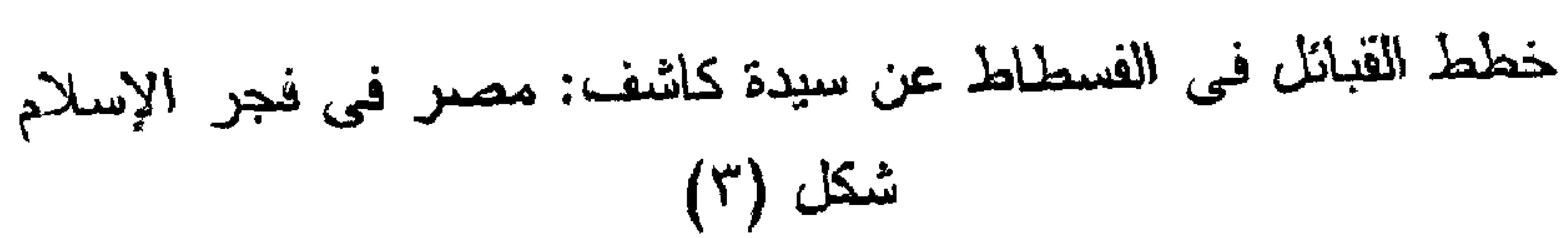
شكل (١)

حملة عبد الله بن سعد سنة ٣١هـ/٦٥٢م على بلاد النوبة

إعداد الباحث

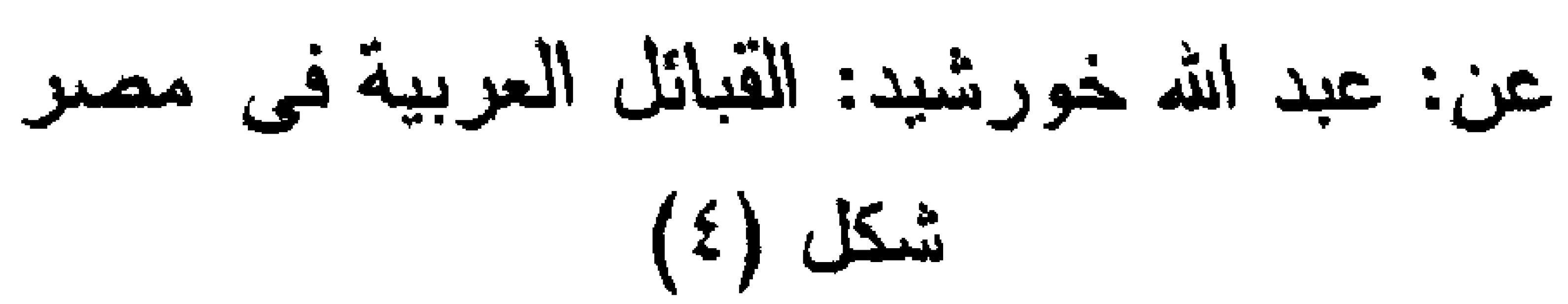


شكل (٢)



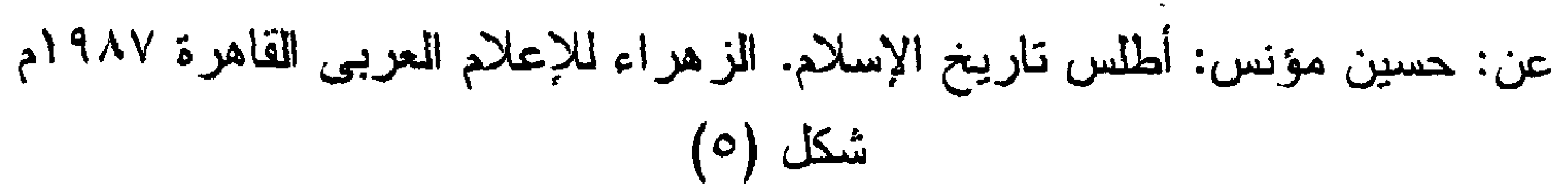
خطط القبائل فى الفسطاط عن سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام

شكل (٣)



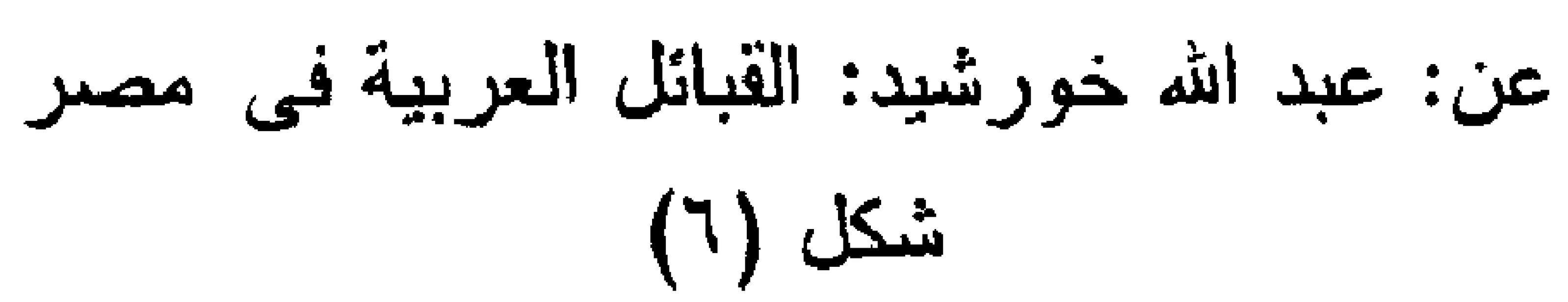
عن: عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر

شكل (٤)



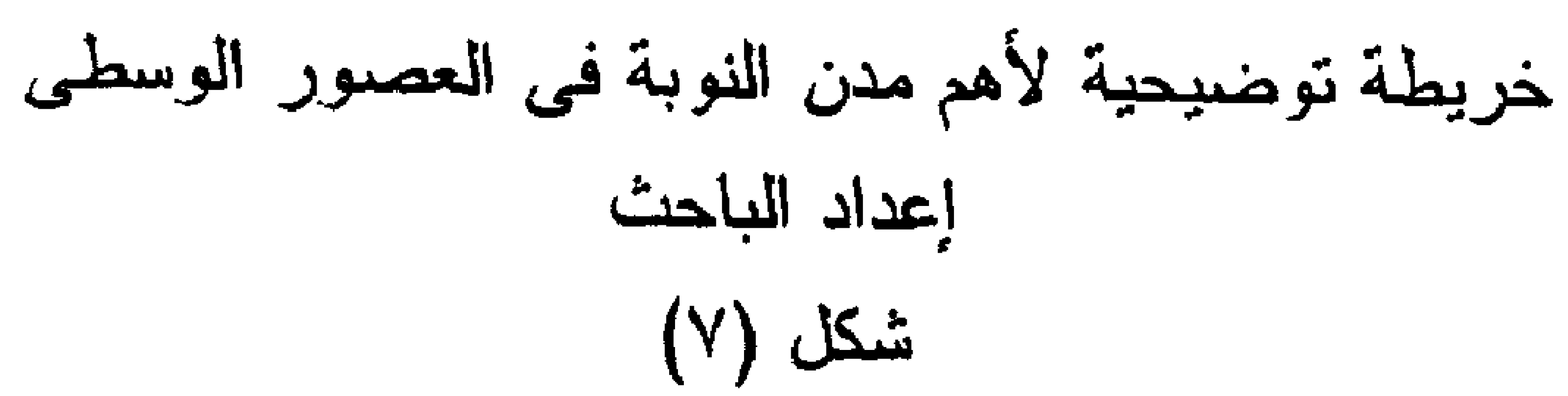
عن: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربى القاهرة ١٩٨٧م

شكل (٥)



عن: عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر

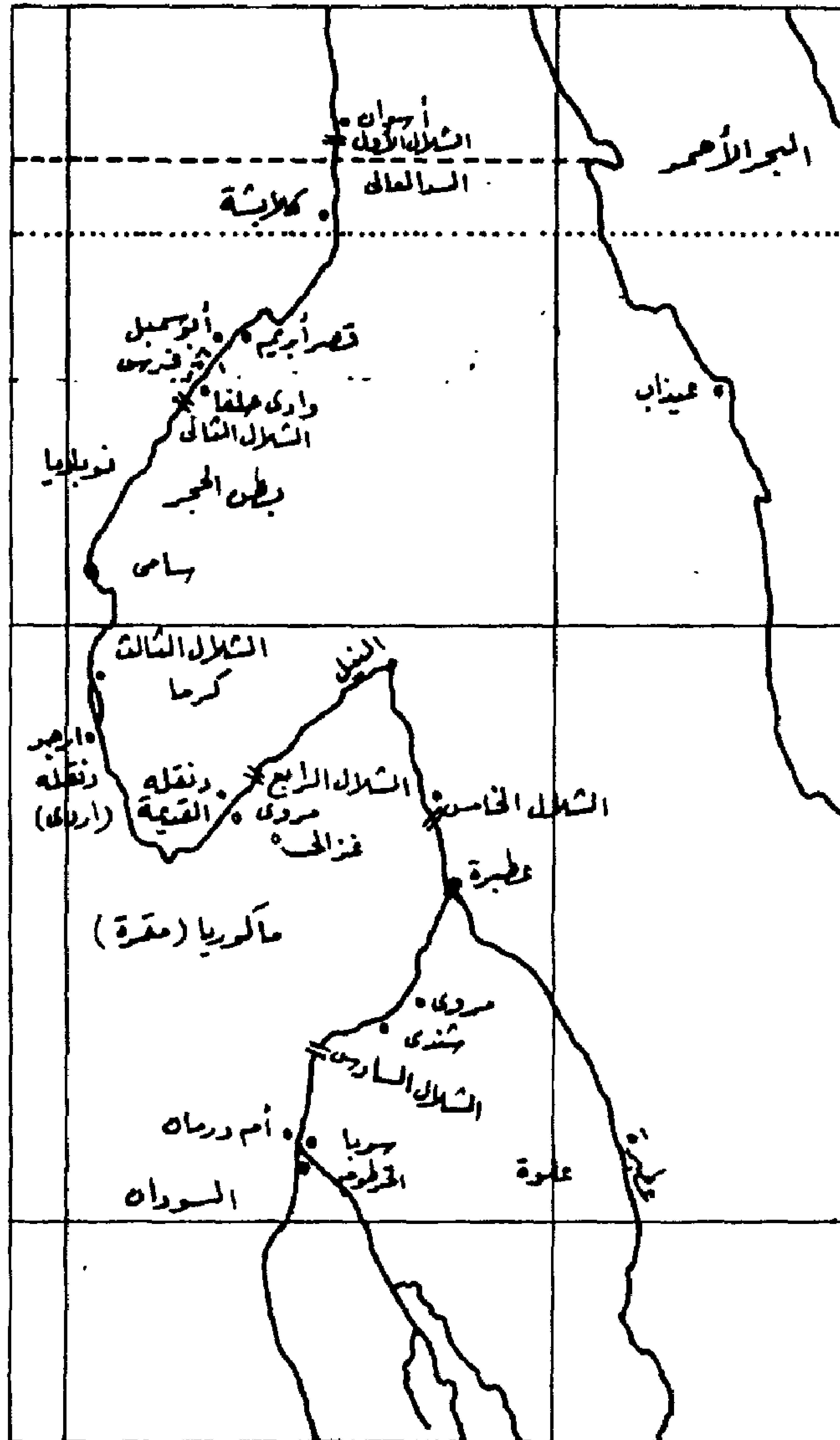
شكل (٦)



خريطة توضيحية لأهم مدن النوبة فى العصور الوسطى

إعداد الباحث

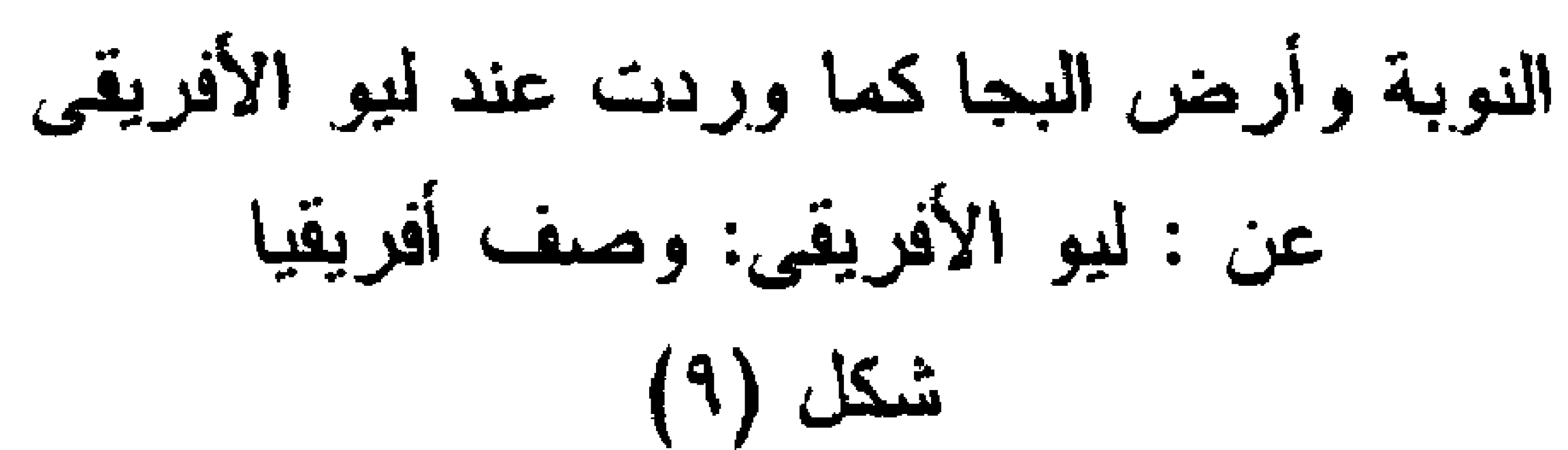
شكل (٧)



النيل من الشلال الأول إلى الشلال السادس

إعداد الباحث

شكل (٨)



النوبة وأرض البجا كما وردت عند ليو الأفريقى

عن : ليو الأفريقى: وصف أفريقيا

شكل (٩)



ممالك النوبة المسيحية وأهم مدنها

نقلا عن: ابن سليم الأسوانى: المواعظ والاعتبار، جـ١ من ص١٩٠-١٩٧؛

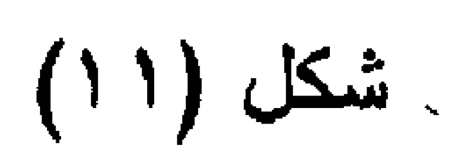
مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة، ص٧٣

شكل (١٠)

خريطة بلاد النوبة الوسطى

عن تقرير مصلحة الآثار المصرية عن آثار بلاد النوبة المهددة بالغرق لمناسبة

مشروع السد العالى



شكل (١١)

نص الرسالة
من الوالي العباسي في مصر
إلى ملك النوبة ومقرة بخصوص العلاقات
المصرية النوبية سنة ١٤١هـ/٧٥٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

من موسى بن كـ(ـعب[١] إلى) .... صاحب مقر(ة)ونـه سلم على أوليا الله وأهل طاعته...... واحمد إليهم الله لذى لا اله الا هو

أما بعد فقد عرفت الذى صولحتم عليه والذى جعلتم على أنفسكم من الوفا به فاحرزتم بذلك دماكم وأموالكم ان انتم وفيتم والله تبارك وتعالى يقول فى كتابه "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون"[٢] وقال "وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون" وقد وفينا لكم بالذى جعلنا لكم علينا من الكف عن دماكم وأموالكم وعرفت أمنكم فى بلادنا وسكونكم حيث أحببتم منها واختلاف تجاركم إلينا لا يصل إليهم منا ظلم ولا غشم ولا يعتدى على أحد ممن قبلنا منكم ولا يمتنع من حقه ولا يحال بين تجاركم وبين ما أرادوا امنين مطمأنين حيث سلكوا من بلادنا وفا بعهدنا وصدقا لقولنا وإيمانا بربنا وتصديقا لنبينا

وانتم فيما بيننا وبينكم على غير ذلك لا تودون إلينا ما عليكم من البقط الذى صولحتم عليه ولا تردون من ابق إليكم من ارقائنا ولا يا من منكم تجارنا ولا تعجلون تسريح رسلنا إلينا وأنت تعرف ان أهل الأديان كلها والملل الذين لا يعرفون ربا ولا يؤمنون ببعث ولا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا لا يهجمون تاجرا ولا يحبسون رسولا وأنت تظهر لأهل ملتك الإيمان بالذى خلق

---

١ – هو موسى بن كعب بن عيينة وهو من تميم تولى من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، فكان وصوله إلى مصر لا ربع عشرة بقيت من ربيع الآخرة سنة ١٤١هـ، فكانت ولايته على الصلاة والخراج ونزل بمدينة العسكر، وكانت ولايته سبعة أشهر وصرف في ذي القعدة.

٢ – سورة النحل: آية ٩١.

(٢٥) السموات والأرض وما بينها وتومن بعيسى بن مريم وبكتابــه وتظــهر العدل لهم والعمل بالحق وعملكم فيما بيننا وبينكم مخالف لما تظهر فقـد اتاكم تاجر من تجار أهل بلدنا يقال له سعد قد ذهب بأموال كثيرة زايغـا بها من أهلها فحبستموه قبلكم وحلتم بينه وبين من يطلبه بحق

(٣٠) ومنعتموه منه وبعث إليكم رجل من أهل أسوان يقال له محمد بن زيــد تاجرا له فى تجارته وطلب حقوق له فا حتبستموه وما كان معـــه مــن المال فكتب إلى عاملى على أسوان يذكر أنه كتب إلــى خليفتــك فيــه فكتب إليه خليفتك يسله أن يبعث إليه محمد

(٣٥) بن زيد صاحب ذلك التاجر ليستخلفه على ما كان معه من المال فبعثــه إليه فى رهط من المسلمين فضربه ضربا سيئا وكسر يده وحبسه ثلــث ليال عنده حتى ظن انه قاتله ثم خلى سبيله فدعاه سلم بن سليمن عــاملى على أسوان بالبينة على وصول تاجره اليكم وعلى ما صنع به خليفتك

(٤٠) فاتاه برهط من المسلمين عدول من سكان أسوان فشهدوا له بمــا ذكــر من امره وامر تاجره فكتب إلى بذلك كله وبعث إلى محمــد بــن زيــد صاحب ذلك التاجر فوافى قدوم بطره رسولك إلينا فجمعت بينهما ومــع بطره رهط من أهل ملتك فذكروا انهم

(٤٥) ظنوا حين أخذوه أنه ممن كان يغير عليهم من البجة فأمر غــوث بــن سليمن قاضى أهل مصر أن ينظر فى أمرهم ثم تحملتم على مثــل مــا تحل عليه الناس من الحق والعدل فقضى على بطـــره أن يــرد ذلــك التاجر وما كان معه من المال أن كان حيا وأن كان قد قتل فعليكم ديته

(٥٠) ألف دينر

وبعث إليكم سلم رسولا له منذ تسعة أشهر ورسولا منذ أربعـــة أشـــهر فحبستموهم مع عندكم من أرقا أهل الإسلام وأهل ذمتنا وما عليكم مـــن البقط فانه قد ذكر لى أن عليكم بقط سنين لم تؤدوه وما بعثتم بـــه مـــن البقط

(٥٥) بعثتم بما لا خير فيه بين أعور أو أعرج أو كبير ضعيـــف أو صبـــى صغير فانظر فيما كتبت إليك به وعجل البعثة إلينا بما بقى عليكم مـــن البقط للسنين التى قبلكم ولا تبعث بما لا خير فيه فلا نقبله وابعث

إلينا بتاجر محمد بن زيد ربما كان معه من المال إلا أن يكون قد قتـــل فتبعث بألف دينار دينه وبما كان معه من مال وابعث إلينا سعد التــاجر الذى قبلكم ولا توخر من ذلك شيئا أن كنتم تحبون أن نفى لكم بعـــهدنا ونكون على ما كنا عليه من الاستقامة لكم وعجل ذلك ولا توخره وأن أنت لم تعجل رايت فيما بينى وبينكم رأى أن شــاء الله فانى احببت أن اعذر إليكم واتخذ الحجة عليكم والسلام على أوليــاء الله وأهل طاعته وكتب ميمون يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة بقيت مـــن رجب سنة إحدى وأربعين ومايه.

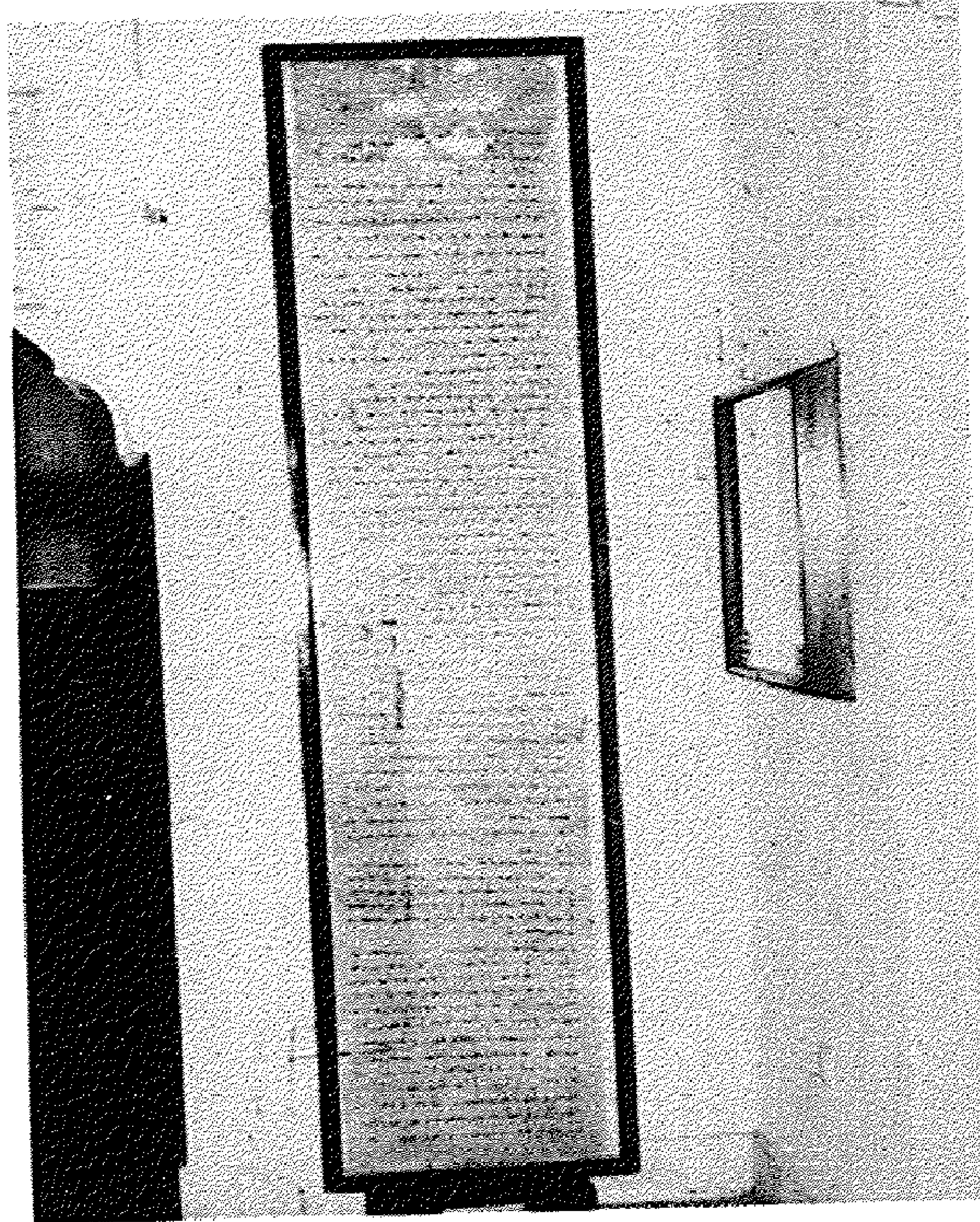
الوثائق والاشكال

ملحق رقم (١)

رسالة من والى مصر موسى بن كعب إلى ... صاحب مقرة ونوبة

- رسالة بردية، بالخط العربى الكوفى البسيط تبدأ بالبسملة، عبارة عـــن خطـــاب موجه من حاكم مصر إلى حاكم النوبة، - وتتكون البردية من ٦٩ سطرا بالعربية - يطلب إليه الوفاء بما التزمت به بلاده من مواثيق، وهى تشير فى نـــص هـــذه الرسالة إلى معاهدة البقط، فهى امتداد لها، وتعكس مـــدى العلاقـــة بـــين مـــصر الإسلامية والنوبة، إلى أوائل العصر العباسى.

وقد اكتشفت هذه البردية ضمن حفائر قصر أبريم ويرجع تاريخها إلى ســـنة ١٤١هـــ، وهى توضح مدى تمسك ولاة مصر بما تضمنه عهد عبد الله بن سعد من التزام النوبة بالوفاء بما ورد فيها.



وثيقة بردية منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٢٥٤٨٠

شكل رقم (١)

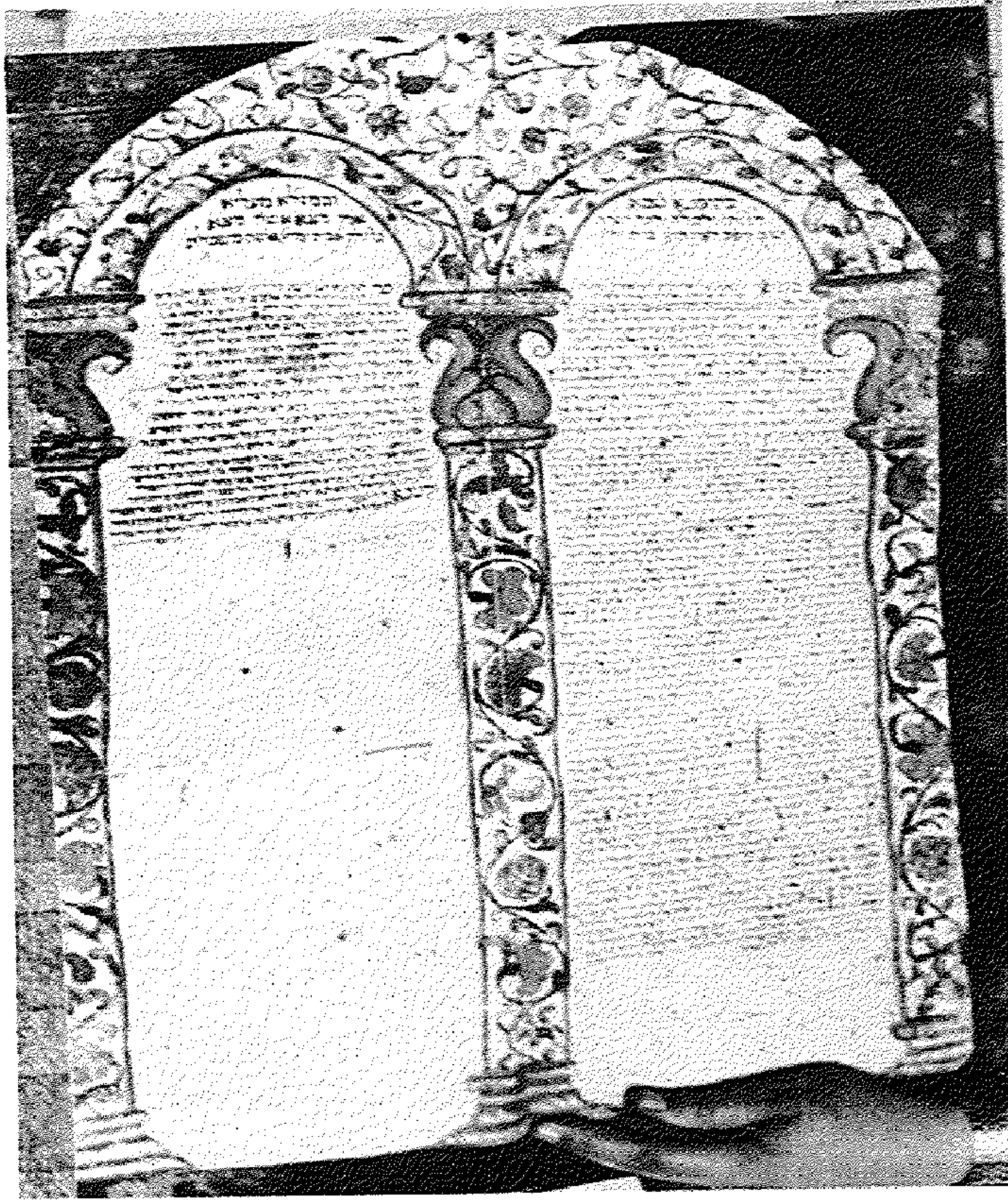
ملحق رقم (٢)
وثيقة عبرية "عقد زواج بين شاب وفتاة يهودية"

وثيقة عبرية مكتوبة بالمداد الأسود داخل شكل زخرفى، عبارة عن عقدين محاطين بالزخارف النباتية الملونة.

ومضمونها عبارة عن عقد زواج بين فتى يهودى يدعى بل بن هانتير، وفتاة يهودية تدعى استر ابنة أحد الحاخامات، وتشتمل الوثيقة على أدعيات وتمنيات بالحظ السعيد.

وهى مؤرخة بالتقويم اليهودى – الذى يبدأ من خلق العالم – يوم الجمعة الموافق ٣ من شهر سيفان ٥٤٦٠، والتاريخ الثانى الذى يبدأ من خراب بيت القدس – وهو سنة ١٦٣٢، كما يتضح من نصوص هذه الوثيقة التزام العريس بنفقات عروسه من قيمة المهر، وأن الزوجة بمقتضى هذا العقد صارت ملكا له بعد تحريره.

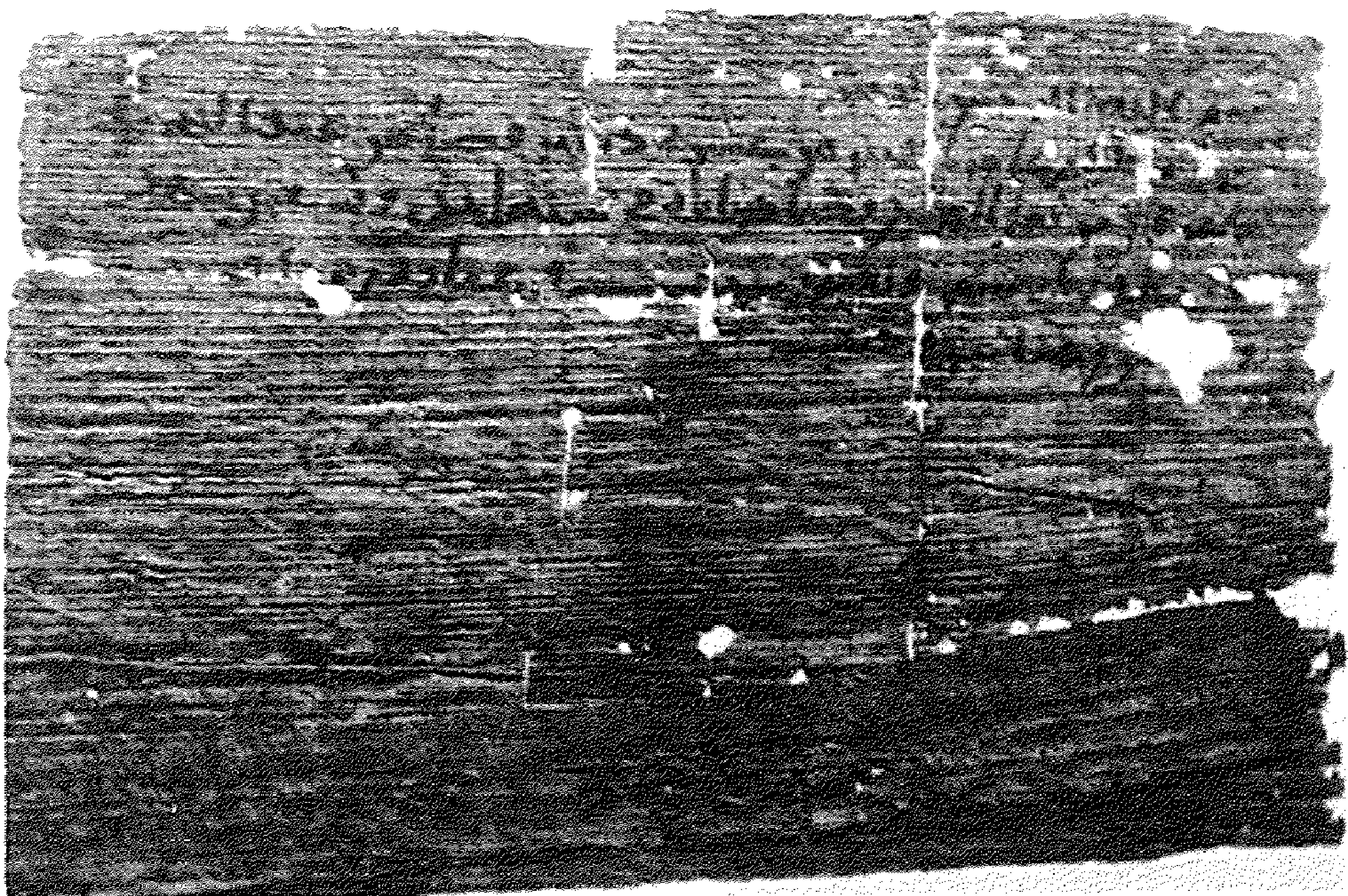
الألوان باهتة، وبسيطة، وهناك بعض ثقوب بالوثيقة.



وثيقة عبرية غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٢٦٥٣٩
شكل رقم (٢)

ملحق رقم (٣)
وثيقة بردية غير منشورة
عقد زواج، يبدأ بالبسملة

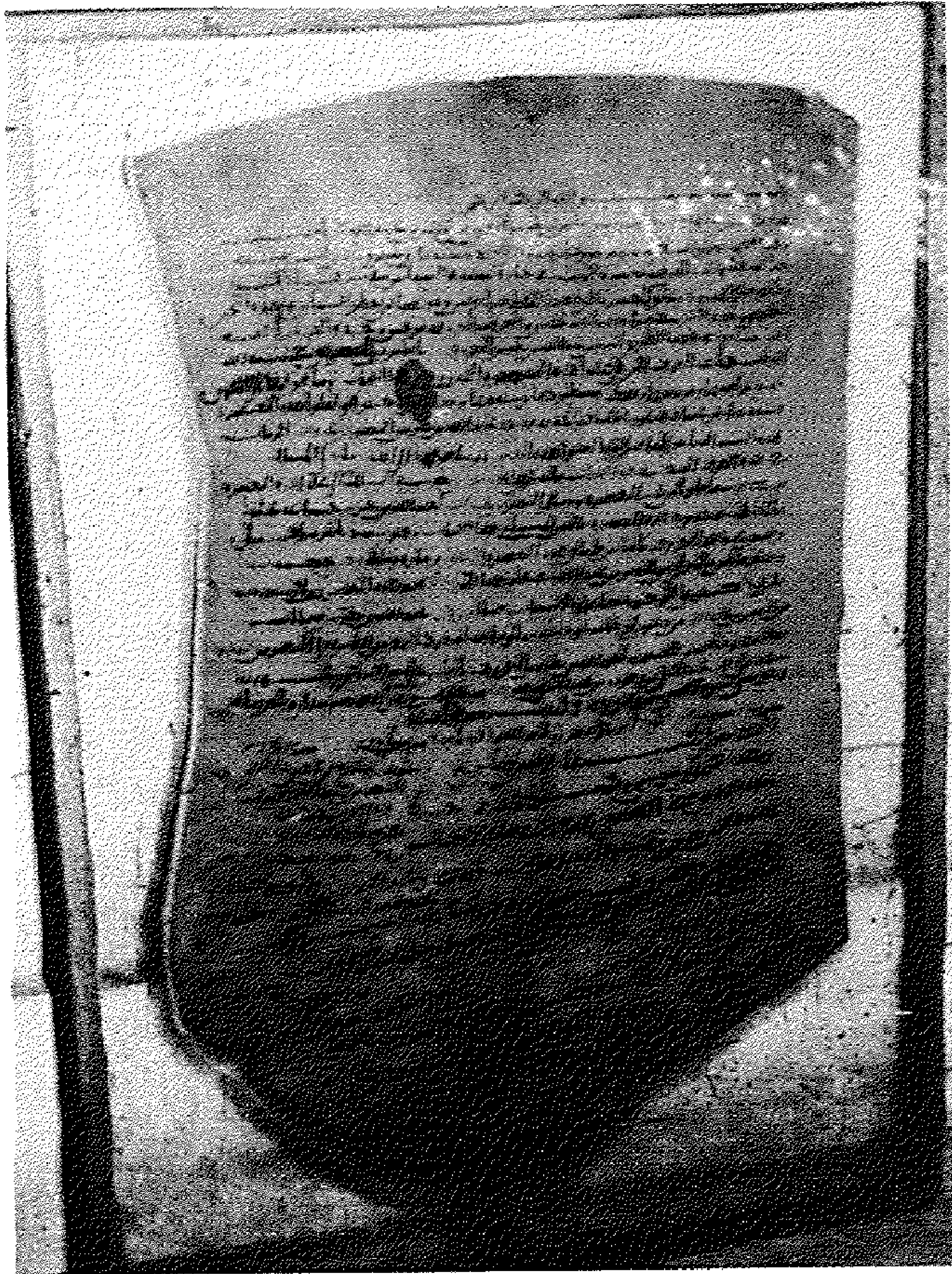
وأهمية هذه البردية، أنها تحوى عقد زواج إسلامى، مؤرخ من سنة ٩١هـــ، وهذا يعكس مدى حالة المجتمع المصرى عقب الفتح الإسلامى، من تسجيل عقــود الزواج منذ باكورة الفتح مباشرة.



وثيقة بردية غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٢٥٢٩٥
مجموعة د / هنرى أمين عوض
شكل رقم (٣)

ملحق رقم (٤)
وثيقة غير منشورة
عقد شراء يبدأ بالبسملة

يحتوى على ثلاثة وثلاثين سطرا مكتوبة بالمداد الأسود على جلد غزال، وهى باسم عبيد الله بن بطرس الأدفوى المشترى من النصر بن عبد الله الزيات، وتاريخ هذه الوثيقة يرجع إلى ذى القعدة سنة ٢٣٨هـ.

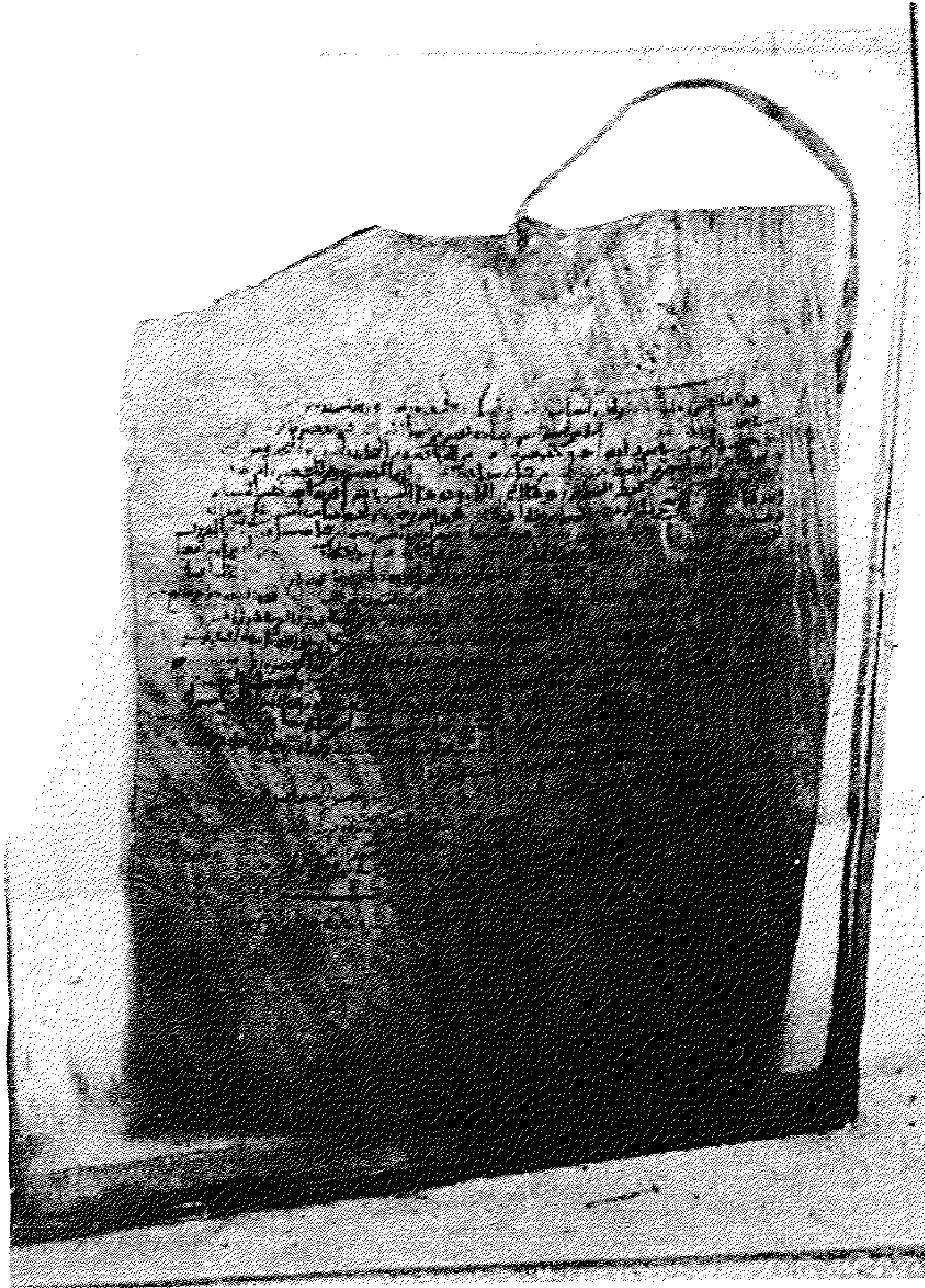


وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٩٨١٨
شكل رقم (٤)

ملحق رقم (٥)
وثيقة غير منشورة
عقد شراء يبدأ بالبسملة

عقد شراء يحتوى على ستة وعشرون سطرا، مكتوب بالمداد الأسود على جلد غزال، وهو باسم على بن عبد الله المشترى من ورثة بشنده بن عيــسى الــشماس ومؤرخ شهر ربيع الأول سنة ٢٤٦ هـــ.

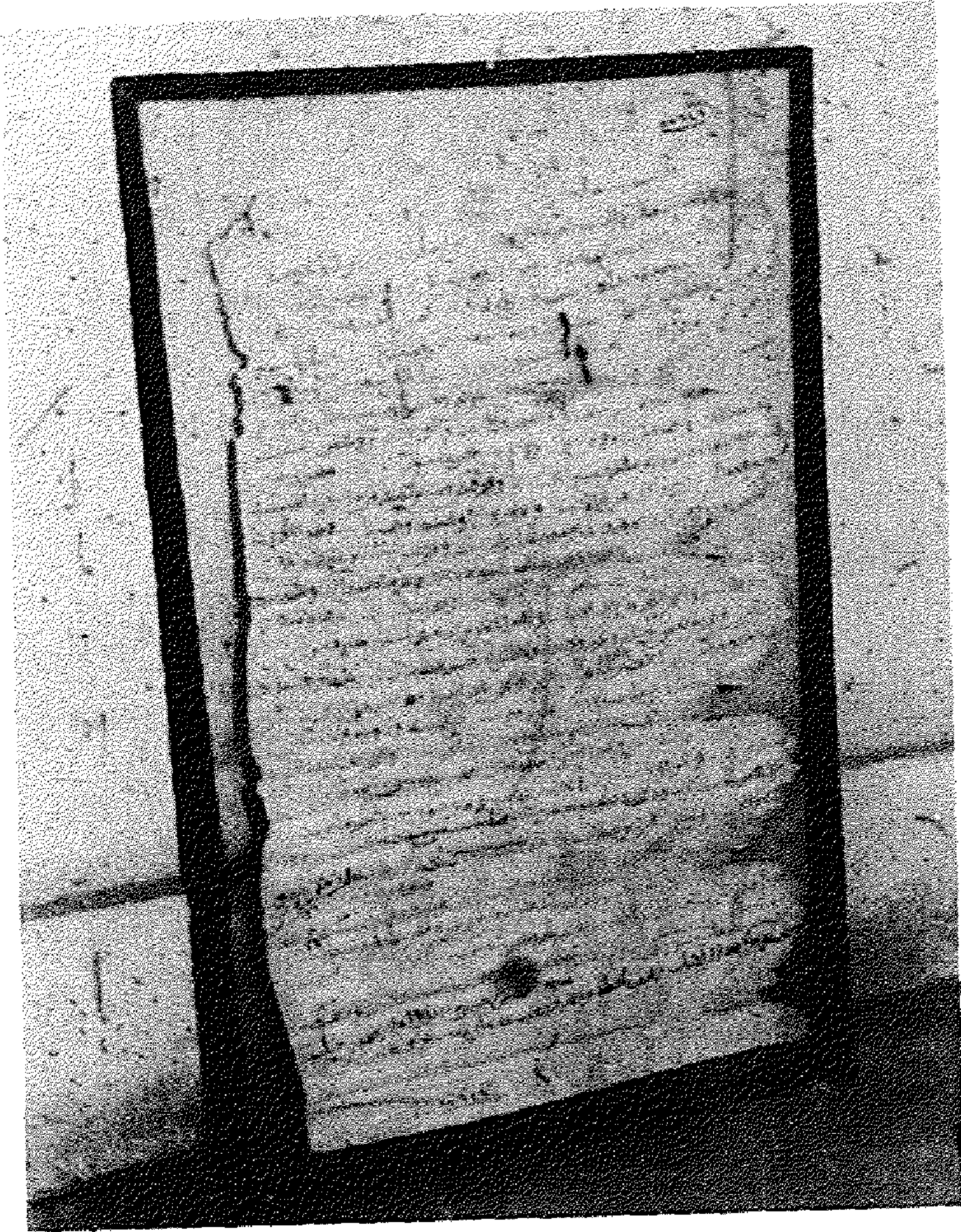
وكتابته ممحوه فى بعض الجهات، وبه عدة ثقوب.



وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٩٨١٧
شكل رقم (٥)

ملحق رقم (٦)
عقد بيع عقار يبدأ بالبسملة

هذه الوثيقة مكتوبة على صفحة من الرق، عبارة عن عقد بيع عقار، مـؤرخ فى شهر صفر ٢٦٨ هـ، وبجانبه الأيمن آثار طوبة.



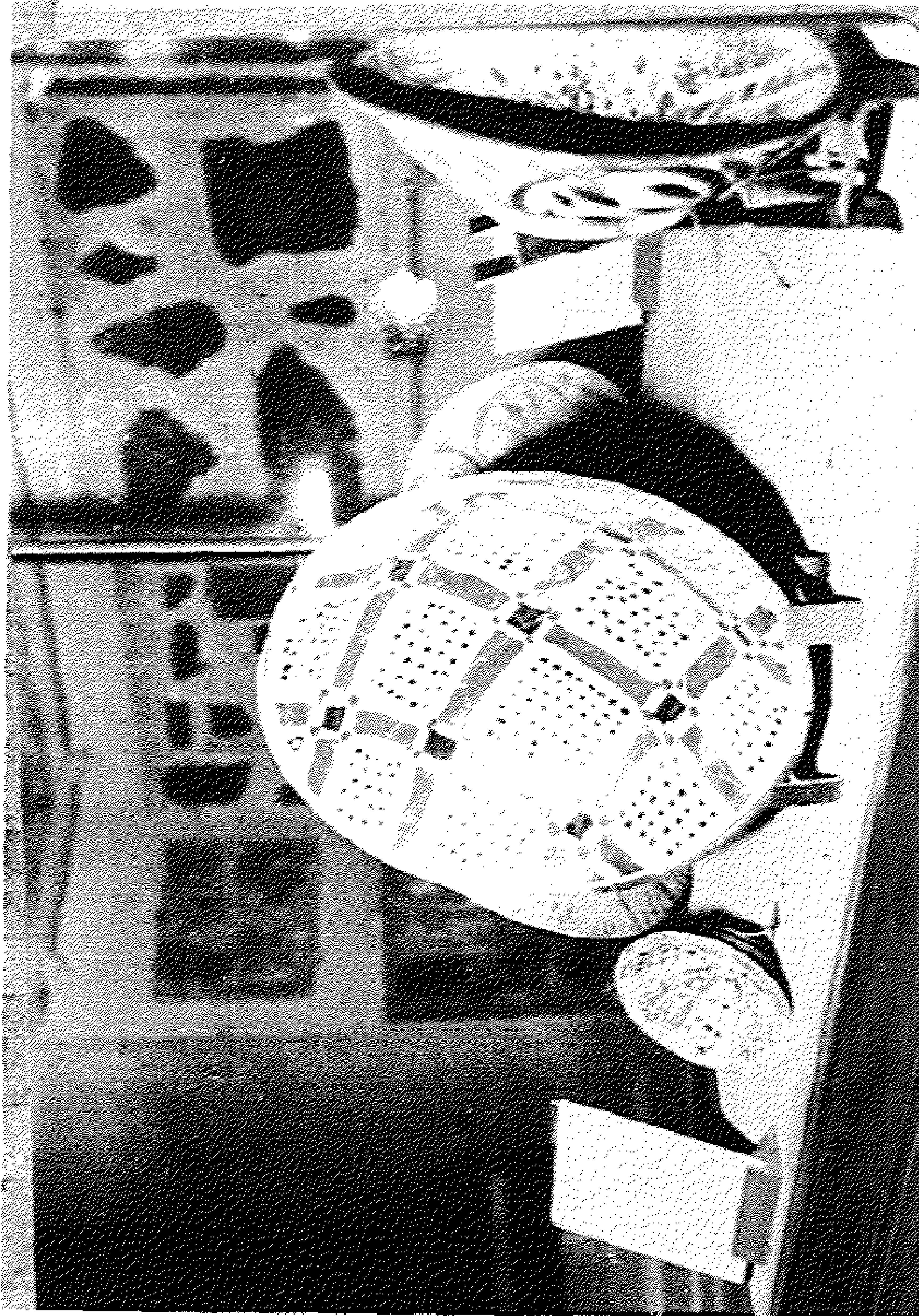
وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ١٥٦٤٩

شكل رقم (٦)

ملحق رقم (٧)
طبق من الخزف صنع فى مصر (القرن الثالث الهجرى)

القاعة (١٣) بمتحف الفن المصرى الإسلامى.

خصصت هذه القاعة لأنواع من الخزف المصرى فى عصوره المختلفة وهى كاملة الزخارف، ومن التحف الهامة صحن صغير من الخزف الأبيض ذو الطراز الطولونى.

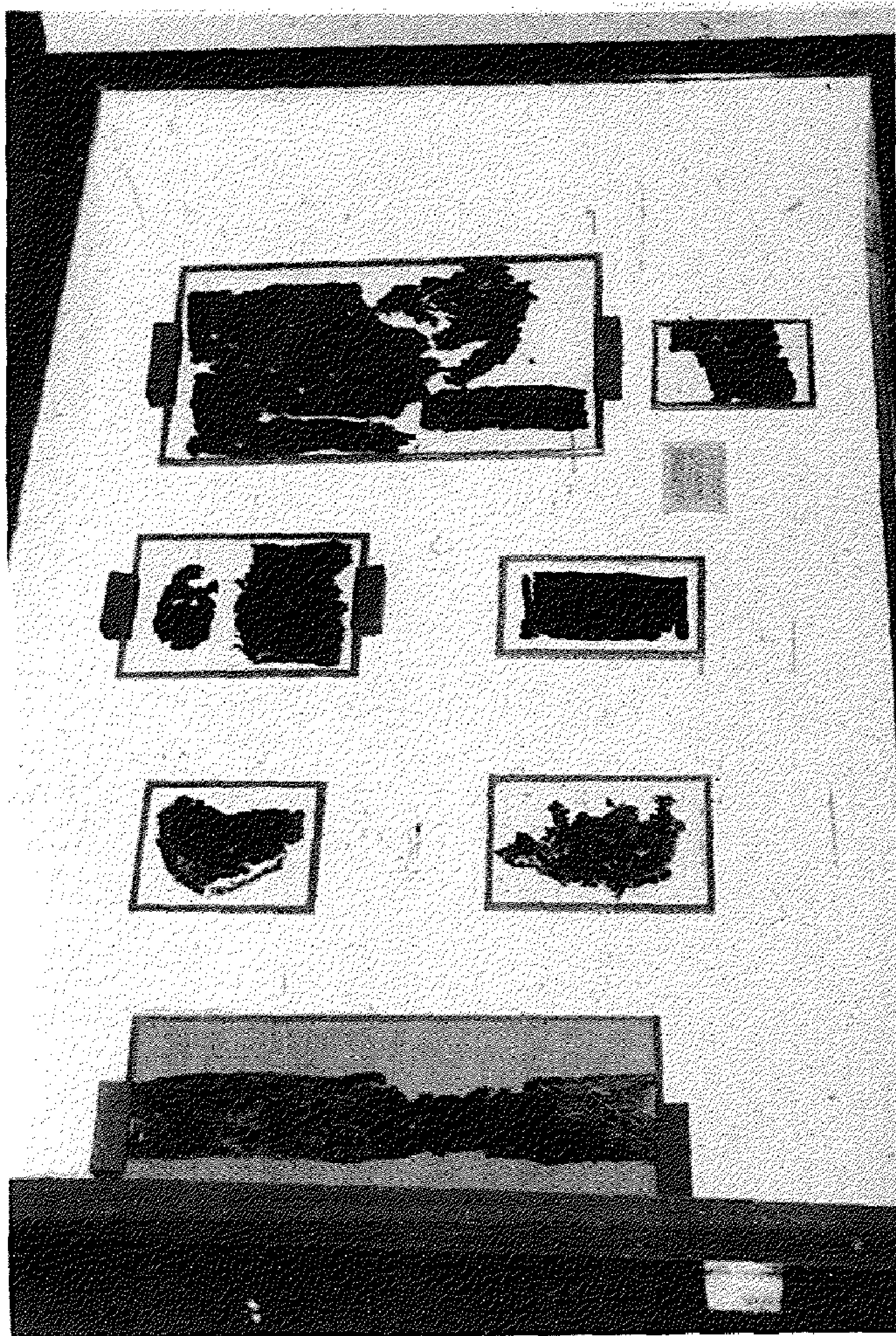


نموذج طبق من الخزف متحف الفن الإسلامى بالقاهرة القاعة (١٣)
شكل رقم (٧)

ملحق رقم (٨)
قطع من النسيج ترجع إلى العصر العباسى الأول

قطع من النسيج السميك من الصوف والكتان بزخارف منسوجة، تمثل رسوم حيوانية أو نباتية أو آدمية، تظهر فيها تأثيرات ساسانية.

وعلى هذه القطعة شريط من سطر كتابة كوفية تنص على أنها صنعت فى مدينة ألقيس سنة ١٦٨هـ (٧٨٤م).

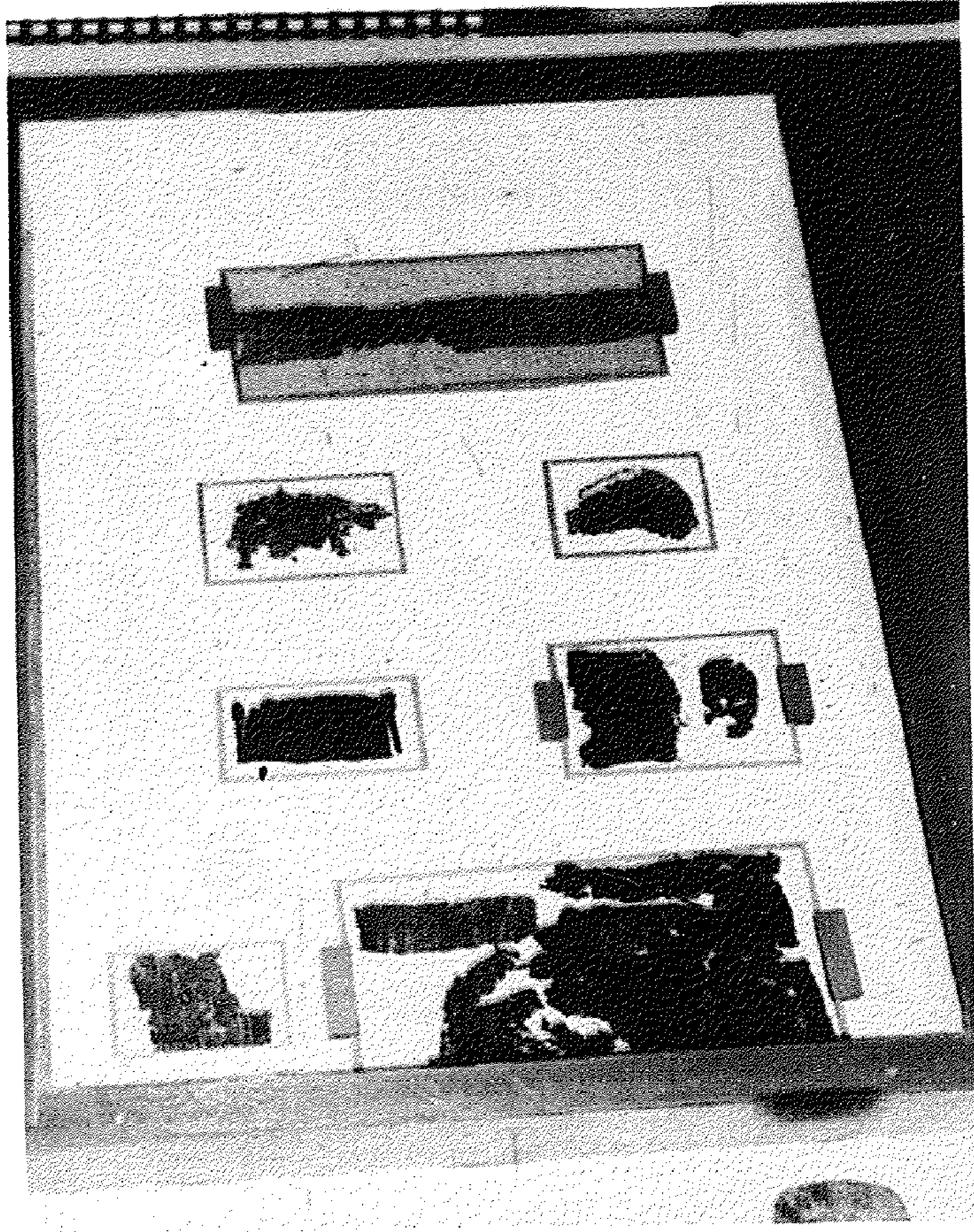


نماذج من قطع النسيج الإسلامى بمصر
عصر الولاة/ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ١٤٤٧٣
شكل رقم (٨)

ملحق رقم (٩)
قطع من النسيج ترجع إلى العصر العباسى الأول

قطع من النسيج السميك من الصوف والكتان بزخارف منسوجة، بها صـور حيوانية وأشكال زخرفية إسلامية.

عليه سطر كتابة كوفية تنص على أنها من عمل (طـراز الخاصـة بمدينـة البهنسا).



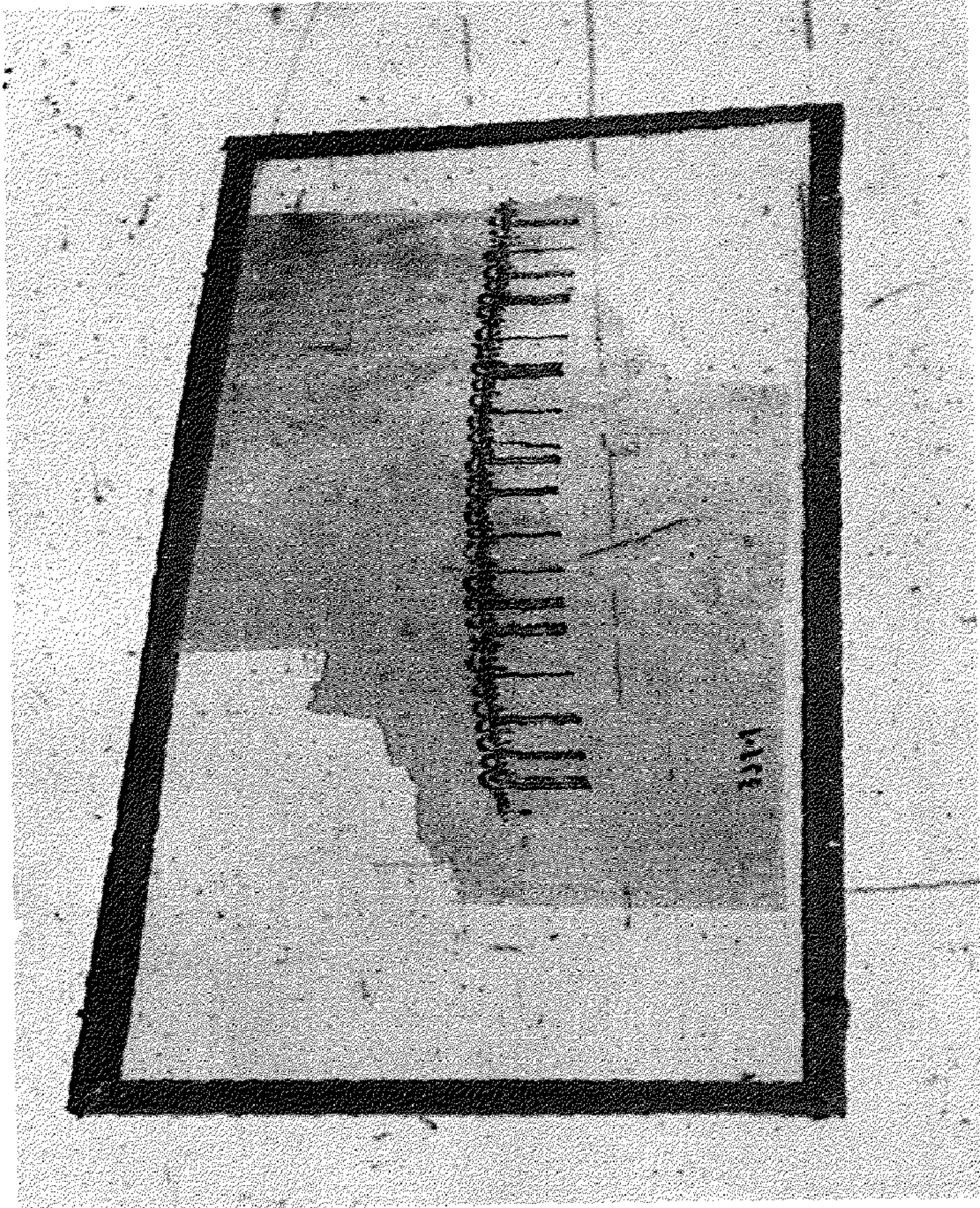
نسيج من الصوف والكتان متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٧١٢٠

شكل رقم (٩)

ملحق رقم (١٠)
نسيج العصر العباسي

نسيج من الكتان يرجع إلى العصر العباسى، يظهر عليها عبارات دعائية منفذة بالتطريز أو مكتوبة بالمداد.

مصر / ق ٣ هـ / ٩ م .



وثيقة غير منشورة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة رقم ٢٥٤٨٠

شكل رقم (١٠)

المحتويـــات

الباب الأول

التطور الاجتماعى فى مصر الإسلامية فى عصر الولاة

الفصل الأول

السياسة الإسلامية فى مصر

الفصل الثانى

هجرات القبائل العربية إلى مصر

الفصل الثالث

انتشار الإسلام، والثقافة العربية فى مصر

الفصل الرابع
تخطيط المدن الإسلامية

الفصل الخامس
العادات الاجتماعية الخاصة عند العرب

الفصل السادس
العادات الاجتماعية الخاصة لأهل الذمة

الفصل السابع
الحياة الاجتماعية العامة

الباب الثانى
أثر التطور الاجتماعى فى مصر
فى عصر الولاة فى سودان وادى النيل
الفصل الأول
التأثير المصرى فى سودان وادى النيل فى النواحى السياسية والعسكرية

الفصل الثانى

التأثير الثقافى والاجتماعى المصرى فى سودان وادى النيل

المؤلف فى سطور

دكتور/ كرم الصاوى باز

الميـــلاد : الإسكندرية محرم بك ١٩٥٥م.

المؤهلات : ليسانس الآداب قسم التاريخ جامعة عين شمس ١٩٧٨.

حاز على دبلوم الدراسات الأفريقية ١٩٨٥؛ ماجستير التاريخ الإسلامى والوسيط ١٩٨٨؛ دكتوراه التاريخ الإسلامى والوسيط معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٩١.

- عمل مساعد باحث بمركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس ١٩٨١-١٨٩٣ معيد التاريخ الإسلامى حتى أستاذ مساعد بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٨٣-٢٠٠٦م.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
- يشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه فى التاريخ الإسلامى والوسيط بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية.
- له العديد من الدراسات المنشورة منها:
- عمداصيون واصلاحاته الداخلية فى الحبشة (٧١٤-٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤م).

- الصراع بين العرش والعلماء فى سنغاى فى الفترة من (٨٦٩-٨٩٩هـ/١٤٦٤-١٤٩٣).
- ديوان الكانم والبرنو: نموذج مبكر للعروبة والإسلام فى تشاد.
- كلوة مركز الثقافة العربية الإسلامية فى شرق أفريقيا عصر أسرة المهدلى العربية (٦٧٦-٨٢٤/ ١٢٧٧-١٤١٢م).
- نظم التجارة الصحراوية بين المغرب الاقصى والسودان الغربى فى الفترة من (ق٨-١٠هـ/ ١٤-١٦م).
- الوكالات التجارية حلقة وصل بين مجتمعات البحر الأحمر ومدغشقر وجزر القمر (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م).
- شارك فى مؤتمرات دولية بجمهورية السودان – تشاد – تونس – الجماهيرية الليبية، وأعير للمملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٩٤-٢٠٠٠هـ.